النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي

خلال القرن السادس الهجري

تأليف

عز الدين أحمد موسى

دار الشروق

الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - برقيا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - برقيا: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

مكتبة الجامعة الاردنية
رقم التسلسل ٢٤٠٤٩٩
رقم التصنيف
التاريخ ٣٠ ابريل ١٩٨٣
٩٥٦٫٠٦٥
عز

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أستاذي عبد العزيز الدوري

أول من وجه خطاي في مجال البحث التاريخي
جزاء جهد
وعربونَ ود
وعنوانَ وفاء
ورمزَ بلاء

عز الدين موسى

مقدمة

كان المغرب الإسلامي قبل القرن السادس هـ / الثاني عشر م يتكون من دويلات متنافرة متناحرة، وقد بعثرت هذه الدويلات قوى المغاربة في صراع داخلي، وتركت المغرب عرضة للغزو الهلالي والزحف النصراني ممثلاً في حملات « الاستعادة » وجاءت محاولة « البعث » من منطقة كانت تعتبر منطقة من مناطق الأطراف هي البلاد الغربية، وقد تمثلت المحاولة في حركتين متتابعتين: المرابطية ثم الموحدية.

ولما كان الدارسون المحدثون المهتمون بهذه الفترت التاريخية قد ركزوا عنايتهم على دراسة الظاهرة السياسية، وأهملوا الجانب الاقتصادي ودوره في الأحداث السياسية أو أشاروا إليه إشارات عابرة، وجدت من المفيد بحث النشاط الاقتصادي ودوره في توجيه سياسة القرن السادس من ناحية، وتأثير تلك السياسة على النشاط الاقتصادي من ناحية أخرى، لا سيما في منتصف القرن السادس (وهو فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين)، هادفاً من ذلك إلى فهم أعمق للمدلول الاجتماعي للثورة الموحدية من جهة، ودرجة الاتصال الحضاري ــ أو الانفصال ــ بين فترتي المرابطين والموحدين من جهة ثانية. وهذا لا يعني أن الاقتصاد هو محرك ذلك التاريخ، ولكنه أحد العوامل الفاعلة فيه، ولا ينبغي إهمال دوره ولا التقليل من شأنه. ولهذا كله جاءت هذه الدراسة جامعة بين الوصف للنشاط الاقتصادي وتحليله وربطه بالمظاهر الحضارية الأخرى من سياسية واجتماعية وفكرية.

وتتكون هذه الدراسة من خمسة فصول وخاتمة سوى هذه المقدمة. وقد حرصت في هذه المقدمة على النظر في مصادر البحث والدراسات التي كتبت عنه، وصنفت المصادر

٢٤٠٤٩٩

في مجموعات حسب طبيعة كل مصدر. وبيّنت الطريقة التي استفدت بها من كل مجموعة، وتركت تحليل الروايات الى مواضعها من الفصول.

وفي الفصل الأول حددت الإطار الزمني للبحث، وأطلقت لفظ القرن السادس / الثاني عشر على الفترة الزمنية الممتدة بين موقعة الزلاقة (١٠٨٦/٤٧٩) وموقعة العقاب (١٢١٢/٦٠٩)، وبينت أن المغرب الذي ندرسه هو الذي كان يحكمه الموحدون. وتسهيلاً للبحث ميزت بين مناطق المغرب، ودرستها من خلال ثلاث بيئات جغرافية سياسية هي البلاد الإندلسية والشرقية والغربية. ولما كان مجال النشاط الاقتصادي هو استغلال الموارد الطبيعية، كان لا بد من النظر في طبيعة المغرب الجغرافية، وخلصت إلى أن المياه كانت مشكلة المغرب الكبرى، كما أن التضاريس قد شكّلت عقبة بالنسبة لانتقال السكان وحركة السلع.

ولارتباط النشاط الاقتصادي بحركة السكان وهجراتهم فقد خصصت الفصل الثاني لدراسة التركيب السكاني، فبينت مناطق سكني البربر والأندلسيين والعرب وأهل الذمة والعبيد والأغزاز، ومهن كل مجموعة، وأثر هجراتهم الى مناطق جديدة — إن كانت لهم هجرة — على الحياة الاقتصادية في المناطق التي منها هاجروا أو إليها نزحوا.

ودرست في الفصل الثالث الزراعة من خلال نظام الأراضي وسياسة دول مغرب القرن السادس والنظام الزراعي والحاصلات وما يتصل بالزراعة من رعي وتربية دواجن وصيد. وقد حرصت على بحث أثر سياسة الدولة في نظام الأراضي والضرائب وما ترتب على ذلك من تأثيرات على أوضاع الملاك والعاملين في الزراعة من وكلاء وزراع وعمال زراعيين. ووضحت التحول في مناطق الزراعة نتيجة لاضطراب الأمن أو نتيجة للاستقرار.

وكانت الصناعة مبحث الفصل الرابع وقد بينت منه كيف أثرت نظرة المجتمع الى العمل، وموقف دول مغرب القرن السادس، على أوضاع الصناعة في بيئات المغرب الثلاث، مع اهتمام بأوضاع أرباب العمل والعمال. ثم بينت مناطق الصناعات

الزراعية والمعدنية وغير المعدنية والتحولات التي جدت في القرن السادس على مناطق الإنتاج.

وفي الفصل الخامس بحثت في التجارة من خلال موقف دول مغرب القرن السادس ثم من خلال العاملين في التجارة كما درست الاسواق وطرق التعامل فيها والطرق التجارية التي كانت تستخدم والصادرات التي كانت ترسل والواردات التي كانت تجلب، مع توضيح التغييرات التي حدثت في كل منطقة.

وفي الخاتمة حاولت أن أربط بين تقدم البلاد الغربية الاقتصادي ودورها السياسي القيادي في المغرب في القرن السادس، وأن أعيد النظر في دور المرابطين الحضاري على أساس ما أسهموا به في تطوير اقتصاديات البلاد الغربية. ثم وقفت عند ثورة الموحدين وربطتها بالتباين الاجتماعي والاقتصادي بين طبقات المجتمع، كما بينت أن التصوف ظلّ يعبّر عن تذمر العامة خلال القرن السادس كله، لا سيما عندما تحول الموحدون من ثورة إلى دولة، وزادت حدة أثر التباين الاجتماعي والاقتصادي.

وكنت خلال البحث حريصاً على توضيح الآراء، معتمداً في ذلك على الخرائط وجداول الإحصاء. وإتماماً للفائدة ذيلت الرسالة بملاحق توضح أموراً كثيرة كنت قد أجملتها في متن البحث.

لئن حاولت هذه الدراسة استجلاء قضية الترابط بين الوضع الاجتماعي والاقتصادي من جهة وشئون الحياة الأخرى من سياسية وفكرية من جهة أخرى، فقد أوضحت خاتمة الدراسة أن هذا البحث أفضى الى تشعيب القضية وجوانبها والى تفريع أصولها. وتبين لي أنه لا بد من القيام ببحوث مفصلة في بعض قضايا الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لمغرب القرن السادس / الثاني عشر حتى نستطيع أن نفهم أحداث المغرب الإسلامي وقتذاك فهماً عميقاً. ومن هذه القضايا قضيتان جديرتان بالبحث؛ أولاهما: الجذور الاقتصادية والاجتماعية للتصوف ودوره السياسي؛ وثانيهما: العلاقة بين نظريات ابن خلدون وأوضاع المغرب الاجتماعية والاقتصادية في المغرب خلال القرن السادس / الثاني عشر.

وفي الختام أود أن أوضح أن أساس هذ الدراسة هو رسالة دكتوراه كنت قد قدمتها لدائرة التاريخ في الجامعة الاميركية في بيروت في أكتوبر ١٩٧٥. وكان المشرف على الرسالة هو أستاذي الكريم الدكتور نقولا زيادة. وقد تكونت اللجنة الفاحصة من الأساتذة الدكاترة قسطنطين زريق ومحمود الغول وحسين جعفري وكمال الصليبي وطريف الخالدي، وقد أفدت من ملاحظاتهم جميعاً في تحضير هذه الدراسة للنشر. فلهم جميعاً خالص شكري.

ويجدر بي أن أخص بالشكر أستاذي العزيز الدكتور إحسان عباس الذي رعى خطوات هذا البحث في جميع مراحله. وكان تشجيعه الأدبي والمادي أكبر عون لي على إنجاز هذه الدراسة في الصورة التي أقدمها هنا للقارئ الكريم. فمن مكتبته الخاصة بدأت وانتهيت، وعلى علاقاته الخاصة في استنبول والمغرب والجزائر وتونس كنت قد توكأت واعتمدت. فما جاء في هذا البحث من فضل فله يعود وما فيه من تقصير فإليّ ينسب.

ولا يفوتني هنا أن أنوه بفضل كثير من العلماء والمشايخ والأصدقاء الذين أسهموا في توجيهي وزودوني بآرائهم. وأخص بالذكر المرحوم السيد محمد بن تاويت الطنجي في استنبول، والأستاذ هويسي ميرندا في بلنسية، والأستاذ بوسك فيلا في غرناطة، والشيخ إبراهيم الكتاني والشيخ محمد المنوني والأستاذ محمد بن سودة والدكتور محمد بن شريفة والأستاذ عبد العزيز بن عبدالله والشيخ عبدالله كنون والصديق محمد مفتاح في المغرب. ولقد فتح لي الأستاذان محمد الفاسي وعبد الوهاب بن منصور قلبيهما وصرفا جزءاً من وقتهما وناقشا معي عدداً من جوانب الموضوع ومصادره وزوداني بآراء قيمة.

وكان لتشجيع زملائي الدكاترة مصطفى حياري وأسعد ذبيان وعدنان البخيت ويوسف خوري والأستاذ الدكتور عثمان سيد أحمد اسماعيل ومناقشتهم أكبر أثر في بلورة أفكاري.

وأود أن أشكر موظفي المكتبات التي منها جمعت معلوماتي لما تكبدوا من عناء ومشقة في تزويدي بمصادر معلوماتي. وأخص بالشكر موظفي مكتبة الجامعة الأميركية ومكتبة

جامعة القديس يوسف في بيروت، ومكتبة السليمانية ونور عثمانية وطوبقبوسراي في اسطنبول، والمكتبات الوطنية في باريس ومدريد والرباط والجزائر وتونس، والخزانة الملكية في الرباط، ومكتبة ابن يوسف في مراكش، ودار الكتب المصرية في القاهرة.

وأخيراً أشكر حكومة السودان على منحي بعثة الى الجامعة الأميركية أنجزت خلالها أغلب هذا العمل؛ ولعل فضل ذلك يعود لجهود أستاذي الكريم مندور المهدي.

ولدار الشروق أجزل الشكر على نشر هذه الدراسة التي ظلت حبيسة أدراجي مدة طويلة.

وأرجو أن ينال البحث في صورته المقدمة الآن رضى القارئ الكريم. فإن أصبت فلي أجران وإن أخطأت فحسبي أجر من اجتهد. وبالله التوفيق.

زاريا في أكتوبر ١٩٧٩

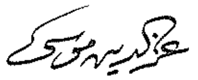

المصادر

يجد الدارس لتاريخ النشاط الاقتصادي في العصور الإسلامية نفسه مضطراً الى مراجعة المصادر على تنوع فنونها، سواء أكانت تاريخية أم جغرافية أم فقهية أم في تراجم الرجال على اختلاف أنواعها، وذلك لأن المعلومات عن النشاط الاقتصادي مبعثرة في ثنايا تلك المصادر، ولسنا نجد مصنفاً واحداً يجمع مثل تلك المعلومات. و يلقى الدارس صعوبات أكبر إذا كان كثير من المصادر الأولى للفترة التي يدرسها قد فُقِد، وليس أمامه، والحالة هذه، غير الرجوع الى المصادر المتأخرة بحثاً عما يُذكر فيها نقلاً عن تلك المصادر الضائعة. وهذا هو حال من يحاول بحث تاريخ النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي في القرن السادس/الثاني عشر. ومن المفيد الإلمام بالضائع من مصادر القرن السادس هذا، حتى تتضح قيمة ما وصل إلينا من مصادره، ونتبين قيمة المصادر المتأخرة التي أخذت عن المصادر المفقودة.

يلاحظ المرء أن الرسائل الرسمية المرابطية والموحدية التي وصلت إلينا قليلة جداً بالمقارنة مع ما عرف عن المرابطين والموحدين من اهتمام بالرسائل الرسمية، إذ كانوا يتخذونها وسيلة للدعاية السياسية، و يرسلون منها عدداً إلى الولايات في كل مناسبة، وكانت تلك الرسائل تحفظ في خزائن خاصة. وقد كان الموحدون بالذات يحرصون على تدوين دخل الدولة ونفقاتها في خرائط ترفع إلى الخليفة[1]، ولا نعرف شيئاً عن مصير تلك الخرائط.

لقد فقدت كتب كثيرة كان قد صنفها رجال في المغرب عاشوا في القرن السادس الثاني عشر، أو تأخرت وفيات بعضهم الى القرن السابع / الثالث عشر. ومن أمثلة ذلك:

(١) انظر **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** لعبد الواحد المراكشي، تحقيق العريان ورفيقه، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ١٩٤٩ ص ٢٥٦، **روض القرطاس** لابن أبي زرع الفاسي، باعتناء ك. ب. تورنبرغ، أوبسالة، ١٨٤٣-١٨٤٦، ص ٢٦، **العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل** لمحمد البلوي، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط، رقم ٧١٤٨، ص ١٧١.

(أ) ما كتب عن تاريخ المغرب الإسلامي عامة، مثل تاريخ للقاضي عياض (ت ١١٤٩/٥٤٤)[1] **والمسهب** للحجاري (توفي في منتصف القرن السادس)[2] **واختصار اقتباس الأنوار** لابن الخراط (ت ١١٨٥/٥٨١)[3] **والمغرب** لابن الوكيل[4] **والمقباس** لابن الوراق (عاش في القرن السادس)[5] **وتذكير العاقل وتنبيه الغافل** للبياسي (ت ١٢٥٥/٦٥٣)[6].

(ب) ما كتب عن تاريخ قبيلة في المغرب كله مثل كتاب **النبذ المحتاجة من تاريخ صنهاجة** لابن حمادة (ت ١٢٣١/٦٢٩)[7].

(ج) ما كتب عن دولتين متعاقبتين نظير **الأنوار الجلية** لابن الصيرفي (ت ١١٦١/٥٥٧)[8] **تاريخ أبي عبيد المراكشي وتاريخ ابن نخيل**[9].

(د) ما صنف عن الدولة واحدة مثل المجموع الذي ينقل عنه البيذق في تاريخ الموحدين[10] **وفضائل المهدي** لابن الراعي[11] **وتاريخ الموحدين** لأبي القاسم السهيلي (ت١١٨٧/٥٨٣)[12] **وتاريخ ابن سميرة** (ت ١٢٠٣/٦٠٠) عن الموحدين[13]

(١) **دليل مؤرخ المغرب الأقصى** لابن سودة، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٦٥، جـ ٢ ص ٢٧٢.
(٢) راجع عنه **المغرب في حلى المغرب** لابن سعيد المغربي، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٥، جـ ٢ ص ٣٥، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** للمقري التلمساني، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨، جـ ١ ص ١٢٧، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى** ٢: ٢٧٢.
(٣) **صلة السمط** لابن الشباط، تحقيق أحمد مختار العبادي، **صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد**، ١٩٦٥-١٩٦٦، مجلد ١٣، ص ١٨-١٩.
(٤) **مفاخر البربر** لمجهول، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم ١٠٢٠ د، ص ٢٤.
(٥) **روض القرطاس** ٢٧، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى** ١: ٥٩.
(٦) ابن سعيد، **المغرب** ٢: ٧٣، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٨-١٩٧٢، جـ ٧ ص ٧، ١١٨.
(٧) **دليل مؤرخ المغرب الأقصى** ١: ١٦٧.
(٨) **التكملة لكتاب الصلة** لابن الأبار القضاعي، تحقيق كوديرا، مدريد، ١٨٨٨-١٨٨٩، جـ ٢ ص ٧٢٣، **صلة الصلة: القسم الأخير** لابن الزبير، تحقيق ليفي بروفنسال، الرباط، المطبعة الاقتصادية، ١٩٣٧، ص ١٨٢.
(٩) **دليل مؤرخ المغرب الأقصى** ١: ١٣٥.
(١٠) **أخبار المهدي وابتداء دولة الموحدين** للبيذق، تحقيق ليفي بروفنسال، باريس، ١٩٢٨ ص ٨١ وما بعدها.
(١١) من مصادر **كتاب الأنساب** الذي طبع ضمن **أخبار المهدي**.
(١٢) **سلوة الأنفاس** للكتاني، فاس، ١٩١٦، جـ ١ ص ٢٢٦.
(١٣) **دليل مؤرخ المغرب الأقصى** ١: ١٣٦.

ونظم اللآلي للأشيري[1] وتاريخ يوسف بن عمر عن الموحدين[2].

(هـ) ما جمع عن أخبار مدينة واحدة مثل **مزية المرية** لابن خاتمة[3] **وتاريخ علماء البيرة** لأبي القاسم الملاحي[4] **والجمع والبيان في أخبار القيروان** لابن شداد أحد أحفاد تميم بن المعز بن باديس[5].

والى جانب هذا فقد ضاع عدد من الكتب الجغرافية والفقهية وكتب البرامج مثل **كتاب جغرافية ابن فاطمة** (عاش في القرن السادس)[6] ونوازل عبد الرحمن الشعبي (ت ٤٩٩/١١٠٦) ونوازل ابن الحاج القرطبي (ت ٥٢٩/١١٣٤)[7] و برامج ابن الملجوم وابن القطان وابن عيسى الصنهاجي وكتاب تراجم ابن فرتون[8]، وغيرها كثير[9].

وفضلاً عن هذا فقد فقدت بعض كتب المغاربة الذين كتبوا في المشرق أو المشارقة الذين دونّوا أحداث المغرب خلال القرن السادس، مثل **المغرب** لابن اليسع (ت ٥٧٥/١١٨٠)[10] ومختصر السلفي (ت ٥٧٦/١١٨٠)[11] وكتاب ابن يوسف القفطي (ت ٦٢٤/١٢٢٧) عن الموحدين[12] وتدو ينات ابن حمو يه (ت ٦٤٢/١٢٤٤) عن رحلته

(١) **التكملة** ١:٢٧٠.
(٢) **روض القرطاس** ١٣٧.
(٣) **الإحاطة في أخبار غرناطة** للسان الدين ابن الخطيب، تحقيق محمد عبدالله عنان، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٥، جـ ١ ص ٩١، **نفح الطيب** ١:١٦٣.
(٤) **التكملة** ٢:٦١٠.
(٥) **وفيات الأعيان** ٦:٢١١.
(٦) انظر عنه المنوني، **العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين**، تطوان، المطبعة المهدية، ١٩٥٠، ص ٨٩.
(٧) راجع عنهما **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا** لأبي الحسن النباهي، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، دار الكاتب المصري، ١٩٤٨، ص ١٠٢، ١٠٨.
(٨) انظر **صلة الصلة** ١٤٩، ٣٥٨، الكتاني، **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، فاس، المطبعة الجديدة، جـ ٢ ص ١١٤.
(٩) أنظر عنها المنوني، **العلوم والآداب** ٦٨.
(١٠) راجع عنه **المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي**، لابن الأبار القضاعي، تحقيق كوديرا ورفيقه، مجريط، روخس، ١٨٨٥، ص ٣٢٢-٣٢٣، **التكملة** ٢:٧٤٤، **وفيات الأعيان** ٥:٤٧، ٧:١١٢-١١٣، ابن سعيد، **المغرب** ٢:٨٨، **نفح الطيب** ١: ١٢٧.
(١١) **صلة السمط** ص ٢١.
(١٢) **دليل مؤرخ المغرب الأقصى** ١:١٣٦.

المغربية التي رجع منها سنة ٦٠٠/١٢٠٣[1].

ومن هنا كان على الدارس أن يحاول جمع المعلومات عن دراسته من جميع مظانها، سواء كانت معاصرة أم متأخرة، مطبوعة أم مخطوطة، لا سيا وأن كثيراً من مصنفات القرن السادس، أو ما كتب بُعَيْدَه، قد وصلت إلينا غير مكتملة، وستتضح هذه الحقيقة من تقويم هذه المصادر.

الرسائل الرسمية والوثائق:

في الاسكوريال مجموعان يشتملان على عدد من رسائل الفترتين المرابطية والموحدية[2]، وقد أعتنى بهما ليفي بروفنسال وحسين مؤنس ومحمود علي مكي. نشر ليفي بروفنسال سبعاً وثلاثين رسالة موحدية صادرة عن الخلفاء الموحدين، كلها من هذين المجموعين ما عدا الرسالة العاشرة، اذ هي منقولة نقلها عن صبح الأعشى[3]. وحقق مؤنس رسالتين موحديتين أخريين[4]، ثم صرف عنايته الى رسائل المرابطين وحقق اثنتين وعشرين رسالة من المجموعين ذاتهما[5]. وتابع مكي هذه الجهود وحقق إحدى وعشرين رسالة[6].

وقد نظرت في القليل الباقي من هذه الرسائل والوثائق، كما اطلعت في الخزانة الملكية بالرباط على مجموع جديد من إنشاء رجلٍ عمل للموحدين في آخر القرن

(١) **وفيات الاعيان** ٥:٧، **نفح الطيب** ٣:٩٩.
(٢) الأسكوريال رقم ٤٤٨، ٥٣٨.
(٣) نشرها ليفي بروفنسال بعنوان **رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية**، الرباط، المطبعة الاقتصادية، ١٩٤١. وانظر عنها مقدمة ليفي بروفنسال، خاصة ص ب.
(٤) حسين مؤنس، « عقد بيعة بولاية العهد لأبي عبدالله محمد المعروف بالخليفة الناصر الموحدي »، **مجلة كلية الآداب**، جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٠، المجلد الأول، العدد الثاني، ١٤٧-١٧٣.
(٥) حسين مؤنس، « الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين » **مجلة كلية الآداب**، جامعة فؤاد الأول، ١١:٢:٩١-١٤٤، و« سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس »، **صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية**، مدريد، ١٩٥٤، م ٢ العدد ١-٢ ص ٥٥-٨٤ و« نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين »، **مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية**، مدريد، ١٩٥٥، المجلد الأول، العدد الأول ص ١٧.
(٦) محمود علي مكي، « وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين »، **صحيفة معهد الدراسات الاسلامية**، مدريد ١٩٥٩-١٩٦٠، المجلدان السابع والثامن، ص ١٠٩-١٩٨.

السادس وأوائل القرن السابع[١]. وقد كانت الرسائل المرابطية كلها عن الأندلس، أما الرسائل الموحدية فقد كانت شاملة لبيئات المغرب الثلاث. ورسائل الموحدين يغلب عليها الطابع الإعلامي التوجيهي، ولكن رسائل مخطوط الخزانة الملكية تشارك رسائله رسائل المرابطين في الاهتمام بالمنحى الإداري والتنظيمي. وقد وجدت في هذه الرسائل كلها إشارات لها بعض الفائدة في ملكية الأراضي والضرائب وطريقة جبايتها والإدارة المالية والتركيب السكاني ونظرة أهل البيئتين الأندلسية والمغربية بعضهم الى بعض.

ويمكن أن يلحق بهذا اللون من الرسائل ما كتبه ابن تومرت من رسائل شرحاً لأفكاره ونقداً للمجتمع المرابطي ونظامه السياسي ووضعه الضرائبي، خاصة رسالة « أعز ما يطلب » التي نشرها غولد تسهير مع رسائل ابن تومرت الأخرى ضمن تعاليق ابن تومرت[٢].

وهناك نوع ثالث من الرسائل يتصل بالتجارة الخارجية. وقد نشر أماري الرسائل المتبادلة بين تجار البلاد الشرقية وأهل بيشة والرسائل والمعاهدات التجارية المتبادلة بين دولتي صنهاجة الشرق والموحدين من جهة، ودولة صقلية والجمهوريات الإيطالية من جهة أخرى، مع مقدمة وترجمة إيطالية لها. و يرجع تاريخ أول وثيقة أوردها أماري الي سنة ١١٥٠/٥٥٢. وتمتد مادة مجموعته هذه لتشمل فترة ما بعد الموحدين[٣].

ونشر ماس لاتري ترجمة فرنسية مع مقدمة للاتفاقيات التجارية بين دول المغرب في القرن السادس والدول البحرية الأوربية[٤].

ولقد كانت مجموعتا أماري وماس لاتري خير معين في توضيح دور تجار الدول البحرية الأوربية في التجارة المغربية ومعرفة الضرائب المقررة عليهم والامتيازات التي أعطيت لهم وطريقة التعامل معهم والسلع التي كانوا يتاجرون فيها.

---

(١) الخزانة الملكية بالرباط، رقم ٤٧٥٢. والإشارة عن كاتبها في ص ٧.

(٢) **تعاليق ابن تومرت**، تحقيق غولد تسهير، الجزائر، ١٩٠٣.

(٣) Amari, M., **I Diplomi Arabi del Archivio Fiorentio**, V.I, Firenze, Le Monnier, 1863.

(٤) Mas-Laterie, L.; **Traité de paix et de commerce et documents. Divers concernant les relations des Chrétiens avec les arabes de l'Afrique Septentrionale au moyen-age**, Paris, 1965.

كتب التاريخ:

يصور مصدران من كتب التاريخ الخراب الاقتصادي في الأندلس في ظل ملوك الطوائف بسبب اضطراب الأمن والضرائب الباهظة. والكتابان هما **التبيان** للأمير عبدالله بن زيري (كان حياً في سنة ١٠٩٠/٤٨٣[١]، وروايته رواية مشارك في الأحداث إذ كان آخر ملوك بني زيري في غرناطة وقد خلعه المرابطون)، **والذخيرة** لابن بسام الشنتريني (ت ١١٤٧/٥٤٢)[٢]، وروايته مأخوذة عن مصادر مفقودة بخاصة الجزء المفقود من **المقتبس** لابن حيان.

وتمثل الكتب التاريخية التي صنفت في القرن السادس أو صنفها رجال في القرن السابع ولكنهم عاشوا طرفاً من حياتهم في القرن السادس ثلاث روايات مختلفة:

أولاً: رواية المغاربة الذين كانوا قد صنفوا كتبهم في المغرب في ظل الموحدين. ومن هذا النوع **أخبار المهدي** للبيذق (توفي في منتصف القرن السادس) **والمنّ بالامامة** لابن صاحب الصلاة (ت ١١٩٨/٥٩٤)[٣] **والاكتفاء** لابن الكردبوس (توفي آخر القرن السادس)[٤] **ونظم الجمان** لابن القطان[٥] (توفي في منتصف القرن السابع). ومع أن البيذق مؤلف **أخبار المهدي** صحب ابن تومرت وشارك في أحداث الثورة والدولة، إلا أن أخباره قليلة مقتضبة وكأنها مذكرات دوّنت لتسعف الذاكرة، ولذ فإن كتابه يخيّب أمل من يدرس النشاط الاقتصادي. أما كتاب **المن بالامامة** فإنه على نقيض كتاب **أخبار المهدي**، إذ استفاد مؤلفه ابن صاحب الصلاة من عمله الرسمي في الدولة الموحدية، وذكر معلومات كثيرة عن الزراعة والمعمار والضرائب والرواتب والإدارة المالية والأسعار، معتمداً في ذلك كله على مشاهداته وروايات المشاركين في

---

(١) **التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة**، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٥.

(٢) **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، القسمان الأول والرابع، القاهرة، لجنة التأليف والنشر، ١٩٣٩-١٩٤٥، القسمان الثاني والثالث، مخطوط بغداد (مصورة خاصة بمكتبة إحسان عباس).

(٣) **المنّ بالامامة**، السفر الثاني، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت، دار الأندلس، ١٩٦٤.

(٤) **الاكتفاء فى أخبار الخلفاء: الجزء المتعلق بالأندلس، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد**، ١٩٦٥-١٩٦٦، المجلد ١٣ ص ٨-١٥، ٤١-١٢٦.

(٥) **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، تحقيق محمود علي مكي، تطوان، المطبعة المهدية، دون تاريخ.

الأحداث بالإضافة الى الرسائل والوثائق الرسمية التي أورد منها قدراً كبيراً؛ ولكن **المن بالامامة** لم يصل إلينا كاملاً ولا يعرف منه حتى الآن غير سفر من الجزء الثاني وفيه أخبار سنة ١١٥٩/٥٥٤ الى سنة ١١٧٤/٥٦٩. أما الجزء الموجود من **الاكتفاء** لابن الكردبوس فلا يذكر غير الأحداث الأندلسية الى أيام المرابطين، وقد أفادنا كثيراً في معرفة أثر غارات نصارى أسبانيا على انحسار أراضي الزراعة في البلاد الأندلسية.

ويهتم ابن القطان في كتابه **نظم الجمان** بالمظاهر الاقتصادية اهتماماً مماثلاً لاهتمام ابن صاحب الصلاة، وهو يعتمد في ذلك على ابن صاحب الصلاة نفسه وعلى ابن الراعي واليسع وابن الوراق. والراجح أن ابن القطان كان مطلعاً على رسائل الموحدين الرسمية، وقد أورد شيئاً منها، خاصة « رسالة العدل » التي بعثها عبد المؤمن في سنة ١١٤٧/٥٤٣ إلى جميع الولايات مبيناً سياسته ومعلناً تحول الثورة إلى دولة. وقد كانت هذه الرسالة هي مرتكزنا في بحث نظام ملكية الأراضي والضرائب عند الموحدين وتشجيعهم للزراع والصناع والتجار، وتأكيد الموحدين على حفظ الأمن في ربوع دولتهم. ولكن الموجود الآن من نظم الجمان ليس إلا قطعة من الجزء السادس تغطي الأخبار المغربية من سنة ١١٠٦/٥٠٠ إلى سنة ١١٣٩/٥٣٣، وهي فترة الثورة الموحدية. ويلاحظ المرء أن ابن القطان لم يغمط المرابطين حقهم، إذ ذكر مشروعاتهم العمرانية دون انتقاص.

ثانياً: رواية المغاربة الذين صنفوا كتبهم في المشرق، ويمثلها كتاب **المعجب** لعبد الواحد المراكشي، وقد صنفه في سنة ١٢٢٤/٦٢١. ويبدو أن ابتعاد المراكشي عن المغرب وفّر له جواً أرحب لنقد رواياته المتصلة بالموحدين[١]، ولكنه أثّر أيضاً في دقة أخباره، وذلك لأنه كتب من ذاكرته وهو بعيد عن مصدر مروياته، وجاءت بعض رواياته مرتبكة ومختلفة عن المصادر المعاصرة الأخرى[٢]. بيد أن اعتماد المراكشي على مشاهداته الشخصية وما أخبره به المشتغلون في الإدارة المالية[٣] يسّر له تدوين معلومات هامة عن الخراج والرواتب، كما ذكر أخباراً هامة عن الطرق التجارية والمعادن في المغرب في العصر الموحدي.

(١) انظر مثلاً **المعجب** ١٧٨، ١٨٥، ١٨٨.
(٢) قارن بين **المعجب** ٢٣٦، ٢٤٥، **والمن بالامامة** ٧٩، ٨٠.
(٣) مثاله في **المعجب** ١٩١، ٢٥٦، ٢٨٧.

ثالثاً: رواية المشارقة. قلما كان المشارقة في ذلك الوقت يهتمون بتدوين أخبار المغرب، ولكن أبا الحسن ابن الأثير في كامله[١] أولى أخبار المغرب عناية خاصة، لا سيما أخبار البلاد الشرقية في أيام صنهاجة الشرق، وهو في هذا لا يتميز عن المشارقة فحسب، وإنما يتميز أيضاً عن المغاربة من معاصريه. وكثير من معلوماتنا التاريخية عن البلاد الشرقية قد جاءت عن ابن الأثير.

أما الكتب التاريخية المتأخرة فقد أفدنا منها فائدة كبيرة، وأهمها خمسة مصادر:

أولاً: **البيان المغرب** لابن عذاري المراكشي (توفي آخر القرن السابع)، وقد ذكر فيه أخبار المغرب من الفتح الإسلامي الى سنة ١٢٦٩/٦٦٧[٢]. وقد اعتمد ابن عذاري كثيراً على الروايات المعاصرة للأحداث، وأكثر من النقل عن ابن صاحب الصلاة ويوسف بن عمر، وأورد عدداً من الرسائل الرسمية لا سيما الموحدية منها، واهتم بمظاهر النشاط الاقتصادي اهتماماً مماثلاً لاهتمام ابن صاحب الصلاة وابن القطان.

ثانياً: **روض القرطاس** لابن أبي زرع الفاسي (ت ١٣٢٥/٧٢٦)[٣]. كان لابن أبي زرع شغف بالمظاهر الاقتصادية في المغرب خاصة. فهو يذكر المعمار المرابطي والموحدي والأسعار والآفات وصناعات السكان. وهو المصدر الوحيد الذي احتفظ بإحصاء لمتاجر مدينة فاس وصناعاتها في القرن السادس في العصر الموحدي نقلاً عن زمام مشرف مدينة فاس في خلافتي المنصور والناصر[٤].

(١) **الكامل في التاريخ**، بيروت، دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٧.
(٢) **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، جـ ٤، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٧، والجزء الرابع وهو الذي يتناول تاريخ المرابطين، حققه إحسان عباس وذيّله بتعليقات وافية. أما القسم الموحدي فقد نشر مستقلاً بتحقيق هويثي ميرندا ومشاركة رفيقيه، تطوان، سلسلة معهد مولاي الحسن، ١٩٦٠، وقد أشرت إليه هنا **ببيان موحد**.
(٣) يشك محمد الفاسي في نسبة الروض لابن أبي زرع، ويذهب إلى أن الروض روضان: كبير مفقود وهو لابن أبي زرع، ومختصر، وهو المتداول، ومؤلفه هو صالح بن عبد الحليم (ت ١٣٠٨/٧٠٨ أو ١٣١٠/٧١٠) (انظر محمد الفاسي، « المؤرخان: ابن أبي زرع وابن عبد الحليم »، **مجلة تطوان**، ١٩٦٠، العدد الخامس، ١٥٤-١٥٦). ويخالف محمد المنوني هذا الرأي في بحث لم ينشر ويؤكد نسبة الروض المتداول الى ابن أبي زرع.
(٤) راجع **روض القرطاس** ٢٥-٢٦.

ثالثاً: **الحلل الموشية** لمؤلف مجهول[1]. وقد صنف الكتاب في سنة ١٣٨١/٧٨٣. وهو يعالج تاريخ المغرب منذ تأسيس مدينة فاس الى سنة ١٣٨١/٧٨٣. بصورة مختصرة، بيد أن أخباره عن المرابطين وخلافة عبد المؤن قد اتسمت بشيء من التفصيل. ويهتم المؤلف بالمعمار، وأحياناً بالمستوى المعيشي وهو المصنف الوحيد الذي ذكر راتب الفارس المرابطي.

رابعاً: **أعمال الأعلام** للسان الدين ابن الخطيب (ت ١٣٧٥/٧٧٦)[2]. وهو أوسع مصدر عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين في الأندلس، وقد أمدنا بمعلومات هامة عن ثورات تلك الفترة.

خامساً: **العبر** لأبي زيد ابن خلدون (ت ١٤٠١/٨٠٨)[3]. لقد عالج ابن خلدون تاريخ المغرب في القرن السادس معالجة تفصيلية لا سيا تاريخ البلاد الشرقية. إلا أن الدقة التي تميز بها في مقدمته لا تظهر في سرده لأخبار التاريخ. وقد كانت المقدمة من أهم مصادر دراستي هذه لما ذكر فيها من إشارات كثيرة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المغرب خلال القرن السادس ولا سيا الارتباط بين ثورات القبائل والضرائب.

تراجم الرجال:

يلاحظ أن كتب الفهارس والبرامج والتراجم العامة المعاصرة كانت تتبع منهجاً واحداً. فهي تذكر اسم المترجم له وكنيته ونسبته، وبلده الذي ولد فيه أو الذي كان منه أصله إذا ما هاجر من بلد مولده إلى آخر، وتبين شيوخه وعلومه ومن أخذ عنه، ثم

(١) **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق علوش، الرباط، ١٩٣٦. و ينسب هذا الكتاب إلى عدد من رجال القرن الثامن (انظر **دليل مؤرخ المغرب الأقصى** ١: ٤٥، وراجع دراسة أحمد مختار العبادي عنه: « دراسة حول كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية »، **تطوان** ١٩٦٠، العدد الخامس، ١٣٩-١٥٨.

(٢) **أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦.

(٣) **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، القاهرة، بولاق، ١٢٨٤هـ، وكذلك طبعة بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٦-١٩٥٩. وحيثما جاء هذا المصدر دون ذكر مكان الطبع فالمعنيّ هو طبعة بولاق.

تختم الترجمة بتاريخ الوفاة ومكانها ما كان ذلك ميسوراً. وهذه هي طريقة ابن عطية (ت ١١٤٦/٥٤١) والقاضي عياض (ت ١١٤٩/٥٤٤) في فهرستيهما[1] ومحمد بن عياض (ت ١١٧٩/٥٧٥) في **التعريف بعياض**[2] وابن بشكوال (ت ١١٨٢/٥٧٨) في صلته[3] والضبي (ت ١٢٠٣/٥٩٩) في بغيته[4]. وقد خالف هذا النهج كل من الفتح ابن خاقان (ت ١١٤٠/٥٣٥) في قلائده[5] وابن الزيات التادلي (ت ١٢٢٩/٦٢٧) في تشوفه[6] وفي مناقب أبي العباس السبيتي[7]. ولئن كان أسلوب السجع قد يحجب الحقائق عن قارئ القلائد، فإن استطرادات ابن الزيات في التشوف ذات فائدة عظيمة في هذه الدراسة، ذلك لأن ابن الزيات كثيراً ما يذكر مهن من يترجم لهم وثرواتهم، وقد يشير إلى بعض أسعار السلع في عصرهم. هذا بالاضافة الى أن التشوف قد كان المصدر الوحيد الذي أوقف على رجال التصوف في القرن السادس، وقد مكّنني إحصاء الرجال وتوزيعهم على مناطقهم وفق الزمن الذي عاشوا فيه من استنتاج صلة ما بين انتشار التصوف وازدياد الرفاه المادي واتساع نطاق التباين الاجتماعي بين الطبقات.

ولا تختلف كتب التراجم المشرقية المعاصرة عن رصيفتها المغربية حين تتناول تلك تراجم رجال مغاربة. ومن هذا النوع المشرقي ما كتبه السلفي (ت ٥٧٦/ ١١٨٠) في معجمه[8] وابن الجوزي (ت ١٢٠١/٥٩٧) في منتظمه[9].

(١) **فهرسة ابن عطية**، مخطوط الاسكوريال، رقم ١٧٣٣، **فهرسة عياض** مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم ١٨٠٧ د.

(٢) **التعريف بعياض**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ٥٥٣ د.

(٣) **الصلة في تاريخ أئمة الأندلس**، جـ ٢، باعتناء عزت العطار، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٥٠.

(٤) **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، مجريط، روخس، ١٨٨٤.

(٥) **قلائد العقيان في محاسن الأعيان**، بتقديم محمد العناني، تونس، المطبعة العتيقة، ١٩٦٦، وكذلك مخطوط آيا صوفيا (استنبول) رقم ٨٤٤ وفيه زيادات على المطبوع.

(٦) **التشوف إلى رجال التصوف**، تحقيق أدولف فور، الرباط، ١٩٥٨.

(٧) **مناقب أبي العباس أحمد بن جعفر السبتي**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ٨٩٦د ومخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم ٢٠٣٧ عربي. وقد ذكر اسم المؤلف في مخطوط باريس وأهمل في مخطوط الرباط، ولكن مخطوط الرباط فيه زيادات على مخطوط باريس.

(٨) انظر **أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي**، أعدها وحققها احسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٣.

(٩) **المنتظم** جـ ٧ مخطوط آيا صوفيا (اسطنبول) رقم ٢٠٩٧.

ولقد حاولت أن استنطق كتب تراجم الرجال بوسيلتين مختلفتين:

أولاً: إحصاء الهجرات ومحاولة معرفة أثر ذلك في النشاط الاقتصادي.

ثانياً: اللجوء الى كتب التراجم المتأخرة: مغربية ومشرقية، حتى تكون الإحصاءات دقيقة. وقد رجعت إلى ثمانية أنواع من كتب تراجم الرجال.

والنوع الأول هو كتب التراجم العامة مثل **التكملة ومعجم الصدفي** لا بن الابار (ت ١٢٦٠/٦٥٨) **ووفيات الأعيان** لا بن خلكان (ت ١٢٨٢/٦٨١) **والمغرب** لا بن سعيد (ت ١٢٨٦/٦٨٥) **والذيل والتكملة** لابن عبد الملك المراكشي (ت ١٣٠٣/٧٠٣)[١] **وصلة الصلة** لا بن الزبير (ت ١٣٠٨/٧٠٨) **ومرآة الزمان** لسبط ابن الجوزي (ت ١٢٥٦/٦٥٤)[٢] **والوافي بالوفيات** للصفدي (ت ١٣٦٣/٧٦٤)[٣] **وفوات الوفيات وعيون التواريخ** لابن شاكر الكتبي (ت ١٣٣٦/٧٦٤)[٤] بالاضافة الى كتب المجاميع المشرقية مثل **تاريخ الإسلام** للذهبي (ت ١٣٤٨/٧٤٨)[٥] وعقد الجمان للعيني (ت ١٤٠١/٨٥٥)[٦].

والنوع الثاني هو ما اختص بتراجم قوم دون غيرهم مثل **مفاخر البربر** لمؤلف مجهول، كان قد صنفه في سنة ١٣١٢/٧١٢[٧].

(١) **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة:** حقق السفر الأول محمد بن شريفة وحقق السفرين الرابع والخامس إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٤-١٩٦٥، والسفر الأول بلا تاريخ، وأيضاً مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم ٣١٥٦ وهو الجزء السادس من الكتاب.

(٢) مرآة الزمان جـ ١٣، مخطوط أحمد الثالث (استنبول) رقم ٢٩٠٧.

(٣) **الوافي بالوفيات**، جـ ١-٥، سلسلة النشرات الاسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية، والجزء ٧، ٨، ١١ مصورة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية عن مكتبة أحمد الثالث باستنبول.

(٤) **فوات الوفيات** جـ ٢، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥١، **عيون التواريخ**، جـ ١٦-١٧، مكتبة أحمد الثالث (اسطنبول) رقم ٢٩٢٢.

(٥) **تاريخ الإسلام**، جـ ١٢-١٣، مكتبة أحمد الثالث (اسطنبول) رقم ٢٩١٧.

(٦) **عقد الجمان في تاريخ الزمان**، جـ ١٢، مكتبة أحمد الثالث (اسطنبول) رقم ٢٩٢٢.

(٧) **مفاخر البربر**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم ١٠٢٠د. وقد نشره بروفنسال في سنة ١٩٣٤ في الرباط، غير أن المخطوط يحتوي على زيادات على المطبوع.

والنوع الثالث ما جمع عن أخبار رجال مدينة واحدة مثل **فقهاء مالقة** لابن عسكر[١]. **وعنوان الدراية** للغبريني (ت ١٣١٥/٧١٤)[٢] **وذكر بعض مشاهير أعيان فاس في القديم**[٣] **والإحاطة** لابن الخطيب (ت ١٣٧٥/٧٧٦) **وجذوة الاقتباس** لابن القاضي[٤].

والنوع الرابع ما اقتصر على تراجم الأدباء، مثل **الغصون اليانعة** لابن سعيد[٥] **وتحفة القادم** لابن الابار[٦].

والنوع الخامس ما اختص بتراجم القضاة مثل **المرقبة العليا** للنباهي (كان حياً في سنة ١٣٨٩/٧٩٢)[٧].

والنوع السادس هو تراجم النحاة مثل **بغية الوعاة** للسيوطي (ت ١٥٠٥/٩١١)[٨].

والنوع السابع هو تراجم الأطباء مثل **طبقات الأطباء** لابن أبي أصيبعة (ت ١٢٧٠/٦٦٨)[٩].

والنوع الثامن اقتصر على تراجم رجال التصوف مثل **المقصد الشريف** للبادسي (كان حياً في سنة ١٣٢٢/٧٢٢)[١٠] **وبهجة الناظرين** للأزموري (ت ١٤٩٥/٩٠٠)[١١]

(١) **فقهاء مالقة**، مصورة خاصة بمكتبة محمد المنوني.

(٢) **عنوان الدراية فيمن عرف من علماء المائة السابعة في بجاية**، الجزائر، المطبعة الثعالبية، ١٣٢٨هـ.

(٣) حققه وقدم له عبد القادر زمامة، **مجلة البحث العلمي**، الرباط، ١٩٦٤، العدد الثالث، ص ٦٤-٦٦، ١٩٦٥، العدد الرابع والخامس، ص ٧٨-١٠٤، وعن الكتاب ونسبته الى عدد من المؤلفين أنظر ما يلي ص ٩١ والمصدر المذكور.

(٤) **جذوة الاقتباس فيمن حلّ من الأعلام مدينة فاس**، فاس، دون تاريخ

(٥) **الغصون اليانعة في شعراء المائة السابعة**، تحقيق الا بياري، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٤.

(٦) **المقتضب من تحفة القادم**، تحقيق الا بياري، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٥٧.

(٧) **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا**، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، دار الكتاب المصري، ١٩٤٨.

(٨) **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، جـ ٢، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٢٦هـ.

(٩) **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، جـ ٢، صححه امرؤ القيس بن الطحان، القاهرة، المطبعة الوهبية، ١٣٠٠هـ.

(١٠) **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في ذكر صلحاء الريف**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم ١٤١٩د.

(١١) **بهجة الناظرين وأنس العارفين**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم ١٣٤٣د.

والنجم الثاقب لابن صعد (ت ٩٠١/١٤٩٥)[1].

ولم تتميز هذه الكتب المتأخرة بما نقلته عن مصادر مفقودة فحسب، وانما أيضاً بتراجمها المستفيضة، لأن مصنفيها غالباً ما كانوا يعتمدون على كتب التاريخ والوثائق و«التقاليد»، ولهذا وجدت فيها بعض الاشارات لملكيات الأراضي ودَخْل الأفراد والضرائب والصناعات والتجارة. وأخص بالذكر منها في هذا المجال **وفيات الأعيان**، الذي كثيراً ما أخذ في تراجمه المغربية عن مصادر مفقودة[2]، **والحلة السيراء**، الذي يمكن اعتباره مصدراً لتاريخ فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين في الأندلس، **والذيل والتكملة ومشاهير فاس** الذي يبين إحصاء بيوتات فاس فيه تحول البربر في القرن السادس من البداوة إلى حياة المدينة.

كتب الأدب:

وتظهر أهمية الكتب الأدبية المعاصرة فيما تذكره من رسائل رسمية، وقد ذكر المواعيني (ت ٥٦٤/١١٦٨) في **ريحان الألباب**[3] عدداً من الرسائل المرابطية، ونقل أبو القاسم البلوي في **العطاء الجزيل**، الذي صنفه في سنة ٦١٣/١٢١٦، عدداً كبيراً من الرسائل الموحدية. ومن خلال **أمثال العوام**[4] لأبي يحيى الزجالي (عاش في القرن السابع) استطعت أن أتبين نظرة المجتمع إلى المهن، ومستوى الحياة الاقتصادي للطبقات الفقيرة ونظرتها الى الطبقات الحاكمة والمالكة للثروة. وأمدني كتاب **نزهة الألباب** المنسوب للتيفاشي (ت ٦٥١/١٢٥٣)[5] بمعلومات هامة عن السماسرة والدلاّلين.

---

(١) **النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب**، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط، رقم ٢٤٩١.

(٢) راجع عن **وفيات الأعيان** حواشي المصادر المفقودة في هذا الفصل.

(٣) **ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب**، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط، رقم ٢٦٤٧.

(٤) **أمثال العوام في الأندلس**، ق ٢ تحقيق محمد بن شريفة، فاس، ١٩٧١.

(٥) **نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم ١٥٢٣ك. وهو كتاب في الأدب المكشوف، وقد استحيت أن أذكر أشياء كثيرة من التي شرحت فيه.

الجغرافية والموسوعات والرحلات:

كانت كتب الجغرافية المعاصرة مرتكز بحثي عن الحاصلات والمعادن والصناعات والطرق التجارية. وقد استخرجت منها جداول وخرائط ألحقتها بهذه الدراسة. ولم أجد مفراً من مقابلة معلومات الجغرافيين بعضها ببعض، ذلك لأن الجغرافيين ينقلون عن المصادر التي سبقتهم وقلما يذكرون ذلك. وقد خلصت من مقابلة المادة الى استخراج ثلاث صور عن النشاط الاقتصادي: الأولى عما كانت عليه الأوضاع قبل الغزو الهلالي، والثانية عن منتصف القرن السادس، والثالثة عن النصف الثاني منه.

ولما كانت كتب الرازي والعذري — من جغرافيي القرن الخامس / العاشر — مفقودة[1]، فقد اعتمدت في الصورة الأولى على البكري في **المغرب**[2] الذي صنف في سنة ٤٦٠ / ١٠٦٧ — ١٠٦٨، وهو يعتمد فيه على مصادر متقدمة مثل الوراق وابن يومر الهواري[3]، ولم استفد منه إلا عن البلاد الشرقية والغربية، لأن القسم الأندلسي مفقود. وكان الإدريسي (ت ٥٦٢/١١٦٦) في نزهته خير معين لي في توضيح الصورة الثانية، إذ حرص على ذكر التغييرات التي جدت في الزراعة والصناعة وطرق التجارة نتيجة للغزو الهلالي والاحتلال النورماني للبلاد الشرقية وقيام دولة المرابطين في البلاد الأندلسية والغربية. ولم أجد عند معاصره أبي حامد الغرناطي شيئاً يستحق الذكر، وقد كان اهتمام الغرناطي منصباً على ذكر العجائب دون الحقائق[5]. وقد وجدت معلومات هامة عن الزراعة والصناعة والصادرات والواردات في العصر المرابطي وأوائل الفترة الموحدية

---

(١) لا توجد إلا قطعة صغيرة من **ترصيع الأخبار** للعذري عن الأندلس، وقد نشرها عبد العزيز الأهواني بعنوان **نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار**، مدريد، مطبعة الدراسات الاسلامية، ١٩٦٥.

(٢) **المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب**، تحقيق البارون دي سلان، الجزائر، ١٨٥٧.

(٣) **المصدر ذاته** ص ١٥٣، ١٦٠، ١٦١.

(٤) **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، نشر بيريس: **وصف افريقية الشمالية والصحراوية**، الجزائر، ١٩٥٧، ونشر دوزي ودي خوية: **صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس**، ليدن، ١٨٦٦؛ ونشر أماري: **المقدمة وصفة البلاد التي هي الآن مملكة إيطاليا**، روما، ١٨٧٨.

(٥) انظر عنه مؤنس: **تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس**، مدريد، منشورات معهد الدراسات الاسلامية، ١٩٦٧، ٣٠٥ وما بعدها.

في **كتاب الجغرافية** المنسوب الى أبي عبدالله محمد الزهري (ت في حدود ١١٦٠/٥٥٦)[1] غير أن اهتمام الزهري بالطرق التجارية قد كان قليلاً. وذكر صاحب **كتاب الاستبصار**[2]، الذي صنفه في سنة ١١٩١/٥٨٧ كاتب مجهول كان قد عمل في دواوين الموحدين، المعلومات التي ذكرها البكري، ولكن صاحب الاستبصار كان حريصاً على ذكر ما استحدث في الزراعة والصناعة والطرق التجارية في أيام الموحدين، وعليه اعتمدت في بناء الصورة الثالثة.

وإتماماً للصور الثلاث كان لا بد من الرجوع الى كتب الجغرافية المتأخرة مثل **صلة السمط** لابن الشباط **وكتاب الجغرافية** لابن سعيد[3] **والروض المعطار** لا بن عبد المنعم الحميري[4] (توفي في القرن الثامن) وقد اعتمد مؤلفوهم على مصادر سابقة لا سيا ابن سعيد الذي أخذ كثيراً عن ابن فاطمة. ولكن ما تنقله كتب الموسوعات عن ابن سعيد تبعث على القول بأن كتاب جغرافية ابن سعيد لم يصل كاملاً. لقد أورد ابن فضل الله العمري (ت ١٣٤٩/٧٤٩) في مسالكه كثيراً من المعلومات عن الزراعة والصناعة نقلاً عن ابن سعيد، وبخاصة ذلك النص الهام عن مراكش الموحدية الذي اعتمدت عليه كثيراً في دراسة الصناعة وطبقات المجتمع، غير أن الطرق التي يذكرها ابن فضل الله عن المغرب إنما ترجع الى الفترتين المرينية والحفصية[5]. ولا تختلف المادة

---

(١) **كتاب الجغرافية**، تحقيق محمد حاج صادق، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٥٨، وفي المطبوع هذا أخطاء كثيرة ولهذا رجعت أيضاً الى مخطوطي الرباط رقم ٥٤٢ ورقم ٥٩٣٥ في الخزانة الملكية ومخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ٨٥ ج. وقد اعتمد على المخطوط الأخير حسين مؤنس في مقاله: « وصف جديد لقرطبة الاسلامية »، **صحيفة معهد الدراسات الاسلامية**، مدريد، ١٩٦٥-١٩٦٦، ص ١٦١-١٨١.

(٢) **الاستبصار في عجائب الأمصار**، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الاسكندرية، ١٩٥٨.

(٣) **كتاب الجغرافية**، تحقيق اسماعيل العربي، بيروت، ١٩٧٠، وظن المحقق أنه كتاب الجغرافية المفقود، وقد قارنت مادته مع **بسط الأرض في الطول والعرض** لابن سعيد، تحقيق خوان فرنيظ، تطوان، ١٩٥٨، ولم أجد أي اختلاف بين الكتابين.

(٤) **الروض المعطار في خبر الأقطار: صفة جزيرة الأندلس**، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، ١٩٣٧. ورجعت إلى الكتاب مكتملاً في مخطوط نور عثمانية باستنبول رقم ٤٤.

(٥) **مسالك الأبصار** مصورتا مكتبة الجامعة الأميركية، رقم 915:13 mi A عن مكتبة أحمد الثالث ورقم 915:13 m A عن مكتبة آيا صوفيا؛ وانظر عن نص مراكش **المصدر ذاته** (آيا صوفيا) ٤:٤٨و-٥٠و، وراجع عن الطرق **المصدر ذاته** (أحمد الثالث) ٣:١:٧٢، ٧٥.

الواردة عند القلقشندي (ت ١٤١٨/٨٢١) في صبحه[1] كثيراً عما ذكره كتاب **مسالك الأبصار**. وحريّ أن نلحق بهذا النوع من الكتب الموسوعية كتاب **نفح الطيب** للمقري التلمساني (ت ١٦٣١/١٠٤١). وقد ذكر المقري معلومات كثيرة عن الزراعة والصناعة والتجارة نقلاً عن الرازي وابن سعيد وابن حموية والشقندي، وأسعفت هذه المعلومات في توضيح الصور الثلاث التي سبقت الإشارة إليها.

أما كتب الرحلات المعاصرة فقد أمدتني **رحلة بنيامين**[2] (كانت سنتي ١١٦٥/٥٦١ و ١١٧٣/٥٦٩) بمعلومات عن تجارة المغاربة مع سواحل المدن الأوربية المتوسطية ونسبة الدينار المرابطي إلى العراقي. كما أفدت من **رحلة ابن جبير**[3]، في معرفة العقبات التي كانت تعترض التجار المغاربة في المشرق ونسبة الدينار الموحدي إلى الأيوبي. وكانت فائدة الرحلات المتأخرة محدودة ما عدا **رحلة التيجاني** (ت ١٣١٧/٧١٧)[4] التي أفاضت في ذكر أخبار البلاد الشرقية.

كتب الفقه:

هناك نوعان من كتب الفقه كانا ذا فائدة كبيرة في توضيح النشاط الاقتصادي في المغرب في القرن السادس، وهما مصنفات النوازل وكتب الحسبة.

أما مصنفات النوازل فقد كانت القضايا التي رفعت الى رجال القضاء والفتوى للنظر فيها، وعادة ما تذكر القضية كما حدثت بأشخاصها ووقائعها مع ذكر من رفعت إليه وتاريخ وقوع النازلة. وكثير من هذه النوازل كانت تتعلق بقضايا اقتصادية. وقد وجدت عدداً كبيراً منها يشمل بيئات المغرب الثلاث في القرن السادس، وأفدت منها في دراسة ملكية الأراضي وأوضاع العاملين في الزراعة والصناعة والتجارة، كما وضحت هذه النوازل طريقة التعامل في التجارة بصفة خاصة. ولقد نظرت فيما وصل

---

(١) **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩١٣-١٩١٩.

(٢) **رحلة بنيامين التطيلي**، ترجمها عن الأصل العبري عزرا حداد، بغداد، المطبعة الشرقية، ١٩٤٥.

(٣) **رحلة ابن جبير**، بيروت، دار بيروت، ١٩٥٩.

(٤) **رحلة التيجاني**، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، تونس، المطبعة الرسمية، ١٩٥٨.

إلينا من كتب النوازل المعاصرة مثل نوازل ابن سهل (ت ١٠٩٣/٤٨٦)[١] وابن رشد الجد (ت ١١٢٦/٥٢٠)[٢] وابن عياض (١١٧٩/٥٧٥)[٣] وأبي القاسم البلوي (توفي أول القرن السابع)[٤]. كما رجعت إلى كتب النوازل المتأخرة التي استشهدت بنوازل القرن السادس مثل **ذكر مقدار النصاب** للباهلي (ت ٧٥٠هـ)[٥] **والتقييد الأبي** لكاتب مجهول صنفه في القرن الثامن[٦] **والمعيار** للونشريسي (ت ١٥٠٨/٩١٤)[٧] **وتحفة القضاة** للبويعقوبي (ت ١٧٠٦/١١١٨)[٨] **وكشف القناع** لابن رحال (ت ١١٤٠هـ)[٩] **وأحكام فساد الدراهم** لابن عبد العزيز الهلالي (ت ١٧٤٦/١١٥٩)[١٠] وكان **المعيار** أوسع هذه المصادر المتأخرة التي رجعت إليها.

ولقد وصلت إلينا أربعة رسائل من كتب الحسبة ترجع إلى النصف الأول من القرن السادس[١١] وهي لابن عبدون[١٢] والسقطي[١٣] وابن عبد الرؤوف[١٤] وابن عثمان الجرسيفي[١٥]. يغلب على منهج الاثنين الأخيرين الجانب النظري، فيما يتميز ابن عبدون والسقطي بالاهتمام بالجانب العملي، وقد استفدت كثيراً من رسالة ابن عبدون في

(١) **مخطوط الخزانة** بالرباط، رقم ٣٣٩٨د.

(٢) **مسائل سئل عنها أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد**، مخطوط المكتبة الوطنية في باريس، رقم ١٠٧٢ عربي. وقد نشر إحسان عباس مختارات منها بعنوان « نوازل ابن رشد » **الأبحاث**، الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٦٩، ج ٣-٤ ص ٣-٦٣.

(٣) **مذاهب الحكام في نوازل الأحكام**، الخزانة الملكية بالرباط، مخطوط رقم ١٧٠.

(٤) **جامع مسائل الأحكام مما نزل بالمفتين والحكام**، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط، رقم ٤٨٨٤.

(٥) **مخطوط الخزانة العامة** بالرباط، رقم ١٥٨٦د.

(٦) **مخطوط الخزانة العامة** بالرباط رقم ٧٥٦د.

(٧) **المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوي علماء أفريقية والأندلس والمغرب**، فاس، مطبعة الشافعة، دون تاريخ.

(٨) **تحفة القضاة ببعض مسائل القضاة**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم ١٠٨٩د.

(٩) **كشف القناع عن مسائل الصناع**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم ١٠٧٩د.

(١٠) مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم ١٠٨١د.

(١١) أنظر عنها Arié R., "Traduction annotée et commentée des traités de hisba d'Ibn 'Abd al-Râuf et de 'Umar al-Garsifi", **Hespéris-Tamuda**, V.I, Fasc. 1, pp. 3-8.

(١٢) نشرها ليفي بروفنسال ضمن **ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب**، القاهرة، ١٩٥٥.

(١٣) **رسالة في آداب الحسبة**، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، باريس، لورو، ١٩٣١.

(١٤) نشرها ليفي بروفنسال ضمن **ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب**، القاهرة، ١٩٥٥.

(١٥) نشرها ليفي بروفنسال ضمن **المصدر ذاته**.

موضوع ضرائب المرابطين وطريقة جبايتها، ومن رسالة السقطي في المكاييل والموازين والأسعار.

كتب في الصناعات العملية:

وهناك بعض الكتب التي صنفت في موضوع صناعة معينة، وقد أفدت منها في نطاق تخصصها. ومن هذا النوع كتاب **مختصر في الأغذية**، كان قد صنّفه رجل مجهول للخليفة عبد المؤمن بن علي[١]، **وكتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين** لمؤلف مجهول[٢]، **والتيسير في صناعة التسفير** لبكر بن ابراهيم الاشبيلي (١٢٣١/٦٢٩)[٣]، **وزهر البستان ونزهة الأذهان** لابن مالك الطغنري (صنفه في مطلع القرن السادس)[٤]، وقد زودني هذا المخطوط بمعلومات هامة عن الإقطاع المرابطي والعلاقات بين أصحاب الأراضي والوكلاء والعمال الزراعيين. وحاولت التأليف بين المعلومات التي ذكرها عريب بن سعيد (توفي آخر القرن الرابع) في **تقويم قرطبة**[٥] وابن بصال (توفي أول القرن السادس) في **كتاب الفلاحة**[٧] وابن العوام في **كتاب الفلاحة**[٦] (توفي آخر القرن السادس) وابن البناء المراكشي في **الانواء**[٨] (توفي آخر القرن الثامن) لاستخراج التقويم الزراعي. وقد اعتمدت على ابن بصال منهم في دراسة طريقة الزراعة. ومن المصادر المتأخرة وجدت في **الدوحة المشتبكة**[٩] لابن يوسف الحكيم (القرن الثامن/الرابع عشر) بعض المعلومات عن عملة المرابطين والموحدين ودُور سكّتها.

(١) **مختصر في الأغذية**، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط رقم ٢٤٣٠.

(٢) نشره هويثي ميرندا، مدريد، مطبعة معهد الدراسات الاسلامية، ١٩٦١-١٩٦٢.

(٣) حققه عبدالله كنون، فصلة من **صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد**، المجلدان ٧-٨، ١٩٥٩-١٩٦٠.

(٤) مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم ١٢٦٠د.

(٥) **تقويم قرطبة**، تحقيق دوزي، ليدن، الطبعة الجديدة، ١٩٦٠.

(٦) تحقيق بيكروسا ومحمد عزيمان، تطوان معهد مولاي الحسن، ١٩٥٥.

(٧) نشر باعتناء بانكوري، مدريد، ١٨٠٢.

(٨) رسالة في الأنواء، باعتناء رنو، باريس، لاروز، ١٩٤٨.

(٩) الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق حسين مؤنس، مدريد، معهد الدراسات الاسلامية، ١٩٦٠.

الدراسات:

يلاحظ الدراس أن عدداً من المغاربة ظلوا يتبعون طريقة القدماء في الكتابة التاريخية، وقد وجدت فائدة قليلة في كتب من حاول منهم أن يكتب تاريخاً عاماً للمغرب الإسلامي، لأنني استطعت الاطلاع على مصادره مطبوعة أو مخطوطة. ومن هذا النوع **كتاب الاستقصاء** للناصر السلاوي[1]، بيد أن من اقتصر منهم على تاريخ مدينة واحدة وجد فرصة لاستقصاء المصادر لا سيما « الكنانيش » و« التقاييد » العائدة إلى عائلات من يترجم لهم. وظلت مثل هذه الكتب محتفظة بفائدتها لصعوبة الرجوع إلى بعض مصادرها. وقد كانت فائدتها في دراستي هذه شبيهة بفائدة كتب التراجم المتأخرة. ومن هذا النوع **زبدة التاريخ** لابن الأعرج (ت ١٩٢٥/١٣٤٤)[2] **وسلوة الأنفاس** للكتاني (ت ١٩٢٦/١٣٤٥) **ومقدمة الفتح** لبوجندار (ت ١٩٢٦/١٣٤٥)[3] **وباكورة الزبدة** للصبيحي (ت ١٩٤٤/١٣٦٣)[4] **والإتحاف الوجيز وإتحاف أشراف الملا** لابن علي الدكالي السلاوي (ت ١٩٤٥/١٣٦٣)[5] **والإتحاف** لابن زيدان (ت ١٩٤٦/١٣٦٥)[6] **والسعادة الأبدية** لابن الموقت (ت ١٩٥٠/١٣٦٩)[7] **والإعلام** لابن إبراهيم المراكشي (ت ١٩٥٩/١٣٧٨)[8].

هذا وتغلب على دراسة المحدثين من المغاربة والمشارقة الاهتمام بالتاريخ السياسي، وهم قلما يشيرون الى الجانب الاقتصادي إلا بصورة عارضة، ولا يستثنى من ذلك إلا حسن أحمد محمود في دراسته عن المرابطين[9]، وصلاح خالص في بحثه عن إشبيلية[10]،

(١) **الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى**، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٥٤-١٩٥٦.
(٢) **زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ**، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط، رقم ١٧٠.
(٣) **مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح**، الرباط، مطبعة الجريدة الرسمية، ١٩٢٦.
(٤) **باكورة الزبدة من تاريخ آسفي وعبدة**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم ١٥٠٣ د.
(٥) **إتحاف أشراف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم ١١ د. **الإتحاف الوجيز بأخبار العدوتين لمولانا عبد العزيز**، مخطوط الخزانة العامة، رقم ٤٢ د.
(٦) **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، الرباط، الطبعة الأولى، ١٩٢٩.
(٧) **السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية**، ٢ ج، فاس، ١٣٣٦ هـ.
(٨) **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، ٥ ج، فاس، المطبعة الجديدة، ١٩٣٦-١٩٣٩.
(٩) **قيام دولة المرابطين**، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧.
(١٠) **إشبيلية في القرن الخامس الهجري**، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٥.

(فمع أن الدراسة عن القرن الخامس فقد شمل بحثه المعلومات التي أوردها السقطي).

و يظهر بعض الاهتمام بالنشاط الاقتصادي عند حسن حسني عبد الوهاب في دراسته عن الحاضرة العربية بأفريقية التونسية[1]، ومحمد الفاسي في دراسته عن المدن المغربية في القرن السادس من خلال كتاب « السفرة »[2] ومحمد بن شريفة في دراسته لأمثال أبي يحيى الزجالي[3]. ولكن الاهتمام الأكبر قد كان عند المنوني في دراسته للعصر الموحدي[4]، وقد جمع مادة كثيرة عن الزراعة والصناعة ولكنها تفتقر إلى التحليل والدراسة، وقد عولت على معلوماته التي جمعها كثيراً في دراستي هذه. أضف إلى هذا تلك الدراسات عن الفنون الزخرفية والآثار[5].

وفي الدراسات الأجنبية من وجوه القصور ما في الدراسات العربية، لا سيما أن أبحاث أعلام المستشرقين الذين درسوا تاريخ المغرب الإسلامي مثل دوزي وليفي بروفنسال توقفت عند نهاية عصر الطوائف. إلا أن ليفي بروفنسال قد درس القرن السادس في بعض مقالاته، ولكن تغلب عليها الدراسة السياسية، ولا نستثني منها سوى تلك الدراسة عن إشبيلية في القرن الثاني عشر التي اعتمد فيها على ابن عبدون[6]. ولكنني قد وجدت فائدة كبيرة في دراسات العملة التي قام بها عدد من المستشرقين[7]، كما أفدت من مقدمات ماس لا تري للوثائق التي تتصل بالتجارة الخارجية بين دول أوربا البحرية والمغرب الإسلامي، وقد وجدت فائدة كبيرة في مقالات كروغر عن

(١) **ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية**، ٣ ج، تونس، مكتبة المنار، ١٩٦٤-١٩٧٢.
(٢) «مدن المغرب في القرن السادس كما وصفها صاحب السفرة» **مجلة المغرب**، ١٩٣٦، العدد ٣١٢.
(٣) **أمثال أبي يحيى الزجالي: تحقيق ودراسة**، ٢ج، رسالة دكتوراه، كلية الآداب جامعة القاهرة، ١٩٦٨.
(٤) **العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين**، تطوان، المطبعة المهدية، ١٩٥٠.
(٥) مثل محمد عبد العزيز مرزوق، **الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس**، بيروت، دار الثقافة، دون تأريخ. ودراسات السيد عبد العزيز سالم عن الآثار؛ أنظر **المغرب الكبير**، جـ ٢، القاهرة الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦١.
(٦) **Séville musulmane au début du XII siécle: Le traité d'Ibn 'Abdun**, Paris, 1947.
(٧) Bel, A. "Contribution à l'étude des dirhems de l'epoque almohade .", **Hespéris**, 1933, Tome XVI, pp. 1-68; Hazard, H.W., **The Numismatic of Late Medieval North Africa**, New York, 1952; Lavoix, H., **Catalogue de monnaies musulmanes de la Bibliothéque Nationale** : Espagne et Afrique, Paris, 1891.

تجارة جنوة مع المغرب في القرن السادس/الثاني عشر[1]، التي اعتمد فيها أساساً على وثائق لاتينية، وأسعفتني معلوماته في دراسة الصادرات والواردات وطريقة التعامل في التجارة الخارجية. وشبيه بدراسات كروغر الدراسات التي قام بها غويتين من أوراق «جنيزا القاهرة»[2] وقد أكدت معلومات المصادر العربية من حيث انحسار دور اليهود والمسلمين في التجارة المتوسطية في القرن السادس وبروز دور الجمهوريات الإيطالية.

إن هذه المصادر على تنوعها والدراسات على اختلافها قد يسرت لي إبراز هذه الصورة عن النشاط الاقتصادي. ولئن تحكمت المادة المتيسرة في عدم وضوح الصورة حيناً أو غياب بعض الجزئيات أحياناً أخرى، فقد أشرت إلى كل ذلك في مواضعه.

---

(١) Krueger, H.C., "Geose Trade with North Africa in The Twelfth Century", **Speculum**, 1933, V. 8, N. 3, pp. 377-395; Ibid, "The Wares of Exchange in he Genoese-African Trafic of the Twelfth Century" **Speculum**, 1937, V. 12, N. 1, pp 57-71.

(٢) Goitein, S.D., **A Mediterranean Society**, Berkeley, 1957; **Jews and Arabs**, New York, 1955; **Studies in Islamic History and Institutions**, Leiden, Brill, 1968.

الفصل الأول

العوامل الجغرافية

الفصل الأول
العوامل الجغرافية

إن دراسة الحياة الاقتصادية لمجتمع ما تتطلّب الإحاطة بالبيئة الطبيعية لذلك المجتمع ونوعيّة العناصر البشرية التي يتكوّن منها. لأن العملية الاقتصادية هي تفاعل الإنسان مع بيئته، ودرجة سيطرة الإنسان على الطبيعة بالزراعة أو الصناعة، والتغلّب على نواقص البيئة أو استثمار فائضها بالتجارة، تُحدّد حال اقتصاده: غنًى أو فقراً، حركةً أو جموداً. ولهذا فدراسة العوامل الجغرافية وتركيب السكان في « المغرب » خلال القرن السادس/الثاني عشر ليس مدخلاً ضرورياً لمعرفة الظاهرة الاقتصادية فيه فحسب بل مثل هذه الدراسة جزء عضوي لا ينفصل عن هذه الدراسة. وبما أن لفظي « المغرب » و « القرن السادس » يستعملان استعمالاً خاصاً في هذه الدراسة فينبغي تحديد مدلولهما.

مدلول « القرن السادس »

الحياة الاقتصادية مظهر حضاري، والحضارة عملية تراكمية مستمرّة، ومن ثمّ فالتغييرات فيها تجيء بطيئة متدرّجة مع الزمن، ولهذا ينبغي اختيار حادث يرمز إلى بداية التغيير وآخر يمثل نهايته. والتغيير البارز في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس/الثاني عشر هو سيادة البربر السياسية متّخذين من المغرب الأقصى مركزاً. وليس هناك ما يصوّر بداية هذه الظاهرة أكثر من موقعة الزلاّقة ١٠٨٦/٤٧٩[١]. فأندلس ما قبل الزلاقة ممزّق الأوصال، مبعثر القوى، وقد تحكمت الذاتية في الناس حكاماً

(١) تختلف الروايات عن تاريخ الموقعة؛ في **قيام دولة المرابطين**: ٢٨١-٢٨٢.

ورعيّة[1]، فكان إما أن يسقط الأندلس في قبضة نصارى الشمال أو تظهر قوة إسلامية جديدة تحفظه، وظهر أول الأمر وكأن الغلبة ستكون للممالك المسيحية الإسبانية، وتأكّد ذلك يوم استولوا على طليطلة في ٤٧٨/١٠٨٥، و يتجسّد شعور الأندلسيين تجاه الحدث في قول ابن العسال:

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس   فما المقام بها إلاّ من الغلط[2]

ومن هنا كانت الأهمية العظيمة للانتصار المرابطي في الزلاّقة، إذ يّسر السيطرة السياسية لبربر المغرب الأقصى على الأندلس. فالزلاقة أصبح يؤرخ بها[3]، وبسببها اتخذ يوسف بن تاشفين أمير المسلمين لقباً له[4]، وبعدها ضمّ المرابطون الأندلس إلى دولتهم[5]. وهذا الاتجاه التوسّعي للمغرب الأقصى الذي بدأه المرابطون أكمله الموحدون فشملت دولتهم شمال أفريقية إلى طرابلس إضافة إلى الأندلس.

وإذا كانت الزلاقة تمثّل بداية الانطلاق البربري المتّخذ من المغرب الأقصى قاعدة له، فالعقاب (٦٠٩/١٢١٢) تجسّد بداية النهاية، إذ إن هزيمة الموحدين فيها أخْلَت المغرب من أهله، وأفضت إلى خراب الأندلس، فلم يقل بعدها العثرة[6]. وعليه فإن الفترة بين الزلاقة والعقاب هي ما سيطلق عليه « القرن السادس » في هذه الدراسة.

مدلول « المغرب »

لفظ المغرب اسم إضافي، يدلّ على مكان ما بإضافته الى جهة المشرق، فمن هنا

(١) R. Dozy, **Abbadidarum**, II, p. 8.

(٢) **وفيات الأعيان** ٥:٢٧.

(٣) **المصدر ذاته** ٥:٢٩.

(٤) الروايات تختلف حول تاريخ هذا الحدث فنها ما يجعله قبل الزلاقة؛ انظر عنه: **قيام دولة المرابطين** ٣٣٧ وما بعدها.

(٥) تتحدث الروايات عن دوافع متعددة أبرزها ما اكتشف يوسف من عجز ملوك الطوائف عن الدفاع عن الأندلس في عبوره الثاني (٤٨١/١٠٨٨) ومحاصرته حصن أليبط (Aledo) (راجع: **التبيان** ١٠٨-١١٣، **الحلل الموشية** ٤٩-٥٠، **روض القرطاس** ٩٩، مؤنس: « الثغر الأعلى » ٩١ وما بعدها) وأطماعه في الأندلس ذاتها (أنظر **بغية الملتمس** ٣١-٣٢، **وفيات الأعيان** ٥:٣٠، ٧:١٢٠ وما بعدها، **الروض المعطار** ٩٣).

(٦) أنظر **المعجب** ٣١٩-٣٢٠، **التكملة** ١:١٠٢، **روض القرطاس** ١٥٩، **الذخيرة السنية** ٤١، **أعمال الأعلام** (ط. ليفي) ٢٧٠، **الروض المعطار** ١١، **نفح الطيب** ٤:٣٨٣.

تظهر الصعوبة في تحديده جغرافيا[1]. وقد اكتسب اللفظ مفهوماً جغرافياً وسياسياً خاصاً[2] خلال التاريخ الإسلامي، والمصادر تعطي هذا المفهوم تعريفات مختلفة ومتناقضة، وأرجع ابن خلدون الاختلاف إلى عُرْفين مختلفين هما عرف أهل الجغرافية والعرف الجاري في زمن ما[3]. وإذا نظر الدارس في المعلومات التي توفّرها كتب الجغرافيا يستطيع أن يتبيّن ثلاثة أسس مختلفة ارتكز عليها الجغرافيون في محاولتهم تعريف لفظ « المغرب »:

أولاً: منهم من اختار الحواجز الطبيعية أساساً لتعريفه، فذهب ابن حوقل الى أنّ النيل هو الحدّ بين المشرق والمغرب[4]؛ و يرى ابن سعيد أن ما وجد شرقي بحر الإسكندرية وخليج القسطنطينية فهو في حساب المشرق، وعليه فمصر أول المغرب والشام أول المشرق[5]؛ و يقول ابن خلدون إن الحدّ في عرف أهل الجغرافية هو بحر القلزم[6].

ثانياً: منهم من نظر إلى التركيب البشري، فالمغرب عند هذا الفريق ما كان « في القديم ديار البربر ومواطنهم ». ووفق هذه النظرة فالمغرب يمتد من طرابلس إلى البحر المحيط[7] ويخرج الأندلس منه.

ثالثاً: منهم من جعل الأوضاع الإدارية والظروف السياسية محوراً لتعريفه عن وعي أو دون وعي. فالإصطخري الذي كتب في وقت تبلور فيه استقلال الأندلس عن الخلافة العباسية وأصبح الشمال الأفريقي موطن نزاع بين أموي الأندلس وفاطميي أفريقية تجده يقسم المغرب إلى مغربين: أفريقي وأندلسي[8]. وفي القرن الخامس/الحادي عشر ظل الشمال الأفريقي يمثّل منطقة نزاع بين قوّتين،

(١) **العبر** ٦:٩٨، ١٠٠.

(٢) من الصعوبة بمكان تحديد تاريخ ظهور هذا المفهوم (راجع: **تاريخ المغرب العربي** ٤).

(٣) **العبر** ٦:٩٨، ١٠١.

(٤) **صورة الأرض** ٦٤.

(٥) **مسالك الأبصار** (أحمد الثالث) ٣:ق ١:١٠٣.

(٦) **العبر** ٦:١٠١.

(٧) **العبر** ٦:١٠١.

(٨) **المسالك والممالك** ٢٣.

ونجد صدى ذلك في تعريف البكري الذي يسمّي الشمال الأفريقي « بأفريقية » وتمتد من برقة إلى طنجة ومن المتوسط إلى الرمال المتصلة بأرض السودان[1]. ولما بسط المرابطون سلطانهم من تلمسان إلى المحيط ومن الصحراء الأفريقية إلى جبال الشارات الأندلسية ظهر تعريف جديد للمغرب يقتصر على أراضي الدولة المرابطية[2].

وممّا يوضح أثر الظروف السياسية في تعريف لفظ « المغرب » أن التعريفات التي استندت الى مرتكزات طبيعية جغرافية أو نظرة عِرْقية لم تكن بعيدة عن الأوضاع السياسية التي سادت في عصر أصحاب التعريفات. فابن حوقل كتب في وقت لم تعد للدولة العباسية سلطة على مصر وما يقع غربيها، فانقسم العالم الإسلامي إلى عالمين: مشرقي ومغربي ومصر الحدّ الفاصل بينهما. وابن سعيد صنّف في المشرق في وقت بلغت المنافرة بين المشارقة والمغاربة ذروتها، فكأنه أراد أن يتقوى بمصر وما تمثله. أما ابن خلدون فقد ذكر في تعريفه أن هذا هو العرف الجاري في زمانه، وفي عصر ابن خلدون لم يبق من المغرب في جناحه الأندلسي سوى قطعة أرض صغيرة هي مملكة غرناطة، وبمعنى آخر لم يبق من المغرب إلا موطن البربر القديم تقريباً.

وهذه الخلفية السياسية في تعريف المغرب ربما عللت لِمَ يخرج بعضهم الأندلس عن تعريفه للمغرب[3]، أو لِمَ ظهر تقسيم الشمال الأفريقي الى أقاليم ثلاثة ابتداء من القرن الخامس/الحادي عشر مع الاختلاف في الحدود الفاصلة بينها[4]، إذ في القرن الخامس تقاسم المغرب ثلاث دول فوحّدها الموحّدون في القرن السادس/الثاني عشر ثم انقسمت مجدداً بانحلال دولة الموحدين.

---

(١) البكري، **المغرب** ٢١.
(٢) أنظر تعريف ياقوت (**معجم البلدان** ٤:٥٨٣) فكأنه أخذ عن مصدر مرابطي.
(٣) أنظر **كتاب الجغرافية** ١٠٦.
(٤) راجع البكري، **المغرب** ٧٦، **كتاب الجغرافية** ١٠٦-١١٧، **نزهة المشتاق** (ط.ب) ٥٦-٥٧، **الاستبصار** ١١٠، ١٧٩، **المعجب** ٣٤٧، ٣٤٩، ٣٥٣، ٣٥٧، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٢٩ أ.

ويبدو أن هذه الخلفية السياسية لتعريف المغرب هي سبب اضطراب عبد الواحد المراكشي في محاولته تعريف « المغرب » فجاء متناقضاً في ثلاثة مواضع من معجبه[1]، لا سيا وأنه صنف في وقت كانت الكلمة تستعمل استعمالاً إصطلاحياً إدارياً خاصاً، إذ كان المرابطون ثم الموحدون قد اطلقوا كلمة « بلاد المغرب » أو « المغرب » على ولاية فاس في تنظيماتهم الإدارية[2].

فمفهوم « المغرب » سياسي يختلف من عصر إلى آخر، و « مغرب » القرن السادس هو ما بسط الموحدون عليه سلطتهم السياسية في الأندلس وما اصطلح على تسميته بالمغرب الأقصى والمغربين الأوسط والأدنى، نعم إن المرابطين لم يسيطروا على بلاد بني حماد وبني باديس الذين كانت مناطقهم امتداداً طبيعياً لمناطق المرابطين على اعتبار أن الصنهاجية عصبية تجمعهم كلهم، ولكن رابطة الصنهاجية دفعتهم جميعاً للتعاون أحياناً[3] حين كانت تتوتر العلاقات فيما بينهم[4]. وعلى هذا لا بدّ من توضيح الحدود السياسية لمغرب القرن السادس.

الحدود السياسية لمغرب القرن السادس

تعطي المصادر معلومات عامة ومضطربة عن الحدود السياسية لدول المغرب. وإذا كان الحد الغربي واضحاً لأن المحيط يشكّل حاجزاً طبيعياً، فالحدود الشرقية والجنوبية والشمالية تحتاج إلى توضيح كثير.

---

(١) راجع **المعجب** ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٥٣، ٣٥٧.
(٢) أنظر **أخبار المهدي** ٦٥، ٧٩، ٩٠، ٩٨، **المعجب** ٢٥٦، **البيان المغرب** ٤:٩٨، ٩٩، **بيان موحد** ١٥٨، ٢٤٤، **روض القرطاس** ١٠٣، ١٥٢.
(٣) كان يوسف بن تاشفين يعتبر النصر المرابطي على زناتة في المغرب الأقصى والنصارى في أسبانيا في الزلاقة نصراً لصنهاجة (أنظر رسالته الى بني باديس مبشراً بنصره في الزلاقة في **مجموع الاسكوريال** رقم ٤٨٨ ص ٤٩ ق). وبسبب هذه الرابطة الصنهاجية استنجد علي بن يحيى صاحب المهدية بالمرابطين ضد صقلية (راجع **الكامل** ١٠:٦١١) وأرسل صاحب بجاية مدداً لتاشفين بن علي لما حاصره الموحدون في تلمسان (انظر **العبر** ٦:١٧٩، ٢٣٠).
(٤) أنظر أمثلة في **قلائد العقيان** ١١٩، **العبر** ٦:١٧٢، ١٧٤، ١٧٥-١٧٦.

الحدود الشرقية

لما فتح عبد المؤمن بن علي بلاد أفريقية دخلت طرابلس في طاعته[١]، و يضيف ابن الأثير أن جبل نفوسة أطاعه في الوقت نفسه[٢]، ولا يعلم أن جيشاً موحدياً تجاوز طرابلس وجبل نفوسة إلا في سنة ١٢٠٦/٦٠٣ حين تتبع جيش الناصر الموحدي فلول بني غانية فوصل إلى ساقية بني مكود، ولكن المنطقة لم تُضَمّ للدولة الموحدية إذ لم يترك فيها حامية موحدية[٣]. وعلى هذا فالصحراء شرقي وجنوبي طرابلس ظلّت خارج الدولة الموحدية، يؤكّد ذلك أن ودّان في هذه الفترة كانت ضمن سلطة دولة الكانم[٤]، وعليه فطرابلس وجبل نفوسة يمثلان الحدود الشرقية للمغرب في القرن السادس[٥].

الحدود الجنوبية:

يقول ابن فضل الله العمري إن الصحراء هي الحدود الفاصلة بين أفريقية وبلاد جناوة[٦]، ثم يعود و يرسم الحدود بدقة حين يقول إن حدّ أفريقية الجنوبي هو آخر بلاد الجريد والأرض السواخة[٧] — يعني منطقة الشطوط الصحراوية —. وهذا القول الأخير يتفق وأقصى ما بلغه توسع صنهاجيي أفريقية والموحدين. فلم يرد أنهم تجاوزوا جبل نفوسة جنوباً، ولا يعرف أنهم دخلوا وركلان المركز التجاري الهام للتجارة مع السودان. و يبدو أن قفصة كانت النهاية الجنوبية القصوى في المنطقة الشرقية، فلما فتحها المنصور الموحدي في ١١٨٧/٥٨٣ دكّ أسوارها بالأرض هدماً كيلا يتخذها الميورقيون وأتباعهم الذين فرّوا الى الصحراء

---

(١) **المعجب** ٣٤٨، **الحلل الموشية** ١٣٠، **العبر** ٦:١٦٨.

(٢) **الكامل** ١١:٢٤٣.

(٣) أنظر عن هذه الحملة العسكرية **بيان موحد** ٢٢٤، **العبر** ٦:٢٤٨، ٢٧٧.

(٤) جاءت الكانم محرفة في طبعتي **العبر** (بولاق ٦:١٩٢، دار الكتاب اللبناني ٦:٣٩٨).

(٥) بالطبع هذا هو التحديد السياسي، و يعني طرابلس المدينة، بينما جغرافياً الحد الفاصل بين منطقتي طرابلس وبرقة هو قصر أحمد (أنظر **تقويم البلدان** ١٤٧).

(٦) **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٢٩أ.

(٧) **صبح الأعشى** ٥:٩٩ نقلاً عن التعريف.

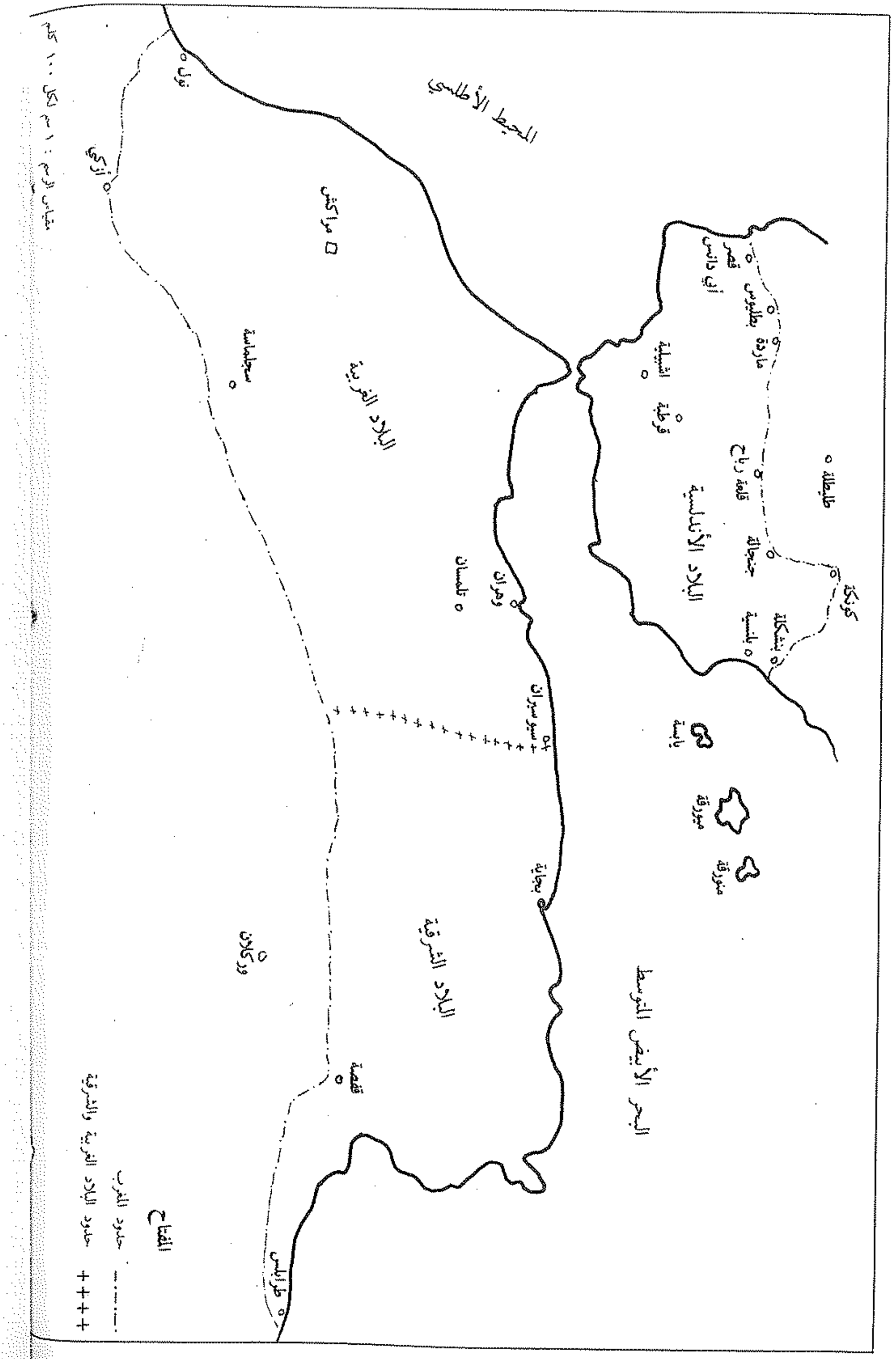

مركزاً لتجمعهم وقاعدة لهجومهم على أراضي الموحدين[1].

وتضطرب المصادر عن الحدود الجنوبية في المنطقة الغربية اضطراباً شديداً، لأن الصحراء كانت مهد المرابطين، ومنها انطلقوا فاتحين للمغرب الأقصى. فما هي علاقتهم بها؟ أعلاقة التابعية أم السيادة أم الانفصال؟

ينفرد ابن أبي زرع بروايتين تنصان على أن الصحراء إلى بلاد السودان كانت جزءاً من الدولة المرابطية في إمارتي يوسف وابنه علي[2]. ويحدد تاريخ تابعية الصحراء بوفاة أبي بكر بن عمر في ٤٨٠/١٠٨٧[3]. ويبدو أن هذا الرأي غير دقيق، فعلاقات مرابطي مراكش بالصحراء مرت بثلاث فترات مختلفة. فمنذ بداية الفتح المرابطي للمغرب الأقصى وحتى سنة ٤٦٥/١٠٧٢ (حين تنازل أبو بكر ليوسف بن تاشفين عن حكم المغرب الأقصى)[4] كان أبو بكر الرئيس والأمير والقائد؛ ولكن في ٤٥٣/١٠٦١ اضطرّ للرجوع للصحراء والمغربُ الأقصى لم يتمّ فتحه بعد، لأن النزاع بين قبائل صنهاجة في الصحراء والغزو الغاني من الجنوب هددا مواطن قبائلهم، فترك أبو بكر يوسف قائداً على المرابطين ليتم فتح البلاد الغربية[5]. وخلال غيبة أبي بكر كان يوسف يتصرّف كنائب، فضرب الدينار المرابطي في ٤٦٤/١٠٧١-١٠٧٢ باسم أبي بكر[6].

ولكن بعد تنازل أبي بكر اختلفت العلاقة فيما بين الرجلين. ويدل على ذلك أسباب تنازل أبي بكر وتصرفات يوسف خلال فترة تابعيته. ويبدو أن يوسف كان يعمل للاستقلال بالأمر والتفرد بما يفتح من بلاد، فأخذ في

(١) رسائل موحدية ٢٠٩-٢١٠.
(٢) روض القرطاس ٨٧-٨٨، ١٠٢.
(٣) المصدر ذاته ٨٧.
(٤) تجمع الروايات على هذا؛ راجع: البيان المغرب ٤:٢٣ وما بعدها، الحلل الموشية ١٥، روض القرطاس ٨٧، المنتظم (مخ) ٧:٣١٨.
(٥) راجع عن هذه الأحداث: قيام دولة المرابطين ٢١٩-٢٢٢.
(٦) البيان المغرب ٤:٢٢.

٤٦٤/١٠٧١-١٠٧٢ يكون جيشاً من الروم والسودان يكون ولاؤه له شخصياً[1]، كما شرع في استدعاء المرابطين من الصحراء دون علم أبي بكر[2]، هذا فضلاً عن أن الجيش الذي تركه أبو بكر تحت إمرة يوسف أصبح ولاؤه ليوسف نتيجة انتصاراته في المغرب وفتحه للبلاد، فوجدوا فيه البطل المحارب والقائد القاهر[3]. وفي ضوء هذا يمكن فهم تنازل أبي بكر لما عاد الى أغمات مرة ثانية من الصحراء: لقد اضطر للتنازل لما وجد مُلْكاً قد شُيِّد ودولة قد أسّست في غيبته ومن صُنْع غيره، فلم يكن أمامه غير التنازل، واكتفى بحكم الصحراء وبوعد يوسف بألاّ يبرم أمراً دونه أو يستأثر بخير عليه[4]. ولم تذكر المصادر حدثاً استشار فيه يوسف أبا بكر بعد تنازله، مما يرجح أن يوسف استقل بالمغرب الأقصى استقلالاً تاماً، غير أنه حافظ على علاقات مودة بصنهاجة الصحراء حتى وفاة أبي بكر في ٤٦٨/١٠٧٥-١٠٧٦ حسب رواية ابن عذاري ــ وهو من أدق المصادر عن الفترة ــ، واستمرار الهدايا بينهما يشهد بذلك[5]. ولكن هل خضعت الصحراء ليوسف بوفاة أبي بكر كما تقول رواية ابن أبي زرع؟

يبدو أن الأمر نقيض ما يذكره ابن أبي زرع، ففي ٤٦٩/١٠٧٦ جاء ابراهيم ابن أبي بكر الى مراكش مطالباً بحكم المغرب الأقصى، فَرُدّ بالترهيب والترغيب، فرجع الى صحرائه محمّلاً بالهدايا[6] التي استمرت بعد ذلك عنواناً على حسن العلاقات بينهما[7]. وأغلب الظن أن المرابطين كانوا ينظرون الى الصحراء نظرتهم الى المناطق المستقلة عنهم، إذ كانوا ينفون إليها غير المرغوب فيهم من الأمراء مثل ما كانوا ينفون هؤلاء الى ميورقة قبل فتحها[8].

(١) البيان المغرب ٤:٢٣، الحلل الموشية ١٤.
(٢) البيان المغرب ٤:٢٣.
(٣) قيام دولة المرابطين ٢٢٢.
(٤) البيان المغرب ٤:٢٥.
(٥) البيان المغرب ٤:٢٦.
(٦) المصدر نفسه ٤:٢٦.
(٧) أنظر التبيان ١٧١.
(٨) راجع مؤنس «نصوص سياسية» ١١٨، المعجب ١٧٦، نظم الجمان ١٠٦، روض القرطاس ١٠٢-١٠٣.

ولا يضّعف القول باستقلال الصحراء عن مرابطي مراكش ما يرويه ابن عذاري عن تنظيم الجيش المرابطي الذي بعث لإنقاذ بلنسية في ١٠٩٤/٤٨٧، وانه كان يتكّون من العساكر المغربية والصحراوية والأندلسية[1]، فقد يعني تعبير « العساكر الصحراوية » المرابطين الذين فتحوا المغرب وتعبير « العساكر المغربية » قد يُعني بها القبائل البربرية في المغرب الأقصى التي أدخلها المرابطون في جيشهم، لأن تقسيمات الجند في ولاية علي بن يوسف أصبحت العسكر العدوية فقط[2].

وإذا لم تتبع الصحراء مرابطي مراكش ــ وقد كانت مهدهم ــ فمن المتوقع ألاّ تكون خاضعة للموحدين. ومما يستوقف الدارس أن صاحب كتاب الاستبصار يقول« ونحن الآن في شهر رجب الفرد سنة ١١٩١/٥٨٧، وكلمة التوحيد والهداية في بلاد الصحراء متصلة من طرابلس إلى مدينة غانة وكوكو»[3]، لأن «التوحيد» عند الموحدين « ذو مفهوم سياسي يعني الخضوع للدولة الموحدية »[4]. ولكن غياب أي إشارات أخرى وعدم ذكر الصحراء في تقسيمات الموحدين الإدارية يدعو إلى الظن بأن كلمة التوحيد هنا لا تعني إلاّ انتشار الإسلام، لأن الإشارة الوحيدة التي يفهم منها اتصال الموحدين بالصحراء تقول بأن « أناساً كثيرة من جيش غانية وعمرة الصحراء » اشتركت مع المنصور في غزوة شلب ١١٨٩/٥٨٥ على حكم التطوع[5].

وإذا كانت الصحراء خارج حدود مغرب القرن السادس فأين كانت حدوده الجنوبية في هذا الجزء الغربي؟ الراجح أن الحدود هنا يمثلها خط يمتد من سجلماسة الى نول لمطة مروراً بأركي. فسجلماسة أقصى بلد في جنوب مراكش الى جهة القبلة وصلته جيوش الموحدين، كما أن أركي هي أقصى مركز في

(١) **البيان المغرب** ٤:٤٠.
(٢) **البيان المغرب** ٤:٦٤.
(٣) **الاستبصار** ١١١.
(٤) موسى: « التنظيمات الحزبية » ٨٢.
(٥) **البيان الموحد** ١٧٤.

الطرف الشمالي للصحراء باشر عليه المرابطون نفوذهم السياسي[1]، وكانت نول لمطة أقصى مدينة ساحلية في الجنوب أخذها الموحدون من المرابطين[2].

وبناء عليه فالحدود الجنوبية لمغرب القرن السادس تمتد من طرابلس مروراً بالسفوح الشمالية لجبال نفوسة فنزولاً إلى قفصة، فتسير الحدود مع السفوح الجنوبية للعرق (أطلس الصحراء) إلى سجلماسة فأركي ثم نول لمطة على ساحل البحر المحيط.

الحدود الشمالية

كانت هذه الحدود في تغير مستمّر خلال القرن السادس نتيجة للصراع المسيحي الإسلامي في الأندلس. ولهذا لا بد من استبعاد المناطق التي لم يسيطر عليها المرابطون والموحدون أغلب سنوات القرن السادس مثل الجزر الشرقية[3] وسرقسطة[4] وسهلة بني رزين ــ أي شنتمرية الشرق[5]ــ، بينما يدخل شرق

(١) كان تولية قضاة أركي من قبل أمراء مراكش المرابطين (أنظر ابن الحسن الحضرمي في **الصلة** ٢:٦٠٥ ووردت فيها «أركي» مصحفة الى «أزكد»؛ وانظر أيضاً **التشوف** ٨٣-٨٤.
(٢) **أخبار المهدي** ١١٧-١١٨، ١٣٢.
(٣) لم يفتح المرابطون الجزر الشرقية إلاّ في ١١١٥/٥٠٨ (راجع Codera, **Decadencia**, pp. 167-171, 324-326; Bosch Villa, **Los Almoravides**, pp. 191-192; Prieto, **Los Reyes de Taifas**, p. 41. وعاشت في بداية السيادة المرابطية فترة قلقة (أنظر رسالة علي بن يوسف عند مكي: «وثائق تاريخية» ١٨٥-١٨٦) واستقلت في فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين، واستبد بها بنو غانية الذين احتفظوا في بداية الأمر بعلاقات طيبة مع الموحدين (راجع **بيان موحد** ٢١٥، **الحلة السيراء** ٢:٢٢٥) ثم متوترة بقية القرن السادس (انظر **بيان موحد** ١٥٥-١٥٧، ٢١٥-٢١٦) حتى احتلها الناصر الموحدي في نهاية القرن السادس/الثاني عشر (راجع **المعجب** ٣١٥، **بيان موحد** ٣١٥، **روض القرطاس** ١٥٣، **نهاية الأرب** ٢٣٠، **الروض المعطار** ١٨٩).
(٤) لقد أرادها يوسف بن تاشفين حاجزاً بينه وبين الممالك المسيحية ولهذا لم يضمها لملكه لما استولى عل إمارات ملوك الطوائف (راجع **البيان المغرب** ٤:٤٣، **الحلة السيراء** ٢:٢٤٨، **الحلل الموشية** ٦٠، ٦٢ وانظر أيضاً مناقشة حسين مؤنس لهذه القضية في مقالته في: «الثغر الأعلى» ٩٨ وما بعدها، خاصة ١٠٤-١٠٥) ويعزو ابن الكردبوس صمود بني هود في وجه المرابطين إلى تحالفهم ونصارى اسبانيا (**الاكتفاء** ١١٠). وتبدل سياسة سرقسطة في أيام عماد الدولة وتحالفها مع النصارى دفع علي ابن يوسف لاحتلالها في ١١١٠/٥٠٣ (راجع مؤنس: «الثغر الأعلى» ١٠٧، عنان: **عصر الطوائف** ٢:٢٨١-٢٨٢ وكذلك، «Lévi Provençal, La Toma de Valencia» ثم احتلتها أرغون واتخذتها عاصمة في ١١١٨/٥/١٢ (**المعجب** ٧٢، ٢٠٨، **الروض المعطار** ٩٧).
(٥) أنظر **الذيل والتكملة** ٥:ق ١:٥٢ حيث يذكر أن سياسة يوسف تجاهها مثل سياسته في حالة سرقسطة.

الأندلس في إطار مغرب القرن السادس على الرغم من سيطرة السيد القنبيطور على بلنسية بين سنتي ٤٨٧ و ١٠٩٤/٤٩٥ و ١١٠٢[١]، واستقلال ابن مردنيش بشرق الأندلس منذ أواخر فترة الانتقال[٢] حتى افتتحه يوسف بن عبد المؤمن في ١١٧٢/٥٦٧[٣]، لأن بقاء الشرق هذا خارج الدولتين المرابطية والموحدية لم يكن إلا لفترة قصيرة. ووفق هذا الأساس يمكن رسم الحدود الشمالية لمغرب القرن السادس.

يجعل الإدريسي جبال الشارات الحد بين بلاد قشتالة والاندلس[٤]، وربما صح هذا في فترة الانتقال التي زار الأدريسي فيها الأندلس والنصارى متحيفون لأطرافها، ولكن إذا نظرنا خلال القرن السادس نجد أنه منذ أن سقطت طليطلة في ١٠٨٥/٤٧٨ أصبح الصراع بين مسلمي المغرب ونصارى أسبانيا يدور حول السيطرة على وادي يانة، فالحصون الممتدة على هذا الوادي أو قريبة منه تكون تارة في قبضة هؤلاء وطوراً في يد أولئك كقلعة رباح[٥] وقونكة[٦]. بل إن بطليوس أصبحت خلال القرن السادس ثغراً يدافع عنه بعد أن كانت أيام الطوائف مركز إمارة مستقلة، فلا غرو أن جرت الزلاقة والأرك بالقرب منها، بل إن المنطقة غربي بطليوس شهدت معارك عنيفة من جانب المرابطين والموحدين لاستردادها، خاصة شنترين في حال الموحدين[٧]. ويلاحظ أن قصر أبي دانس هو الحدود بين باجة الإسلامية وأشبونة النصرانية[٨].

---

(١) راجع عنها Pidal, **La Espana del cid** pp. 434,449, 484-5, 533, 538-9, 581

(٢) هذا مع ملاحظة أن ابن مردنيش في هيئته وجنده وسلاحه ومحالفاته أقرب إلى نصارى اسبانيا، بل كان له علاقات تابعية إقطاعية مع بعضهم (أنظر .Codera, **Decadencia** p. 111 sqq)

(٣) **المعجب** ٢٤٨-٢٥٠، **روض القرطاس** ١٣٨-١٣٩.

(٤) **نزهة المشتاق** (ط. د.) ١٧٤.

(٥) **المعجب** ٣٢١.

(٦) **المن بالامامة** ٥٠٣، ٥٠٥-٥٠٦ ولم تسقط نهائياً في أيدي الإسبان إلاّ سنة ١٢٢٣/٦٢٠.

(٧) راجع **المعجب** ٢٥٨ وما بعدها، **الكامل** ١١:٥٠٥، **وفيات الأعيان** ٧:١٣١-١٣٢، **بيان موحد** ١٣٤ وما بعدها، **نهاية الأرب** ٢٠٣، **روض القرطاس** ١٠٥، ١٤٠، **أعلام الأعلام** (ط. ليفي) ١٨٥-١٨٦.

(٨) يقول ابن سعيد إن قصر أبي دانس كان آخر ثغور الإسلام في عصره (**الجغرافية** ١٧٨)؛ وانظر **الحلة السيراء** ٢:٢٧٢ الحاشية والمصادر المذكورة فيها: وقد سقط القصر نهائياً في ١٢١٧/٦١٤.

وعلى هذا يمكن القول بأن الحدود تمتد منه إلى يابرة فبطليوس[١] ثم صعوداً مع نهر يانة إلى اللج ــ وقريباً من القدر (Algador) ــ وهو الحد الفاصل بين المسلمين والنصارى حسب رواية ابن صاحب الصلاة[٢].

ومنذ سقوط سرقسطة وما أعقبه من سقوط طرطوشة وإفراغه خلال فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين[٣]، أصبح حصن بنشكلة ــ قرب أنيشة أو أنيجة ــ الحد السياسي والطبيعي في شرق الأندلس[٤]، ولم يسقط نهائياً إلاّ في ١٢٢٩/٦٢٧[٥].

المغرب بيئات ثلاث

إن هذه الأرض المترامية الأطراف التي تمثّل مغرب القرن السادس يمكن تقسيمها إلى بيئات ثلاث بالنظر إلى طبيعتها الجغرافية وأوضاعها السياسية وتقدمها الحضاري. وقد تنبه جغرافيو القرن السادس إلى التمايز بين البيئات المغربية، واختلفوا في عددها وحدودها لاختلاف منطلقاتهم أحياناً ولاختلاف الظروف السياسية التي شكلت الى حد بعيد نظراتهم الى الأمور بشكل عام. وستعالج هذه الدراسة المغرب من خلال ثلاث وحدات: أندلسية وغربية وشرقية.

البلاد الأندلسية

تشكّل البلاد الأندلسية وحدة جغرافية منفصلة عن بقية أجزاء المغرب بما حاطها من مياه البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، وتتميّز عنها بتقدمها الحضاري على الرغم من أنها منيت بسيطرة البلاد الغربية عليها سياسياً في القرن السادس.

---

(١) رواية ابن أبي زرع تكاد تجعل هذه هي الحدود أيام الموحدين في ١١٦١/٥٥٦ (راجع **روض القرطاس** ١٣١).

(٢) هو الحد عنده في ١١٧٢/٥٦٧ (راجع **المن بالامامة** ٤٩١).

(٣) **الكامل** ١١:١٣٦.

(٤) عن طبيعته الجغرافية أنظر **الروض المعطار** ٣٢.

(٥) راجع المصادر المذكورة في **الحلة السيراء** ٢:٣٠٥، الحاشية.

البلاد الشرقية والغربية

الاختلاف بينها

البلاد الشرقية هي المنطقة التي بسط صنهاجيو المهدية وبجاية عليها نفوذهم السياسي، وما يقع إلى غربها فهو ما يعتبر البلاد الغربية. والاختلاف بين المنطقتين في طبيعتها الجغرافية غير قليل؛ فعلى الرغم من أن تضاريس الأرض في البلاد الشرقية هي امتداد لتضاريسها في البلاد الغربية فأنهار المنطقتين تختلف اختلافاً كبيراً، فبينما أنهار هذه طويلة دائمة الجري، فهي في تلك قصيرة قليلة مياهها؛ وسهول الشرقية ضيّقة قصيرة بينما سهول الغربية واسعة فيحاء.

ويتضح الفرق في الأوضاع السياسية أيضاً. ففي الوقت الذي أنهكت التجزئة السياسية البلاد الشرقية فأصبحت عرضة للخطر الخارجي (الغزو الهلالي ثم النورماني) انتظمت الغربية في وحدة سياسية قوية في ظل المرابطين ثم الموحدين، فكان الأندلس والبلاد الشرقية مجالي توسّعها.

وكان مؤرخو الفترة يشعرون بهذا التمايز بين المنطقتين فيتحدثون عن مغربين: شرقي وغربي، سواء في عهد المرابطين[١] أو الموحدين[٢]، كما أن السلطة الموحدية كانت تنظر إلى الشمال الأفريقي من خلال هذا التمايز بين شقّية الشرقي والغربي[٣].

حدودهما

يقول الإدريسي إن تلمسان رصيف للداخل والخارج من « المغرب »[٤].

---

(١) أنظر **أخبار المهدي** ٩٧، **روض القرطاس** ١٢٩، ١٤٣.

(٢) راجع **المعجب** ١٨١، **الكامل** ١١:٢١١، **بيان موحد** ٢٧٣، **روض القرطاس** ١٣١، ١٤٥، ١٥١، ١٥٤، **نهاية الأرب** ٢٠٧.

(٣) أنظر **رسائل موحدية** ٥٧، ٢٤٣.

(٤) **نزهة المشتاق** (ط.ب.) ٥٦. ويجعل ابن سعيد وهران آخر المراسي العدوية (**الجغرافية** ١٤٠) ووهران هي مرسى تلمسان.

فإذن تلمسان هي المنطقة الفاصلة بين البلاد الشرقية والغربية، وهذا ما يتفق والنظرة الجغرافية، إذ إن جبال ونشريس ونهر شلف الذي ينبعث منها، يمثلان حدّ تلمسان الطبيعي من الشرق. وهذا الحد الطبيعي يتفق وأقصى اتساع للمرابطين شرقاً[١] في المنطقة الداخلية. وعند سيو سيرات – غربي تنس بمرحلة – في الساحل تنتهي حدود بني حماد الغربية[٢].

طبيعة أرض المغرب (التضاريس)

يرى بعض الدارسين استناداً إلى البنية والتضاريس والمناخ أن قارة أفريقيا تنتهي عند جبال البرانس أو تنتهي أوربا عند جبال الأطلس[٣]. وهكذا وجدت وحدة المغرب السياسية ما يدعمها من الطبيعة الجغرافية. وطبيعة الأرض تؤثّر في تحديد نوع المناخ وتوزيع المياه ومن ثمّ في مناطق الاستقرار والطرق التي تربطها.

ويتكوّن الشمال الأفريقي من سلاسل جبلية وهضاب تتخلّلها وديان. وتمتد هذه السلاسل من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي موازية للساحل بوجه عام. وتتراءى هذه السلاسل متصلة مع أنها منفصلة، ويمكن تحديدها في يسر.

أكبر هذه السلاسل جبل درن (أطلس الكبرى)[٤] الذي يصل ارتفاعه الى ٤٠٠٠ متر وقد يزيد عن ذلك في بعض قممه[٥] ولا تخترقه إلا ممرات مرتفعة. وفي

---

(١) **روض القرطاس** ٩٢.

(٢) **المعجب** ٣٥٢-٣٥٣، ٢٠٥-٢٠٦، **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٥٦؛ والجدير بالذكر أن ابن أبي زرع يذكر بأن يوسف بن تاشفين فتح الجزائر سنة ٤٧٤ (**روض القرطاس** ٩٢)، ويبدو أن الجزائر لم تستمر تحت حكم المرابطين؛ ولما فتح عبد المؤمن بلاد المرابطين توقف عند وهران (**المصدر ذاته** ١٢٢)، ولما فتح بلاد بني حماد كان على الجزائر في ٥٤٦ والٍ من قبل الحماديين (**روض القرطاس** ١٢٥-١٢٦) فضلاً عن أن المصادر الأخرى تذكر الجزائر تابعة لبجاية (أنظر مثلاً **التكملة** ١:٥٨، ٢:٦٥٨).

(٣) **جغرافية العالم** ١:٣٦٠، ٣٩٥، ٢:١٠٠، وانظر أيضاً Shackleton, Europe p.86

(٤) ابن خلدون وحده الذي يطلق «درن» على منطقتي الأطلسين الكبرى والصغرى (**العبر** ٦:١٠٢) وما يوضع في هذه الفقرة بين هلالين هو المصطلحات الجغرافية الحديثة.

(٥) **جغرافية العالم** ٢:١٢١.

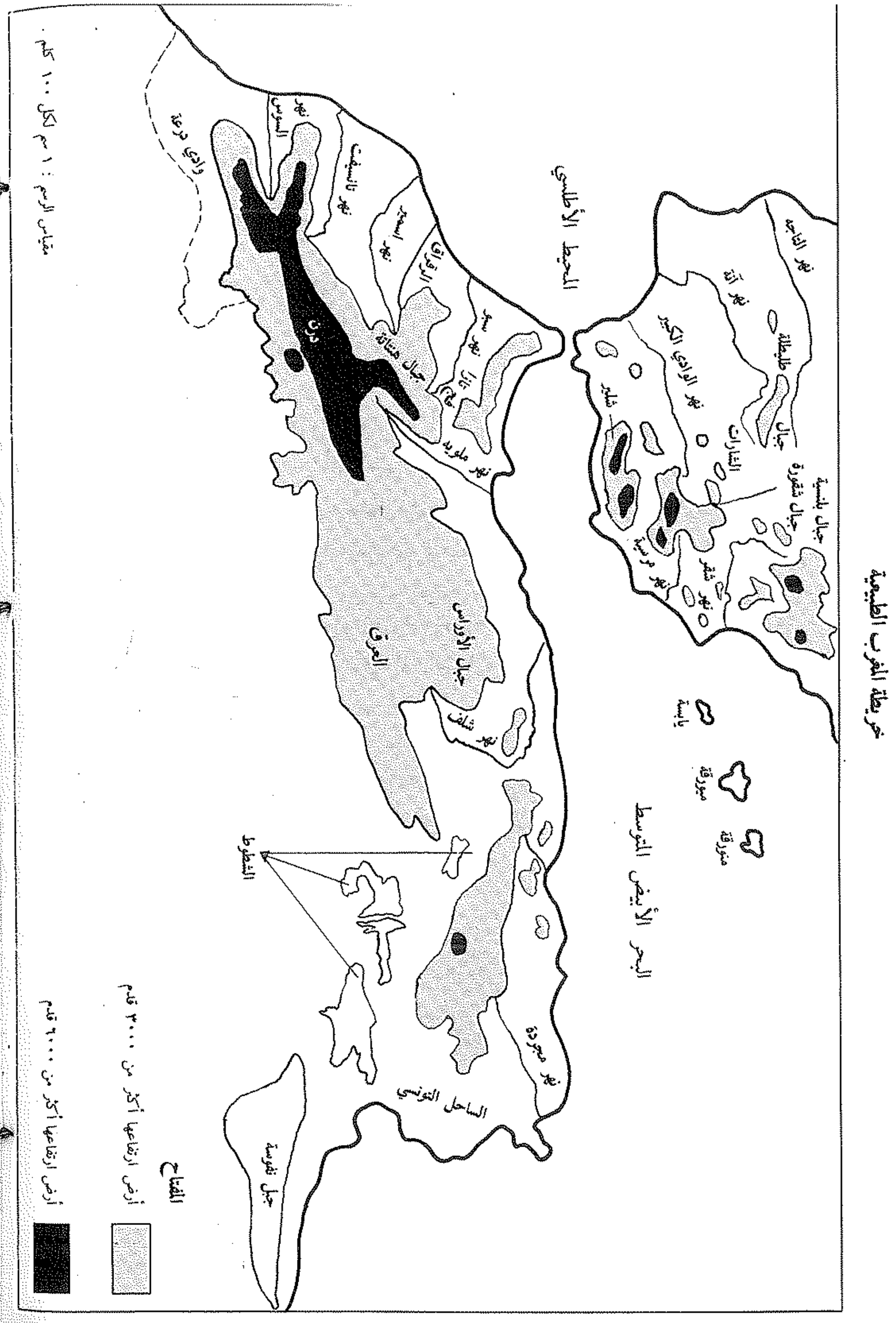

شماله تمتد جبال صنهاجة[١] (أطلس الوسطى) وعبرها تتصل البلاد الشرقية بالغربية عن طريق فج تازا الذي يبلغ ارتفاعه ستمائة متر ولا يزيد اتساعه عن كيلومتر ونصف[٢]. وتحف بجبال صنهاجة هذه هضبتان: شرقية (ميزتا وهران) وغربية (ميزتا مراكش). وإلى الشمال من جبال صنهاجة تقف جبال غمارة (أطلس الريف)[٣] شامخة منحدرة بشدة نحو الشمال حتى لتكاد تلامس البحر وعليه فسهول الساحل الشمالي ضيقة بينما يتميز الساحل الغربي بسهول واسعة.

وإلى الجنوب من درن توجد سلسلة جبلية صحراوية (أطلس الصغرى) تمتد من البحر المحيط متصلة بالعرق (أطلس الصحراء) وجبال نفوسة[٤].

وتكاد سلاسل الجبال (أطلس التل) في البلاد الشرقية أن تلغي وجود السهول في الساحل الشمالي. وتتكوّن هذه السلاسل من هضاب صغيرة غير متصلة يزداد ارتفاعها كلما اتجهت شرقاً، حتى تصل منتهاها عند قسنطينة والأوراس، ثم تصبح كتلاً متقطعة وسلاسل قصيرة، فتغدو بونة حداً فاصلاً بين (أطلس التل) والساحل التونسي شبه الصحراوي[٥].

وتختلف المنطقة جنوب (أطلس التل) في جزئها الغربي عن الشرقي. ففي الغربي توجد هضبة الشطوط التي يتراوح ارتفاعها بين ألف وألف ومائتي متر، وتتخللها جبال عالية مثل جبال وانشريس، وهكذا لم يحجبها (أطلس التل) عن الأمطار، فأصبحت منطقة استبس واسعة، تمتد من (أطلس التل) الى العرق (أطلس الصحراء) في الجنوب، ومن وادي ملوية في الغرب الى نهر شلف في الشرق. وهكذا تأخرت

(١) تسمي المصادر هذه السلسلة باسم القبيلة المسيطرة عليها كصنهاجة (**المعجب** ٣٤٠، ٣٦٤) أو بني يازغة (**روض القرطاس** ١٧) ومديونة (**صبح الأعشى** ١٧٤:٥)، و يسميها صاحب السفرة «جبال وركلان» (الفاسي: «مدن مغربية» ١٠) ولكن نسخ كتاب الجغرافية كثيرة التحريف ومن الصعوبة معرفة مدلول هذا الاسم الذي يورده مؤلف الكتاب.

(٢) أنظر **جفرافية العالم** ١٢٥:٢، Gautier, **Les Siècles Obscurs du Maghreb**, p. 290, Terrasse, **Histoire du Maroc**, p. 7.

(٣) البكري: **المغرب** ١٠٠ وما بعدها، **الاستبصار** ١٩٠، **صبح الأعشى** ١٧٣:٥.

(٤) راجع **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٦٣، **الاستبصار** ١٦٣، **العبر** ١٠٠:٦، **الروض المعطار** (عثمانية) ٥١و، **مشاهير فاس** ٦٤.

(٥) **جفرافية العالم** ١٤٠:٢.

الصحراء إلى الجنوب في هذا الجزء الغربي، بينما حجبت قمم الأوراس ما خلفها، فبدأت الصحراء مع سفوح الأوراس، فتجاور أطلس التل والصحراء التي تكثر فيها الواحات والشطوط، واتصلت الصحراء إلى مشارف طرابلس التي أحاطت بها جبال نفوسة كالهلال[1].

وتكاد شبه جزيرة أيبريا أن تكون قارة صغيرة تتكوّن من هضبة مرتفعة يزيد ارتفاعها على مائتي متر ما عدا في الجنوب الغربي، وتكاد حافاتها تشرف على السواحل فانعدمت فيها ــ من ثَم ــ السهول الساحلية الواسعة، وهذا الأمر جعل اتصال مدن الساحل بحراً أيسر من اتصالها بعضها ببعض أو بالمدن الداخلية برّاً.

و يتفاوت ارتفاع هذه الهضبة بين خمسمائة متر وألف ومائة متر. وتحف بالهضبة سلاسل جبال: كانتبريا والبرانس في الشمال وشلير (سيرّا نفادا) في الجنوب، وجبال سرقسطة (جبال الهضبة الأيبرية) في الشمال الشرقي. وتتخللها سلاسل جبال تتجه من شرق الشمال الشرقي إلى غرب الجنوب الغربي، و يدخل منها في نطاق البلاد الأندلسية جبال طليطلة والشارات (Sierra Morena) وشلير (سيرا نفادا) وشقورة. و يتميز شلير بارتفاعه، إذ يبلغ ارتفاع أعلى قممه ثلاثة آلاف وأربعمائة وثمانين متراً[2]. و بين هذه الجبال سهول تتفاوت سعةً وطولاً، لأنها أودية أنهار، مثل يانة والوادي الكبير ومرسية وشقورة. وقد أثرت تضاريس المغرب الأندلسي هذه في مناخه تأثيراً بالغاً.

مناخ المغرب

يسود شبه جزيرة أيبريا مناخان: مناخ غرب أوربا ومناخ البحر المتوسط. والمنطقة الفاصلة بين المناخين هي نهر تاجه[3]، ولهذا فالأندلس تقع ضمن مناخ المتوسط وحده، وعليه فقد وحّد مناخ المتوسط مغرب القرن السادس كله.

(١) راجع عن هذه الفقرة **جغرافية العالم** ٢: ١٧١-١٧٢، ١٧٧.

(٢) Shackleton, **Europe**, p. 104

(٣) ibid, P. 113. **جغرافية العالم** ١: ٣٩٥، ٣٩٧.

ومناخ المتوسط حارّ جافّ صيفاً بارد ممطر شتاء[1]، إذ يسيطر على البحر الأبيض المتوسط ضغط هوائي مرتفع في الشتاء، فتهب الرياح الغربية محملة برطوبة المحيط الأطلسي؛ ويخف الضغط صيفاً، وتنتقل مراكز الرياح شمالاً مع حركة الشمس الظاهرية، فتسود المنطقة الرياح القبلية الجافة فتجعل الصيف جافّاً حارّاً.

ولكن مناطق المغرب تتفاوت في تأثرها بهذا المناخ لأن حركة الرياح ودرجة الحرارة يعتمدان على تضاريس الأرض ارتفاعاً أو انخفاضاً وما يحيط بها من مياه البحار. ويحجب درن بارتفاعه السفوح الجنوبية الغربية عن الأمطار، فيتجاور فيه المناخان: المتوسط والصحراوي. وتقع السفوح الشرقية لجبال غمارة في ظل المطر، بفعل هذه الجبال نفسها ومرور الرياح على الأرض الأندلسية، حتى إن الصحراء لتكاد تصل إلى مصب نهر ملوية[2]. ولا يتخلص الساحل الشمالي للبلاد الشرقية من ظل المطر هذا إلا قرب تلمسان، حيث يبدأ المطر بالتكاثر كلما اتجهنا شرقاً إلى بونة، بفضل الارتفاع التدريجي لتل الأطلس، والبعد عن أثر جبال غمارة والأرض الأندلسية. وبعد بونة يبدأ شبه ظل مطر يحيل الساحل التونسي إلى شبه صحراء أو استبس، خاصة بين صفاقس وسوسة. ويمتد هذا المناخ إلى طرابلس التي جعلت منها جبال نفوسة والصحراء استبساً فقيراً[3].

إن انخفاض أطلس التل في جزئه الغربي بالمقارنة مع الجزء الشرقي، وارتفاع هضبة الشطوط، عاملان أساسيان في توفير مناخ استبس رعوي غني في هضبة الشطوط، بينما حال ارتفاع الأوراس وهضاب أطلس التل في الجزء الشرقي دون توفر مناخ مشابه، فجاءت الصحراء مجاورة للأوراس، ولم يتيسر الاستقرار إلاّ في واحات الجريد[4].

ومن المفيد الإشارة إلى أن الساحل التونسي، وإن كان منطقة استبس أمطارها شتوية، فقد يَسَّر خليج قابس لها مطراً صيفياً نتيجة مرور الرياح القبلية الشرقية الجافّة على مياهه[5].

(١) لاحظ الجغرافيون المسلمون الوحدة المناخية لاقليم البحر الأبيض وهذا هو مدلول عبارتهم «والأندلس شامية في طيبها وهوائها» (**الروض المعطار** ٣).

(٢) البكري، **المغرب** ١٤٢، **جغرافية العالم** ٢: ١١٨.

(٣) **جغرافية العالم** ٢: ١٤٠، ١٤٣، ١٧١-١٧٢، ١٧٧.

(٤) **المصدر نفسه** ٢: ١٣٦، ١٤٣.

(٥) **المصدر ذاته** ٢: ١١٥.

أما البلاد الأندلسية فحظها أفضل من الشمال الإفريقي لأن انخفاض جبالها بالمقارنة مع جبل درن، واتجاه جبالها من الشرق إلى الغرب تقريباً، جعلا الرياح الغربية تضرب جميع جهاتها. هذا بالاضافة إلى أن الرياح القبلية الشرقية تقلّ نسبة جفافها بمرورها على مياه البحر المتوسط، وقد تصيب بعض شرق الأندلس بمطر صيفي[1].

وكان لهذا المناخ وتلك التضاريس أثر كبير على توزيع المياه في المغرب، فحدّد مناطق الزراعة ووسائلها ومناطق الاستقرار والطرق إليها.

توزيع المياه

يعتمد المغرب في مياهه على ثلاثة موارد أساسية هي الأمطار والأنهار والينابيع.

الأمطار:

من تأثير تضاريس المغرب على الرياح الرطبة وضح أن البلاد الغربية والأندلسية أكثر أمطاراً من البلاد الشرقية، ولكن ينبغي التفريق بين منطقتي البلاد الشرقية، فبينما تنال المرتفعات العالية من تل الأطلس حول قسنطينية والأوراس أمطاراً غزيرة[2]، كان حظ الجزء الغربي من إقليم التل أقل، وهكذا حال السهل الساحلي التونسي. والقاعدة العامة في أمطار الشمال الإفريقي أن الأمطار تقل كلما اتجهنا جنوباً[3].

ويلاحظ أن أمطار المغرب غير منتظمة في أوقاتها أو توالها. فهي تظهر مبكرة في البلاد الشرقية[4] في سبتمبر، وتتأخر في البلاد الغربية إلى آخر أكتوبر، ثم تظهر فترة جفاف نسبي في يناير في البلاد الشرقية وفي فبراير في الغربية. وتختلف النهاية الكبرى من منطقة إلى أخرى. في الساحل التونسي تبلغ أقصاها في ديسمبر ولكن قد تغزر

(١) يروي ابن صاحب الصلاة أن محاصرة الموحدين لوبذة في ذي القعدة/يونية ١١٧٢ كانت والحر قائظ، وفجأة «نزل مطر وابل ورعد قاصف وبرق خاطف» أفسد على الموحدين خططهم (**المن بالامامة** ٤٤٩، **بيان موحد** ٩٦).

(٢) أنظر وصف البكري لباجة أفريقية في **المغرب** ٥٦.

(٣) أنظر وصف مطر سجلماسة في **الاستبصار** ٢٠١.

(٤) الاعتماد في هذه الفقرة أساساً على **جغرافية العالم** ٢:١١٦-١١٨ إلا حيث ذكر المصدر.

الأمطار في مايو أيضاً، وفي إقليم التل في يناير، وفي جنوب تونس في مارس، وفي البلاد الغربية إلى مارس أو أبريل وأحياناً إلى مايو[1]. وفي الأندلس تبدأ الأمطار عادة في ٢٢ سبتمبر[2] وقد تتأخر إلى ديسمبر[3]، ولا يغمر العام إلاّ إذا أمطر يناير ومارس وأبريل[4].

والأمطار أمر غير منتظم، فقد تتوالى ثمانية أيام أو خمسة عشر يوماً[5] أو شهراً[6] أو أربعين يوماً[7]، أو خمسين يوماً[8]، كما قد تنحبس في عام[9] أو أعوام متصلة[10]، ومن هنا تظهر أهمية الأنهار ونوعيتها.

الأنهار

إن كثرة الأمطار في البلاد الغربية وارتفاع جبالها وما وفره هذا الارتفاع من ثلوج[11] يسّر للبلاد الغربية مياهاً دائمة بالمقارنة مع البلاد الشرقية باستثناء منطقتي قسنطينة وجبال وانشريس[12]. ولهذا فإن أكثر أنهار البلاد الشرقية قصير وماؤها قليل وغير دائمة

(١) أنظر عن أمطار مايو وصف ابن القطان لمعركة البحيرة (نظم الجمان ١٢٠) التي حدد هويثي تاريخها بمايو ٥٢٤/١١٣٠. (Huici, Historia, II, pp. 83-84).

(٢) **تقويم قرطبة** ١٤٢-١٤٣.

(٣) أنظر **المن بالامامة** ٣٩٧.

(٤) **تقويم قرطبة** ٧٥، **الأنواء** ٢، ٤، ٥، ٧، ٨، ١٧،.

(٥) **أخبار المهدي** ٩٣، **البيان المغرب** ٤:١٠٠.

(٦) **معجم الصدفي** ٢٦٠.

(٧) يستفاد هذا من خبر ورد في **نظم الجمان** ٢٣٣.

(٨) **أخبار المهدي** ٩١.

(٩) حدث في فاس سنة ٥٢٤ (**نظم الجمان** ١٨٣) وقرطبة في ٥٢٦ (**نظم الجمان** ١٩٧) وأفريقية سنة ٤٩١ (**الكامل** ١٠:٢٧٩) والبلاد الغربية سنة ٦١٤ (**البيان الموحد** ٢٤٤، ٢٤٥).

(١٠) توالى المحل في أفريقية من ٤٨٢ الى ٤٨٤ (**الكامل** ١٠:١٧٩) ومن ٥٣٧ الى ٥٤٢ (**الكامل** ١١:١٢٤)، وفي البلاد الغربية من ٦١٧ الى ٦٣٧ (انظر **بيان موحد** ٢٤٥، **الذيل والتكملة** ٥:ق ٢:٦٤٥، **روض القرطاس** ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ٢١٠).

(١١) أنظر عن ثلج جبل فازار **الاستبصار** ١٨٧، **الروض المعطار** (نور عثمانية) ٢٩١ق. وعن ثلوج درن راجع **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٦٦، **الاستبصار** ٢١١، ويدوم الثلج في جبال الأطلس ستة أشهر وربما تسعة أشهر (راجع **جغرافية العالم** ٢:١١٤).

(١٢) أنظر عن ثلوج تاهرت **الاستبصار** ١٧٨، **الروض المعطار** (نور عثمانية) ٨٤و، وعن قسنطينة راجع **الاستبصار** ١٦٦، وعن الغدير أنظر **الاستبصار** ١٦٧، والبكري، **المغرب** ١٤٧، ويسقط الثلج في جبال قسنطينة مدة شهرين في العام (**جغرافية العالم** ٢:١١٤). وثلوج جبل زغوغ قرب بونة كثيرة (البكري، **المغرب** ٥٥).

الجري، ما عدا نهر بجردة (مجردة) ووادي بجاية[1] ــ على قصرهما ــ ووادي شلف الذي يزيد صيفاً بفضل ثلوج جبال وانشريس ومنها ينبعث[2].

والأنهار الموسمية في البلاد الشرقية كثيرة مثل نهيرات فحص متيجة[3] وزرود والطرفان[4] و بيطام قرب طنبة[5] ونهري بسكرة والمسيلة[6] وغيرها[7].

و يلاحظ أن جبال تل الأطلس الشرقية هي منطقة تقسيم المياه[8] في البلاد الشرقية، وجبال صنهاجة منطقة تقسيم المياه في البلاد الغربية، فمنها تخرج أكثر أنهار البلاد الغربية طولاً ودواماً[9]، مثل نهر سبو وأسمير[10] وأم الربيع[11] ووادي ملوية. و ينبع من درن (أطلس الكبرى) وادي تانسفيت[12] ووادي السوس[13]، و ينبعث من جبال غمارة واديا لكس ومجكسة[14].

(١) المعجب ٣٦٤-٣٦٥، الاستبصار ١٢١.
(٢) نزهة المشتاق (ط. د.) ٥٧، العبر ٦:١٠٢، صبح الأعشى ٥:١٧٤.
(٣) الاستبصار ١٣٢.
(٤) يقول البكري عنه إنه إذا حمل دمّر ما حوله من القرى والمنازل وتكون سعته أزيد من ثلاثة أميال (المغرب ٢٩)
(٥) يقول أهل طبنة إذا حمل: «بيطام بيت الطعام» (البكري، المغرب ٥٠-٥١).
(٦) المصدر ذاته ٥٩، الاستبصار ١٧٣.
(٧) مثل وادي راشد الذي ينزل بسيول الشتاء من جبال وانشريس و ينتهي بين توزر ونفزاوة. وهنالك واد آخر يخرج من منبع نهر ملوية و يتجه نحو القبلة و يغور في الصحراء (راجع العبر ٦:١٠٢) ونهيرات قرب قلعة بني حماد (الكبري، المغرب ١٤٤).
(٨) هذا هو المصطلح الجغرافي الحديث، والمغاربة كانوا يطلقون على منبع النهر «الفوهة» (انظر صلة السمط ١٤٦، العبر ٦:١٠٢).
(٩) راجع عن منابعها ومصابها: نزهة المشتاق (ط. ب.) ٣٨، ٤٦، كتاب الجغرافية ١٤٠، الاستبصار ٢٠٦، ٢٠٩، المعجب ٣٦٤-٣٦٥، مسالك الأبصار (آيا صوفيا) ٤:٤٣أ.
(١٠) هكذا أسماه الإدريسي وصاحب كتاب الجغرافية (نزهة المشتاق ط. د. ٧٢، كتاب الجغرافية ١١٥، الفاسي «مدن مغربية» ١٠)، ونسبه المراكشي إلى سلا مرة ودعاه بوادي الرمان أخرى (المعجب ٣٧٩، ٣٦٤). ويخلط البكري و يسميه وانسيفن (المغرب ١٤١) في الوقت الذي ينص صاحب الاستبصار أن وانسيفن هو الوادي الأعلى لنهر أم ربيع (الاستبصار ١٨٥، الروض المعطار (نور عثمانية) ٣٩٩ق). و يطلق عليه الآن وادي أبي رقراق، و يبدو أن هذا الاسم أطلق عليه منذ أيام الحسن الوزاني لأنه يسميه به. (Léon L'Africain, **Déscription de l'Afrique**, p. 543).
(١١) «سريع الجري... يجاز بالمراكب» نزهة المشتاق (ط. ب.) ٤٦.
(١٢) وهذا ساعد كثرة مياهه الأودية الكثيرة النازلة عليه مثل وريكة ونفيس وغيرهما (راجع الاستبصار ٢٠٩).
(١٣) أنظر رواية ابن سعيد في صبح الأعشى ٥:١٤٧؛ وخلط صاحب الاستبصار بينه و بين وادي ماسة (أنظر الاستبصار ٢١١).
(١٤) يعتبره البكري وادياً كبيراً تسير فيه المراكب (المغرب ١٠٦).

وهذه الأنهار ــ باستثناء ملوية ومجكسة ــ تصب في البحر المحيط، وبما أن السهول الساحلية في البلاد الغربية واسعة، فقد أصبحت هذه السهول من أهم المناطق الزراعية، لا سيما وأن هذه الأنهار تزيد في خصوبتها بما تحمله من غرين غني بالمواد الحديدية[1]. وهذه ظاهرة طبيعية أخرى تميّز البلاد الغربية عن الشرقية، لأن قصر أنهار البلاد الشرقية وضيق سهولها جعلا مناطق الزراعة السهلية ضيقة بالمقارنة إلى ما في البلاد الغربية. وخير مثالين على سهول البلاد الشرقية فحص متيجة[2] ووادي مجردة[3].

وثلوج درن وذوبانها صيفاً كونت أنهاراً صيفية تسقي مناطق صحراوية مثل درعة وسجلماسة أو شبه صحراوية مثل السوس، مما نتج عنه قيام واحات زراعية هامة في هذه المناطق[4] وماء هذه الأنهار ليس بالقليل، فكثيراً ما نزّل سيولاً[5].

وتشابه أنهار البلاد الأندلسية أنهار البلاد الغربية والشرقية، فالتي تصبّ في الميحط الأطلسي أطول من تلك التي تتجه صوب البحر المتوسط، ولكن مرّد هذه الظاهرة في الأندلس إلى طبيعة الأرض وليس لكمية الأمطار، لأن المرتفعات في شرق الأندلس تكاد تلامس البحر المتوسط. ومما يؤكد هذا الرأي أن وادي يانة مع طوله يغور في عدة مواضع[6]، في الوقت الذي يتصف فيه نهرا شقور ومرسية بالاستمرارية مع قصرهما النسبي.

وهنالك ثلاث مناطق لتقسيم المياه في البلاد الأندلسية[7]: أولاً: الهضبة الأيبرية ومنها نهرا يانة وشقور، ثانياً: جبل شقورة و ينبع منه نهرا الوادي الكبير ومرسية، ثالثاً: جبل شلير الذي تغطيه الثلوج طوال العام[8]، وتذوب ابتداء من الربيع، فتجعل من شلير

(١) جغرافية العالم ٢: ١٢٤.
(٢) أنهاره تنزل من الجبال المحيطة حاملة طميها (الاستبصار ١٣٢).
(٣) عرف هذا الوادي بخصوبته منذ أيام الرومان (جغرافية العالم ٢: ١٤١).
(٤) أنظر البكري، المغرب ١٤٨، نزهة المشتاق (ط.د.) ٣٨. الاستبصار ٢٠١، ٢٠٦، مسالك الأبصار (آيا صوفيا) ٤:٥٢ب، العبر ٦:١٠٢، صبح الأعشى ٥:١٧٥، الروض المعطار (نور عثمانية) ٢٠٤ق.
(٥) راجع التشوف ١١٩، ٤٢٣-٤٢٤.
(٦) كتاب الجغرافية ٨٩، الروض المعطار ٤٦.
(٧) عن منابع أنهار الأندلس راجع كتاب الجغرافية ٩٨-٩٩، ١٣٩-١٤٠، المعجب ٣٧٥، صلة السمط ١١٤، صبح الأعشى ٥:٢٣٥.
(٨) نزهة المشتاق (ط.د.) ٢٠٣، كتاب الجغرافية ٩٣، ٩٤، صلة السمط ١٤٥ مسالك الأبصار (آيا صوفيا) ٤:٥٨ب، صبح الأعشى ٥:٢١٤، الروض المعطار ٢٣.

مصدراً هاماً للمياه، و يكفي أن نهر شنيل من مياه ثلوجه[1] حين تذوب. وتغذي الأودية النازلة من شلير الوادي الكبير في الصيف[2]، مع أن الوادي الكبير يحمل في الشتاء[3] فيصل إشبيلية « وهو بحر خضم »[4].

وفيما عدا هذه الأنهار الكبرى هناك أنهار موسمية كثيرة: يقول صاحب كتاب الجغرافية إن أربعين نهرا تشق الأندلس[5]. وهذه الأنهار الموسمية منها ما يحمل في الشتاء مثل نهر بلنسية[6] ووادي المرية[7] ونهر شلب[8]، أو في الربيع كوادي مالقة[9].

وواضح أن اعتماد أنهار المغرب على الأمطار كبير، ولهذا تجد أن أكثرها يحمل في موسم الأمطار، وقد تأتي سيولاً إن جاء الخريف، خاصة بالنسبة إلى تانسفيت[10] وأم الربيع[11] والوادي الكبير[12]، وأودية بلنسية[13] وفاس[14] وطنجة[15]. ولهذا فالأنهار التي تعتمد كلياً على الأمطار تصبح عرضة لتقلّب الأمطار، بينما الأنهار التي تستمد استمرارية من العيون التي قربها، تصبح أكثر فائدة في مواسم الجفاف وشح الأمطار، ومن هنا تظهر قيمة العيون في دراسة توزيع المياه في المغرب.

(١) **صلة السمط** ١١٣-١١٤، و يدل على أهمية شنيل في نظر أهله أن جعلوه نيلاً بألف ضعف لأن الشين ألف في حساب العدد (أنظر **الإحاطة** ١ : ١٢٤).
(٢) أنظر **الروض المعطار** ١٩٢.
(٣) **المصدر ذاته** ٥٧.
(٤) **المعجب** ٣٧٣ وهو عند الأندلسيين يضاهي دجلة والفرات والنيل والأردن (**كتاب الجغرافية** ٨٨).
(٥) **كتاب الجغرافية** ٨٨
(٦) **نزهة المشتاق** (ط. د.) ١٩١.
(٧) **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤ : ٦٠ب، **صبح الأعشى** ٥:٢١٧.
(٨) **الروض المعطار** ١٠٦.
(٩) ابن سعيد، **المغرب** ١ : ٤٢٣.
(١٠) **نزهة المشتاق** (ط. ب.) ٦٩، **التشوف** ١٠٤.
(١١) **العبر** ٦ : ١٠٢.
(١٢) أنظر سيول إشبيلية الكبرى في سنة ٥٦٤/١١٦٨ (**المن بالامامة** ٢٣، **بيان موحد** ١٣٨، **روض القرطاس** ١٧٧)، وفي سنة ٥٧٤/١١٧٩، (**بيان موحد** ١١٢)، وفي سنة ٥٩٧/١٢٠١ (**بيان موحد** ٢١٤، **ملء العيبة** (مخ) ٩١ أ، **الذيل والتكملة** ٥:ق ٢ : ٦٦١، **الروض المعطار** ٢١).
(١٣) **الاكتفاء** ٩٨-٩٩.
(١٤) **أخبار المهدي** ٩١. **بيان موحد** ٤ : ٩٩، **روض القرطاس** ١٨٣.
(١٥) **البيان المغرب** ٤ : ٩٦.

العيون

يستفاد من العيون إما بتغذيتها للأنهار بالمياه بعد فصل الأمطار، أو باستخدامها بديلاً عنها في الزراعة والشرب، سواء في منطقة الأمطار أو الأنهار أو الواحات. وقد كان للعيون هذه الأهمية في جبال تل أطلس الشرقية في قسنطينة[1] وسطيف وميلة[2] ومليانة[3] وسبيبة[4] وباجة[5] وبادس[6]، وفي جباله الغربية في تلمسان[7]، وفي قفصة[8] ونفطة[9] من واحات البلاد الشرقية، وفي الأندلس في غرناطة[10] ومرسية[11] وأرشذونة[12] و بسطة[13] وقبرة[14] وأبدة[15] وقرمونة[16] و بجانة[17] وفي البلاد الغربية في فاس[18] ومكناسة[19]

(١) **نزهة المشتاق** (ط.ب) ٦٨.
(٢) البكري، **المغرب** ٦٤، **الاستبصار** ١٦٦.
(٣) **نزهة المشتاق** (ط.ب) ٥٨، **الاستبصار** ١٦٧.
(٤) **المصدران ذاتها** ٨٨، ١٦١ على التوالي.
(٥) البكري، **المغرب** ٥٦، **الاستبصار** ١٦٠.
(٦) **المصدران ذاتها** ٧٤، ١٧٥ على التوالي.
(٧) **نزهة المشتاق** (ط.ب) ٥٤، **الاستبصار** ١٧١، **الروض المعطار** (نور عثمانية) ٨٩ق.
(٨) **العطاء الجزيل: الزوائد**: ٦، **الاستبصار** ١٨٧-٠٨٨، **الروض المعطار** (نور عثمانية) ٣١٩ق.
(٩) البكري، **المغرب** ٧٤-٧٥.
(١٠) **الاحاطة** ١:١٠٣، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٥٩أ، **صبح الأعشى** ٥:٢١٥، **الروض المعطار** ٢٣.
(١١) **صبح الأعشي** ٥:٢٣٠.
(١٢) **الروض المعطار** ١٢.
(١٣) **المصدر ذاته** ٤٥.
(١٤) **المصدر ذاته** ١٤٩.
(١٥) **المغرب** ٢:٧٥، **صبح الأعشى** ٥:٢٢٩، **الروض المعطار** ٧٠-٧١.
(١٦) **الروض المعطار** ١٥٩.
(١٧) **المصدر نفسه** ٣٨-٣٩.
(١٨) **نزهة المشتاق** (ط.ب) ٥٠، **الاستبصار** ١٨٠، و يقول ابن سعيد إن في فاس القديمة وحدها أربعمائة عيناً سارحة، وفي رواية ثلاثمائة وستين. ولكثرة العيون في فاس يرى ابن سعيد أن فاساً أكثر مياهاً من دمشق وغرناطة (راجع: ابن سعيد، **الجغرافية** ١٤١، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٤٢أ، ٤٣أ-٤٣ب، **صبح الأعشى** ٥:١٥٥).
(١٩) انظر **الاستبصار** ١٨٨؛ وقد عرفت مكناسة بكثرة المياه على الرغم من أن نهرها يعتمد أساساً على العيون. و بكثرة مياهها يمدحها ابن عبدون بقوله

يكفيك من مكناسة أرجاؤها　　　والأطيبان هواؤها والماء

(**إتحاف أعلام الناس** ٣:٥٧٩، الفاسي: «ابن عبدون» ١٣).

وتازا[١] وجبال غمارة[٢] وأغمات[٣] ونهر سجلماسة[٤] وآسفي[٥].

وواضح من توزيع مناطق العيون أنها تنبجس في المناطق الجبلية المرتفعة مستفيدة من الثلوج. وهذه المناطق عينها مناطق تقسيم المياه في المغرب. ولهذا تعتمد العيون كالأنهار على الأمطار في مياهها، فبعضها يفيض ماؤه في الصيف[٦]، ولا ينتهي غور مياه العيون في الأندلس إلاّ في أكتوبر[٧]، وتظهر الزيادة في العيون في الشمال الأفريقي في أواخر ديسمبر[٨] أي مع تمكّن الأمطار في المنطقتين. ويربط ابن خلدون بين قيام واحات البلاد الجريدية ووركلان وتدفق مياه الأودية نحو الصحراء وغورها فيها[٩]، فكأنه يريد القول بأن عيون هذه الواحات من تلك الأمطار التي تسيل في الأودية.

المياه مشكلة المغرب الاقتصادية

إن تعدد مصادر المياه في المغرب قد يبعث على الظن بأنها متوفرة، إلاّ أنه قد وضح أن هذه المصادر تعتمد على الأمطار المتقلبة، هذا بالإضافة إلى طبيعة المغرب الجبلية وما تشكّله من عائق لجرّ المياه من أودية الأنهار إلى البسائط. وينصّ ابن سعيد على أنه لا يسهل جرّ الماء من نهر إشبيلية إلى ضفافه[١٠]. ويعلّق صاحب الاستبصار آسفاً على عدم الاستفادة من مياه نهر سبو الذي لا يخرج إلى البطاح فيسقي مساحات واسعة[١١]. ويبدو أن صعوبة جرّ المياه هذه هي الدافع الذي جعل ابن سعيد يقول بأن تقسيم المياه في

(١) الاستبصار ١٨٦.
(٢) المصدر ذاته ١٩٠.
(٣) نزهة المشتاق (ط.ب) ٦٩.
(٤) البكري، المغرب ١٤٨، الاستبصار ٢٠١.
(٥) صبح الأعشى ٥:١٦٨-١٦٩.
(٦) الاستبصار ١٥٢.
(٧) تقويم قرطبة ١٤٩.
(٨) الأنواء ١٩.
(٩) العبر ٦:١٠٢ ولعله من المفيد هنا أن نشير إلى أن نهر المسيلة « فيه ماء كثير مستنبط على وجه الأرض وليس بالعميق » (نزهة المشتاق (ط. د.) ٨٦).
(١٠) ابن سعيد، المغرب ٢:٢٤٥.
(١١) الاستبصار ١٨٤-١٨٥.

دمشق أحسن منه في غرناطة[١] مع أنه يرى أن أنهار الأندلس أفضل من أنهار الشام[٢]. فكيف حاول المغاربة التغلّب على هذه المشكلة حتى مطلع « القرن السادس » بوسائل الرّي المختلفة؟

وسائل الرّي

إن المناطق التي كانت تسودها الحضارة الرومانية تقدّمت في وسائل الرّي أكثر من غيرها لا سيّما أن أفريقية الرومانية كانت زراعية قبل كل شيء[٣]. فمنذ تلك العهود بذلت جهود لتنظيم المياه ورفعها إلى ما حول أودية الأنهار أو جلبها من أماكن بعيدة. وفي هذا كان حظ البلاد الشرقية والأندلسية أفضل من الغربية. ومن هذه الوسائل التي صنعها الأول أقواس قسنطينة[٤] ودواميس قرطاجنة[٥] وداموس ماردة[٦] وقنطرة قرطبة[٧] وقنطرة طليطلة وناعورتها[٨]، وجلب الماء في أقباء وأنابيب من أماكن بعيدة إلى لبلة[٩]، وغير ذلك من البلاد الأندلسية والشرقية[١٠]، بينما لا يرد ذكر شيء في البلاد الغربية عدا المنطقة الساحلية الشمالية كما في سبتة وطنجة[١١]. ولا ريب أن بعض هذه الوسائل توقف عملها بسبب الفتن أو الإهمال كما في حال دواميس قرطاجنة. ويبدو أن هذه الأعمال تركت أثرها في تجارب سكان هذه المناطق، فقد ظلت المياه تجلب إلى الهضاب حول غرناطة[١٢]. وسيرد كيف أن الموحدين حاولوا الكشف عن آثار الأول والاستفادة منها في وسائل الريّ.

(١) مسالك الأبصار (أحمد الثالث) ٣:ق ١:١٦٦.
(٢) المصدر ذاته ٣:ق ١:١١٤.
(٣) Sherwin-White; "Geographical Factors in Roman Algeria", pp. 8-10.
(٤) نزهة المشتاق (ط.د.) ٩٥، الاستبصار ١٦٥.
(٥) المصدر نفسه ١١٣، البكري، المغرب: ٤٤.
(٦) نزهة المشتاق (ط.د) ١٨٢.
(٧) المصدر ذاته ٢١٢.
(٨) المصدر نفسه ١٨٧.
(٩) الروض المعطار ٣٥.
(١٠) أنظر أمثلة أخرى عند البكري، المغرب ٢٩، ٤٤، ٥٩، ٧٦-٧٧، الاستبصار ١١٧، ١٣٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٧٦.
(١١) راجع البكري، المغرب ١٠٣، ١٠٩، الاستبصار ١٣٧.
(١٢) الإحاطة ١:١٢٧.

وقد عمل المغاربة حتى مطلع القرن السادس للاستفادة من مياه الأنهار والعيون وجرّها إلى البسائط بوسائل متعدّدة، منها شقّ الترع وتفريع الأنهار جداولَ. وتتجلّى جهودهم في هذا خير ما تتجلّى في غرناطة[١] وفاس[٢] وأغمات[٣] وبلنسية[٤] ومالقة[٥]. واستعملوا طريقة الريّ بالأحواض — على نسق فعل المصريين — في مرسية[٦] ولورقة[٧] وسجلماسة[٨]. ولكن أكثر وسائل الريّ انتشاراً في المغرب هي الروافع من سواقي أو (سواني) ونواعير ودواليب وخطارات. فالساقية والناعورة والدولاب أسماء لشيء واحد[٩]. وأهم أشياء في الساقية الدابة التي تحرّكها — وعادة تكون ثوراً — والقواديس التي تحمل الماء من الجابية وهي مجتمع الماء[١٠]. وقد يرد استعمال كلمة الساقية أو السانية بمعنى النهر الصغير أو الجدول[١١] أو الحقل[١٢]. وأما الخطارة فهي صنف من

(١) أنظر رسالة الشقندي (نفح الطيب ٣:٢١٧، ٤:٢٨٩)، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٥٩أ-٥٩ب، **الإحاطة** ١:١٠٥، **صبح الأعشى** ٥:٢١٥، **الروض المعطار** ٢٣-٢٤. وقد شكلت جداول الأنهار حول غرناطة دفاعاً طبيعياً عن المدينة (أنظر محاولة الموحدين استرداد المدينة من ابن همشك في ٥٥٦/١١٦١ وكيف حالت الأنهار دون ذلك في **المن بالامامة** ١٩٢، **بيان موحد** ٥١، **الإحاطة** ١:٣٠٩).
(٢) البكري، **المغرب** ١١٥، **نزهة المشتاق** (ط. د.) ٧٥، **الاستبصار** ١٨٠.
(٣) **الروض المعطار** ٣١ق.
(٤) **صبح الأعشى** ٥:٢٣١.
(٥) يقول ابن مسلمة عن وادي ريّة:

بـــــوادي ريّـــــه   اخـلـع عـذار التـصابي
أمـــا تـــراه مـــفـــرع
مـثـل الـصـبـاح المرصـع
بـــالـــروض عـــاد مجـــزع

(ابن سعيد، **المغرب** ١:٤٢٤).
(٦) **الروض المعطار** ١٧٢.
(٧) **المصدر ذاته** ١٧٢.
(٨) البكري، **المغرب** ١٤٨، **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٦٠، **الاستبصار** ٢٠١، **التشوف** ١١٩، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٥٢ب-٥٣أ، **صبح الأعشى** ٥:٦٤.
(٩) **أمثال العوام** (الاطروحة) ١:٢١٧، **التشوف** ١٦٦، ابن سعيد، **المغرب** ٢:٢٨٦، **صبح الأعشى** ٥:١٦٩، **الروض المعطار** ١٧٢، ١٨٣، المعيار ٨:٤٨، ١٠:١٩٦.
(١٠) هناك أوصاف كثيرة للساقية خاصة في الشعر (راجع **المعجب** ٢٢٢-٢٢٣، ابن سعيد، **المغرب** ٢:٣١٢، ٣٥١، **فقهاء مالقة** (مخ) ٢٤، **رفع الحجب المستورة** ١٣٥، **نفح الطيب** ٤:١٢٥).
(١١) **نزهة المشتاق** (ط. د.) ٥٠، **المن بالإمامة** ١٩٢، ٢٣٥، ٢٩٩، **الاستبصار** ١٨٠، **التشوف** ١٥٦، ٤٠٥، ابن سعيد، **المغرب** ٢:٣٨٦.
(١٢) انظر **المعيار** ٨:٢٤، ٢٣٦.

الدواليب الخفاف، و يقول المقّري إن أهل الأندلس يسقون بها زرعهم من الأودية وإنها كثيرة على وادي إشبيلية[١]، بينما يقول الإدريسي إنها تستعمل في المغرب لنقل الماء من الآبار[٢].

الأمطار أساس الزراعة

إن هذه الوسائل أفادت في زراعة ضفاف الأنهار والبسائط قرب العيون في المناطق المذكورة في الفقرة السابقة، بالإضافة الى مرسية[٣] وضفاف أسمير[٤] وتانسيفت[٥] وملوية[٦] ووادي جيان[٧] ونهر وادي آش[٨] ووادي بجانة الذي يسقي بساتين المرية[٩] ووادي برجة[١٠] — قرب المرية — ووادي العسل في الجزيرة الخضراء[١١] ولك في شريش[١٢] وبرشانة قرب جيان[١٣] ووادي بجاية[١٤] ونهر شلف[١٥]!

ولكن الطبيعة الجبلية للمغرب لم تمكّن الناس من زراعة أراض واسعة؛ فهذه المناطق المروية آلياً كثيراً ما نصت المصادر على أن ريّها إنّما كان لاستوائها[١٦]! ولهذا

(١) **نفح الطيب** ٣:٤٥٤.
(٢) **نزهة المشتاق** (ط.ب) ٢٢ ويقول إنها تسمى في أرض زغاوة «انجفة».
(٣) ابن سعيد، **الجغرافية** ١٦٧، **المغرب** ٢:٢٤٥، **صبح الأعشى** ٥:٢٣، **الروض المعطار** ١٨٣، **نفح الطيب** ٣:٢٢٠.
(٤) **الإتحاف الوجيز** (مخ) ٢٥، ٢٧.
(٥) **نزهة المشتاق** (ط.د) ٦٩.
(٦) **الاستبصار** ١٩٣.
(٧) **الروض المعطار** ٧٠-٧١.
(٨) **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٦١أ، **صبح الأعشى** ٥:٢٢١.
(٩) **الروض المعطار** ١٨٤.
(١٠) ابن سعيد، **المغرب** ٢:٢٢٨.
(١١) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٧٦، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٦١أ.
(١٢) ابن سعيد، **المغرب** ١:٣٠٣.
(١٣) **المصدر ذاته** ٢:٨١.
(١٤) **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٣١ب، **الروض المعطار** (نور عثمانية) ٥٤ ق.
(١٥) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٨٥.
(١٦) أنظر أمثلة في **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٩١، ١٩٣، ١٩٤، **الاستبصار** ١٨٠.

كان الاعتماد الأكبر على الأمطار، سواء في البلاد الشرقية[١] أو الغربية[٢] أو الأندلسية[٣]. فانصرفت الهمم للاستفادة من مياه الأمطار في سفوح الجبال عن طريق اعتماد الزراعة بالحواجز أو الصريم[٤] أو الاحتفاظ بمياه الأمطار لموسم الجفاف الطويل في صهاريج[٥]. وكان أهل الأندلس يحرصون على إدخال مياه الأمطار في أجباب ابتداء من شهر ديسمبر[٦]. وانتشرت الصهاريج في جميع أنحاء المغرب[٧] خاصة في البلاد الشرقية حيث الجفاف أشد وموسمه أطول[٨]، حتى إن أهل طبنة اتخذوا صهريجاً لحفظ ماء بيطام الذي يحمل موسمياً[٩]، واتخذ أهل تونس الصهاريج في المنازل لجمع مياه الأمطار لشربهم[١٠]. وقد يزرع حول الصهريج نارنج أو ليمون أو غيرهما[١١] ممّا يخفّف درجة التبخر. ويحفر أهل البادية حفراً لجمع ماء المطر، فإذا انحبس عنهم المطر رحلوا إلى مواضع الماء[١٢]، فكان ضغط البادية في الشمال الأفريقي دائماً من الجنوب إلى الشمال أو من

(١) يقول ابن سعيد إن أرض أفريقية تزرع على الأمطار (**مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤: ٢٩أ، **صبح الأعشى** ٥: ١١٢).

(٢) حتى العصر الحاضر وبالرغم من التقدم العلمي الحديث فان ٤٪ فقط من أراضي المملكة المغربية تزرع آلياً (**جغرافية العالم** ٢: ١٢٩).

(٣) أكثر زرع وادي المرية بالمطر وعليه الخصب أو عدمه (أنظر **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤: ٦٠ب، **صبح الأعشى** ٥: ٢١٧) وقارن ما يزرع آلياً ومطرياً في العصر الحديث في أيبريا ليتّضح الفرق الشاسع، راجع Shackleton, Europe, p. 90

(٤) استنتاجاً من معنى تينمل — مركز الثورة الموحدية — لأن الكلمة بربرية وتعني الصريم أو الحواجز (أنظر عنها الفاسي «أصول الأعلام الجغرافية» ٥٠، و Basset, Tinmal,)

(٥) يستعمل المغاربة الصهريج بمعنى البركة (**مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤: ٤٢ب، **صبح الأعشى** ٥: ١٥٦) وفي الدارجة المغربية المواجل بمعنى الصهاريج يعنون المآجل، ومفردها ماجل، وهو مجتمع الماء **صلة السمط** ١٥٩).

(٦) **تقويم قرطبة** ١٨٥.

(٧) مثلاً في غرناطة (**نفح الطيب** ٣: ٤٩٧) وسبتة (**مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤: ٥١ب) وسلا والرباط (**الإتحاف الوجيز** (مخ) ٢٥) وبجانة (**الروض المعطار** ٣٨-٣٩).

(٨) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٠٧، ١٠٨، ١١٠، ١٢٥، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤: ٣٠ب.

(٩) البكري، **المغرب** ٥٠.

(١٠) **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤: ٣١ب.

(١١) أنظر **نفح الطيب** ٣: ٤٩٧.

(١٢) **التشوف** ٢١٨.

الشرق إلى الغرب[١]. ولا غرو بعد هذا ان ارتبطت أعوام المجاعات بأعوام المحل[٢].

وللتخفيف من مشكلة قلّة المياه طفقوا يحفرون الآبار وإن بعد غورها[٣]، فنهر المسيلة — الذي يوصف بكثرة الماء — ماؤه مستنبط[٤].

مظاهر مشكلة المياه

إن النزاع على مصادر المياه خير ما يصوّر مشكلتها في المغرب. لقد كثر النزاع على مياه العيون وقسمتها[٥] وحفر الآبار قريب بعضها من بعض[٦]. ومما يضاعف المشكلة أن الأرحاء تستخدم مياه الزراعة ذاتها، فغدا النزاع بين « أرباب الزراعة » « وأصحاب الصناعة »[٧]. والنزاع يكون على أشدّه في مناطق الواحات مثل قفصة التي يقول أهلها: « إذا رأيت قوماً يتخاصمون وقد علا بينهم الكلام فاعلم أنهم في أمر الماء »[٨]. وجرت محاولات كثيرة لتقسيم أيام السقي وتنظيمها، وكثرت النوازل بشأنها[٩]، فتحدّد سعر الأرض بنسبة الماء المتوفّر لها[١٠]، وفي بعض الحالات وُجد من يبيع أرضاً و يشترط في عقد البيع أن البيع للأرض دون مائها من عين أو بئر[١١].

(١) Marcais, **Les Arabes en Berbérie**, p. 42; F. de la Chapelle, "Histoire du Sahara Occidental", p. 54.

(٢) راجع ما سبق ص ٥٦، مصادر الحاشيتين ٢، ٣.

(٣) راجع **الاستبصار** ٢٠٩، **صبح الأعشى** ٥: ١٦٨-١٦٩، **الروض المعطار** ١٥٩، **الإتحاف الوجيز** (مخ) ٢٥.

(٤) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٨٦.

(٥) راجع **نوازل ابن عياض** (مخ) ٢١ب-٢٢ب، ٦١أ-٦٢أ، **المعيار** ٨: ٢٣٨-٢٤٥، **صلة الصلة** ٩٤.

(٦) **المعيار** ٨: ٢٥١.

(٧) أنظر **نوازل ابن رشد** (مخ) ١٠٨ب، **نوازل ابن عياض** (مخ) ٥أ، ١ب، ١٨أ. **المعيار** ٨: ٢٣٨-٢٤٤، ٢٤٦، ١٠: ٢٠.

(٨) **الاستبصار** ١٥٢-١٥٤.

(٩) راجع البكري، **المغرب** ٤٨، ٦٤؛ نزهة المشتاق (ط.ب) ٤٢، **نوازل ابن عياض (مخ) ٢٢ب**، **العطاء الجزيل: زوائده** (مخ) ٦، ابن سعيد، **المغرب** ٢: ٣٨٦، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤: ٦٠ب، **المعيار** ٨: ٢٤-٢٥، ٢٣٦، ٢٤٨، ٢٥٩، ١٠: ١٩٦.

(١٠) انظر **المعيار** ٨: ٢٣٧ وما بعدها.

(١١) راجع نوازل البرزلي (مخ) ٤١أ، **المعيار** ٨: ٢٤٨-٢٤٩، ٢٥١. وفي جبل جيان تجد أن من شروط في البيع أن تكون الأرض « في مجرى السحاب » (**الروض المعطار** ٧١).

من كل ما تقدّم يتبيّن أن مشكلة المياه في المغرب هي المشكلة الاقتصادية الكبرى. فجهود المرابطين والموحدين لتوفير المياه بجرّ مياه الأنهار والعيون أو حفر الصهاريج لحفظ مياه الأمطار أو حفر الآبار لمواجهة شحّ المطر ستحدّد — إلى درجة كبيرة — نوعيّة الوضعيّة الاقتصادية في المغرب في أيامهم.

أثر الواقع الجغرافي

إن الطبيعة الجغرافية حدّدت مناطق الاستقرار في المغرب والعلاقات بينها. فقد مزقت تضاريس الأرض والالتواءات الجبلية العديدة البلاد الأندلسية وجزأتها: ساحلاً وهضبة إلى أجزاء صغيرة منفصلة، فتركزت الحياة حول المدينة لا الإقليم[1]، فتناحرت المدن[2]، فما إن تغيب السلطة القاهرة الموحدة حتى ينقسم الأندلس إلى دويلات «مدينية». ويصوّر هذا الرأي أبلغ تصوير وضع ملوك الطوائف عقب انحلال خلافة بني أمية في قرطبة وسقوطها، والحال الذي آلت إليه الأندلس في فترة الانتقال من حكم المرابطين الى حكم الموحدين.

وتنوع البيئات الطبيعية في الشمال الافريقي ركّز الحياة حول الإقليم الذي قطنته قبيلة واحدة أو مجموعة قبائل ارتبطت مصلحياً فجمعها نسب واحد أو حِلْف واحد. فكانت النتيجة صراعاً قبلياً حول المناطق الغنية، وتوثب أهل الصحارى والجبال على السهول. وتجسدت هذه الظاهرة في القرن السادس في أوضح صورها في نزاع المرابطين فالموحدين ثم المرينيين على سهول البلاد الغربية.

ثم إن الحواجز الطبيعية، من بحار وجبال، التي أبقت البلاد الغربية بمنأى عن الهزات العنيفة التي كانت تجتاح أفريقية حتى القرن الخامس/الحادي عشر[3]، لم تعد

(١) **جغرافية العالم** ١:٤٠٦.
(٢) من مظاهر التنافر بين المدن الأندلسية أن أهل إشبيلية استنكفوا أن تضرب الطبول ابتهاجاً بانتصار أهل قرطبة على حملة نصرانية في سنة ٥٥٠/١١٥٥ لما أراد والي إشبيلية الموحدي ذلك (**بيان موحد** ٣١)؛ وفي التراث الأدبي مظاهر كثيرة لهذه الظاهرة (أنظر على سبيل المثال ذمّ ابن عياش لبلنسية وردّ ابن حريق عليه في **الذيل والتكملة** ٥:ق١:٢٧٧).
(٣) **إتحاف أعلام الناس** ١:٦٣.

حائلاً دون تدفق الناس من البلاد الشرقية والأندلسية التي اضطربت سياسياً الى البلاد المغربية التي كانت تنعم بالأمن والاستقرار في القرن السادس، فزحفت الحضارة مع المهاجرين متجاوزة نهر أسمير إلى الجنوب[1]، حيث كان سهل مراكش قد أصبح يشكل مركز الثقل السياسي. وهذه الهجرات غيّرت تركيب السكان في المغرب تغييراً كبيراً، فكيف كان السكان وكيف أصبحوا وماذا صارت عليه ضروب نشاطهم الاقتصادية.

(١) تجدر الإشارة إلى أنه لم يكن هناك أثر هام جنوب نهر أسمير للحضارة الرومانية ثم الإسلامية قبل دولة المرابطين (عن الرومان أنظر **Warmington, North African Provinces, p. 70**) وعلى هذا يمكن اعتباره حدود الحضارة قبل منتصف القرن الخامس/الحادي عشر.

الفصـل الثـاني

التركيب السكاني

الفصل الثاني
التركيب السكاني

تهتمّ هذه الدراسة بالعناصر التي استقرّت في المغرب من بادين وحاضرين، لأنها صاحبة النشاط الاقتصادي المستمر. ولن نتعرض في هذا الفصل للمجموعات العابرة من تجار أو سفراء أو أهل سياحة وطلب علم. فإنْ كان لهم أثر فهو في التجارة، والحديث عنهم هناك أولى. وقد تعدّدت العناصر المستقرّة في المغرب فمنهم البربر والأندلسيون والعرب وأهل الذمّة ــ يهوداً ونصارى ــ والعبيد والغزّ. واتّسمت حركة السكان في القرن السادس بالهجرة المستمرّة، فلا بد من معرفة مواطنهم التي كانوا فيها، والدُّور التي هاجروا إليها، والنشاط الاقتصادي الذي قاموا به أو العمل الذي به اختصّوا. فكل هذه المظاهر لها أهميتها في معرفة التقدّم الاقتصادي أو الاضمحلال في منطقة دون أخرى، وهي قد تسعف في معرفة دور الاقتصاد في تركيب المجتمع والدور السياسي الذي يقوم به.

البربر

هم أكثر سكان المغرب عدداً وانتشاراً في بيئاته الثلاث، وفضلاً عن أن الشمال الأفريقي كان موطنهم الأصلي فقد قاموا بالدور الرئيسي في الحياة السياسية في « القرن السادس » فتغيّرت مواطن الكثيرين منهم وتبدّلت مهنهم.

بربر البلاد الشرقية

لقد أضعف انتقال الخلافة الفاطمية الى مصر قبائل كتامة ــ الذين كانوا جندها الذابّ عنها ــ بانتقال مجموعات كبيرة منهم إلى مصر، وتغلب « صنهاجة الشرق »[1] عليهم، فلم يبق من كتامة في منتصف القرن السادس إلا نحو أربعة آلاف رجل بين القلّ وبونة، بعد أن كانت شعوباً كثيرة وقبائل متعددة[2]، فخلت البلاد الشرقية لصنهاجة الشرق، فأسّست دولتين: دولة بني باديس في القيروان ثم المهدية ودولة بني حماد في قلعة حمّاد ثم بجاية. ولكن الدولتين زالتا بسبب الغزوة الهلالية ثم بسبب الغزو النورماني والفتح الموحدي بعد ذلك بمدة قرن من الزمان. ويبدو أن صنهاجة الشرق ظلت في مواطنها بالرغم من سقوط دولتيها، إذ يصنّف الموحدون قبائل بلاد بني حماد بعد فتحها إلى صنهاجية وعربية[3]، وقد اتخذ ابن غانية من ديارهم مركزاً لأعماله العسكرية في بداية أمره محاولاً إعادة الدولة المرابطة.

وربما رجع الفضل الأكبر لسيادة صنهاجة الشرق السياسية إلى استقرارها في مناطق الزراعة، وتأسيسها لمدن كثيرة أصبحت تحمل أسماء بطون صنهاجة مثل بجاية ومدية ومليانة ومزغناي (الجزائر). ومما ساعد في تطوير اتجاه صنهاجة الشرق لسكنى المدن، ما نتج عن الغزوة الهلالية من اكتساح للبوادي الشرقية من البلاد الشرقية وبسائط تل أطلس الشرقية، فلجأ البربر إلى الساحل والمناطق

(١)قبائل صنهاجة متعددة ومواطنها متفرقة، فمنهم من أقام في البلاد الشرقية وجبل درن وريف غمارة ومنهم من أقام في الصحراء الفاصلة بين المغرب والسودان. وقد حاول المؤرخون الاصطلاح على أسماء لهذه المجموعات، فمن المؤرخين من سمّى صنهاجة درن بصنهاجة الجبل (**الكامل** ١٠:٥٧٨) أو صناكة محرفة من صنهاجة، أو سمى صنهاجة الريف صنهاجة البر (**العبر** ٦:٢٠٥-٢٠٦) أو جمع بين صنهاجة الريف ودرن وأطلق عليهم صنهاجة الغرب، وسمى من في الصحراء منهم صنهاجة الصحراء (**مشاهير فاس** ٧٨) ولهذا آثرت اطلاق صنهاجة الشرق على من كان مهدهم البلاد الشرقية.

(٢)**نزهة المشتاق** (ط.د.) ٩٩.

(٣)راجع **رسائل موحدية** ٥٧-٥٩، **الكامل** ١١:٢١١، **نهاية الأرب** ٢٠٧-٢٠٨.

الجبلية الحصينة[1] خاصّة في بلاد بني حمّاد[2].

وأثرت السيطرة السياسية لصنهاجة الشرق والغزوة الهلالية على قبائل زناتة، فاضطرت إلى اللجوء الى المناطق التي تضعف فيها قبضة هاتين القوتين مثل هضبة الشطوط وصحراء الزاب[3]. ولما فتح الموحدون البلاد الشرقية تحالف بنو بادين وعبد الواد وتوجين من زناتة مع الموحدين منذ ذلك الوقت، فولاّهم الموحدون أرياف هضبة الشطوط وتلولها[4]، فلم يجد بنو مرين بدّاً من الانسياح جنوباً حتى أصبحت ديارهم في النصف الثاني للقرن السادس بين قبلة زاب افريقية وسجلماسة[5]، وكانت هذه المنطقة في النصف الأول من القرن الخامس/الحادي عشر جزءاً من ديار صنهاجة الصحراء[6]، ويبدو أنها خلت منهم أو ضعف وجودهم فيها بانسياح صنهاجة الصحراء الى البلاد الغربية مع الفتح المرابطي. ولكن قبائل مرين بدوية كثيرة النقلة طلباً لمواطن الكلأ ومساقط المياه، فيرتحلون شمالاً وربما يصلون إلى آجر سيف[7]، وما إن ضعفت دولة الموحدين بالعقاب حتى وجدوا الفرصة السانحة فتدفقوا إلى سهول البلاد الغربية باسطين سلطانهم على بواديها بالقوّة طوراً وبالمهادنة حيناً[8].

وسبقت هجرة بني مرين هجرة زناتية جماعية أخرى مع قبيلة كومية التي تنزل بين تلمسان وأرشكول. فاستدعاها عبد المؤمن بن علي، وهو منهم، ليتقوى بهم، لأن المصامدة كانوا عماد دولته وهو كومي غريب عليهم. فنزلت في ٥٥٦/١١٦١

(١)عن مواطن صنهاجة الشرق راجع Gautier, Les Siècles Obscurs du Maghreb, pp. 334-335.
وعن مواطن البربر الساحلية والجبلية ومناطق العرب باذية وبسائط أنظر **مسالك الأبصار** (أحمد الثالث ٣:ق ١:٧٢ وما بعدها.

(٢)**الكامل** ١٠:٤٤-٤٥.

(٣)**نزهة المشتاق** (ط.د.) ٨٨، **العبر** ٦:٢١.

(٤)**العبر** ٦:٢١.

(٥) **روض القرطاس** ١٨١، ١٨٧.

(٦) **المصدر ذاته** ٧٥-٧٦.

(٧) **المصدر نفسه** ١٨٧.

(٨)**بيان موحد** ٢٤٤، ٢٤٧، **روض القرطاس**، ١٦٦، ١٨١، ١٨٨، **العبر** ٦:١٢٦.

أحواز مراكش وقيل إنه وفد منهم أربعون ألف فارس ولم يبق منهم بموطنهم الأول إلاّ بقايا منهم بنو عابد[1].

وظاهرة الهجرة من البلاد الشرقية إلى الغربية لم تكن محصورة في هاتين الهجرتين القبليتين، بل كانت هجرة مستمرة خلال قرن من الزمن منذ خراب القيروان وحتى الفتح الموحدي للبلاد الشرقية، وهي هجرة جماعية ولكنها لم تكن قبلية، وربما يرجع ذلك إلى أنها هجرة أهل مدن لا أهل بادية. ومنذ أن اجتاحت العرب الهلالية بلاد بني باديس تخريباً وتدميراً هاجر الناس إلى بلاد بني حمار أو تفرقوا في كل وجه ــ كما يقول عبد الواحد المراكشي ــ فنهم من قصد مصر أو صقلية أو الأندلس أو المغرب الأقصى، ويوضح المراكشي أن أكثرهم قصد فاساً[2]. ويهم هذه الدراسة اتجاه القيروانيين نحو الأندلس والبلاد الغربية، وفي كتب التراجم ما يؤكّد رواية المراكشي ويفصلها. وبإحصاء الرجال الذين هاجروا من القيروان نتيجة خرابها واستقرّوا في البلاد الأندلسية والغربية يمكن استخراج البيان التالي[3]:

المدينة	مرسية	دانية	الجزيرة الخضراء	المرية	فاس	أغمات
العدد	٤	٣	٢	٨	١٠	٥

(١) راجع **روض القرطاس** ١٣١، **العبر** ٦:١٢٨، ٢٦٧.
(٢) **المعجب** ٣٥٦.
(٣) يقول المقري: « إن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال » (**نفح الطيب** ٢:٥)، وقوله حق، لأن الرحلة متنوعة الغايات مختلفة الأهداف من طلب للعلم وتجارة وسياحة...الخ، وقد يتوفى الراحل في مدينة لم يرد اتخاذها مهجراً ويصبح عداده في أهلها، الأمر الذي يشكل مشكلة في إحصاء المهاجرين. أضف إلى هذا أن كتب الرجال غالباً ما تُعنى بأهل العلم وحدهم، والهجرة المقصودة هنا ليست الرحلة في طلب العلم. ولكن على الرغم من ذلك، فان إحصاء هؤلاء مؤشر هام لاتجاه الهجرة لأن انتقاءهم عشوائي غير مقصود، كما أن البلد الذي يكون له صلات واسعة بآخر في منحى حضاري قد تتبعه صلات أيضاً في النواحي الأخرى.

ويتبيّن من هذا البيان أن الهجرة كانت إلى المدن الساحلية الأندلسية، وهي التي ارتبطت تجارياً مع البلاد الشرقية، وممّا يؤكد هذا أن المرية نزلها أكبر عدد ممن نزل الأندلس. وتتضح الملاحظة ذاتها بالنسبة للبلاد الغربية حيث كانت الهجرة إلى فاس وأغمات، وهما المركزان الأساسيان للتجارة في منتصف القرن الخامس/الحادي عشر في البلاد الغربية.

ويوضح البيان أن فاساً أكثر مدينة حظيت بنزول مهاجرين من القيروان، وهذا ما قالت به رواية المراكشي وتؤيده رواية ابن الأبّار القائلة بأن كثيراً من أهل فاس من جالية القيروان في فتنة العرب بها[1]. ويدل على كثرتهم في فاس تأثيرهم الحضاري؛ يقول صاحب كتاب الجغرافية إن أهل فاس تعلموا الطرب من أهل القيروان[2].

ومما جعل الهجرة تستمر أن ضغط العرب استمر؛ وإن كان لجوء الناس الى مدن الساحل بسبب أن ميرتها تصلها بحراً، فقد دهم مدن الساحل خطر النورمان من صقلية طوال النصف الأول من القرن السادس حتى إن الناس اضطرت للهجرة عنها، وبلغ هذا الخطر ذروته باستيلاء النورمان على المهدية في ٥٤٣/١١٤٨[3].

بربر البلاد الغربية

من المفيد التعرف على ديار قبائل البربر في البلاد الغربية قبيل الفتح المرابطي ثم دراسة ما طرأ على هذه المواطن من تغيير، لأن مثل هذه الدراسة تسعف على فهم نظام ملكية الأراضي وما ارتبط بها من ثورات في عهدي المرابطين والموحدين. ويلاحظ أنه قُبَيْل الفتح المرابطي كانت قبائل غمارة تحتل

(١) **التكملة** ٢:٧٦٥.
(٢) **كتاب الجغرافية** ١١٢.
(٣) راجع ما يقوله الإدريسي عن جلاء أهل المدن الساحلية مثل مرسى الدجاج وجيجل والقل وصفاقس (**نزهة المشتاق** (ط.د.) ٨٩، ٩٧، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٧)؛ ويقول عن المهدية بعد سقوطها للنورمان « وهي الآن معمورة وليست مثل ما كانت عليه من العمارة » (**المصدر ذاته** ١٠٧).

الجزء الغربي الخصيب من الجبال التي عرفت باسمها[١]، وجاورتهم فيها صنهاجة البر[٢] وامتدت ديارهم إلى شواطىء المحيط، متصلة إلى مشارف جبل درن، محترفة للزراعة والحياكة[٣]. وبسائط تامسنا ــ بين سلا وآسفي ــ هي ديار برغواطة[٤]. ونزلت حاحة إلى الجنوب منهم في بسيط يفضي إلى السوس[٥] حتى مواطن كزولة (جزولة)، وكزولة ظواعن تتصل ديارهم ببلاد لمطة في ساحل السوس. وتمتد منازل لمطة إلى الصحراء مجاورين لصنهاجة الصحراء مشتغلين بالرعي مثلهم[٦].

وأقامت صنهاجة الجبل في المنطقة الزراعية الجبلية بين تازا وتادلا ومعدن فازاز. وبعض صنهاجة الجبل ظواعن في قبلة درن إلى درعة وبعضهم في نواحي مكناسة إلى وادي أم ربيع حيث يتصلون بدكالة التي تنزل بين أم ربيع وتانسيفت[٧]. وفي المنطقة الجبلية جاورت هسكورة ــ وهم في عداد المصامدة ــ صنهاجة الجبل من تادلا إلى درعة عبر درن[٨]. وقطنت قبائل المصامدة جبل درن

(١) **العبر** ٦:٢١٠ و يعتبر ابن خلدون غمارة في عداد المصامدة (**العبر** ٦:٢٠٦)، ومن الصعب الاعتماد على الروايات بشأن أنساب قبائل البلاد الغربية، وأغلب الظن أنها تعبّر عن تحالف بين قبيلتين أو أكثر، وعلى ذلك عدة شواهد. فابن خلدون نفسه يذكر أن غمارة ساعدت الموحدين في حصار سبتة أيام ثورة الموحدين على المرابطين وحفظ لهم الموحدون هذه السابقة طوال أيام دولتهم (**العبر** ٦:٢٢٢). و يرى ابن خلدون أن برغواطه من المصامدة (**العبر** ٦:٢٠٦) ويخالفه آخرون (راجع **المطرب** ٨٨، **الاستقصاء** ٢:١٤)، و يذهب ابن أبي زرع إلى أن برغواطة أخلاط من قبائل شتى نسبوا إلى صالح بن طريف لمّا ادعى النبوة، ولما كان صالح من حصن برناطة قرب شذونة قيل « برناطي » وحرّفته العرب إلى برغواطي فسُمي أتباعه برغواطة (**روض القرطاس** ٨٣). و يبدو أن بداية هذه الرواية عند البكري (**المغرب**: ١٣٨). ولعل خير ما يصور هذه العلاقة بين الأحلاف والأنساب أن الموحدين يعتبرون صنهاجة الجبل من قبائلهم لتحالفها معهم في ثورتهم (راجع موسى: « التنظيمات الحزبية » ٥٤-٥٥) كما أنهم نظروا إلى قبائل أهل تينملل كقبيلة واحدة مع أنهم قبائل شتى لم يجمعها إلا اسم الموضع (راجع **المصدر الأخير** ٦٢).

(٢) أنظر في تعريف صنهاجة البر ما سبق ص ٧٧ حاشية (١).

(٣) **العبر** ٦:٢١٠.

(٤) **المصدر نفسه** ٦:٢٠٥-٢٠٦.

(٥) **المصدر ذاته** ٦:٢٦٤.

(٦) **وفيات الأعيان** ٣:٤٩، **العبر** ٦:٢٠٣.

(٧) **العبر** ٦:٢٠٥-٢٠٦.

(٨) **المصدر ذاته** ٦:٢٠٣

الخصيب متصلة غير منفصلة[١]. وهم زراع ملتصقون بالأرض مستقرون فيها[٢]، فيقول البكري عنهم إنهم « أكثر الناس تكسباً وطلباً لرزق، يكلّفون نساءهم وصبيانهم التحرّف والتكسب »[٣]، فعملوا في الزراعة والصناعة والتجارة[٤].

وأما صنهاجة الصحراء فقد انتشرت بين العرق (أطلس الصحراء) وبلاد السودان[٥]. فهم رعاة ابل بحكم بيئتهم، حتى ان المرابطين لما فتحوا البلاد الغربية اختاروا مراكش عاصمة لهم لأن موقعها مسرح خصيب لجمالهم[٦].

وكان للفتح المرابطي تأثير كبير على مواطن القبائل ومركزها. فاستقرّت صنهاجة الصحراء في سهول البلاد الغربية، فنزلت لمتونة ومسوفة رحبة مراكش[٧]. ثم توالت جموعهم من الصحراء باستدعاء يوسف بن تاشفين لهم أيام نيابته عن أبي بكر بن عمر[٨] ثم أيام استقلاله، فقدموا فيها مرتين على الأقل في ٤٧٠/١٠٧٧[٩] وفي ٤٧٧/١٠٨٤[١٠] و يصور صاحب الحلل الموشية كثرتهم وانتشارهم في البلاد الغربية بقوله: « فوفد إليه منهم جموع كثيرة... وكثروا بكل مكان »[١١]. و يدل على مدى سيطرتهم على سهول البلاد الغربية أن لمطة وقد كانت حليفاً لهم فرضت وجودها في فحص مراكش والمنطقة بين وادي سبو وحصن تاودا مزاحِمةً لقبائل غمارة[١٢].

(١) راجع عن مواطنهم **المعجب** ٣٤٠-٣٤١، **العبر** ٦:٢٦٤، ٢٦٧، ٢٧٠، ٢٧١.

(٢) Terrasse, Histoire du Maroc, p. 23

(٣) لبكري، **المغرب** ١٦٣.

(٤) يقول الإدريسي عن أهل أغمات إنهم أملياء تجار مياسير (**نزهة المشتاق** (ط. ب.) ٤٢).

(٥) راجع عنهم البكري، **المغرب** ١٤٩، ١٦٤، **نزهة المشتاق** (ط.ب.) ٣٦، **الاستبصار** ٢٠٠-٢٠١، **روض القرطاس** ٧٥-٧٦، ١٠٨، **قيام دولة المرابطين** ٣٩ وما بعدها.

(٦) **الحلل الموشية** ٦.

(٧) **المعجب** ١٠٠.

(٨) **البيان المغرب** ٤:٢٣

(٩) **الحلل الموشية** ٢١

(١٠) Cooley, The Negroland, pp. 58-59.

(١١) **الحلل الموشية** ٢١

(١٢) و يبدو أن هذا هو السبب الذي دفع الإدريسي للقول بأن « غمارة طهرت من الأرض » (**نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٧٠)؛ وعن وجودهم في المنطقتين راجع **المصدر ذاته**: ٧٠، ٨١، **بيان موحد** ٢٢.

ولئن غلبت البداوة على قبائل المرابطين فنزلوا السهول الزراعية الرعوية، فهذا لا يعني أنهم صدفوا عن سكنى المدن. فقد حلوا فيها كطبقة حاكمة وجند مسيطر. ويبدو أن سياستهم كانت المحافظة على جماعة الملثمين كطبقة متميزة لا تخالط أهل المدن، ولعل هذه السياسة تفسّر تشييدهم للحصون قرب المدن للمحافظة على الطرق التجارية والأراضي الزراعية، مثل حصن تادلا[1] ومدينة القصر قرب مكناسة[2] وحصن الرباط الذي شيّده تاشفين بن علي قرب سلا[3] وحصن قلعة مهدي بن توالي[4] وحصن تاودا[5]. وكان لهذه السياسة دور كبير في تمدين قرى كآجر سيف[6]. ومن هنا يمكن القول بأن المرابطين وإن نزلوا السهول بصورة غالبة، فقد بدأت معهم محاولة توطين أهل الريف أو البادية في المدن.

ويبدو أن الاستقرار المرابطي في المدن والسهول كان في بداية الأمر على حساب القبائل الزناتية، خاصّة مغراوة وبني يفرن الذين كانوا أهل السيادة على الدويلات « المدينية » في سجلماسة وأغمات وقلعة مهدي بن توالي وفاس، وهزمهم المرابطون وورثوا ملكهم في البلاد الغربية[7]. ولعل هذا ما دفع كولي إلى القول بأن مغراوة نزحت إلى الصحراء بعد الفتح المرابطي، واستقرت في منطقة جدالة، وذلك في محاولته لقراءة كلمة « مقزارة السودان » في مخطوطات الإدريسي[8]. والراجح أن قراءة كلمة « مقزارة » على أنها « مغراوة » ليس هناك ما يسوّغها، فالإدريسي نفسه قد ذكر في موضع آخر أن مقزارة لها لغتها، وربطها بالغانيين[9]، ممّا يرجّح أنهم أمة من السودان، ولا سيّما أن صيغة الجمع عنده وإنْ

(١) **الاستبصار** ٢٠٠، **الروض المعطار** (نور عثمانية) ٨٤ق.
(٢) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٧٧-٧٨.
(٣) **الحلل الموشية** ١١٢
(٤) **الاستبصار** ١٨٧.
(٥) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٨١، **أخبار المهدي** ٦٥.
(٦) **الروض المعطار** (نور عثمانية) ٨و.
(٧) انظر **قيام دولة المرابطين** ١٩٣ وما بعدها، Cooley, the Negroland, pp. 58-59.
(٨) وانظر الكلمة في **نزهة المشتاق** (ط. د.) ٢، ٤، ٢٩.
(٩) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٤.

جاءت مرّة « المقزارين »[1] — وهي قريبة من « المغراوين » — فقد جاءت عنده أيضاً لمقازرة[2]. وأغلب الظن أن مغراوة وبني يفرن — بعد أن فقدوا سلطانهم السياسي — أصبحوا في ذكر ثانوي ضمن المجموعة الزناتية التي ظلّت موجودة في المدن مثل فاس[3] أو في البادية مثل تامسنا[4]، وأدخل المرابطون بعضهم في جيشهم[5]. وقد ظلت مغراوة مذكورة في المنطقة بين تلمسان وتاهرت في منتصف القرن السادس[6]، وظل لها وجود قوي بين تلمسان وفاس إلى العصر المريني[7].

ولما قامت الدولة الموحدية سيطرت قبائلهم على ما في قبضة المرابطين من سهول. بيد أن نزعة المصامدة الى الاستقرار دفعت جموعهم إلى استيطان المدن، وكانوا عندما يفتحون بلداً يأمرون بعض الموحدين « بعمارته والاستقرار في قرارته »[8]. ويبدو أن سياسة يوسف بن عبد المؤمن اتجهت إلى توطين قبائل الموحدين البادية — مثل هسكورة وصنهاجة — في المدن. فقد استدعى في ٥٧٩/١١٨٣ القبيلتين إلى سكنى مراكش ووسع المدينة لاستيعابهم[9]. ويلاحظ أن بعض هزمير سكن فاساً خلال هذه الفترة[10].

وكان لهذه السياسة وتلك النزعة الاستقرارية أثر كبير في غلبة العناصر البربرية في مدن البلاد الغربية وبعض الشرقية. ويوضح هذه الهجرة المصمودية من الريف إلى المدن النهج الذي سلكه الموحدون في تعيين أئمة الحواضر الكبرى

(١) **المصدر ذاته** ٤.
(٢) **المصدر ذاته** ١٣.
(٣) **مشاهير فاس** ٥٧ خاصة رقمي ١٨، ١٩.
(٤) **نزهة المشتاق** (ط.ب.) ٤٦.
(٥) **الحلل الموشية** ٢١.
(٦) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٨٨.
(٧) أنظر **مسالك الأبصار** (أحمد الثالث) ٣:ق ٧٤:١ وفي الرواية أنهم في ثلاثين ألفاً.
(٨) **رسائل موحدية** ٢٥-٢٦.
(٩) **بيان موحد** ١٢٦.
(١٠) **مشاهير فاس** ١٠١.

كفاس وخطبائها، فكانوا لا يقدمون إلا من يتقن البربرية والعربية[1]. وبفضل العدد الكبير الذي نقل إلى تونس في ١٢٠٧/٦٠٣ استطاع حفصيّو تونس تأسيس دولتهم الهنتاتية فيما بعد امتداداً للدولة الموحدية الغربية[2].

وممّا يبيّن اتجاه المصامدة إلى المدن دون السهول سيطرة العرب الهلالية ثم القبائل المرينية في فترة انحلال على بوادي البلاد الغربية، فلم يعد لخلفاء الموحدين نفوذ فيها[3]، ولم تتعدّ سلطاتهم نطاق المدن التي أصبحت تمثّل ولاياتهم[4].

ولكن هذا القول لا يعني أن أرياف البلاد الغربية خلت من المصامدة، كما لا ينبغي الظن بأن سياسة الموحدين في توطينهم قد نجحت مع كل قبائلهم، فقد ظلت هسكورة — برغم الجهود التي بذلت معها — على بداوتها ظاعنة مترحلة[5]، ولعل هذا ما يفسّر سر تحالفهم في فترة الانحلال مع قبائل الخلط الهلالية الذين جاوروهم في السكن وشابهوهم في نمط العيش[6].

وكيفما كان الأمر فقد سار الموحدون في سياسة التوطين هذه — التي ظهرت بدايتها مع المرابطين — خطوات بعيدة، فلا عجب أن زادت نسبة البربر في مدن البلاد الغربية. وخير مثل على هذا مدينة فاس، فقد حرص الأدارسة على حفظ التوزان فيها بين البربر وغيرهم فاستقدموا أسراً عربية من القيروان والأندلس[7]، وتكاثر عددهم نتيجة الجلاء عن البلاد الشرقية والأندلسية في القرنين

(١) **روض القرطاس** ٤٢ وعن استعمال اللسانين أنظر **المن بالامامة** ٤٢٠، ٥٠١، ٥٢٤.

(٢) راجع الشروط الاستثنائية التي ولّى الناصر بها الشيخ أبا محمد بن عبد الواحد الهنتاتي تونس في **بيان موحد** ٢٢٥، **رحلة التيجاني** ٣٦٢، **الاحاطة** ١:٢٢٠، **تاريخ الدولتين** ١٨، **المؤنس** ١٣١.

(٣) انظر **البيان الموحد** ٢٥٢، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٩٦، ٣٠٦، ٣٥٩، ٣٦٧-٣٦٨، **روض القرطاس** ١٦٣، المنوني: «الامبراطورية الموحدية في دور الانحلال» ٥٧.

(٤) **روض القرطاس** ١٩٢، **تنظيمات الموحدين** ٢٠٧-٢٠٨.

(٥) **العبر** ٦:٢٦٢.

(٦) راجع **تنظيمات الموحدين** ١٧٧-١٧٨.

(٧) انظر عبد الحميد: **تاريخ المغرب العربي** ٤٢٧ وما بعدها.

الخامس/الحادي عشر والسادس/الثاني عشر[1]. فما يصدق على فاس — والحالة هذه — سيكون أكثر انطباقاً على غيرها من المدن التي كانت أقل تأثراً بهذه العوامل.

أضف إلى هذا أن فاساً هي المدينة الوحيدة التي وصل عنها كتاب يحصي مشاهير أسرها. وعلى الرغم من أن الكتاب خصّص لذكر بعض المشاهير، فقد تعاورته أيدي كثيرة، الأمر الذي جعل تعبير «البعض» يرمز لأكثر من مدلوله الحرفي. ويبدو أن الإضافات التي جعلته أكثر شمولاً حدث بالمؤرخين الذين نقلوا عنه إلى تسميته بـ «بيوت فاس الكبرى»[2]. ولا يضير الكتاب أنه خصّص للأعيان المشاهير، لأن مقياس ذلك كان العلم أو النسب أو المال أو الرئاسة أو كلها أو بعضها، وهي مقاييس قد تنطبق على غير البربر أكثر من انطباقها على البربر. فما هي الصورة المستخلصة من هذا الكتاب.

ذكر الكتاب ثلاثاً وثمانين أسرة، تكرّرت منها خمس أسر ست مرات[3]، وما تبقّى — وعدده سبع وسبعون — جاء توزيعه كالآتي:

انقرضت قبل السادس	في القرن السادس	وفدت بعد السادس	مجهولة الزمن أو العرق
٩[4]	٤٦	١٨[5]	٤[6]

(١) سبقت الإشارة إلى هجرة القيروانيين وسيرد الكلام عن هجرة الأندلسيين في الحديث عنهم في الفقرة القادمة.

(٢) أنظر مقدمة زمامة للكتاب: **مشاهير فاس** ٣٤.

(٣) قارن بين الأسر رقم ٢٣ و٢٤، ٣ و٢٧ و٤٢، ٣٨ و٧١، ٥٤ و٦٥، ٧٠ و٨٣.

(٤) الأسر رقم ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٣١، ٣٨، ٥٠، ٥٢، ٥٧، ٦١.

(٥) الأسر رقم ٣، ٥، ٧، ٤٣، ٥٥، ٥٨-٦٠، ٦٦-٦٩، ٧٢-٧٥، ٧٩-٨٠.

(٦) الأرقام ٣٤، ٣٥، ٨١، ٨٢.

بربر	عرب
٣٢[١]	١٤[٢]

وواضح من هذا البيان بعد إسقاط الأسر مجهولة الزمن أو العرق والتي انقرضت قبل القرن السادس أو وفدت بعده أن نسبة البربر إلى العرب كانت أكثر من الضعف.

ومما يشير إلى أن دخول بدو البربر في حياة المدن الحضرية كان شيئاً حديثاً، أن البربر أنفسهم كانوا يتندّ بعضهم على بعض. يروي ابن خلكان أن أحمد الكورائي (الجراوي) الشاعر وسعيد الغماري الطبيب وقفا يوماً بباب يوسف بن عبد المؤمن يريدان الدخول عليه، فلما علم يوسف قال: «من عجائب الدنيا شاعر من كورايا وطبيب من غمارة! فبلغ ذلك الكورائي فقال: وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه أعجب منها والله خليفة من كومية[٣]!».

وكان دخول البربر في الحياة المدنية بصورة واسعة من أكثر الأشياء ألماً على نفوس الأندلسيين الذين كانوا أسبق في مجال الحياة المدنية، فأهل غرناطة لا يرضون تولية ابن حماد الصنهاجي قاضياً عليهم في ١١٤١/٥٣٥[٤]. وابن الأبار يترجم لابن المناصف بين الأندلسيين مع أنه من الطارئين معللاً ذلك بأن «ذكره في الغرباء لا يصح ضنانة بعلمه على العدوة»[٥]. وخير ما يصور هذا الصراع الحضاري رسالتا أبي الوليد الشقندي وأبي يحيى المعلم الطنجي[٦].

(١) الأسر رقم ١، ٢، ٤، ١٢-٢٣، ٢٥، ٣٣، ٣٦-٣٧، ٤٢، ٤٤-٤٨، ٥٤، ٥٦، ٦٣-٦٤، ٧١، ٧٦-٧٧ وقد جعل لواته وصنهاجة الصحراء من العرب (رقمي ٢٣، ٥٦) فجعلتهما مع البربر.

(٢) أنظر الأرقام ٦، ٨-١١، ٣٠، ٣٢، ٣٩-٤١. ٤٩، ٥١، ٦٢، ٧٨.

(٣) **وفيات الأعيان** ١٣٧:٧.

(٤) **الصلة** ٦١٤:٢ وحاشية ١ وهي منقولة عن هامش الأصل.

(٥) **التكملة** ٦١٢:٢.

(٦) وصلتنا رسالة الشقندي وحدها (انظرها في **نفح الطيب** ١٨٦:٣ وما بعدها) وهم صاحبها إبراز تقدم الأندلس الحضاري وتخلّف العدوة المغربية.

ومما زاد فيما يدعوه ابن الخطيب بـ «النفرة الطبيعية بين الأندلسيين والمغاربة»[١] أن البربر الذين دخلوا المدينة من الأرياف أصبحوا طبقة جديدة حاكمة متميّزة، فإنْ وجد الأندلسيون فرصة للغض منها بسبب أصلها البدوي أو البربري لا يضيعونها[٢]. ولم يوفروا رمز هذه السلطة السياسية المتمثل في أمير المسلمين المرابطي ثم الخليفة الموحدي. فقال الشقندي: لولا توسط ابن عباد لشعراء الأندلس في مدح يوسف بن تاشفين «ما أجروا له ذكراً ولا رفعوا لملكه قدراً» وعرض بجهل يوسف باللغة العربية[٣]، ووصف ابن رشد الحفيد الخليفة الموحدي بملك البربر، وكان ذلك من أسباب محنته[٤]. وكان الموحدون يعون هذه النفرة و يعملون في إطارها[٥].

وعلى الرغم من أن هذا هو الطابع الغالب عند الأندلسيين في نظرتهم إلى هذا العنصر البربري الوافد، فهناك قلّة من الأندلسيين ــ يمثّلهم أبو بكر ابن العربي ــ تجاوزت الأصل البربري البدوي ونظرت للمرابطين حماةً للإسلام ذابّين عن داره[٦].

(١) **أعمال الأعلام** (ط. ليفي) ٢٢٧.

(٢) من النوع الأول رسالة أبي عبدالله ابن أبي الخصال في تعنيف الجند المرابطي على انهزامه قرب بلنسية في ١١٠٢/٤٩٥ ومنها «فلولا من لدينا من ذو يكم واضراعتهم إلينا فيكم، لألحقناكم عجلاً بصحرائكم، وطهرنا الجزيرة من رحضائكم» (مؤنس: «نصوص سياسية» ١١٨ وهي الرسالة ذاتها التي نسبها المراكشي لأبي مروان أخي أبي عبدالله هذا (**المعجب** ١٧٦). ومن النوع الثاني تعريض كاتب علي بن يوسف ببربرية أمير بلنسية الزبير ابن عمر المرابطي والتذكير بنسب أبي بكر بن أسود قاضي قضاة الشرق في آل جفنة «القوم الذين لم يدنس اللؤم ثيابهم، ولا ضربت على غير المكارم قبابهم» (مؤنس: «سبع وثائق جديدة» ٧٥).

(٣) **نفح الطيب** ١٩١:٣.

(٤) **المعجب** ٣٠٥.

(٥) راجع أمثلة في **الغصون اليانعة** ١٠٠، **نفح الطيب** ١٨٦:٣.

(٦) ليس هذا بغريب على فقيه كابن العربي الذي تهمه شرعية الخلافة الاسلاميةواستمراريتهاحتى ان كتابه **العواصم من القواصم** ليعد دفاعاً عن شرعية خلافة معاوية وابنه يزيد، ويذهب في ذلك إلى أن الحسين قتل بالشريعة التي بعث بها جده (أنظر **العواصم من القواصم** ٢١٤ وما بعدها، ٢٢٨ وما بعدها خاصة ٢٣٢)؛ فلا غرو بعد هذا أنْ أكْبَرَ المرابطين حتى إنه ليقول: ولو لم يكن لهم من فضل سوى الزلاقة لكفاهم. وعلى ضوء هذا يمكن فهم فتواه عن فضل قريش حيث لا يجعل للنسب مكاناً وإنما الفضل لهم بالاسلام (راجعها في **المعيار** ١٧٩:١٢ وما بعدها).

البربر في الأندلس

وجود البربر في الأندلس طرأ مع الفتح الإسلامي، فمع هذا الفتح تدفقت جموعهم نحو الأندلس واندمجت الموجات الأولى مع العناصر العربية الأندلسية[1]. وغلبت على الموجات الأولى المجموعة الزناتية، ولكن ابتداء من انحلال الدولة الأموية في قرطبة تكاثرت الهجرة البربرية إلى الأندلس، وكان لصنهاجة دور بارز فيها[2]. وبلغ دور صنهاجة ذروته مع الفتح المرابطي، فأنزلوا قبائلهم في المدن وخاصة الثغور[3].

ويحدّد ابن الخطيب نسبة البربر إلى الأندلسيين في أول المائة الخامسة بنصف معشار أو أقل[4]. ويوحي ابن عبدون الذي كتب في أوائل القرن السادس/الثاني عشر بأن النسبة أربعة إلى ستة، وذلك استنتاجاً من وصيته في رسالته عن الحسبة أن يكون أعوان القاضي في مدينة كاشبيلية عشرة على أن يكون أربعة منهم سودان بربر لحقوق المرابطين والبقية أندلسيين[5].

ويبدو أن الرقمين غير دقيقين لأن ابن الخطيب ساق النسبة في حديثه عن ذمّ دور البربر في الفتنة التي اجتاحت الأندلس مع انحلال الدولة الأموية، وجاءت عند ابن عبدون في حديثه عن القضاء، ويبدو أن العدد الذي ذكره يرجع إلى المشكلات الكثيرة التي كان يسببها البربر، وهم في نظر الأندلسيين « نكد وشؤم والدماء عندهم هوان »[6]، و « إذا غضبوا قتلوا أو جرحوا »[7]. وعلى هذا فقد تكون النسبة أكبر مما ذكره ابن الخطيب وأقل مما يوحي به ابن عبدون، ولكن مقارنة الروايتين توضح أن عدد البربر قد زاد مع قدوم المرابطين.

(١) فجر الأندلس ٣٩٦.
(٢) أنظر عنهم عنان: عصر الطوائف ٤٤ وما بعدها، ١١٨ وما بعدها، عباس: عصر الطوائف والمرابطين ١٣-١٤.
(٣) مشاهير فاس ٥٢، المعيار ٣:٣٠٦.
(٤) أعمال الأعلام (ط. ليفي) ٢٢٧.
(٥) رسالة ابن عبدون ٩.
(٦) المعجب ٩٩.
(٧) رسالة ابن عبدون ٢٨.

ولما فتح الموحدون الأندلس ساروا على سنّة أسلافهم، فأسكنوا المو الأندلس وثغوره، فبدأ عبد المؤمن هذه السياسة[1] واستمر خلفاؤه عليها يوسف شرق الأندلس أنزل زناتة في بلنسية، وصنهاجة وهسكورة في شاطبة ومرسية، وأهل تينمل في لورقة، وكومية في المرية وبرشانة[2]. وعندما استرجع باجة في سنة ٥٧٠/١١٧٤ أرسل مع أهلها قبيلاً من الموحدين بأولادهم وعيالهم ليسكنوا معهم فيها[3]. وفي سنة ٦١٦/١٢١٩ أرسلت مجموعة من كومية إلى الأندلس[4].

وإذا نظر الدارس في مهن بربر الأندلس ينبغي أن يميز بين صنفين منهم: أولئك الذين أقاموا في الأندلس قبل الفتحين المرابطي والموحدي، وأولئك الذين جاؤوا بعدهما. فبينما غلب على الأول القيام بمهن ممتهنة مثل خدمة الفحم وحراسة الدروب[5] والعمل في الفلاحة حتى كان المثل « لولا دكال ما خدمت البال »[6]، نجد النوع الثاني طبقة متميّزة حاكمة وعسكراً مرابطاً.

الأندلسيون

مدلول اللفظ

يطلق لفظ « الأندلسيين » على المسلمين من أهل الأندلس باستثناء البربر الطارئين كقوة سياسية مسيطرة، مرابطيةً كانت أم موحدية، بصرف النظر عن الأصول الأولى لهذه الجماعية، عربية كانت أم بربرية أم من السكان الأصليين الذين أسلموا فاندمج أحفادهم في المسلمين، أم العبيد الذين اعتقوا ففقدوا جزءاً من مجتمع أسيادهم الأولين بالولاء.

(١) أخبار المهدي ١٢٥-١٢٧، المعجب ٢٢٤.
(٢) أخبار المهدي ١٢٧.
(٣) بيان موحد ١٠٥-١٠٦.
(٤) العطاء الجزيل (مخ) ٧.
(٥) راجع عنهم مشاهير فاس ٥٥-٥٦.
(٦) أنظر أمثال العوام (الاطروحة) ١:١٧٩ (المطبوع) ٢:٤٥، ١١٠-١١١، ١١٥، ١٤٨ والمصادر المذكورة، العطاء الجزيل (مخ) ١٦٨.

البلد الذي منه المهجر / البلد المهاجر إليه	سقوط طليطلة	شية مع سيد	سقوط الثغر الأعلى	سقوط إشبونة وشترين في فترة الانتقال	احتلال النصارى المرية (فترة الانتقال)
المجموع	٢٦	٣٣	٧٠	٢٠	١٧
لم يذكر بلده	٣	٤	٥	—	—
المشرق	٢	٣	٦	—	٣
ميورقة	—	—	١	—	—
مراكش	—	٢	١٠	٤	—
سلا	—	—	—	١	—
أغمات	—	—	١	—	—
سبتة	١	١	١	١	—
فاس	٢	١	٥	١	—
تلمسان	—	١	١	—	—
بلاد بني حماد	—	٢	١	—	—
تجول في الأندلس	—	٢	٣	٢	—
شلب	—	—	—	١	—
مالقة	—	١	٢	—	—
إشبيلية	—	—	٢	٧	—
قرطبة	٩	٢	٥	٢	١
غرناطة	٢	١	٣	١	٢
دانية	—	٤	١	—	٢
المرية	—	٤		—	—
شاطبة	—	—	٤	—	٢
مرسية	٣	٤	٧	—	٤
بلنسية	٤	—	١٠	—	٣

ويبدو أن هذا مفهوم ابن عبدون حين يفرق بين الأندلسيين والمرابطين[١]. وبهذا المفهوم استعمل اللفظ في تشكيلات المرابطين والموحدين العسكرية[٢] وتنظيمات الموحدين الإدارية، فقد كانت عندهم هيئة استشارية من أشياخ الأندلسيين[٣]، ومن أعضائها المنتزون السابقون في الأندلس أو أبناؤهم، ومنهم من كانت أصوله غير عربية مثل ابن همشك وبني مردنيش[٤].

ويبدو أن المصطلح قديم ظهر منذ أواخر القرن الثالث/أوائل العاشر عندما اختفت ألفاظ أخرى مثل مسالمة ومولدين[٥]. وأغلب الظن أن المصطلح ديني لغوي: ديني لأنه لا يشمل أهل الذمة الأندلسيين، ولغوي لأن اللغة العربية عمّت الأندلس بينما تركزت في الشمال الأفريقي في المدن؛ ويبدو أن أهل القرن السادس يميّزون بين العدوتين على هذا الأساس[٦].

وبطبيعة تركيب الأندلسيين كانت مهنهم متنوعة مختلفة. فقد عملوا في الخطط الإدارية والعسكرية وتعاطوا الزراعة والتجارة والصناعة[٧].

« الجلاء » ظاهرة القرن عندهم

اتسمت حياة الأندلسيين في القرن السادس بالهجرة إلى البلاد المغربية، وهذه الهجرة حلقة في سلسلة بدأت منذ أيام الفتنة البربرية. ويمكن أن يطلق

(١) أنظر **رسالة ابن عبدون** ٩، ١٦.

(٢) راجع عن المرابطين **التكملة** ١:٢٩، **الحلل الموشية** ١٠١، **الاكتفاء** ١٠٧-١٠٨. **وعن الموحدين المن بالامامة** ١٤٨، ١٨٣، ١٩٣، ٢٠٢، ٤٠٠، **بيان موحد** ٥٨، **روض القرطاس** ١٤٠، ١٤١، **تنظيمات الموحدين** ٢٥٥-٢٥٦.

(٣) أنظر **المصدر الأخير** ١٧١، موسى: « التنظيمات الحزبية » ٧٥.

(٤) عن ابن مردنيش وأصله أنظر الدراسة المطولة التي اختصه بها كوديرا في مؤلفه **Decadencia**, p. III sqq. وعن ابن همشك راجع: **الإحاطة** ١: ٣٠٥-٣١١، و Dozy **Recherches**, I, pp. 368-369.

(٥) انظر: Simonet, **Los Mozarabes**, p. XVI del Prologo; Lévi-Provençal; **Histoire de L'Espagne Mus**, I, pp. 74-75.

(٦) انظر كيف فسّر أبو يحيى بن أبي زكريا قول القشقندي حين ناظر ابن المعلم بحضرته (**نفح الطيب** ٣:١٨٦).

(٧) راجع **مشاهير فاس** ٥٦ وما بعدها.

على هذه الظاهرة لفظ «الجلاء»[1]: وهو أمر يختلف عن الرحلة التي كانت كثيرة في العصور الوسطى بدافع التجارة أو العلم أو الحج أو السياحة، وقد تجتمع هذه الأسباب أو بعضها في حالة واحدة. غير أن حركة الجلاء اتخذت صورة جماعية في الأندلس منذ الفتنة البربرية وخلال عصر ملوك الطوائف نتيجة سقوط مدينة في حرب داخلية أو عدوان خارجي، أو هرباً من الظلم وأعباء الضرائب أو الصراع العنصري[2]. وكانت حركة الجلاء في عصر الطوائف عملية داخل البلاد الأندلسية في الغالب، لأن الأندلس — برغم تجزئتها — كانت أحسن حالاً من بقية بيئات المغرب، ولهذا هاجر بعض أهل القيروان إليها لما خربت مدينتهم حسب ما سبقت الإشارة إليه، كما أن بعض أهل صقلية قصدوا الأندلس لما سقطت ديارهم[3].

-ولكن منذ قيام الدولة المرابطية توفرت في البلاد الغربية حياة مستقرة أفضل من الأندلس، كما أن مراكش أصبحت مركز الثقل السياسي، فإليها يهرع المتعلم طلباً لتولي خطة، ويسرع التجار بحثاً عن سوق نافقة، فتقاطرت جموع الأندلسيين إلى البلاد الغربية خلال القرن السادس[4]. وأسرة بني الصقر خير مثل لحركة الجلاء خلال ذلك القرن، فقد انتقلوا خلال ثلاثة أجيال من سرقسطة — عقب سقوطها — إلى بلنسية بالمرية ثم إلى سبتة[5].

---

(١) راجع مدلول اللفظ وأسباب الجلاء عند عباس: **عصر الطوائف والمرابطين** ٣٢ وما بعدها.

(٢) أنظر الدراسة السابقة والمصادر المذكورة فيها على ذات الصفحات بالاضافة الى الأوراق المخطوطة التي نشرها بلاثيوس في مجلة الأندلس Asin Palacios; **Al-Andalus**, 1934, pp. 35-37.

(٣) راجع أمثلة في **وفيات الأعيان** ٣:٢١٤، ٣٣٤.

(٤) هذا لا يعني أن الأندلسيين لم يهاجروا إلى البلاد الغربية قبل الفترة المرابطية، فقد هاجر بعضهم فراراً من الاضطهاد السياسي مثل الربضيين الذين سكنوا في مركزين على الطريق بين فاس وأغمات (البكري، **المغرب** ١٥٥، **الروض المعطار** (نور عثمانية) ٧٧، أو بدوافع تجارية كاستقرار بعضهم في بونة (البكري، **المغرب** ٥٥). وبحريو بجانة في منطقة تنس فترة من الزمن (عباس: «اتحاد البحرين في بجانة بالاندلس» ٥).

(٥) أنظر عنهم: **تحفة القادم** ٤٩، **الإحاطة** ١:١٨٩، ابن ابراهيم، الإعلام ١:٢٢٧.

ومن المفيد إحصاء الذين هاجروا حسب ما يروى في كتب التراجم، وهذه الكتب، وإنْ لم تهدف الى تقصي الهجرات، فعلوماتها العشوائية تصلح مؤشرات في تبيين اتجاهات حركة الجلاء أيام الأحداث الكبرى في الأندلس منذ سقوط طليطلة وحتى فترة الاضطراب في فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين، وفي الوقت ذاته تسعف هذه المعلومات على مقارنة النتائج المتحصلة منها بالمعلومات القليلة التي توردها الروايات عن اتجاهات حركة الجلاء.

يوضح هذا البيان أربع حقائق رئيسية:

أولاً: يلاحظ أن الهجرة دائماً تكون إلى أقرب المناطق الغنية. فلما سقطت طليطلة نزح الناس الى قرطبة وشرق الأندلس (بلنسية ومرسية)، وعندما احتل السّيد بلنسية لجأ أهلها بشكل رئيسي إلى مرسية ودانية والمرية، ومع سقوط الثغر الأعلى اتجه النازحون إلى بلنسية ومرسية بصفة خاصّة — وهذا الذي تؤكّده رواية ابن أبي زرع[1] —، ولما احتلت أشبونة وشنترين كان اتجاه الهجرة الغالب نحو إشبيلية.

ثانياً: إن الاستقرار السياسي حدّد اتجاه الهجرة بشكل واضح؛ فبينما تقل نسبة المهاجرين إلى البلاد الغربية اثر سقوط طليطلة (وقد حدث والمغرب لم يخلص نهائياً للمرابطين)، تزيد النسبة بعد ذلك حتى تصل ذروتها مع سقوط الثغر الأعلى. ثم تتدنى النسبة خلال فترة الانتقال حتى لتكاد تتوقف، وهذا ما يتفق ورواية ابن حمادة الذي يقول عن أثر الحروب بين المرابطين والموحدين: فانجلى «أهل المغرب انجلاء عظيما الى الأندلس»[2].

ثالثاً: كانت هجرة الأندلسيين إلى البلاد الشرقية قليلة، والذي جرى منها كان اتجاهاً نحو بلاد بني حمّاد وهذا ما يتفق والأوضاع السياسية العامة وقتذاك، فقد سبق القول بأن الهجرة كانت من بلاد بني باديس الى بلاد بني حماد.

---

(١) **روض القرطاس** ١٠٦.

(٢) **البيان المغرب** ٤:٩٨.

رابعاً: رافقت الهجرات الأندلسية إلى أنحاء المغرب هجرات أندلسية إلى المشرق. ويبدو أن هذا أمر طبيعي، فصلةُ المغاربة الروحية بالمشرق دائمة وقويّة، فقد كانو يولون وجوههم شطر المشرق للحج وزيارة الأماكن المقدسة والنهل من منابع العلم المشرقية حتى إن كتب التراجم المغربية تحرص على ذكر رحلة من تترجم له وكأن تلك الرحلة وسام علمي. وأغلب الظن أن مثل هذه الرحلات انتشر انتشاراً واسعاً في العصر المرابطي. ولعل المرابطين حاولوا الحدّ منها في محاولاتهم لجمع الطاقات ضد نصارى أسبانيا المتربصين الدوائر بالأندلس، فإن هذا قد يفسّر محاولاتهم لاستفتاء علماء المغرب في أيهما أهم بالنسبة لأهل الأندلس الجهاد أم الحج[1]. وشجع انتشار التصوف في المغرب في القرن السادس على الرحلة الى المشرق فكثير من المغاربة رحل بقصد السياحة، وأقام عدد كبير منهم في الشام لهذه الغاية[2].

ولكن الرحلة شيء والهجرة الاستيطانية أمر آخر. والراجح أن العوامل التي دفعت الأندلسيين للجلاء إلى المناطق المغربية المختلفة حدت بهم إلى الهجرة إلى المشرق أيضاً، لا سيّما وأن الصلة الروحية به كانت عاملاً جاذباً قويّاً. وبالإضافة إلى تلك العوامل الدافعة، فالمرابطون والموحدون تشدّدوا مع أهل الذمة، الأمر الذي دفع بعدد من اليهود للهجرة إلى المشرق خاصّة مصر حيث كان الحكم الفاطمي أكثر تسامحاً معهم[3]. ووقف الموحدون موقفاً متصلباً من فقهاء المالكية الذين أيدوا أعداء الدولة أو لم يتظاهروا بتأييد المذهب الموحدي[4]، فهاجر منهم إلى المشرق من هاجر[5]

(١) راجع المعيار ١:٣٤١ وما بعدها.
(٢) أنظر رحلة ابن جبير ٢٥٠، ٢٥٧.
(٣) سيرد تفصيل هذا في الحديث عن أهل الذمة.
(٤) راجع **تنظيمات الموحدين** ٢٢٣ وما بعدها.
(٥) خير مثال على ذلك هجرة أبي الوليد محمد ابن خيرة انظرها في (**الصلة** ٥٦٠ **بغية الملتمس** رقم ١٧٨ **نفح الطيب** ٢:٢٤٠).

وإذا نظرنا في كتب التراجم لإحصاء من هاجروا إلى المشرق واستقرّوا فيه يمكن إحصاء اثنين وخمسين مهاجراً. وإذا قورن هذا العدد بعدد أولئك الذين هاجروا إلى مختلف أنحاء المغرب يتّضح أن نسبة المهاجرين إلى المشرق كبيرة، إذ تكاد أن تكون ١:٣. ولا يستبعد هذا فالمغاربة اشتركوا مع صلاح الدين في حروبه ضد الصليبيين وكان لهم أثر بارز فيها[1]. ويروي المقريزي أن معسكر صلاح الدين الأيوبي في منازلته عكا سنة ٥٨٣/١١٨٧ ضمّ أكثر من ألف حمام، وأكثر ما يتولاها المغاربة، يجتمع منهم اثنان أو ثلاثة في العمل في الحمام الواحد[2]. وعلى هذا فعددهم قد يكون ألفاً وخمسمائة مغربي على أقل تقدير.

ويبدو أن كثيراً من المغاربة هاجر هجرة استيطان، فجلّ الذين ذكرتهم كتب التراجم ممن أحصينا هنا كانت هجرتهم في فترات الاضطراب السياسي وعدم الاستقرار[3]. وقد يساعد في توضيح هذا الرأي معرفة المدن التي نزلوها والمهن التي احترفوها. فأما المدن فقد توزعوا فيها على الصورة الآتية:

البلد	القاهرة	الاسكندرية	القدس	حماة	حلب	دمشق	المدينة	مكة	الموصل	بغداد	البصرة	هراة	بلخ	أصبهان	بخارى	لم يذكر بلده	المجموع
العدد	١٢	٥	١	١	٤	٨	٢	٤	٢	٤	١	١	١	٢	١	٣	٥٢

(١) انظر **رحلة ابن جبير** ٢٧٤.
(٢) **السلوك** ١:٩٤.
(٣) راجع مثلاً **رحلة ابن جبير** ٢٥٠، **الصلة** ١:١٨٦-١٨٧، ٣٧٩، ٢:٢٧٥-٢٧٦، ابن سعيد، **المغرب** ١:١٣٥، ٢:٨٨، **التكملة** ١:٩٠، ٣٤٤، ٢:٥٠٠-٥٠١، ٧٥٨، **وفيات الأعيان** ٣:٢١٥، ٤:٧٢، ٢٦٢، ٢٦٤، ٣٨٥، **الذيل والتكملة** ٥:ق ١:٦٤-٦٥، ق ٢:٥٤٨، **الديباج** ٢٧٦، **نكت الهميان** ٢٢٨، **بغية الوعاة** ٢٩٤، ٣٧٩، **أزهار الرياض** ٣:١٦٢.

وواضح أن غالبية المهاجرة استقرّت في المدن الرئيسية في الشام ومصر، وهما مركز النفوذ السياسي في المشرق في القرن السادس. وأكثر هؤلاء النازحين اشتغلوا بتدريس العلم في غير مدينة. ويبدو أن شهرة بعضهم كانت واسعة فشدّت إليهم الرحال كأبي بكر الطرطوشي وابن السراج الشنتمري وغيرهما[1]. كما عمل بعضهم في خطط تتصل بالعلم كالخطابة[2] وولاية خزانة الكتب[3] والتكسب بالشعر[4]. وتعاطى بعضهم الطب مثل الحكيم أبي الحكم المغربي[5]. وعبد المنعم الجلياني[6] وأبي عبدالله اللوشي[7]. وأغلب الظن أن منهم من احترف التجارة[8]. وهناك إشارة لمن عمل في الرعي[9] والمهن الصغيرة. وقد سبقت الإشارة إلى المغاربة الكثيرين الذين عملوا في حمامات معسكر صلاح الدين الأيوبي في حصار عكا.

إن أكثر المترجم لهم عملوا في العلم وما يتصل به. ولعل أهل العلم أكثر عناصر المجتمع تأثراً بعدم الاستقرار، وهذا من الأسباب التي قوّت الظن بأن الهجرة كانت من أجل الاستقرار والاستيطان. ومن كل ما تقدم أن مشكلة الأندلس الأساسية في القرن السادس فقدان الأمن، فهذا أدى إلى الجلاء المستمر، والجلاء ترتّبت عليه آثار اقتصادية كثيرة ستتّضح في الفصول القادمة.

(١) بالاضافة للمصادر والصفحات ذاتها في الحاشية السابقة انظر أيضاً **الصلة** ٢:٥٦٤، **بغية الملتمس** ١٢٥، **التكملة** ١:٤١٩، ٢:٨٣٥، (ط. مجريط) رقم ١٩٧٣، **معجم البلدان** (ط. وستنفلد) ٤:٧١٠، **معجم الأدباء** ١٦:٢٩٣، **الذيل والتكملة** ٤:١٨، ٥:ق ١:٢٤٨، **الوافي بالوفيات** ٤:٤٦، **بغية الوعاة** ٤٩، ٦٨، **نفح الطيب** ٢:١١٧، ١٣٨، ٢١٧، ٢٣٨، ٦٣٤، ٦٢٨.

(٢) انظر **شذرات الذهب** ٤:٢٥٠.

(٣) **التكملة** ٢:٥٠١، **نفح الطيب** ٢:١٥٧.

(٤) مثاله ابن خروف الإشبيلي الشاعر، وتخلط المصادر بينه وبين سميّه وبلديّه ابن خروف النحوي، أنظر عن مصادرها **نفح الطيب** ٢:٦٤٠ الحاشية رقم ١.

(٥) راجع عنه **وفيات الأعيان** ٣:١٢٣-١٢٤، **طبقات ابن أبي أصيبعة** ٢:١١٤، ٢٤٠، **نفح الطيب** ٢:١٣٣، ٦٣٨.

(٦) **التكملة** (مجريط) رقم ١٨١٥، **الذيل والتكملة** ٥:ق ١:٥٧، **صلة الصلة** ٢:١٥٧، **تحفة القادم** ٩٠.

(٧) **نفح الطيب** ٢:٢٤٣.

(٨) استنتاجاً من احدى روايات المقري؛ راجع **نفح الطيب** ٢:٦٢٨.

(٩) **الصلة** ١:٣٧٩.

العرب

انساح العرب مع الفتح الإسلامي في مدن المغرب دون بواديه، وتضاعف عددهم في أواخر خلافة بني أمية المشرقية لما حاول الأمويون قمع ثورات البربر ونشر الإسلام بينهم[1]. ولما قامت الدويلات المغربية المستقلة في القرن الثاني/الثامن في أفريقية وتاهرت وسجلماسة وفاس استقطبت عناصر مشرقية[2]. بيد أن هذا الاستقطاب وتلك البعوث العسكرية وجموع الفقهاء لم تؤثّر في البادية من حيث التركيب السكاني[3] حتى إن المصادر حتى أوائل القرن السادس لتحرص على ذكر تركيب المدن الصغيرة في الأرياف إن كانوا أخلاطاً[4]. ولم يفلح العرب في تغيير تركيب سكان بادية الشمال الأفريقي وأريافه إلاّ بعد منتصف القرن الخامس/الحادي عشر مع الغزوة الهلالية، وبفضلها انتشر العرب في البوادي والارياف في دَوْرين مختلفين، كان طابع الأول حربياً والثاني سلمياً.

أ ــ الدور الحربي

يمتدّ هذا الدور من منتصف القرن الخامس/الحادي عشر إلى منتصف السادس/الثاني عشر. وكانت الغزوة الهلالية تتكون من قبائل بني هلال وبني

(١) عن قوائم فقهاء العصر الأموي راجع **رياض النفوس** ١:٦٢.

(٢) أنظر كيف أن إدريس بن إدريس مشيد مدينة فاس استقدم عرباً من أفريقية والأندلس وجعلهم بطانة له دون البربر (**روض القرطاس** ١٣)؛ واستقطبت تاهرت الفرس، وحتى عصر البكري كانت منهم جماعة تسكن إحدى مدن بنطيونس الثلاث (**المغرب** ٧٢).

(٣) لا يكفي للاستشهاد على أن العرب انتشروا في الشمال الأفريقي بأن بعض القبائل ادعت أنساباً عربية مثل بني مسكّن وعدادهم في كومية، وهيلانة أو إيلان الذين يدعون نسبة عربية صريحة مع أنهم مصامدة (راجع **قبائل المغرب** ٣٢٧)، أو هوارة أغمات الذين يدعون أنهم عرب وتبربروا بالمجاورة (**نزهة المشتاق** (ط.ب.) ٤٢)، أو صنهاجة التي تزعم أنها تبربرت بالمجاورة أيضاً (**الحلل الموشية** ٧)، فان مثل هذه الأنساب تصور وضعاً سياسياً لا عرقياً، فضلاً عن أن تبريرهم يدل على قلة عددهم على فرض عروبتهم الأولى. ويبدو أن أصدق دليل على انتشار العرب في المدن دون بوادي الشمال الأفريقي هو انتشار العربية في المدن دون البوادي (راجع عن انتشارها في المدن: **العلوم والآداب** ص ١٥٢-١٥٣).

(٤) أنظر مثلاً ميلة وطبنة وطولقة وبنطيوس وقابس ومنستير عثمان في عهد البكري، **المغرب**: ١٧، ٥١، ٥٦، ٦٤، ٧٢، وطبنة في **نزهة المشتاق** (ط.د) ٩٣.

سليم الذين كانوا حول الطائف يقطعون الطرق ويغيرون على أطراف الشام متحالفين مع القرامطة، فلما فتح الفاطميون الشام نقلوا من بطون هذه القبائل الاثبج وزغبة ورياحاً وعدياً وربيعة إلى صعيد مصر في العدوة الشرقية للنيل[1]، وعندما قطع بنو باديس الخطبة عن الفاطميين وحولوها الى العباسيين، نقم الفاطميون على بني باديس ذلك فدفعوا بهذه القبائل نحو «البلاد الشرقية»[2].

وكان عدد هذه القبائل الغازية كبيراً؛ يقول ابن الأثير إن رياحاً وحدها كانت قرب القيروان في زهاء ثمانين ألف بيت[3]. وسيطرت هلال وسليم على المنطقة من الاسكندرية إلى مشارف قلعة بني حماد[4]، فحالت حصانة كثير من مدن بني حماد والسياسة التي اتبعوها بالتحالف مع العرب الهلالية حيناً ورشوتهم بالمال أحياناً أخرى دون سقوط دولتهم[5]. وقد استعصت الجبال الشاهقة على العرب الهلالية[6]، لكنهم بسطوا نفوذهم على السهول والنجود وبسائط المدن الجبلية. فاستقرّت العرب الغازية في الساحل التونسي[7] وبلاد الجريد[8] وبسائط تل الأطلس الشرقي بين قسنطينة والقل وفي خراج باجة وميلة وباغاي ومجانة[9]. ويلاحظ أن سليماً سكنت فيما يقرب من الساحل بينما عمرت هلال المناطق

(١) **العبر** ٦:١٣-١٤، **الاستقصا** ٢:١٦٣-١٦٤.
(٢) أنظر تعريف البلاد الشرقية في الفصل الثاني مما سبق. وعن الأحداث السياسية راجع **المعجب** ٢٠٤-٢٠٦، **وفيات الأعيان** ٥:٢٣٠، **رحلة التيجاني** ١٧ وما بعدها، **البيان المغرب** ١:٤١٧، **العبر** ٦:١٤.
(٣) **الكامل** ١١:٢٤٧.
(٤) يقول الإدريسي إن العرب تغير إلى الباب بين القلعة وبجاية (**نزهة المشتاق** (ط.د.) ٩٣).
(٥) راجع **الكامل** ١١:٣١-٣٢، **وفيات الأعيان** ٦:٢١٤، ويصبح هذا التحالف قوياً في مواجهة عدو مشترك كالموحدين لما حاولوا فتح بجاية في ١١٥٢/٥٤٧ (**رسائل موحدية** ٢٩-٣٢). ولكن العرب قد يتحالفون ضد بني حماد أيضاً مثل تحالف عدي وتوجين (راجع **العبر** ٦:١٧٤).
(٦) أنظر مثالاً على ذلك في **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٩٣.
(٧) راجع **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٠٩، ١١٠-١١١، ١١٩.
(٨) **المصدر نفسه** ١٠٥.
(٩) راجع **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٩٤، ٩٨، ١٠٣، ١١٤، ١١٨.

الداخلية[1]. وجأر سكان أفريقية بالشكوى من تملك العرب لديارهم بالسيف[2]. وكانت هذه الشكوى من الأسباب التي دفعت عبد المؤمن لحرب العرب عند سطيف في ١١٥٢/٥٤٧ عندما فتح بجاية[3].

والحق أنه كان لأهل أفريقية أن يشكوا؛ فمنذ أن خرّب العرب القيروان في ١٠٦٠/٤٥٢ واضطرّ بنو باديس لاتخاذ المهدية عاصمة جديدة[4]، عاثت القبائل العربية الغازية في المنطقة الشرقية من البلاد الشرقية خراباً ودماراً، مالكة للأرض ناسفة زروع الأهالي قاطعة الطرق ناهبة سالبة، فتعطّلت الزراعة وكسدت التجارة[5]. ومما ضاعف في مشكلة الأمن أن النزاع لم يكن بين أهالي البلاد الشرقية والعرب فحسب بل كان بين العرب الغازية أشدّ، فرياح حرب على زغبة[6] وعدي عدو لرياح[7]. ولم تستطع المدن الحصينة والساحلية الحفاظ على وجودها على الرغم من ظهور زعامات محلية قوية مثل بني خراسان في تونس إلاّ بدفع إتاوات للعرب[8]، كما لم يقْوَ النورمان على الاحتفاظ بما احتلوا من مدن الساحل إلاّ ببذل الأموال لهم[9]. وشيدت بعض المدن أسواراً حياطةً على ازدهارها[10]. ونتيجة لهذا كله كان من الطبيعي أن يفكر الموحدون في احتلال البلاد الشرقية. ومع الفتح الموحدي بدأت مرحلة توسع هؤلاء العرب سلمياً في هضبة الشطوط والبلاد الغربية والأندلسية.

(١) راجع عن بطون هذه القبائل ومناطق استقرارها غرب طرابلس **مسالك الأبصار** (أحمد الثالث) ٣:ق ١:٧٤، **العبر** ٦:١٩ وما بعدها ٧٣، ٨٥ وشرقي طرابلس إلى الاسكندرية **المصدر الأول** ٣:ق ١:٧١-٧٢.
(٢) **المعيار** ١:٣٠١-٣٠٢.
(٣) **العبر** ٦:١٦٤.
(٤) **المعجب** ٢٢٤.
(٥) أنظر **نزهة المشتاق** (ط.ب.) ٨٩، ٩٠، ١٠٠، **العبر** ٦:١٤ وما بعدها، عباس: **تاريخ ليبيا** ص ١٤١ وما بعدها.
(٦) **الكامل** ١٠:٩٨.
(٧) **المصدر ذاته** ١٠:٤٥٠، **العبر** ٦:١٧٣.
(٨) **المصدران ذاتهما** ١١:٢٩-٣٢، ٦:١٥٩، ١٦٣-١٦٤، ١٦٩ على التوالي.
(٩) **الكامل** ١٠:٥١.
(١٠) يقول البكري إن أسوار بونة شيّدت بعد سنة ٤٥٠ (**المغرب** ٥٥).

ب ــ دور التوسع السلمي

يبدو أن فكرة استجلاب العرب إلى الأندلس أو البلاد الغربية جالت بفكر بعض ملوك الطوائف ثم المرابطين. يروي ابن الأثير أن الأندلسيين فكّروا في استدعاء القبائل الهلالية بعد سقوط طليطلة ولكنهم صدفوا عن الفكرة خشية أن يخرب العرب الأندلس كما خربوا القيروان[١]. والظاهر أن المرابطين أقدموا على تنفيذ هذه الفكرة، فهناك إشارات إلى اشتراك هؤلاء العرب مع المرابطين في موقعتي كنشره (١٠٩٧/٤٩٠)[٢] وإقليش (١١٠٨/٥٠١)[٣] وغزوة ابن الحاج على برشلونة (١١١٤/٥٠٨)[٤] وفي الجواز الثاني لعلي بن يوسف في (١١١٩/٥١٣)[٥] وفي جيش تاشفين في (١١٣٦/٥٣٠)[٦]، كما كانوا معه حين هزم في تلمسان وسقطت دولة المرابطين[٧]. ويبدو أن وجودهم في الجيش المرابطي كان نتيجة مبادرات فردية، فابن أبي زرع يصفهم مع علي بن يوسف في جوازه بالمطوعة، هذا بالإضافة إلى أن عددهم قليل[٨]. وأغلب الظن أنه لم تكن عند المرابطين سياسة منظمة للاستفادة من طاقة هؤلاء البدو مثلما فعل الموحدون.

ويلمح الدارس أسباباً سياسية واقتصادية وعسكرية مع الموحدين لاستجلاب العرب من البلاد الشرقية الى البلاد الغربية والأندلسية. فقد أراد عبد المؤمن استثمار طاقات البدو هؤلاء في مجابهة نصارى إسبانيا وفي الوقت ذاته قطع دابر إفسادهم لاقتصاد البلاد الشرقية[٩]، كما هدف إلى استغلال القبائل العربية في عملية حفظ التوازن القبلي في دولته المصمودية وهو غريب عن المصامدة، وقد

(١) الكامل ١٠:١٥١-١٥٢.
(٢) الاكتفاء ١٠٧-١٠٨.
(٣) نظم الجمان ١٠، مؤنس: « الثغر الأعلى » ٢٩.
(٤) التكملة ١:٢٩.
(٥) روض القرطاس ١٠٦.
(٦) البيان المغرب ٤:٩٤.
(٧) الحلل الموشية ١٠١.
(٨) حركات: النظام السياسي ١٥٥.
(٩) أنظر المن بالامامة ١٣٤، المعجب ٢٢٥-٢٢٦، الكامل ١١:٢٤٦، بيان موحد ٣٨، نهاية الأرب ٢١١، تنظيمات الموحدين ٢٥٧-٢٥٨.

حدث ذلك في نقل الخلافة من الشورى إلى الوارثة[١]، وإنشاء هيئة أشياخ العرب إلى جانب هيئتي أشياخ الموحدين والأندلسيين[٢]. وحركت الأهداف ذاتها يوسف[٣] والمنصور والناصر، إلاّ أنه مع المنصور والناصر تظهر أسباب الأمن واضحة جليّة، إذ غرّبا العرب الى البلاد الغربية تأديباً وعقاباً لهم جزاء تعاونهم مع بني غانية والأغزاز في فتنتهم في البلاد الشرقية[٤]. ونتيجة لهذه السياسة فقد نقل خلفاء الموحدين الأربعة الأول أعداداً من العرب إلى البلاد الغربية والأندلسية. فمتى نقلوا وأين أنزلوا؟

يروي الذهبي أن عبد المؤمن أنزل العرب شريشاً وإشبيلية بعد فتح بجاية[٥]، بينما يقول ابن الأثير إن الذين نقلوا كانوا من الأثبج، وأنزلوا المغرب، وبعد فتح المهدية استجلبت رياح[٦]. غير أن البيذق ــ وقد عاصر الأحداث ــ يوضح أن من نقل من العرب إلى المغرب بعد فتح بجاية ردّ إلى دياره ثانية[٧]، ولم يتمّ توزيع العرب على البلاد إلاّ بعد فتح المهدية[٨]، وهذا ما تكاد تجمع عليه الروايات المغربية وتبيّن أنه كان بسبب إلحاح النصارى على الأندلس[٩]. ومن هنا لم يعرف عن عبد المؤمن أو ابنه يوسف إنزال العرب في البلاد الغربية. فكلاهما أوطن العرب في البلاد الأندلسية، فأنزل عبد المؤمن العرب في قرطبة وأشبيلية وشريش[١٠]، وكان يوسف يرسل مجموعات بصورة مستمرة إلى ثغور الأندلس[١١]، ولما

(١) رسائل موحدية ٥٧-٥٩، الكامل ١١:٢١١، نهاية الأرب ٢٠٧-٢٠٨، تنظيمات الموحدين ١٣٨-١٣٩.
(٢) المصدر الأخير ١٧١-١٧٢.
(٣) رسائل موحدية ١٥٢-١٥٧، المن بالامامة ٤١١-٤١٢، بيان موحد ٧٦، ١١٣.
(٤) بيان موحد ٢١٨، روض القرطاس ١٤٣، الاستقصا ٢:١٦٨.
(٥) تاريخ الإسلام (مخ) ١٣:٢٥٢ق.
(٦) الكامل ١١:٢٤٦-٢٤٧.
(٧) أخبار المهدي ١١٦.
(٨) أخبار المهدي ١٢٠.
(٩) المن بالامامة ١٤٤، ١٧٢-١٧٣، بيان موحد ٣٨، ٤٣، روض القرطاس ١٣٠-١٣٢.
(١٠) المعجب ٢٢٦، تاريخ الإسلام (مخ) ١٣:٢٥٢ق.
(١١) المن بالامامة ٢٥١، ٢٦٩، ٢٧٠، بيان موحد ٧٦.

أخذ يوسف شرق الأندلس من بني مردنيش أسكن العرب مع زناتة في بلنسية[١].

والراجح أن عدد العرب الذين نقلهم عبد المؤمن و يوسف إلى الأندلس كان كبيراً، فيصف ابن صاحب الصلاة العرب الذين استصحبهم عبد المؤمن بعد فتح المهدية الى المغرب بأنهم «على عدد الذباب والحصي»[٢]، وكان معه في استعداده للجواز في سنة ١١٦٣/٥٥٨ ــ الذي لم يتمّ ــ في سلا أربعة عشر ألف فارس منهم[٣]. وفي سنة ١١٦٥/٥٦٠ أرسل يوسف حملة من العرب إلى الأندلس لحماية صيفيتها بعث منهم إلى بطليوس وحدها خمسمائة[٤].

ولم تصبح سياسة توطين قبائل هلال في البلاد الغربية سياسة للدولة إلاّ مع المنصور الذي اتبع سياسة الثواب والعقاب مع العرب إثر الهزات العنيفة التي زلزلت البلاد الشرقية من جراء فتنة بني غانية متحالفين مع العرب والأغزاز. ولما حافظت زغبة على ولائها للموحدين كافأها المنصور بإقرارها على مشاركة بني باديس حلفاء الموحدين من زناتة في السكن بين المسيلة وقبلة تلمسان[٥]، بينما غرّب عناصر «الشر» من رياح وجشم إلى البلاد الغربية جزاء تحالفهم والميورقيين، فأنزل رياحاً بلاد الهبط بين قصر كتامة والمحيط، وجشماً ــ وهم الخلط وسفيان وجابر ــ بلاد تامسنا وغمارة ــ مما يلي ساحل طنجة إلى سلا[٦]. ومنذ وقتئذ ظل لهذه القبائل العربية وجود قوي في المناطق الساحلية والسهول، لا سيّما في حوض وادي سبو[٧] ووادي أم ربيع[٨] ودكالة[٩] وآزمور[١٠]. وانتشر عرب من المعقل قرب فج

(١) أخبار المهدي ١٢٧.
(٢) المن بالامامة ١٤٤.
(٣) أخبار المهدي ١٢١.
(٤) المن بالامامة ٢٥١، ٢٦٩، ٢٧٠.
(٥) العبر ٢١:٦، ٤٠، قبائل المغرب ٤٢٢.
(٦) روض القرطاس ١٤٣، العبر ٢١:٦، ٢٧، ٣٢، الاستقصا ١٦٨:٢.
(٧) يدل على كثرتهم في هذه المنطقة وقوفهم في وجه بني مرين في سنة ١٢١٧/٦١٤ (راجع روض القرطاس ١٩٠-١٩١).
(٨) بيان موحد ٢٨٦، ٣١٠.
(٩) التشوف ٣٠٤، ٣٩١.
(١٠) التشوف ٤٢٣

تازا[١]. ونتيجة لهذه الموجة العربية فقد تعربت بادية البلاد الغربية فطبعت بالطابع العربي[٢].

ولئن حاول المنصور بتغريب هؤلاء البدو إلى البلاد الغربية أن ينهي مشكلات البلاد الشرقية، فقد أورثت سياسته هذه البلاد الغربية مشكلة اقتصادية كبرى، إذ لم يفتأ هؤلاء البدو يغيرون على طرق التجارة ومناطق الزراعة[٣]، كما أربكوا نظام ملكية الأراضي، فغلبوا على دكالة حتى عربوها[٤]، وألجأوا غمارة الى الجبال[٥]، وزاحموا جزولة بالسوس فغلبوها فصارت لهم خولاً وأحلافاً[٦]. و يبدو أن المنصور في أواخر أيامه ندم على توطينهم في البلاد الغربية لما رأى صنيعهم[٧].

وسار المنصور على نهج أسلافه من إرسال العرب إلى الأندلس حياطة لها من النصارى[٨] إلى جانب سياسة التوطين التي اتبعها في البلاد الغربية. وفي خلافته يظهر اسم العرب بين المخاطبين في الرسائل الرسمية التي بعثت الى الأندلس[٩]. و يبدو أن وجود العرب مع قبائل الموحدين في الأندلس كان يسبّب احتكاكاً مستمراً، ولهذا لما جوزت جماعة من كومية في ١٢١٩/٦١٦ أمرت ألاّ تختلط بغزاة ولا تزاحمهم[١٠]، الأمر الذي ينبيء بأن العرب كانوا عناصر شغب في الأندلس كما كان حالهم في الشمال الأفريقي.

(١) روض القرطاس ١٦٦.
(٢) العلوم والآداب ١٧.
(٣) التشوف ٣٠٤، ٣٩١، ٤٢٣.
(٤) قبائل المغرب ٣٢٤.
(٥) قبائل المغرب ٣٢٥.
(٦) المصدر ذاته ٣٣١.
(٧) بيان موحد ٢٠٨، روض القرطاس ١٥٢.
(٨) الكامل ١٤٦:١٢.
(٩) مؤنس: «عقد بيعه بولاية العهد» ١٦٠، ١٦٤، ١٦٥.
(١٠) العطاء الجزيل (مخ) ٧.

أهل الذمة

تطلق المصادر ألفاظاً متعددة ومختلفة على أهل الذمة في المغرب ومن المفيد الوقوف عليها والتعرّف على مدلولها، فقد يساعد ذلك في توضيح مجموعات أهل الذمة والعناصر المتصلة بها والمهن التي كانوا يقومون بها في المغرب خلال القرن السادس.

المصطلحات ومدلولها

جمع سيمونت قائمة بالمصطلحات المختلفة التي استعملت في الأندلس[1]، وأطلق على نصارى الأندلس اسم « المستعربين » (Mozarabes)، ومن عهدئذ شاع الاستعمال بين الدارسين. ويبيّن سيمونت أن اللفظ مستعمل في الوثائق اللاتينية ثم دخل الاستعمال عند نصارى إسبانيا في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، وأطلق على النصارى الذين كانوا في ظل الحكم الإسلامي واستعربوا لساناً وأسلوب حياة[2]. إذن فاللفظ قد أطلق على نصارى الأندلس من قبل غير المسلمين خارج دار الإسلام، كما أن المصادر الإسلامية لم تعرفه على الأقل حتى نهاية الفترة التي تعنى بها هذه الدراسة.

فإذا تجاوزنا هذا المصطلح المتأخر نسبياً وجدنا لفظين يوردهما الكبري، وقد ربط بعض الدارسين بينهما وبين النصرانية في البلاد الشرقية. واللفظان هما « المولدون »[3] و « الأفارق »[4]. ويرى مارسيه أنهم ربما كانوا مسيحيين[5]، ويرجح جوتييه أن الأفارق بقايا القرطاجنيين، لا سيا أن وجودهم في الساحل التونسي يوحي بذلك[6]. وربما يفهم من البكري أن « المولدين » مسلمون وذلك

(١) انظر عن Simonet, Los Mozárabes, pp. VII-IX

(٢) راجع الوثائق في Ibid, p. VII sqq.

(٣) **المغرب** ٥١، ٥٢، ٦٤، ٧٢.

(٤) **المصدر ذاته** ١٧، ٥٦.

(٥) **Marcais,** Arabes en Berbérie, p. 35.

(٦) **Gautier, Le Passé de l'Afrique du Nord,** p. 97 sqq.

حين يذكر أن سكان بسكرة هم المولدون ويضيف قائلاً بأن مذهب أهل بسكرة هو مذهب مالك[1]. ويبدو أن رواية البكري تترك مجالاً لترجيح رأى جوتييه بشأن الأفارق، لأن البكري يفرق بين العرب والبربر والأفارق[2]. ويبدو أن مصطلحي « مولدون » « وأفارقة » لم يستعملا خلال القرن السادس، فلم يردا في المصادر بعد البكري إلا في إشارة واحدة عارضة عند الإدريسي حين أطلق على قابس اسم « مدينة الأفارقة »[3]. وربما كانت رواية البكري بشأن اللفظين مأخوذة عن ابن الوراق، وعليه فربما كان اللفظان مستعملين خلال القرن الثالث/العاشر وانقرضا في الوقت ذاته الذي انقرض فيه لفظا « مسالمة » و « مولدين » في الأندلس أو بعيد ذلك الوقت. ومصادر القرن السادس لا تطلق على أهل الذمة في الشمال الإفريقي إلاّ لفظي يهود ونصارى[4].

وتبيّن المعلومات المتوفرة أن نصارى الأندلس وإسبانيا المسيحية وأوربا كلها يطلق عليهم لفظ « الروم » سواء أقاموا في بلادهم أو دخلوا دار الإسلام محاربين أو تجاراً عابرين أو عبيداً مجلوبين أو عسكراً متخذاً في جيوش المسلمين[5]. ولم يعجب هذا التعميم الحسَّ النقديَّ لمؤرخ مشرقي كابن الأثير يميز بين نصارى شرق أوربا فيدعوهم بالروم ونصارى أوربا ويسميهم بالفرنجة[6]، فلذا لم يسمّ جند المرابطين النصراني بالروم وإنما حللهم الى عناصرهم الأولية فأطلق عليهم « المماليك الفرنج والروم »[7] لأنهم من أوربا كلها.

ويلمح الدارس — بالرغم من الاستعمال الغالب لكلمة « الروم » — أن الروايات في حالات غير قليلة عمدت إلى تحديد المصطلحات في شيء من الدقة،

(١) **البكري، المغرب** ٥٢.

(٢) ذلك حين يذكر أن أهل منستير عثمان بربر وعرب وأفارق (راجع **المغرب** ٥٦).

(٣) جاءت إشارة الإدريسي في غير الموضع الذي تحدث فيه عن قابس (راجع **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٢١).

(٤) راجع المصادر المذكورة فيما يلي في حواشي مناطق استقرار أهل الذمة في الشمال الأفريقي.

(٥) أنظر **أخبار المهدي**: ٩٦، ١٢٤، **المعجب** ٢٦٩، ٣٢٣، **البيان المغرب**، ٤:٩٨، ١٠٢، ١٠٣، **بيان موحد** ٢٦، ٢٦٤، **روض القرطاس** ١٦٧، الإحاطة ١:٤١٩، ٤٢٦.

(٦) مثاله في **الكامل** ١١:١٤٥.

(٧) **المصدر ذاته** ١٠:٥٧٣، واكتفى ابن خلكان بكلمة « مماليك » (**وفيات الأعيان** ٥:٥١).

فأطلقت على نصارى إسبانيا المحاربين « عجم الأندلس »[١]، وعلى نصارى الأندلس الذين تحت الذمة « الروم البلديين »[٢] أو « الروم المعاهدة »[٣] أو « النصارى المعاهدين »[٤] أو « المعاهدين » مجردة من الإضافة[٥]، وفي هذه الحالة قد تشمل النصارى واليهود معاً[٦]، وقد يطلق على الروم المتخذين جنداً عند المسلمين « العلوج »[٧]. وخير ما يصور محاولات الروايات لتحديد المصطلحات إطلاق ابن صاحب الصلاة على يهود غرناطة في ظل الموحدين لفظ « اليهود الإسلاميين »[٨] فلعله أراد به التمييز بين اليهود الذين عاشوا في ظل السيادة الإسلامية وأولئك الذين كانوا تحت حكم نصارى إسبانيا في الشمال أو ربما أراد به اليهود الذين أظهروا الإسلام في العصر الموحدي إذ لم تنعقد ذمة ليهودي أو نصراني في ظل حكم الموحدين كما سيجيء بيانه.

ونتج عن استعمال كلمة « الروم » بصورة عامةٍ غالبةٍ مشكلةُ معرفة أجناس الأوربيين الذين استقرّوا في المغرب خلال القرن السادس. فالصقالبة الذين لعبوا دوراً سياسياً عسكرياً كبيراً في الأندلس في عصر الخلافة والطوائف[٩] لا تجد عنهم إشارة في مصادر القرن السادس ما خلا إشارة واحدة عند السقطي في رسالته عن الحسبة عندما يتكلم عن عناصر الرقيق[١٠]، وقد يكون مبعثها كلاماً نظرياً. ولكن إحصاء بعض الأسماء الواردة بين الحجاب أو من تولوا خططاً سبه عسكرية أو ذكروا بين العبيد ربما كشفت عن وجود الصقالبة في المغرب خلال القرن السادس.

(١) مؤنس: « الثغر الأعلى » ١٢٩ نقلاً عن رسالة مرابطية رسمية.
(٢) **البيان المغرب** ٤:٣٩.
(٣) **المصدر ذاته** ٤:٤٠.
(٤) **الحلل الموشية** ٧٥.
(٥) **البيان المغرب** ٤:٦٩-٧٣، **معجم الصدفي** ١٥٥، **الإحاطة** ١:١١٤، ١١٩.
(٦) **الإحاطة** ١:١١٩-١٢٠.
(٧) **البيان المغرب** ٤:٢٣، **بيان موحد** ١١١، ١٥٥.
(٨) المن بالإمامة ١٧٨٧.
(٩) راجع عنهم دراسة العبادي: **الصقالبة في اسبانيا**.
(١٠) **رسالة السقطي** ٥٠.

لقد رددت المصادر أسماء خصيان مثل صندل الخصي[١] وكافور الخصي[٢] وعنبر الخصي[٣] وريحان الخصي[٤] ومبشر الخصي[٥]، كما ذكرت أسماء دون أن تضفي عليها صفة الخصاء كمظفر[٦] ومبشر[٧] والعلج بشير وصندل الفتى[٨]، والراجح أنهم كانوا خصيان أيضاً لأن المقري عندما ذكر مظفراً الذي ذكره البيذق وصفه بـ « الخصي »[٩]. ولم يكن الخصاء يتم في المغرب وإنما في فرنسا والثغور المجاورة لها والغالب فيها خصاء الرقيق الصقلبي[١٠]. ومن هنا يغلب على الظن أن كلمة الروم كانت شاملة للصقالبة أيضاً. وعلى ضوء هذا التحديد للمصطلحات بشأن أهل الذمة سنحاول توضيح المناطق التي نزلوها في المغرب.

مناطقهم وانتشارهم

مما يلفت النظر قلّة الإشارات عن أهل الذمة في أرياف البلاد الغربية والشرقية. فباستثناء خمس إشارات تكاد الأرياف لا تعرف عنهم شيئاً. ومن هذا القبيل إشارات البكري إلى أفارقة قابس[١١] ومنستير عثمان[١٢] والأقباط الذين حول طرابلس « في زي البربر كلامهم بالقبطية »[١٣]؛ ولا يعرف شيء عن هذه المجموعات في القرن السادس مما يدعو إلى الظن بأن البكري نقل عن مصدر متقدم. ومن هذا الصنف الضعيف من

(١) **الكامل** ١٠:٥٨٩.
(٢) **المعجب** ٢٤٤.
(٣) **المعجب** ٢٦٣.
(٤) **المعجب** ٢٦٣، ٣١١.
(٥) **المعجب** ٣١١، ٣٢٤.
(٦) **أخبار المهدي** ٦٥، **نفح الطيب** ٣:٣٢٤.
(٧) **معجم الصدفي** ١٨٩.
(٨) **بيان موحد** ١٦.
(٩) أنظر مصادر الحاشية ٧.
(١٠) أنظر **الروض المعطار** (نورعثمانية) ٣٤و، **الصقالبة في أسبانيا** ٩-١٠ والمصادر المذكورة هنالك.
(١١) **المغرب** ١٧.
(١٢) **المصدر ذاته** ٥٦.
(١٣) **المصدر ذاته** ٧.

الأخبار ما يزعمه أهل المغرب من أن أصل قبيلة كوراية (جراوة) يهودي، و يعيبونهم بذلك[١]. فهل كان لليهود وجود في بادية البلاد الغربية وكانت كوراية منهم؟ إن الزعم لا ينهض دليلاً، لا سيّما أن ديار كوراية كانت حول تادلا، على خط التجارة الرئيسي بين فاس وأغمات وسجلماسة، فربّما دلّ الزعم على حسن علاقات بين اليهود وكوراية بحكم موقعهم التجاري.

والإشارة الوحيدة التي يركن إليها هي ما يرو يه ابن خلدون من أن نصارى من سردانية استقرّوا في منطقة قسطيلية (بلاد الجريد) منذ أيام الفتح معاهدين على الذمة وظلّوا هناك حتى أيام ابن خلدون[٢]. و يلاحظ أن هذا الوجود النصراني وجود طارئ، فأين كانت مناطق أهل الذمة في الشمال الأفريقي؟

يبدو أن المدن هي المناطق الأساسية التي نزلها أهل الذمة في الشمال الأفريقي. لقد تعدّدت الإشارات عنهم في فاس[٣] ومكناسة[٤] وقلعة مهدي بن توالي[٥] ومراكش وأغمات[٦] وسجلماسة[٧] وتلمسان[٨] وتونس[٩] و بونة[١٠].

وتختلف مناطق أهل الذمة في البلاد الأندلسية عن الشمال الأفريقي إذ سكن هؤلاء في مدن الأندلس وأريافه. فلأهل الذمة حضور كبير في سائر المدن الأندلسية[١١]

(١) الغصون اليانعة ٩٨.
(٢) العبر ٦:١١٦، ٤١٩.
(٣) البكري، المغرب ١١٥، الاستبصار ٢٠٢، روض القرطاس ٦٩.
(٤) أخبار المهدي ١٢٤.
(٥) الاستبصار ١٨٧.
(٦) نزهة المشتاق (ط. ب) ٤٥، وفيات الأعيان ٥:٥٠، الحلل الموشية ١٤، روض القرطاس ١٦٩.
(٧) البكري، المغرب ١٤٨-١٤٩، الاستبصار ٢٠٢.
(٨) البكري، المغرب ٧٦، الغصون اليانعة ٣٣.
(٩) الكامل ١١:٢٤٢، **Mas-Latrie,** Traité de Paix, Intr. p. 19, Doc. 5.
(١٠) Ibid, **Doc. 7, 8.**
(١١) أنظر المن بالإمامة ١٨٧، البيان المغرب ٤:٣٩-٤١، بيان موحد ٥٠، ٥٣، الحلل الموشية ٦٥، الروض المعطار ٢٣، ٤٢.

حتى إن جمعاً كبيراً من المسلمين واليهود والنصارى ليحضرون في سنة ١١٩/٥٥٤ دروس عبدالله بن سهل في بياسة[١]. وإلى جانب المدن يلاحظ انتشارهم الواسع في أرياف الأندلس[٢]، فقد كشفت حملة ابن ردمير (ألفونس الأول ملك أرغون) — في ١١٢٥/٥١٩ — التي شقّ فيها الأندلس من الشمال إلى الجنوب وجاس في أقطاره — عن مدى انتشارهم في أرياف الأندلس كله[٣] حتى إن الأمير أبا طاهر المرابطي والي غرناطة لما همّ بثقافهم أعياه ذلك لكثرتهم و بعد أقطارهم[٤].

هذا التباين بين مناطق أهل الذمة وعددهم في الشمال الأفريقي والبلاد الأندلسية ربّما يعود إلى طبيعة انتشار المسيحية في المنطقتين من جهة وسياسة العرب التي أعقبت الفتح الإسلامي من جهة أخرى. فقد انتشرت المسيحية في الأندلس فعمّته بينما اقتصر وجودها في الشمال الأفريقي على مناطق الاستقرار، لا سيّما في الجزء الشرقي من البلاد الشرقية، وكادت البلاد الغربية تخلو منها[٥]. و يبدو أن البربر الذين اعتنقوا النصرانية وكانوا في حالة تذمر من الرومان تمذهبوا بالدوناتية تعبيراً عن تذمرهم. فلا غرو بعد هذا أن تخلّوا تدريجياً عن المسيحية[٦]، ومظهر ذلك أن الأسقفيات في البلاد الشرقية كانت منتشرة خلال القرن الرابع الميلادي[٧] بينما لم يبق منها في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي سوى ثلاث أسقفيات[٨]. فإذا كانت طبيعة انتشار المسيحية في الشمال الأفريقي وتذمّر السكان فيها حالا دون رسوخ قدمها فيه فإن طبيعة انتشارها في الأندلس

(١) الإحاطة (مخ الاسكوريال) ٢٢٢.
(٢) أنظر التبيان ٣٢، ١٠٨، البيان المغرب ٤:٣٦، الروض المعطار ١٤٣-١٤٤.
(٣) راجع البيان المغرب ٤:٦٩، وما بعدها، مكي: «وثائق جديدة» ١٢٣-١٢٦، نظم الجمان ١٠٩، معجم الصدفي ١٥٥، الإحاطة ١٤٤ وما بعدها; Dozy, **Recherches,** I pp. 348-363; Codera, **Decadencia,** pp. 13-16; Bosch Villa, **Los Almoravides,** pp. 233-236.
(٤) البيان المغرب ٤:٧٠.
(٥) Warmington, **North African Provinces, p. 76 sqq.**
(٦) يذهب جوتييه إلى أن الثورة الخارجية في شمال أفريقية في القرن الثاني الهجري هي الدوناتية نقلت من إطار مسيحي إلى آخر إسلامي (أنظر **Le Passé de lAfrique du Nord,** p. 260 sqq.).
(٧) أنظر Warmington, **op. cit.** p. 78 sqq.
(٨) راجع Mas-Latrie, **op. cit.** p. 20

وقبول أهله بها من جهة والسياسة التي اتبعها العرب الفاتحون من جهة ثانية، أبقت على المسيحية حيّة في نفوس معتنقيها. فقد أعتبر العرب الأندلس أرض فيء فأقام عليها أهلها يزرعونها و يؤدون خراجها[1]. فلا غرو أن كثر أهل الذمة في الأندلس ريفاً ومدناً، واقتصر وجودهم في الشمال الأفريقي على المدن بصورة غالبة.

ومن المفيد الإشارة إلى أن أكثر المعلومات تفيد أن النصارى أكثر من اليهود في الأندلس، بينما معلومات الشمال الأفريقي جاء أكثرها يتحدث عن اليهود. بيد أن هذا لا يعني قلة عدد اليهود في الأندلس. فغرناطة كانت تعرف بـ« غرناطة اليهود » لكثرة اليهود النازلين فيها[2]. وكانت اليسانة قرب قرطبة تدعى « مدينة اليهود »[3] وكذلك طركونة قرب طرطوشة[4]. وظل لليهود وجود قوي في المناطق التي يسيطر عليها نصارى الشمال، فاليهود في برشلونة يعدلون النصارى كثرة[5]. واشترك عدد كبير من اليهود إلى جانب النصارى في معركة الزلاقة[6].

وأما في الشمال الأفريقي فقد كان اليهود كثراً إذا ما قورنوا بالنصارى. لا سيا في المدن الكبرى مثل فاس ومدن الساحل التونسي. لقد كانت فاس مركزاً رئيسياً لليهود منذ تأسيسها[7]، وعلى الرغم من المذابح التي أتت على بعضهم كمذبحة تميم اليفرني الذي قتل منهم في ١٠٣٣/٤٢٤ ستة آلاف[8] فيما تقول الرواية، فقد ظلت فاس أكثر بلاد المغرب يهوداً، وكانوا يختلفون منها إلى جميع الآفاق في عهد البكري[9] واستمر حالهم هذا الى نهاية القرن السادس[10]. وأما الساحل التونسي فقد كان منذ أيام الفاطميين يعج

(١) راجع فجر الأندلس ٤٤٦، ٦١٤ وما بعدها.
(٢) أنظر التبيان ٣٢، الروض المعطار ٢٣.
(٣) نزهة المشتاق (ط.د.) ٢٠٥، ابن سعيد، المغرب ١٠٥:١.
(٤) نزهة المشتاق (ط.د.) ١٩١.
(٥) الروض المعطار ٤٢.
(٦) المعجب ١٣٤، روض القرطاس ٩٧.
(٧) روض القرطاس ١٣، قصة المهاجرين (مخ) او.
(٨) روض القرطاس ٦٩.
(٩) المغرب ١٥٥.
(١٠) الاستبصار ٢٠٢.

باليهود حتى إن أوراق « جنيزة » القاهرة (Cairo - geniza) تكشف عن أن أكثر الوثائق جاءت منه، كما أن أكثر الفتاوى جاءت من يهوده[1].

غير أن النصارى وإن كانوا أقل عدداً من اليهود في الشمال الأفريقي فقد زاد عددهم بفعل رافدين متفاوتين في تأثيرهما وهما: تغريب المعاهدين إلى البلاد الغربية في العصر المرابطي، واستخدام « الروم » جنداً.

(١) حركة التغريب: إن العلاقات المتوترة بين مسيحيي إسبانيا ومسلمي الأندلس منذ الفتح المرابطي جعلت نصارى الأندلس يساعدون إخوانهم في العقيدة. و يبدو أن هذه الظاهرة اتخذت شكلاً جماعياً في حملة ابن رذمير المشار إليها آنفاً، ومن ثمّ قرّر المرابطون تغريبهم إلى البلاد الغربية أخذاً بأخف العقوبات[2]، فأجلوهم إلى سلا ومكناسة وغيرهما من بلاد العدوة[3]. و يبدو أن العدد في المغرب كان كبيراً، فمعاهدة فحص غرناطة وحدهم كتبو لابن رذمير زماماً باثني عشر ألفاً من مقاتليهم مستدعين له ومشجعين[4]. والراجح أنه كان بينهم بعض اليهود إذ إن اليهود اشتركوا معهم في حركة الاستدعاء والمساندة[5]. وشبيه بتغريب المعاهدة هؤلاء نفي الموحدين كرندة الجبيليقي وجماعته بعد الظفر بهم الى السوس ودرعة عقاباً[6].

(٢) الجند الرومي: استخدم مسلمو الأندلس الروم في جيوشهم منذ خلافة بني أمية في قرطبة، وسار ملوك الطوائف على نهجهم وخاصة بنو هود[7]، واقتفى المرابطون أثرهم والبلاد الغربية لم تخلص لهم بعد، فاشترى يوسف بن تاشفين عدداً من الروم في سنة ١٠٧٢/٤٦٤ نواة لجيشه النظامي[8]. ومنذئذ تكاثر عددهم في الجيش المرابطي،

(١) راجع Goitein, Studies, pp. 310, 313.
(٢) البيان المغرب ٧٠:٤، ٧٣، الحلل الموشية ٧٥.
(٣) الحلل الموشية ٧٥.
(٤) البيان المغرب ٦٩:٤.
(٥) الإحاطة ١١٩:١.
(٦) أخبار المهدي ١٢٧.
(٧) البيان المغرب ٥٣:٤-٥٤.
(٨) البيان المغرب ٢٣:٤.

خاصة في إمارة علي بن يوسف، بالشراء والأسر واستخدام الروم المعاهدين[1].

ولقد ورث الموحدون هذا الجند الرومي من المرابطين، فلهم ذكر في خلافتي عبد المؤمن وابنه يوسف[2]. وأغلب الظن أن الموحدين لم يسعوا إلى اقتناء الروم للعمل في جيشهم إلاّ في خلافة المأمون[3] وطبيعة عمل الروم العسكرية فرضت وجودهم في المدن الكبرى مثل مراكش[4] ومكناسة[5] والسوس[6]. ويبدو أن بعضهم أسلم أو تظاهر بالإسلام[7]، ولم يستطيع هذا الجند الرومي من فرض وضعه الديني الخاص إلاّ مع المأمون الموحدي، وبناء كنيسة لهم في مراكش أصدق دليل على ذلك[8]. وهم وإن لم يتمكنوا من ذلك مع المرابطين والموحدين في القرن السادس فقد استطاعوا فرض وضعهم الديني في القرن ذاته مع بني غانية في ميورقة وبني مردنيش في شرق الأندلس حيث ظلّوا على دينهم، بل إن ابن مردنيش أفرد لهم في مرسية الحانات والبيع[9].

مهن أهل الذمة

إن استقرار عدد كبير من أهل الذمة يهوداً ونصارى في أرياف الأندلس فرض

(١) راجع **النظام السياسي** ١٥٣، Hopkins, **Med. Mus Gov.** p. 36 وعن الروم في الجيش المرابطي أنظر **أخبار المهدي** ٩٦، **الكامل** ١٠: ٥٧٣.
٥٨٤، **وفيات الأعيان** ٥:٥١، **البيان المغرب** ٤:٩٨، ١٠٣، **بيان موحد** ٢٦.

(٢) أنظر **أخبار المهدي** ١٢٧، **المن بالإمامة** ٤٣١، **بيان موحد** ٢٦، **الحلل الموشية** ١٢١.

(٣) راجع تحليل هذه القضية في **تنظيمات الموحدين** ١٧٧-١٧٨، ٢٦٣-٢٦٥.

(٤) **المن بالإمامة** ٤٣١.

(٥) **أخبار المهدي** ١٢٤.

(٦) **المصدر ذاته** ١٢٧.

(٧) أنظر مثلاً أسرة الربتير وقد أصبح ابنه من أكبر قواد الموحدين (راجع عنهم **أخبار المهدي** ٧٨٦، ٨٨، وتعليقات بروفنسال في الترجمة و155 ,pp. 139، **نظم الجمان** ٩٦، **البيان المغرب** ٤:٩٨، ١٠٣، **بيان موحد** ١٤٦، ١٥٥ (.Dozy, **Recherches,** II pp. 737-442 (Codera; **Decadencia,** p. 180 sqq

(٨) الجدير بالذكر أن راي مالك الذي تبناه المرابطون بفتوى ابن رشد الجد يمنع تشييد البيع والكنائس في المدن المحدثة في الإسلام (**المعيار** ٢:١٩٤ وعن الآراء الفقهية ١٧١-٢١٢).

(٩) أنظر **المعجب** ٢٤٩، **بيان موحد** ١٥٥، **أعمال الأعلام** (ط. ليفي) ٢٦١.

عليهم العمل الزراعي وما يتصل به من رعي وصيد[1]. ويدل على اشتهارهم بالعمل الزراعي أن ألفونس السادس القشتالي حمل في سنة ١٠٩٤/٤٨٧ جملة من رعية معاهدة غرناطة لعمارة أرض طليطلة[2]. وأما أهل ذمة الشمال الأفريقي فيبدو أنهم لم يمتهنوا الزراعة بصورة واسعة لأن الريف لم يكن لهم داراً، باستثناء نصارى البلاد الجريدية الذين ذكرهم ابن خلدون. وأغلب الظن أن المعاهِدة الذين غربوا عن الأندلس إلى البلاد الغربية اشتغلوا في الزراعة بحكم طبيعة عملهم من قبل والمناطق الزراعية التي نزلوها مثل سلا ومكناسة. وربما أراد يوسف بن عبد المؤمن من تغريب كرندا الجيليقي وأتباعه إلى السوس ودرعة الاستفادة من خبراتهم الزراعية في تلك المناطق.

ولما كان كثير من أهل الذمة يسكنون المدن خاصة في الشمال الأفريقي فقد شكلوا جزءاً هاماً من « الطبقة المتوسطة » فيها، وقاموا بما تقوم به من أعمال، من اشتغال بتدريس علم وعمل في طب[3] وقيام بصناعة وتجارة[4]. وفي البلاد الشرقية يبدو أن بجاية كانت مركزاً هاماً لتجار نصارى المنطقة منذ أيام الناصر بن علناس (توفي ١٠٨٨/٤٨١) الذي حاول أن يقيم صلات متينة مع البابا في روما[5].

وبرع يهود المغرب عامة والبلاد الشرقية خاصة في التجارة وبوجه خاص التجارة مع الشرق[6]. وتفيد الأمثال المغربية بأن اليهود برعوا في التجارة واستعمال الحيل فيها،

(١) أنظر مثلاً **البيان المغرب** ٤:٧١ (استنتاجاً من جلب المعاهدة الأقوات والعلوفات لجيش ألفونس المحارب)، **الروض المعطار** ١٤٣-١٤٤، **التبيان** ٣٢، ١٠٨.

(٢) **البيان المغرب** ٤:٣٦.

(٣) أنظر الشكوى من سرقة أهل الذمة لتواليف المسلمين ونسبتها إلى أنفسهم ودعوة ابن عبدون ألاّ يعالج يهودي أو نصراني مسلماً (**رسالة ابن عبدون** ٥٥، ٥٧).

(٤) أنظر **مشاهير فاس** ٥٦، **الروض المعطار** ١٤٣-١٤٤.

(٥) أنظر Mas-Latrie, **Traité de Paix,** Dec. 7, 8.

(٦) Coiten, **Jews and Arabs,** pp. 116-117; **A Med. Society,** p. 72.

(٧) **أمثال العوام** (اطروحة) ١:١٨٦ (مطبوع) ٢:٥٧، ١٤٤-١٤٥، ٢٦٠، ٥٤٣.

فكثر ثراؤهم لا سيما في فاس[1]، ولعل نجاحهم في هذا المجال يعود الى عملهم في الصياغة والصيرفة. غير أن جويتين استناداً إلى أوراق «جينزا» القاهرية يرى أن المسلمين من المغاربة، لا اليهود، كانوا أصحاب الدور الرئيسي في الأعمال المصرفية الكبرى[2]. ومن الصعوبة الموافقة على هذا الرأي، لأن أوراق «الجنيزا» ذاتها تشير في وضوح إلى عمل يهود المغرب الغالب في الذهب والفضة والنحاس وما يصاغ منها[3]. والى هذا تشير المصادر المغربية، فيقطع ابن يوسف الحكيم في دوحته بعمل أهل الذمة عامة في الصياغة والصيرفة[4]؛ صحيح أن روايته جاءت عن العصر المريني ولكن ليس هناك ما يشير إلى أن هذا تطوّر حصل في الفترة المرينية فقط. ويحدثنا صاحب الاستبصار في نقده لرواية البكري — وقد تكون منقولة عن الورّاق — بشأن أعمال يهود سجلماسة أن اليهود لم يعودوا يقتصرون على مهن مبتذلة في سائر المغرب، فقد غدوا أصحاب أموال ممدودة[5]. وعليه فالقرنان الخامس والسادس على أقل تقدير هما عصر الازدهار المالي ليهود المغرب. وهذا الأمر يدعو إلى القول بأن إشارة ابن يوسف ما هي إلاّ امتداد لتطور بدأ قبل قرون، اللهم إلاّ إذا تأثر اليهود في عملهم بمحنتهم مع الموحدين ثم استأنفوا مسيرتهم مع المرينيين.

وفي الخطط الإدارية — وهي من أبرز مجالات الطبقة الوسطى — يلاحظ الدارس عدم اشتغال النصارى فيها، فلا يعلم أن النصارى تولوا خططاً إدارية في المغرب ما خلا الإشارة إلى أن علي بن يوسف استعمل جنده الرومي في الجباية[6]، وهؤلاء لا يقطع بنصرانيتهم. أما اليهود فيبدو أنهم كانوا أكثر من النصارى عملاً في الخطط الإدارية، إذ تقول الروايات إنهم اشتغلوا في الإدارة المالية والوزارة والحجابة والكتابة أيام

(١) **الابتبصار** ٢٠٢.

(٢) Goitein. **Studies,** p. 319.

(٣) أنظر مصادر الحاشية ٦ في الصفحة السابقة؛ وبالإضافة الى ذلك إن عدداً من صناع الفضة من يهود شمال أفريقية هاجروا الى سيلان في حدود سنة ١١٤٠ (أنظر Goitein, **Jews and Arabs,** p. 115.

(٤) **الدوحة المشتبكة** ١١٥-١١٦.

(٥) أنظر **الاستبصار** ٢٠١-٢٠٢.

(٦) **الكامل** ١١:٥٧٣، **الحلل الموشية** ٦٩.

الطوائف[1]، والراجح أنهم عرفوا بالأعمال الإدارية في البلاد الأندلسية حتى لتجدهم فيها عند نصارى اسبانيا في الشمال[2] أو ما يفتحونه من مدن المسلمين بصورة موقته[3]. وربما يعود هذا الاختلاف في وضع النصارى واليهود إلى اختلاف حاليهما التعليمي.

وإذا كان بعض أهل الذمة قد تولى خططاً إدارية قبل القرن السادس فلا يعرف أنهم استمروا في مثل هذه الأعمال في عهدي المرابطين والموحدين. وأغلب الظن أنهم لم يستعملوا في خطط إدارية لأنهم واجهوا مع المرابطين والموحدين محنة قاسية، ولهذا ربما حالفوا متولّي الخطط المالية أو أقاربهم. فابن صاحب الصلاة يصف صهر مشرف غرناطة في سنة ٥٥٧/١١٦١ بأنه حليف لليهود فيها[4]. فما هي أسباب هذه المحنة وما هي نتائجها؟

محنتهم

تتمثل محنة أهل الذمة في القرن السادس في المغرب في التضييق الاقتصادي على اليهود وتغريب نصارى الأندلس في عهد المرابطين، وعدم انعقاد ذمة ليهودي أو نصراني عند الموحدين. وإذا نظر المرء في الدوافع التي حدت بالمرابطين أو الموحدين لاتخاذ خطواتهم التي اتخذوها نحو أهل الذمة، يستطيع أن يتبيّن دافعاً سياسياً عسكرياً في الموقف من نصارى الأندلس في حالة المرابطين إذ لم يُرَوَ أنهم اتخذوا إجراءات مماثلة في حق نصارى الشمال الأفريقي.

ولكن الموقف من اليهود يختلف اختلافاً كبيراً. فإلى جانب الدافع السياسي العسكري بالنسبة ليهود الأندلس، هناك — فيما يظهر — دافع اقتصادي ضارب الجذور في القرن الخامس/الحادي عشر يشمل يهود المغرب بأسره. لقد كان اليهود في انتعاش

(١) راجع الأوراق المخطوطة لابن حزم التي نشرها آسين بلاثيوس في مجلة الأندلس Asin Palacios, **in Al-Andalus** (1934) pp. 36-36. **التبيان** ٣٢، **الاكتفاء** ٧٨.

(٢) **المعجب** ١٣٤.

(٣) راجع احتلال بلنسية مع السيد في **البيان المغرب** ٤:٤١.

(٤) **المن بالإمامة** ١٨٧.

مادي حتى القرن الحادي عشر ولم يواجههم أي اضطهاد يذكر[1]. غير أن عملهم في الإدارة المالية في الأندلس على عهد ملوك الطوائف وتعسفهم في جباية الضرائب[2] وسيطرتهم الاقتصادية في البلاد الأندلسية والبلاد الغربية كانت عوامل أدت الى بغضتهم[3] والثورة عليهم في عهد الطوائف، وخاصة في غرناطة، حيث تنفذوا وتسلطوا على الناس[4]. وفي الوقت ذاته ذبح تميم اليفرني في فاس سنة ٤٢٤/١٠٣٣ نحو ستة آلاف يهودي[5]. ولما فتح المرابطون البلاد الغربية ضيقوا الخناق على اليهود منذ بداية أمرهم. ففي سنة ٤٦٤/١٠٧١-١٠٧٢ فرض يوسف بن تاشفين ضريبة ثقيلة على يهود البلاد المفتوحة بلغت مائة ألف دينار ونيف على ثلاثة عشر ألف دينار[6]. وحين فتحوا البلاد الأندلسية فعلوا الشيء ذاته[7]. ولم يسمح المرابطون لليهود بالسكن في المدن التي أحدثوها، فكانوا يسمحون لليهود بدخول مراكش نهاراً والسكنى في أغمات إيلان[8].

ووجد موقف المرابطين تغطية من الفقهاء. فكتب الحسبة في هذه الفترة تعبر عن مطالبة بالتشدّد تجاه النصارى واليهود، حتى إن ابن عبدون يقول **بقطع ضرب النواقيس** في ديار الإسلام، وحمل القسيسين على الزواج، ومراقبة الكتب التي يبيعها اليهود والنصارى ما عدا كتب ملّتهم، ومنع أطباء اليهود والنصارى من معالجة المسلمين[9]. والظاهر أن العصر المرابطي شهد إرهاصات حَمْل اليهود على الإسلام التي تمت في الفترة الموحدية، فيروى أن أحد الفقهاء عثر في مخلفات ابن مسرّة على حديث منسوب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يقول بأن اليهود

(١) Lévi-Provençal, **Hist. de L'Esp. Mus.**, I,pp. 80-81

(٢) يقول ابن الكردبوس إن ملوك الطوائف « وكلوا أمور المسلمين إلى اليهود فعاثوا فيهم عيث الأسود » (**الاكتفاء** ٧٨).

(٣) من أمثال أهل المغرب عن فاس لأن اليهود بها كثرة « فاس بلد بلا ناس » (البكري، **المغرب** ١٥٥).

(٤) راجع **الذخيرة** ٢ ق ٢٧٨:١ وما بعدها، **البيان المغرب** ٢٦٤:٣، ابن سعيد، **المغرب** ١١٤:٢، **أعلام الأعلام** (ط. ليفي) ٢٣٠-٢٣٣، **الإحاطة** ٢٧٠:١، **التبيان** ٥٤، **نفح الطيب** ٣٢٢:٤.

(٥) **روض القرطاس** ٦٩.

(٦) **البيان المغرب** ٢٣:٤، **الحلل الموشية** ١٤.

(٧) **الحلل الموشية** ٦٥.

(٨) **نزهة المشتاق** (ط.ب.) ٤٥.

(٩) **رسالة ابن عبدون** ٥٥، ٥٧.

تعهدوا للنبي باعتناق الإسلام إذا لم يظهر مسيحهم المنتظر بعد خمسة قرون فطلب من الأحفاد الوفاء بعهد الأجداد[1].

ولما قامت الدولة الموحدية لم تكن في حاجة لغطاء فكري في التضييق على أهل الذمة، فإذا كان المسلمون المنكرون لمهدية إمامهم كفرة مارقين فكيف بغير المسلمين؟! ولهذا لم تنعقد عند الموحدين ذمة ليهودي أو نصراني[2] وخيّروا أهل الذمة بين الإسلام أو السيف[3]. وحتى من أظهر الإسلام من اليهود وضع الموحدون عليهم قيوداً في التجارة وهي مورد رزقهم الأساسي[4]. ولم يُجْدِ أهل الذمة نفعاً تغيير مفهوم التوحيد من ديني إلى سياسي، فقد استمر الموقف منهم على وضعه، حتى إن المنصور كان شاكاً في إسلام اليهود فميزهم في ٥٩٥/١١٩٩ في اللباس بما عرف بالشكلة، وقال: لو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيئاً للمسلمين[5]. والراجح أنه عمّم الشكلة في جميع أرجاء الدولة الموحدية[6]. وعلى ضوء هذه السياسة يمكن فهم مصطلح « اليهود الإسلاميين » الذي سبقت الإشارة إليه.

فالتضييق الاقتصادي حتى على من أظهر الإسلام من اليهود يدل دلالة واضحة على استمرار الدافع الاقتصادي في الموقف من اليهود من أيام ملوك الطوائف في الأندلس وزناتة في البلاد الغربية حتى نهاية العصر الموحدي، لا سيا أن صاحب الاستبصار عندما روى سياسة المنصور تجاه اليهود رواها ضمن الموقف

(١) Dozy, **Hist. des Mus. d'Esp.**, IV,pp. 255-256

(٢) **المعجب** ٣٠٥، **نهاية الأرب** ٢١٧ وهذا ما تؤكده الروايات اليهودية أيضاً، وقد جمعها والعربية مخطوطة ومطبوعة مونك فانظرها في Munk, "Notice sur Josephben-Iehouda" pp. 40-45

(٣) **الكامل** ٢٤٢:١١.

(٤) Goitein, **Jews and Arabs**, p. 80

(٥) **المعجب** ٣٠٥، **بيان موحد** ٢٠٥ وهذا ما تؤكده المصادر اليهودية أيضاً (أنظر Goitein, **Jews and Arabs**, pp. 80-81 و يبدو أن الشك في إسلام اليهود كان ظاهرة اجتماعية، وانظر الخلاف حول إسلام ابن سهل زجّال إشبيلية وما أثاره من خلاف طويل (راجع **نفح الطيب** ٢٥٣:٣ وما بعدها).

(٦) هنالك إشارة إلى الشكلة في تونس عن عصر المنصور (راجع **تاريخ الدولتين** ١٧).

المالي المسيطر لليهود الذين تظاهروا بالإسلام[١].

ولا غرابة بعد هذا إن وقف عدد كبير من اليهود في العصر المرابطي الى جانب نصارى إسبانيا كما تجسد في موقعة الزلاقة وحملة ابن ردمير (ألفونس الارغونى)، أو عملوا جاهدين لمساعدة أعداء الموحدين مثل الذي فعلوه من تأييد لا بن همشك في منازلة غرناطة سنة ١١٦٢/٥٥٧[٢]، وكذلك أيدوا المأمون وابنه السعيد في بداية حكمه ــ أواخر العصر الموحدي ــ لما ألغيا رسوم المهدية واتبعا سياسة متساهلة مع أهل الذمة[٣]. فلما وجد يحيى منافس المأمون على الخلافة فرصة في مراكش في ١٢٣٢/٦٢٩ هدم كنيسة الروم وذبح اليهود[٤].

وهنا تنبغي الإشارة إلى أن حركة الجلاء التي طبعت القرنين الخامس والسادس بطابعها في البلاد الشرقية والأندلسية كانت بين أهل الذمة على أشدها خاصة بين اليهود نتيجة الضيق الذي عانوه والاضطهاد الذي منوا به في القرن السادس بصورة خاصة. وكان اتجاه هجرة اليهود نحو صقلية والمشرق[٥]. ولا يستبعد أن يكون بين المهاجرين إلى صقلية بعض النصارى، كما لا يستبعد أن تكون هناك هجرة من نصارى الأندلس إلى مواطن إخوتهم نصارى الشمال الإسباني. والمصادر اليهودية المعاصرة للموحدين تؤكد هجرة عدد كبير من اليهود الى المشرق فراراً من اضطهاد الموحدين الذين دفعوا بصغار المهاجرين اليهود إلى الأسر المسلمة[٦].

ومن الظلم للموحدين أن يحملوا نتيجة هجرة أهل الذمة واليهود منهم بصفة خاصة. فالهجرة اليهودية إلى الشرق بدأت منذ مطلع القرن الخامس/الحادي عشر،

---

(١) **الاستبصار** ٢٠٢.
(٢) **بيان موحد** ٥٠، ٥٣.
(٣) راجع **البيان الموحد** ٢٠٥.
(٤) **روض القرطاس** ١٦٩.
(٥) Goitein, **Studies**, p. 311
(٦) Goitein, **Jews and Arabs**, p. 81

وكانت في تزايد مستمر كما توضح أوراق « جنيزا القاهرة ». وتبين هذه الوثائق أن كثيراً من سكان القدس جاءوا من الساحل التونسي في القرن الحادي عشر[١]، على الرغم من موقف بني حماد المتسامح مع النصارى بصورة خاصة، وقد سبقت الإشارة إليه. و يبدو أن دوافع الهجرة قبل الموحدين ترجع إلى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر وتسامحهم مع أهل الذمة[٢]، وتطور البحرية المسيحية الأوربية التي احتلت مكان الوسيط التجاري بين الشرق والغرب بدلاً عن الساحل التونسي، والخراب الذي اجتاح البلاد الشرقية نتيجة الغزوة الهلالية وما أعقبه من غزو نورماني[٣].

وهكذا يتضح أن موقف الموحدين لم يكن إلاّ عاملاً مساعداً في استمرار الهجرة ولم يكن الموحدون باعثي هذه الهجرة. وكيفما كان الأمر، فلا ريب في أن الموقف من أهل الذمة خلال القرن السادس ترك تأثيراً في الزراعة في الأندلس والتجارة في المغرب، وستوضح الفصول القادمة هذه التأثيرات.

العبيد

يبدو أن عدد العبيد في بيئات المغرب الثلاث كان كبيراً وعناصرهم متعددة ومهنهم متنوعة ووضعهم الاجتماعي متفاوتاً.

عناصرهم

يستطيع الناظر في المعلومات المتوفرة عن العبيد في المغرب خلال القرن السادس أن يتبين ثلاثة عناصر، هي سبي مسلم وعبيد سودان وروم.

---

(١) أشهر الأسر التني هاجرت بنو ميمون؛ راجع عن الهجرات Goitein, **Jews and Arabs**, pp. 114-115; **Studies** pp. 311, 312.
(٢) راجع عن تسامح الفاطميين وأثره في هجرة اليهود إلى مصر Fischel, **Jews in The Economic...**, pp. 51 sqq. .68 sqq.; Goiten, **A Med. Society**, p. 33.
(٣) Goitein, **A Med. Society**, p. 32; **Studies**, pp. 310-311.

(أ) السبي المسلم

لما فتح المرابطون البلاد الغربية نظروا إلى قبائل البربر التي فتحوا أرضها كعبيد وأطلقوا عليهم لفظ « الحشم »[١]. ومع أن اللفظ يعني الأنصار من الأهل أو الجيرة أو العبيد[٢]، فقد اقتصر في الاستعمال المرابطي على معنى العبيد[٣]، على الرغم من أن المرابطين لم يسترقّوا القبائل البربرية التي فتحوا أرضها؛ بَيْدَ أن الموحدين الذين كَفّروا من لا يقول بمهديتهم ولا يؤمن بتوحيدهم استرقّوا المحاربين لهم وإن كانوا مسلمين[٤]، فغدت حروبهم مع المسلمين رافداً من روافد الرق الأساسية. والغالب على هذه العناصر المسترقة النساء والأطفال، إذ جرت عادة زناتة[٥] والمرابطين[٦] ثم الموحدين[٧] قتل الأسرى من الرجال واسترقاق النساء والأطفال. ويدل على كثرة هذا النوع من الرقيق رخص أسعارهم بعد كل معركة مع قبيلة بربرية. فقد انتهى البيع في دكالة لما أخمد عبد المؤمن ثورتها سنة ١١٤٨/٥٤٣ إلى أن بيعت المرأة بدرهم والغلام بنصف درهم[٨]. ويبدو أن تجارة النساء في أوائل الفترة الموحدية أصبحت مشكلة كبرى بسبب عدم الدقة في تحديد الحرة من غيرها، وهذا ما تصوره كتب الحسبة[٩] والرسائل الرسمية[١٠].

---

(١) **الحلل الموشية** ٢١-٢٢، Hopkins, **Med. Mus. Govt.**, pp. 74-75. وانظر تفسيراً آخر لحركات **النظام السياسي** ١٥٠ وما بعدها.
(٢) راجع مادة « حشم » في التاج واللسان.
(٣) أنظر أمثلة في **المعجب** ٢٦٨، **نفح الطيب** ٤:٣٦٧.
(٤) أنظر **رسائل موحدية** ١٩٦، **أخبار المهدي** ٩٤، ١١٨، ١٢٩، **الكامل** ١٠:٥٨٢، ٥٨٦، **البيان المغرب** ٤:١٠٠، **الحلل الموشية** ١١٨-١١٩، ١٢٢، **الإحاطة** ١:١٩٢.
(٥) مثاله في **روض القرطاس** ٦٩.
(٦) أنظر أمثلة **المصدر ذاته** ١٠٧، ١٣٢.
(٧) راجع **المن بالامامة** ٣٥٧، **وفيات الأعيان** ٧:٨، **بيان موحد** ١١١، ١١٨، ١٤٥و **روض القرطاس** ١٤٤، **الإحاطة** ١:١٩٢.
(٨) **الكامل** ١٠:٥٨٦، **الحلل الموشية** ١٢٢.
(٩) **رسالة السقطي** ٤٧-٤٨.
(١٠) أنظر رسالة عبد المؤمن في ١١٤٨/٥٤٣ في **نظم الجمان** ١٦٠.

(ب) السودان

منذ القرن الرابع/العاشر كانت أفواج العبيد السود تدخل البلاد الشرقية من زويلة[١] والبلاد الغربية عن طريق أودغست[٢]. وازداد عددهم بعد الفتح المرابطي، إذ ان أرض صنهاجة الصحراء مجاورة لبلاد السودان، وأهل المغرب يفضلون العبيد السود على البيض ــ كما تدل على ذلك أمثالهم ــ إمّا لصبرهم وتحملهم وطاعتهم وإخلاصهم واما لأغراض مبتذلة[٣].

وهناك ثلاث ظواهر تشير إلى تزايد عدد العبيد السود في مغرب القرن السادس.

أولاً: كثرتهم المتدرجة في الجيش المغربي. فقد اشترى يوسف بن تاشفين في ١٠٧٢/٤٦٤ ألفين من العبيد السود[٤]، واشترك معه في الزلاقة أربعة آلاف أسود[٥]، وبلغ العدد مع الناصر الموحدي في العقاب ثلاثين ألفاً[٦].

ثانياً: الإشارات عن وجود أعداد كبيرة منهم في المغرب. لقد فرض علي بن يوسف في ١١٢٩/٥٢٣ ــ استعداداً للجواز إلى الأندلس ــ قسطاً على الرعية من سودانهم يغزون مع الجيش، وكان قسط أهل فاس ثلاثمائة من سودانهم[٧]. وقتل عبد المؤمن في عام البحيرة نحو ثلاثة آلاف من سودان أهل أغمات[٨]. وكان ليوسف بن سليمان أحد أصحاب ابن تومرت عبيد كثر في السوس[٩]. واقتنى العرب الطارئون عبيداً كثيرين.

---

(١) البكري، **المغرب** ١٥٨، **الاستبصار** ٢١٥-٢١٦.
(٢) **الاستبصار** ١٤٦.
(٣) **أمثال العوام** (الأطروحة) ١:١٨٨.
(٤) **البيان المغرب** ٤:٢٣، **الحلل الموشية** ١٧.
(٥) **نفح الطيب** ٤:٣٦٧.
(٦) **روض القرطاس** ١٥٩.
(٧) **نظم الجمان** ١٠٩.
(٨) **البيان المغرب** ٤:٨٤، **نظم الجمان** ١١٦-١١٧.
(٩) **المعجب** ١٩٤.
(١٠) **المن بالإمامة** ٢٣٤.

ثالثاً: ربما يشير انتشار اللون الأسود بين جميع طبقات السكان إلى كثرة العبيد والتسري بالسوداوات[1].

ومن الضروري الإشارة إلى أن جل العبيد السود جاءوا من أرض كناوة. ولكن هناك إشارات الى عبيد سود من الحبشة وأرض النوبة أيضاً[2].

(ج) الروم

يبدو أن العبيد الروم كانوا كثيري العدد في البلاد الأندلسية والمناطق الساحلية من البلاد الشرقية. وأصله إمّا سبي معارك — وكانت كثيرة نتيجة حروب المرابطين ثم الموحدين مع نصارى إسبانيا — وجله نساء وأطفال[5] — وإما شراء — وقد سبقت الإشارة إلى شيء من هذا في حال الجند الرومي عند المرابطين —.

وقد شهد القرن السادس حركة تجارية واسعة في الرقيق الرومي، وكانت بجاية المركز الرئيسي لهذه التجارة، وكان الميورقيون وسطاءها ولهم سفرتان إلى بلاد الروم يجلبون فيها العبيد فيبيعونهم في بجاية. و يدل على كثرة المجلوب إلى بجاية أن أهلها فتحوا أبواب مدينتهم في ٥٨١/١١٨٥ حينما جاء إسحق ابن غانية غازياً للمدينة ظناً من أهل بجاية أن مراكب العسكر هي رقيق ميورقة وقد وصل. فلا يستغرب بعد هذا أن امتلأت أيدي الميورقيين أموالاً من هذه التجارة. كما لا يستبعد أن تباع بيضاوان من الروم بسوداء[3]، و يصبح العبد الرومي في المغرب

(١) راجع عن اللون الأسود بين السكان **التشوف** ٨٠، ٩١، ابن سعيد، **المغرب** ٢:١٦٤، **الغصون اليانعة** ٤٢، ٤٥، **الحلة السيراء** ٢:٢٦٦.

(٢) أنظر **رسالة السقطي** ٤٩، ٥٠، أمثال العوام (المطبوع) ٢:٦، **نظم الجمان** ١١٦، **الحلة السيراء** ٢:٢٦٦، **روض القرطاس** ١٧١.

(٣) راجع عن هذه الفقرة **المعجب** ٢٦٩، **عنوان الدراية** ٢٣-٢٤.

أرخص من التركي في المشرق[1] بعد أن كان الحال خلاف ذلك أيام الاصطخري[2].

مهنهم

تعددت مهن العبيد كتنوع عناصرهم. فالجواري منهن إماء خدمة أو متعة[3]. ومن مظاهر المتعة ازدهار تجارة تعليم القيان الطرب ثم بيعهن[4]، وعلى الرغم من تشدد الموحدين في منع اللهو فقد كانت تجارة القيان المطربات رائجة مما اضطر المنصور لقطعها في أواخر أيامه[5]. واتخذت بعض الإماء أمهات أولاد ومن أولاد بعضهن أمراء مرابطون وخلفاء موحدون[6].

وكان العبيد يقومون بأكثر الخدمة في مجتمع القرن السادس لأن الطبقات القادرة على تملك العبيد تستنكف أن تؤدي أعمالها بنفسها إلاّ من قصد البراءة من الكبر ورعاً، وقليل ما هم[7]. فإلى جانب الخدمة المنزلية تجد العبيد السود يعملون في الزراعة في البلاد الشرقية[8]، وربما بين فاس وأغمات[9] والسهول التي شمال وادي سبو[10]، وتجد السود والبيض من العبيد في الصناعة[11] والتجارة[12]، هذا

(١) **مسالك الأبصار** (أحمد الثالث) ٣ق ١:١٢١-١٢٢.

(٢) **المسالك والممالك** ٣٧.

(٣) **الحلة السيراء** ٢:٤٣، ٥٥.

(٤) راجع ابن سعيد، **المغرب** ١:٢٤٩، **بيان موحد** ١٤٥، **نفح الطيب** ٧:٢٣.

(٥) **بيان موحد** ١٤٣، ١٤٥.

(٦) أنظر عنهم **المعجب** ٣٢٣، **البيان المغرب** ٤:١٠١، **بيان موحد** ٢٥٥، **الحلل الموشية** ٦٨، **روض القرطاس** ١٠٢.

(٧) أنظر فيما يلي الصناعة: النظرة الى العمل.

(٨) **المعيار** ١:٣٠٢.

(٩) استنتاجاً من احدى روايات **التشوف** ٨٠، و يقول البكري عن بونة « يصح بها السودان و يسقم البيضان » (**المغرب** ٥٥).

(١٠) يقول البكري إن وادي سغددلا يسكنه إلا السودان (**المغرب** ٨٧) وهو في منطقة البصرة الزراعية.

(١١) أنظر أمثلة عن ذلك في **أخبار المهدي** ٥٣، **الذيل والتكملة** ١:٢٤٠.

(١٢) راجع أمثلة في **نزهة المشتاق** (ط.ب.) ٤٢، **معجم الصدفي** ١٩٦-١٩٧، **الذيل والتكملة** ٥:٢:٥٣١..

بالإضافة لعملهم في الجندية سواء أكانوا روماً أم سوداً. و يفرض عملهم في جميع ضروب النشاط الاقتصادي التساؤل عن وضعهم ومعاملتهم.

وضعهم

الظاهر أن معاملة العبيد كانت كريمة وفي حال عتقهم يدخلون طبقة الأحرار كموالي. ولعل هذا يفسر وجود مولى لمولى آخر[1]. وأسماء بعض موالي القرن السادس توحي بأن أصلهم كانوا عبيداً فأعتقوا، مثل لبيب وموفق وصهيب[2].

ومما يدل على حسن وضع هؤلاء العبيد المعتقين أنهم قد يشاركون في تركة سيدهم، فقد أوصى أحدهم أن يعتق عبده « و يُعْطى من صريح متروكة مالاً يأتلي في مثله أولو الفضل »[3]. و يبدو أن الذي ساعد في تطوير هذا الوضع الاجتماعي أن الولاء في الغرب الإسلامي منذ أيام الفتح لم يتخذ شكلاً اجتماعياً خطيراً مثلما كان الحال في المشرق. فالموالي في الأندلس لم يكونوا يقلّون في شيء عن مركز الأحرار، ولما قامت الدولة الأموية في قرطبة كادت الوظائف الكبرى تقتصر عليهم، فعلت منزلتهم، حتى أصبح الولاء أقرب الى الاصطناع منه الى الولاء الصرف[4]. والظاهر أن هذا الوضع المتميز حدا بالرازي الى وضع كتابه « أعيان الموالي في الأندلس »[5]، و يبدو أن الولاء كان مسألة نسب وليس قضية اجتماعية.

ومما يلفت النظر أن كثيراً من موالي القرن السادس جاء ولاؤهم لصنهاجة ولم يرد ولاء أحد لإحدى قبائل المصامدة[6]. فهل ترجع هذه الظاهرة إلى ادّعاء

(١) انظر ترجمة موسى بن سعادة في **معجم الصدفي** ١٨٨، **نفح الطيب** ٢:٢٢١.
(٢) **معجم الصدفي** ١٩٦، **التكملة** ٢:٧٦٩، **الذيل والتكملة** ٥:٢:٥٣١.
(٣) **معجم الصدفي**، ١٨٩؛ وانظر أيضاً **نوازل ابن عياض** (مخ) ١٧ ق.
(٤) **فجر الأندلس** ٤٠٨، ٤١٢.
(٥) ذكره ابن الآبار في **التكملة** ٢:٥٦٤.
(٦) **معجم الصدفي** ١٩٦، **التكملة** ٢:٥٢٣، ٧٦٩، **الذيل والتكملة** ٥:٢:٥٣١.

صنهاجة الصحراء نسباً عربياً أم الى حسن معاملة العبيد ثم الموالي في العصر المرابطي وانعدام ذلك في العصر الموحدي؟ مما يؤسف له أن المعلومات غير متوفرة للحكم في هذه المسألة، غير أن مناقشة قضية « الإباق » قد تلقي بعض الضوء على موقف الفترتين من العبيد.

و بالرغم من حسن المعاملة التي ذكرت فهناك بعض الأمثال المغربية التي تشير الى ما اشتهر به العبيد السود من سرقة وإباق[1]؛ فهل هما ظاهرتان فرديتان أم هما منتشرتان في المجتمع حتى جرت بها الأمثال؟

يقول ابن بسام: لما تولى أمر بلنسية وشاطبة الفَتَيَان مظفر ومبارك العامريان انفتح في الأندلس « باب شديد في إباقة العبيد »[2]. وإذا صح قوله هذا على عصر الطوائف فهي لا تصح على الفترتين المرابطية والموحدية إذ لم ترد إشارة عن مثل هذه الحالة في البلاد الأندلسية أو الغربية في تينك الفترتين، والإشارة الوحيدة جاءت عن الفترة الموحدية وميدانها البلاد الشرقية وحتى هذه فيها نظر. تقول رسالة موحدية[3] إن ابن الرند الذي انتزى في قفصة سنتي ٥٧٥ـ٥٧٦/١١٨٠ « استهوى جماعة من عظام الفتنة و ... حثالة من أرذال العامة قهر بهم سواهم ... وتوسل إلى استخلاص نياتهم بإباحة المحرمات لهم، ورفع الحدود عنهم ... فتسرب إليه من أجل ذلك دعّار اللصوص وأبّاق العبيد ... جاءوا من كل أوب وأتوه من كل فج ... ».

و يبدو أن هذه الرسالة الرسمية لا تصور الواقع وإنما كان الهدف منها تشويه حركة ابن الرند وتنفير الناس منه، لا سيّما أن الرسائل الموحدية كانت وسيلة الدولة الدعائية الأساسية، فتكتب في كل مناسبة، وترسل إلى كافة أرجاء

(١) أنظر **أمثال العوام** (المطبوع) ٢:١٩.
(٢) **الذخيرة** (مخ. بغداد) ق ٣:٤-٥.
(٣) **رسائل موحدية** ١٠٩-١١٠؛ واخطأ بروفنسال ووضعها بين سنتي ٥٥٤ و٥٥٥ لبتر في آخر الرسالة بينما يرد فيها ترضٍ على عبد المؤمن، فضلاً عن أن حادث قفصة وقع في أيام ابنه يوسف. وقد وردت الرسالة مكتملة في مخطوط **العطاء الجزيل** والنص المشار إليه في صفحة ١٥.

الدولة، وتقرأ على البادي والحاضر[1]. فلو كانت حركة الإباق جماعية ــ كما توحي الرسالة ــ فهل كانت أسباب الحركة نتيجة ظروف عمل مرهق أو معاملة قاسية أو الأمرين معاً؟ وهل كانت هذه الأسباب قائمة قبل الفتح الموحدي للبلاد الشرقية أم أنها جدّت بعده؟

لم يُرْوَ أن أبّاق العبيد قاموا بحركة في الفترة التي سبقت الفتح الموحدي، مع أن الظروف كانت مواتية لذلك، لاضطراب حبل الأمن بسبب الموجة الهلالية وغزوات النورمان. فهل كانوا يفتقرون الى زعامةٍ ووجدوها في ابن الرند؟

يبدو أن الأمر على غير ذلك، فلا يعرف أن الموحدين قتلوا جميع العبيد الآبقين، ولا يعلم أنهم أدخلوا إصلاحات ترفع شكواهم، ولا قام هؤلاء العبيد فيما بعد بحركة أو مشاركة في الحركات الطامحة الطامعة الآملة التي قام بها تحالف الأغزاز والعرب والميورقيين. لهذا فالراجح أن العصر الموحدي ــ كسابقه المرابطي ــ لم يشهد حركة إبّاق جماعية، والإباق كان ظاهرة محدودة. وأغلب الظن أن وضع العبيد في المغرب لم يستدع الثورة أو لم يمكّن منها على الأقل. ومن هنا لم يكن ثمة اختلاف في موقف المرابطين والموحدين من العبيد، وربما كان سبب ظاهرة الانتساب بالولاء لصنهاجة دعوى صنهاجة للنسبة العربية.

الأغزاز

مفهوم اللفظ

يطلق اللفظ في خلافة المنصور ومن بعده على ما يسمى في المشرق بالأتراك. فالمصادر المغربية بما فيها الرسائل الموحدية الرسمية قبل خلافة المنصور لا تورد لفظ الأغزاز أو الغزّ بل تسميهم « الأتراك » أو « الأكراد »[2]، بينما تطلق

(١) أنظر **تنظيمات الموحدين** ١٩٢.

(٢) **رسائل موحدية** ١٠١، **العطاء الجزيل** (مخ) ١٥، **وزوائده**: ٧٠، **المعجب** ٣٥١.

المصادر بعد ذلك على المجموعة نفسها لفظ الأغزاز أو الغزّ[1]. وتجد مصدراً مشرقياً مثل ابن الأثير لا يتكلم عن هذه المجموعة في الفترتين إلا ويسميها بالأتراك[2]. ويبدو أن غلبة لفظ الأغزاز أو الغز عليهم ترجع الى الدور العسكري البارز الذي قاموا به في البلاد الشرقية. وكانت شجاعتهم ونكايتهم في عدوهم هي التي دفعت المنصور لاستخدامهم في الجيش الموحدي[3] وأهل المغرب يعرفون عن الأغزاز في طبرستان شهرتهم بالرماية[4].

دخولهم المغرب

ربما دخلت المغرب عناصر من الأتراك في شكل رقيق[5]، ويبدو أن عدده قليل، ولهذا لا تتردد في المصادر عنه الأخبار. ولكن في أواخر القرن الخامس/الحادي عشر بدأ المغرب يعرف الأتراك كعناصر مغامرة غازية في عدد يسير في البلاد الشرقية، فاحتل شاه ملك مع مائة فارس طرابلس والبلاد الجريدية في ١٠٩٥/٤٨٨ غير أن يحيى بن تميم صاحب المهدية أخضعه وأدخله وجنده في جيشه[6]. والراجح أنه بعد هذه المجموعة لم يدخل الأتراك غزاة إلاّ في خلافة يوسف ابن عبد المؤمن[7].

(١) عن الأغزاز أنظر **رسائل موحدية** ١٩٠، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٤، ٢٥٦، **التشوف** ٣٤٩، **بيان موحد** ١٨٠، ٢٣١، **روض القرطاس** ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨؛ وعن لفظ الغز راجع **رسائل موحدية** ١٨٣، **المعجب** ٢٥٦، ٢٨٨، ٣١٥، ابن سعيد، **المغرب** ٢:٧٧، **العبر** ٦:١٩٢، ١٩٤، **نفح الطيب** ٣:١٠٧، ١٣٣.

(٢) **الكامل** ١٠:٢٤١، ٢٤٣، ١١:٣٨٩، ٥٢١-٥٢٢.

(٣) **المصدر ذاته** ١١:٥٢١-٥٢٢.

(٤) **كتاب الجغرافية** ٦٠-٦١.

(٥) يقول السقطي عن محاسن رقيق كل جنس « والتركية لإنجاب الولد » (**رسالة السقطي** ٤٩).

(٦) **الكامل** ١٠:٢٤١-٢٤٣.

(٧) يذكر ابن أبي زرع في الجيش المرابطي ثم الموحدي في خلافة عبد المؤمن « الأغزاز والرمات » (**روض القرطاس** ٨٧، ١٢٩، ١٤٠)، والراجح أن الأغزاز محرفة عن الغزات (راجع **تنظيمات الموحدين** ٢٥٩-٢٦٠، ٢٧١-٢٧٢) وعن رأي مخالف راجع حركات: **النظام السياسي** ١٥٧-١٥٨.

وربما كانت دوافع غزوة القرن السادس كامنة في طموح بعض قادة الأتراك في مصر أو بتوجيه من صلاح الدين الأيوبي[1] أو ابن أخيه تقيّ الدين عمر[2] أو كل هذه الدوافع مجتمعة. ومهما كان الأمر فقد حمّل الموحدون الأيوبيين المسؤولية عن أعمال قراقوش قائد الغزوة التركية، وكان الأيوبيون يعلمون ذلك[3].

دخل الأتراك في سنة ١١٧٣/٥٦٩ منطقتي برقة وطرابلس بقيادة قراقوش الأرمني وبسطوا نفوذهم على المنطقتين[4]. ويبدو أنهم طمعوا في البلاد الجريدية فاشتركوا مع ابن الرند في ثورته بقفصة في ٥٧٥ - ١١٨٠/٥٧٦[5]. وأغرى النجاح الذي حققته الموجة الأولى مجموعات أخرى بقيادة يوزبا فتبعوا الموجة الأولى[6]. والظاهر أن عددهم أصبح كبيراً[7] وقياداتهم متعددة[8] فسيطروا على طرابلس وقابس وقفصة[9]، فانضم بعض العرب تحت لوائهم[10]، وحالفهم ابن غانية، فأصْلَى الحلف التركي الميورقي الهلالي البلادَ الشرقية ناراً حتى اضطر المنصور لقيادة جيشه بنفسه فقضى على حركتهم في سنة ١١٨٧/٥٨٣[11].

(١) أنظر **رحلة التيجاني** ١١١-١١٢، **العبر** ٦:١٩٣، **صبح الأعشى** ١٣:٨٧.
(٢) راجع **الروضتين** ١:٢٦٠، **عقد الجمان** (مخ) ١٢:٢٠٣ق.
(٣) أنظر خطاب صلاح الدين الى رسوله ابن منقذ الذي بعثه الى المنصور الموحدي (**الروضتين** ٢:١٧١) ورفض المنصور لطلب صلاح الدين بارسال الأسطول (**المعجب** ٢٨٤). وعن مناقشة القضية راجع عبد الحميد: «العلاقة بين صلاح الدين... والمنصور» ٨٤-١٠٠.
(٤) تضطرب المصادر عن بداية حركة قراقوش وتحركاته؛ أنظر **الروضتين** ١:٢٥٩، **مفرج الكروب** ١:٣٥، **المعجب** ٢٥٦، **الكامل** ١١:٣٨٩ وراجع دراسة احسان عباس عنها في **تاريخ ليبيا** ١٥٩ وما بعدها، ١٨٥ وما بعدها.
(٥) **رسائل موحدية** ١٠١، **العطاء الجزيل: الزوائد** ٧.
(٦) **الروضتين** ٢:٧٠، **مفرج الكروب** ٢:١٨٢.
(٧) **رسائل موحدية** ٢٠٨.
(٨) المصدر ذاته ١٩٨، **المعجب** ٢٨٩، **العبر** ٦:١٩٤، **نفح الطيب** ٣:١٣٣.
(٩) **رسائل موحدية** ١٨٣، ١٨٩، ١٩٨، ٢٠٦، ٢١٤.
(١٠) راجع شعر المنصور للعرب **نفح الطيب** ٣:١٠٢.
(١١) **رسائل موحدية** ١٨٣ وما بعدها.

واتبع المنصور مع الأغزاز السياسة ذاتها التي اتبعها مع العرب الهلالية، فغرّبهم إلى البلاد الغربية[1] وأقطعهم بها الإقطاعات[2] وألحقهم بالجيش الموحدي[3]، وظل ذكرهم يتردد في الأعمال العسكرية[4]، وأنزلهم المنصور ثغور الأندلس[5] وربما أسكنهم في بعض مدن البلاد الغربية إذ ذكر لهم ذكر في تارودنت[6]. ويبدو أن بعضهم ولي على بعض أقسام الولايات، فقد كان شعبان الغزي والياً على بسطة[7].

من كل ما تقدّم يتضح أن سكان مغرب القرن السادس قد تعدّدت عناصرهم واختلفت أصولهم وتنوّعت مهنهم، وكانت السمة البارزة لهم في العصر الجلاء الواسع عن الأوطان الأصلية، إمّا نتيجة أخطار خارجية تمثلت في الغزوة الهلالية وآثارها، وغزوات النورمان والضغط المستمر من نصارى إسبانيا، أو نتيجة نزاع بين قبائل المغرب، أو اضطهاد لأهل الذمة. ولا شك في أن هذه الأحداث قد أثرت على ضروب النشاط الاقتصادية زراعيةً وصناعيةً وتجاريةً سلباً أو إيجاباً.

(١) **المصدر ذاته** ٢٠٨، **الاستبصار** ١١١، **المعجب** ٢٥٦، ٢٨٩، **العبر** ٦:١٩٣.
(٢) **المعجب** ٢٨٩.
(٣) **رسائل موحدية** ٢١٤، **بيان موحد** ١٦٤.
(٤) **رسائل موحدية** ٢٥٦، **المعجب** ٣١٥، **بيان موحد** ١٨٠، ٢٣١.
(٥) **الكامل** ١١:٥٢٢.
(٦) **التشوف** ٣٤٩.
(٧) ابن سعيد، **المغرب** ٢:٧٧.

الفصل الثالث

الزراعة

الفصل الثالث

الزراعة

كان المغرب في القرن السادس/الثاني عشر زراعياً ـــ على الوجه الأغلب ـــ أي ان سكانه كانوا يعتمدون اعتماداً كبيراً على الزراعة، وتتفشّى البداوة (بالمفهوم المغربي) في أرجائه[1]. وسوف أعالج في هذا الفصل الزراعة من خلال: نظام الأراضي، وسياسة الدولة، ونظام الزراعة، وكيف أثرت هذه الأوضاع في الإنتاج الزراعي ومناطقه وما يتعلّق بالزراعة من رعي وصيد وتربية دواجن.

نظام الأراضي

إن دراسة النظرة الفقهية للأراضي وأحكامها قد تسعف في فهم مشكلة الملكية، سواء أجاءت هذه النظرة متصلة ببدايات التملك أم تسويغاً لما تمّ من تطورات لاحقة فيما بعد؛ ولكن بالنسبة للمغرب فإن مثل هذه المحاولة لن تزيد الدارس إلاّ غموضاً، إذ اختلف الفقهاء في حكم أرض المغرب، وهل هي

---

(١) تجدر الاشارة الى أن ابن خلدون يستعمل كلمة البادية بحيث تشمل مواطن الرعي والفلاحة والدواجن (أنظر بعض الأمثلة على ذلك في العبر ١: ١٢٠، ١٥٣).

عشرية، أو خراجية صلحية، أو خراجية عنوية، أو مختلطة[1]، حتى غمض الحال على المؤرخ والفقيه معاً[2]، فاستقر عرف الفقهاء فيا خفي أمره من الأراضي أنها « لمن وجدت بيده وإن كان لا يُدْرَى بأي وجه صارت إليه »[3] وبما أن حكم أرض المغرب مُخْتَلَفٌ عليه فمثل هذا الرأي يشجع ذوي النفوذ والسلطان على التعدي على ملكية الدولة أو الأفراد — كيفما كان الحال — لا سيا في أوقات الفتن والثورات، بل قد يكتسب مثل هذا التعدي صفة الشرعية والحقّ المكتسب. والفترة التي تؤرخ لها هذه الدراسة بدأت بالآثار المترتبة عن الموجة الهلالية في البلاد الشرقية والفتنة البربرية في البلاد الأندلسية، وشهدت ثورتين متتابعتين في ما يزيد عن نصف القرن قليلاً (المرابطية ثم الموحدية). وعليه فمن المتوقع أن تؤثر هذه الأحداث في نظام ملكية الأرض العامة والخاصة.

أراضي الدولة (الملكية العامة)

تقلّصت أراضي الدولة في البلاد الشرقية لما تملك العرب الهلالية البوادي والسهول بحدّ السيف حتى لم يبقَ بيد الدولة إلاّ ما ضمنه أسوار المدن، هذا بالإضافة لما تخلّى عنه صنهاجيو أفريقية، لا سيّما بنو حماد، بالهبات[4] والإقطاعات[5]. ولم تكن البلاد الأندلسية أحسن حالاً، فقد أخذ ملوك الطوائف والبربر والمنتزون أكثر الأراضي حتى لم يبقَ إلاّ القليل التافة حسب رواية ابن حزم[6]. واعتبر

(١) زهرة الاس ٣، الديباج المذهب ١٩٩، المعيار ٩٦:٦. وراجع مناقشة الروايات المختلفة خاصة روايتي المالكي وابن عذاري عن أفريقية وروايتي ابن مزين وابن حزم عن الأندلس عند مؤنس: فتح العرب للمغرب ٢٧٦-٢٧٨، فجر الأندلس ٦١٤ وما بعدها، عباس: عصر سيادة قرطبة ١٢، ١٤.
(٢) أنظر مفاخر البربر (مخ) ٢٦ب، المعيار ٩٦:٦.
(٣) المعيار ٩٦:٦، وكذلك الديباج المذهب ٣٥.
(٤) أنظر مثاله المعجب ١٨٢-١٨٣.
(٥) أنظر فيما يلي: الاقطاع.
(٦) الرد على ابن النغريلة ١٧٦، Asin Palacios, **Al-Andalus p. 36 (1934).** ولعل خير مثل لمنتزٍ أخذ ما لبيت المال لنفسه هو سعيد بن أحمد بن زيفل الثائر بحصن شقورة (راجع نازلة تاريخها محرم ٤٩٢/نوفمبر ١٠٩٨ في نوازل ابن رشد (مخ) ١٩و، عباس: «نوازل ابن رشد» ٦٤، المعيار ٤٠٧:٩-٤٠٨).

هؤلاء ما بأيديهم ملكاً خاصاً، فتصرفوا فيه إقطاعاً وتوريثاً وبيعاً، فاختلطت أراضي الدولة بحقوقهم الخاصة[1]. وأغلب الظن أن ملكية أراضي البلاد الغربية كانت للقبائل التي سكنتها، وهذا ما سيتضح في الحديث عن سياسة المرابطين تجاه ملكية الأرض.

فلقد كانت السياسة التي اتبعها المرابطون في بداية دولتهم جعلت الدولة هي المالك لكثير من الأراضي في البلاد الغربية وساعدت على استملاك الدولة لكثير من أراضي البلاد الأندلسية. ذلك أن المرابطين حكموا على مَنْ ناوأهم وصمة عن دعوتهم في بداية أمرهم بالكفر فوجب قتالهم واعتبر مالهم غنيمة وفيئاً[2]، فآلت أرض زناتة[3] وبرغواطة[4] وغمارة[5] إلى ملكية الدولة الجديدة، بينما أقر المرابطون المصامدة على أراضيهم لقاء تحالفهم مع المرابطين أيام الفتح الأولى[6]، حتى إن يوسف بن تاشفين اضطر لشراء أرض مراكش من نفيس لما أراد بناء مدينته[7]. وفي الأندلس ضمّ المرابطون إلى دولتهم أراضي ملوك الطوائف[8] ومن

(١) راجع مصادر الحاشية السابقة بالاضافة الى مسائل ابن زهر في المعيار ٤١:١٠.
(٢) انظر الحلل الموشية ١١، روض القرطاس ٧٩.
(٣) في فاس أقروا عامة أهلها ونفوا زناته أو حبسوها أو قتلوها (وفيات الأعيان ١٢٤:٧). وعن باقي أراضي دول زناتة المدينية راجع البيان المغرب ٢٤٣:٣، ٢٦٤، ٢٦٥، روض القرطاس ٧٠، ٨١، ٨٢، ٨٥، ٨٩، ٩٠، ١٠٨، ١٥٨، الحلل الموشية ١٢، ٢١، رقم الحلل ٥٢، ٦٩، العبر ١٨٥:٦، صبح الأعشى ١٦٨:٥، ١٨٧، جذوة الاقتباس ٥٢، F. de la Chappelle "Histoire du Sahara Occidental," p. 62, Julien; **op.cit.**, p. 378.
(٤) لقد تفرقت برغواطة في الشعارى (الحلل الموشية ١١، روض القرطاس ٨٥، العبر ٢٩٩:٦).
(٥) سكنت لطة وهي حليف للمرابطين سهول غمارة الزراعية ونجودها (نزهة المشتاق (ط.د.) ٨١) ولعل هذا يفسر تحالف غمارة مع الموحدين إبان ثورتهم.
(٦) راجع قيام دولة المرابطين ١٩٠ وما بعدها والمصادر المذكورة.
(٧) وفيات الأعيان ١٢٤:٧ نقلاً عن النبراس لأبي الخطاب ابن دحية، روض القرطاس ٨٩، نزهة المشتاق (ط. ب.) ٤٣.
(٨) سواء اجلوا عن ديارهم كبني صمادح (انظر الحلة السيراء ١٧٤:٢، روض القرطاس ١٠١) أم أعطوا أماناً «في النفس والأهل دون المال» مثل بني عباد وعبدالله بن بلقين (راجع التبيان ١٤٧ وما بعدها، المعجب ٧٧، الكامل ١٩٠:١٠، روض القرطاس ٩٩، ١٠٠، ١٠١، نفح الطيب ٢١٦:٤). وعن سائر ملوك الطوائف راجع التبيان ٢٧٣ وما بعدها، قلائد العقيان، ٢٢-٢٣، الذخيرة (مخ بغداد) ١٩:٢ ٢٩:٣، بغية الملتمس ٣٢، ابن سعيد، المغرب ٣٦٤:١، الحلة السيراء ١٠٢:٢ وما بعدها، روض القرطاس ١٠٠، مفاخر البربر ٤٤.

ارتبط بهم من شخصيات ذات نفوذ[1]. فاتسعت ملكية الدولة نتيجة هذا الإجراء، هذا بالإضافة لوراثة الدولة لمن لا وارث له[2].

غير أن السياسة التي سار عليها المرابطون أيام حكمهم عادت وأفقدت الدولة كثيراً من الأراضي، فطفقت تبحث عن وسائل أخرى لتملك الأراضي، وهذا الأمر ترتبت عليه نتائج خطيرة فتحت عليهم أبواباً من الثورات.

و يستطيع الدارس أن يتبيّن ثلاث مراحل متعاقبة في سياسة المرابطين بالنسبة لتملك الدولة للاراضي. فقد سّن عبدالله بن ياسين « التطبيب »، والمرابطون بعد في صحرائهم، وهو أخذ ثلث أموال من ينضم إليه من صنهاجة الصحراء لتطبيب أموالهم[3]. ولم تؤثر هذه السياسة على ملكية الأراضي إذ لم يكن لهم أموال إلا الجمال[4]. ومع بداية فتح البلاد الغربية بدأ التخميس وتوزيع المغانم على الفاتحين[5]. وأغلب الظن أن هذه السياسة توقفت بعد تأسيس مراكش وإنقلاب الحركة من ثورة الى دولة[6]، لا سيّما أن الجيش المرابطي بدأ يضمّ عناصر غير صنهاجية من مصمودة وزناتة ومرتزقة من العبيد السود والروم[7]. ولم يرد أن أياً من الأراضي التي فتحت بعد تأسيس مراكش خمّست. والراجح أن الدولة بدأت تتبع سياسة الإقطاع للجند وغيرهم من وقتئذ[8].

(١) مثاله أبو محمد ابن العربي الذي اعتقل المرابطون أمواله فرحل الى المشرق في ١٠٩٢/٤٨٥ (انظر **مفاخر البربر** (مخ) ١٢٧-١٢٨، ١٣٠، عباس: «الجانب السياسي من رحلة ابن العربي» ٢١٨. وما بعدها، رحلة ابن العربي الى الشرق كما صورها «قانون التأويل» ٦١. و يقول ابن الابار إن أبا علي الصدفي شفع في رد أملاكه على ابنه أبي بكر فردت (**معجم الصدفي** ٩، ٥٦) و يبدو أن ذلك كان في حدود سنة ١١١٤/٥٠٨-١١١٥ لأنه تاريخ السماع.

(٢) راجع عدة نوازل عن ذلك في المعيار ١٦٥:٩، ١٥:١٠ وما بعدها.

(٣) ابن ياسين مالكي وهذا مما خالف فيه السنة في بداية أمره (انظر البكري، **المغرب** ١٦٦، ١٦٩).

(٤) **البيان المغرب** ١٠:٤، ١٦.

(٥) **البيان المغرب** ١٢:٤.

(٦) راجع عن مراكش Terrasse. **Histoire du Maroc,** p. 111

(٧) **روض القرطاس** ٨٩.

(٨) أنظر فيما يلي «الاقطاع».

والظاهر أن سياسة التخميس فالإقطاع ثم التعدي على أراضي بيت المال بيعاً[1] أفقدت الدول كثيراً من الأراضي. ولم تظهر آثار ذلك إلاّ في إمارة علي بن يوسف، فحاول زيادة أراضي الدولة بوسائل متعددة على الرغم من احترام المرابطين للملكية الخاصة بعد استتباب أمرهم[2] وتعاونهم مع الفقهاء المالكية[3].

فأولاً ظهرت في أيامه بخاصة منذ ١١٢١/٥١٥ ظاهرة مصادرة أملاك الأمراء المرابطين المغضوب عليهم هم وحاشيتهم[4]، أو العمال « الخائنين »[5]، أو المتهمين بالثورة على السلطان[6].

وثانياً في العام ذاته أراد علي بن يوسف مراجعة الملكيات العامة التي آلت الى ملكيات خاصة منذ أيام بني عامر و بني عباد، فاستفتى الفقهاء في ذلك[7].

وثالثاً في ١١٢٧/٥٢١ ضمّ الى ملكية الدولة أحباس الكنائس و بيع المعاهدة الذين فرّوا الى أرض العدو أو أجلوا الى البلاد الغربية، وهي أراض واسعة[8].

ولا ريب في أن مراجعة ما آل الى ملكيات خاصة كان أهم تلك الوسائل جميعاً، إذ لو تمّت لساعدت الدولة على أن تسترد كثيراً من الأراضي، ولأثرت على كثير من الناس ولا سيما الفقهاء الملاّك. و يبدو أن علي بن يوسف كان

(١) راجع **المعيار** ٤٦٢:٩-٤٦٣.

(٢) **المعيار** ٣٩:٨ وما بعدها.

(٣) الفقهاء أكبر الملاك في العصر المرابطي، وسيجيء شرح هذا في باب الملكية الخاصة، ولهذا فسيكونون أحرص من غيرهم على عدم المساس بالأملاك الخاصة حتى ان أبا الحسن البرجي فقيه المرية (ت ١١١٤/٥٠٨) أفتى بشأن احراق كتب الغزالي « بتأديب محرقها **وتضمينه قيمتها** » (**الذيل والتكملة** ٣٠٨:١:٥).

(٤) راجع **معجم الصدفي** ٥٦.

(٥) أنظر **البيان المغرب** ٤: ٧٧.

(٦) راجع امتحان أحمد بن سعيد في شلب في **التكملة** ١: ٥١.

(٧) **نوازل البرزلي** (مخ) ٩٣ ق.

(٨) **المعيار** ٨:٣٩-٤٥.

يشعر بخطورة هذا الإجراء فحرص على دعم الفقهاء له. وتقول رواية ابن الصيرفي حسبما أورده الرزلي ان ابن رشد وغيره افتوه بالتصرف في الملكيات الخاصة وخالفهم ابن حمدين. وثارت العامة في قرطبة على ابن رشد ومن معه حتى صرف ابن حمدين العامة عنهم. وتعرض علي لا بن رشد ومن رأى رأيه ثم رضي عنهم[1]. و يبدو من هذا أن عزل ابن رشد أو استعفاءه كان بسبب ثورة قرطبة عليه، لتأييده لما أراده المرابطون من مراجعة الملكيات الخاصة، وجعل المرابطون ابن رشد كبش فداء[2]، وهذا يبعث على الظن بأن الثورة كانت عنيفة حتى أن المرابطين جعلوا أكابر مؤيديهم كبش فداء[3].

ولئن ألجأت ثورة قرطبة المرابطين لتغيير السياسة التي أرادوا تطبيقها بشأن بعض الملكيات الخاصة وتحويلها الى عامة، فإن موقف ابن رشد يكشف عن عمق أزمة المرابطين المالية. و يبدو أن ابن رشد أراد أن يساعد الدولة في إجراءاتها المالية، إذ كانت تواجه عدواناً متصلاً من نصارى إسبانيا[4] — على الرغم من أن فتواه هذه جاءت مخالفة لرأيه في الغصب والحيازة[5] وما افتى به في نازلة ابن زيفل سنة ١٠٩٨/٤٩٢[6] — فقد كان درء خطر نصارى إسبانيا معاهدة ومحاربين شاغله الأكبر[7].

وهكذا ورث الموحدون ملكيات عامة متناقصة، فكيف عالجوا الأمر؟

(١) **نوازل البرزلي** (مخ) ٩٣ ب، و بعض الخبر عند ابن الحاج (أنظر **المعيار** ٤٦٣:٩).
(٢) أنظر كيف تختلف المصادر بشأن ابن رشد عزلاً واستعفاء وتسكت عن السبب؛ راجع **روض القرطاس** ١٠٦، عباس: « نوازل ابن رشد » ٣.
(٣) ربما كانت هذه الثورة هي عين ما ينسبه ابن الأثير الى امساك عبد مرابطي بيد امرأة قرطبية فثارت المدينة حارقة لدور المرابطي ناهبة لأموالهم ومخرجة لهم من دورهم حتى حصر على المدينة فصالحه أهلها على أن يغرموا ما نهبوا (أنظر **الكامل** ٥٥٨:١٠). فان صح الاستنتاج يكون ابن الأثير المصدر الوحيد الذي يعطي وصفاً دقيقاً لما اتبعه أهل قرطبة خلال ثورتهم من عنف ضد المرابطين.
(٤) راجع عن حروب علي بن يوسف في الأندلس هويثي « علي بن يوسف وأعماله في الأندلس ».
(٥) أنظر **المرقبة العليا** ١٧-١٨.
(٦) راجعها في **نوازل ابن رشد** (مخ) ١٩و، **المعيار** ٤٠٨:٩، عباس « نوازل ابن رشد » ١٦.
(٧) راجع جواز ابن رشد الى مراكش بعد حركة ابن رذمير في **البيان المغرب** ٧٢:٤ وما بعدها.

اتبع الموحدون في طوري الثورة والدولة سياستين مختلفتين. ففي دور الثورة وجهت أفكار ابن تومرت الموحدين لاستملاك أراضي المخالفين. إذ كفّر ابن تومرت كل من لم يؤمن بأفكاره، فأحلّ دمه وماله واسترقاق نسائه وأطفاله[1]، خاصة أمراء المرابطين والفقهاء المالكيين المتعاونين معهم[2]. وقسم ابن تومرت أموال المخالفين أو المنكرين بعد تخميسها على الموحدين[3]. وسار عبد المؤمن على هدي هذه السياسة لما فتح البلاد الغربية[4].

ولم يرضَ أهل البلاد الغربية تخميس أموالهم وهم مسلمون. فعندما سقطت الدولة المرابطية اندلعت ثورتان أوشكتا على القضاء على الدولة الموحدية الوليدة. ففي عام ١١٤٧/٥٤١ — وهو عام فتح مراكش — قام الماسي في السوس وسيطر على البلاد الغربية كلها إلا فاساً ومراكش، وأخمدت ثورته في العام ذاته[5]. ثم اعقبت ذلك ثورة دكالة و برغواطة متحالفتين مع بقايا المرابطين وحلفائهم من الفقهاء المالكية (بني غانية والقاضي عياض)، وقضي على ثورتهم في سنة ١١٤٨/٥٤٣[6].

وأغلب الظن أن الثورتين قامتا بسبب تملّك الموحدين لأراضي القبائل الثائرة. فقد كانت الثورتان عنيفتين وكان الرد الموحدي عليهما أشد عنفاً[7]. ولا يستطيع

(١) أنظر **أعز ما يطلب** ٢٤٥، ٢٥٦، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٧٦ وما بعدها، ٢٩٠، ٢٩٦، **المعجب** ١٩٥، **روض القرطاس** ١١٤.
(٢) **أعز ما يطلب** ٢٥٨-٢٦٢، ٢٩٠، ٢٩٦، **نظم الجمان** ٤٢، ٤٦، ٨٥، **البيان المغرب** ٦٨:٤؛ هذا وقد وصف الادريسي الموحدين بنهب الأموال وسفك الدماء (**نزهة المشتاق** (ط.د.) ٦٨).
(٣) **الكامل** ٥٧٢:١٠-٥٧٣، **نظم الجمان** ٩٤، **البيان المغرب** ٦٩:٤، **نهاية الأرب** ١٩١.
(٤) **أخبار المهدي** ١٠٦، **الكامل** ٥٨٢:١٠، ٥٨٤، **البيان المغرب** ١٨:٤، ٢٥، **الحلل الموشية** ١١٨-١١٩، **الاستبصار** ١٨٢، **روض القرطاس** ١٢٣، ١٢٤.
(٥) **بيان موحد** ٢٦، **الحلل الموشية** ١٢١، **روض القرطاس** ١٢٣.
(٦) **الكامل** ٥٨٥:١٠-٥٨٦، **نهاية الأرب** ٢٠٢، **روض القرطاس** ١٢٤.
(٧) حتى بعد القضاء على الثورتين كتبت جرائد بأسماء من يخشى عداؤه للموحدين من سائر القبائل، فوضع السيف على رقابهم، وهذا الحادث عرف بالاعتراف (راجع خبره عند البيذق: **أخبار المهدي** ١٠٩-١١١).

الدارس أن يتبيّن باعثاً على الثورتين إلاّ تخميس أموال هذه القبائل. فالموحدون حتى تلك اللحظات لم يفرضوا ضرائب جديدة، بل اسقطوا ما فرضه المربطون، وهذه القبائل الثائرة كانت تسكن المناطق الزراعية، كما أن التخميس هو مأخذ فقهاء المالكية على ابن تومرت[1]. ولما قضى عبد المؤمن على الثورتين بدّل مفهوم التوحيد من ديني الى سياسي يشمل كل من أظلته الدولة بظلها[2] وأكد على احترام الملكية الخاصة وعدم التسلط على أموال الناس لأنه نقض للشرع[3]. وشدّد عبد المؤمن على الموحدين ليسمحوا للقبائل الثائرة بالرجوع إلى أوطانها واعمارها[4]. وبقيت هذه القبائل في أراضيها[5]. وسار خلفاء عبد المؤمن على النهج ذاته من قبول بالمفهوم السياسي «للتوحيد»[6] واحترام للملكية الخاصة[7].

فإذا كانت هذه الأراضي قد بقيت في يد أصحابها، فهل كانوا هم المالكين لها؟ وكيف يساوي بين ما فتح صلحاً وبين ما أخذ عنوة؟ يبدو أن ما فتح صلحاً كانت ملكيته لأصحابه الأصليين، وكانت هذه السياسة من أسباب فتح الموحدين لكثير من المناطق[8] أو إعادتها عندما تخرج عن طاعتهم مع ثائر[9]. وكان

(١) **نظم الجمان** ١٠.
(٢) راجع رسالة عبد المؤمن لسائر بلاد الموحدين في ١١٤٨/٥٤٣ عند ابن القطان (**نظم الجمان** ١٦٦).
(٣) **نظم الجمان** ١٥٣-١٥٤.
(٤) **المصدر ذاته** ١٥٧.
(٥) أنظر مثلاً دكالة (**الاستبصار** ٢٠٩) ومكناسة (**أخبار المهدي** ١٠٩-١١٠).
(٦) **رسائل موحدية** ٤٤، ١٥٢، **أخبار المهدي** ١٢٠، **المن بالامامة** ١٧٥، ٣٧٧، ٣٨٨-٣٩٠، **بيان موحد** ٨٢، **العبر** (دار الكتاب اللبناني) ٦:٥١٩.
(٧) **المن بالامامة** ٣٠٢-٣٠٧ خاصة ٣٠٥-٣٠٦، ٤٥٢، ٤٦٥-٤٦٦، ٤٨٥، **بيان موحد** ١٤٥، ٢٠٦.
(٨) أنظر كيف أراد فقهاء اشبيلية تحرير أموالهم في سنة ١١٤٩/٥٤٣ (**روض القرطاس** ١٢٤) ثم مجيء وفود من الأندلس للغرض نفسه في ٥٤٥-١١٥١/٥٤٦ (**روض القرطاس** ١٢٥)؛ وانظر فتح تلمسان (**الحلة السيراء** ٢:١٩٦) واحترام أموال انجمار المسوفي وأصحابه حين فتحت مراكش (**البيان المغرب** ٤:٢٥) وفتح أغمات (**روض القرطاس** ١٢٣) وقرطبة وقرمونة والجزائر (**المصدر ذاته** ١٢٥) وبجاية (**المصدر نفسه** ١٢٦) والمهدية (**المعجب** ٢٣٠) وغرناطة (**بيان موحد** ٣٣) وشرق الأندلس (**المن بالامامة** ٤٧٠، **المعجب** ٢٥٠، ٢٥٣، **بيان موحد** ٩٥-٩٦).
(٩) مثلاً بجاية مع الميورقيين والعرب الهلالية عقب كل فتنة (**بيان موحد** ١١٤، ١٥٠، ١٥٤).

الموحدون يحرصون على احترام الملكية الخاصة في مثل هذه الحال حتى ان المنصور الموحدي لما أراد تغريب بنى حمدون وبني القائد عن بجاية جزاء تعاونهم مع الميورقيين لم يصادر ممتلكاتهم بل أجبرهم على بيعها[1].

وأما أرض العنوة ــ فتحاً أو استعادةً ــ فقد جرت على حالين. في الأولى أبقت الدولة الأرض في يد أصحابها وفرضت عليهم نسبة من غلتها، ففي تونس وأرباضها بلغت هذه النسبة النصف[2]. وفي كثير من البلاد الأندلسية حددت بالربع[3]، بينما جرى الحال في قفصة ــ حسب رواية ابن خلدون ــ «على حكم المساقاة»[4]، وهذه قد تعني النصف[5]. وكيفما كان الوضع فكل هذا يعني أن الموحدين انزلوا مثل هذه الأراضي منزلة الأراضي الخراجية العنوية أو ما يمكن تسميته بالإقطاع الموحدي.

وفي الحال الثانية تملكت الدولة الأرض على نحو ما جرى في ثورة مارتلة (١١٤٤/٥٣٩)[6] وانتزاء ابن همشك (١١٦٢/٥٥٧)[7] وثورة قرطبة (١١٦٢/٥٥٧)[8] وقيام صنهاجة في جبل غمارة (١١٦٦/٥٦١)[9] وخرج أبي عمر بن سالم في قلعة خولان بعد العقاب[10].

ويلاحظ أن السياسة الثانية اتبعت في حال الثورات على الموحدين، فكأنها استثناء قصد به التأديب، بينما نفذت السياسة الأولى فيما فتح عنوة إلا في حال

(١) **بيان موحد** ١٥٤.
(٢) وطبق هذا حتى على المساكن أنظر **الكامل** ١٠:٢٤٢، **نهاية الأرب** ٢١١.
(٣) تقول رواية البرنسي أن جميع الأندلس مربعة الاشريس (**روض القرطاس** ١٢٢-١٢٣) بينما مراجعة ما فتح صلحاً توضح أن هناك ما حرر مثل إشبيلية وغرناطة راجع الحاشية (٨) السابقة.
(٤) قارن روايتي ابن عذاري وابن خلدون (**بيان موحد** ١٦٧، **العبر** ٦:١٩٣).
(٥) راجع فصل المساقاة في المعيار.
(٦) راجع **الذيل والتكملة** ٥:١:١٧٦.
(٧) **المن بالامامة** ١٨٧، ٢٠١، وشملت المصادرة حتى اليهود «الاسلاميين» الذين شايعوه.
(٨) **المصدر ذاته** ٢٠٣-٢٠٤.
(٩) **بيان موحد** ٦٩-٧١.
(١٠) ابن سعيد، **المغرب** ١:٣١٠.

ثورة واحدة هي قفصة، وقفصة منطقة أطراف ومركز ثورات، فكأنما أراد الموحدون تأليف قلوب أهلها. ولا يستبعد أن تكون السياسة ذاتها قد اتبعت في البلاد الغربية بعد ثورتي قبائلها في عامي ٥٤١ و ١١٤٧/٥٤٣ و ١١٤٨، لا سيّما أن هناك إشارتين عن أرضين في سلا والرباط — وهما من مناطق الثورتين — توحيان بمشاركة الدولة لبعض الملاك[1]. وهذه الإشارات قد تسعف على فهم رواية ابن أبي زرع القائلة بأن عبد المؤمن أول من فرض الخراج بالمغرب[2]. وربما كان إبقاء الموحدين للقبائل الثائرة عليهم متملكة للأرض أو زارعة لها إنما تمّ باعتبار أن أرضهم خراجية عنوية وأنها إقطاع من الدولة لهم.

ولما كانت النسبة المدفوعة للدولة من غلة الأرض في الأندلس هي الربع بينما كانت في البلاد العدوية هي النصف، فإن ذلك التميز قد يشير الى محاولة تألف الأندلسيين وهم يواجهون خطر النصارى المتزايد. وعلى الرغم من ذلك يبدو ان الأندلسيين لم يكونوا راضين عن هذه السياسة. وخير دليل على ذلك ثورة الوهيبي في غرب الأندلس وقد اتخذ من لبلة قاعدة لها. ويبدو أن الملاك كانوا من كبار مؤيديه، ولكن تثقيف أموالهم جميعاً[3] جعلت الناس يقبلون بأهون الشرين (التربيع بدلا من المصادرة). والظاهر ان سياسة مشاركة الدولة هذه التي بدأها عبد المؤمن أتت ثمارها في خلافة ابنه يوسف: يقول ابن صاحب الصلاة ان الناس اطمأنوا الى أملاكهم فنما مالهم «حتى شبهها الطلبة وأهل التواريخ بأيام عثمان بن عفان»[4].

وهكذا وجد الموحدون حلاً لمشكلة أراضي الدولة حيث أخفق المرابطون. فآلت ملكية أراضي الدولة المرابطية الى الدولة الموحدية بالاضافة الى تملك هذه

(١) راجع التشوف ١٩٤، **المن بالامامة** ٤٤٦-٤٤٧.
(٢) **روض القرطاس**، وانظر فيما يلي سياسة الدولة: الضرائب.
(٣) عن الثورة راجع **بيان موحد** ٣٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٧، **روض القرطاس** ١٢٧، ١٧٧، ووردت نبذة في الصفحة الأولى. وانظر كيف أن الموحدين أزعجوا كبراءها مثل بني صاحب و بني الأنصاري (**بيان موحد** ١٠٢)، وابن الجد كان ممن امتحن (**التكملة** ٢:٥٤٢).
(٤) **المن بالامامة** ٢٣٦-٢٣٧، و يقول المسعودي ان الصحابة اقتنوا الدور والضياع في زمن عثمان، راجع **مروج الذهب** ٤:٢٥٢-٢٥٥.

الدولة لأراضي الأمراء المرابطين وجندهم والنافذين في عهدهم، واعتبار ما فتح عنوة أرضاً خراجية عنوة أو ملكاً للدولة تقطعه، ثم مصادرة أملاك الثائرين عليهم تأديباً وعقاباً. هذا فضلاً عما يرد من الأبواب المعتادة من استصفاء أموال عمال مغضوب عليهم[1] ووراثة من لا وارث له[2].

ثم ان العوامل التي تساعد على تقلص اراضي الدولة من هبة واقطاع[3] لم تحدث للموحدين ما احدثته من مشكلة للمرابطين، اذ إن الموحدين كثيراً ما كانوا ينزعون الاقطاع[4]، كما أن سياسة دولتهم كانت محاولة إنزال قبائلهم في المدن دون السهول الزراعية.

ومن الصعوبة التميز بين أملاك الأمير المرابطي أو الخليفة الموحدي الخاصة وأملاك الدولة. بيد أن هناك إشارات توحي بأن هناك تمييزاً ما. يذكر ابن سعيد «مختص» يوسف ابن تاشفين في غرناطة[5]، ويقول ابن عذاري أن ابن زهر كان مسؤولاً عن «أمر المستخلص وأملاك السلطان» في إشبيلية[6]، ويشير ابن الأثير الى نصيب عبد المؤمن من غنائم دكالة[7]، ويحدثنا ابن صاحب الصلاة أن يوسف بن عبد المؤمن بنى سور إشبيلية وفك مأسورين وعفا عن مسجونين وشيد دورا لعسكره في إشبيلية من ماله[8]، فنصيب عبد المؤمن ومال يوسف أموال منقولة وقد تعني مال الدولة، لا سيما وأن يوسف لما اشترى أراضي أهل إشبيلية التي أقام عليها دور عسكره لم يشتر ذلك الجزء من أرض الدولة الذي أدخل في بناء الدور[9]. ويبدو أن المستخلص وأملاك السلطان في رواية ابن عذاري تعني الشيء ذاته لأن ابن الخطيب يعبر عنها بمصطلح واحد هو «مستخلص

(١) أنظر أمثلة في **المعجب** ١٩٨، ٢٤٤.
(٢) مثاله في **الذيل والتكملة** ٥:١:٢٠، ٣٠١.
(٣) عن الهبات راجع **العطاء الجزيل** (مخ) ٨و وعن الاقطاع ما يلي في باب الاقطاع.
(٤) أنظر أمثلة عن الشرف ولبلة في **بيان موحد** ٢٠١.
(٥) ابن سعيد، **المغرب** ٢:١١٧.
(٦) **البيان المغرب** ٤:٦٥.
(٧) **الكامل** ١٠:٥٨٦.
(٨) **المن بالامامة** ٢٣٤، ٢٨٦، ٣٤٧، ٤٥٢.
(٩) **المن بالامامة** ٤٦٥.

السلطان »[1]. وأغلب الظن أن المختص والمستخلص شيء واحد فهما بمعنى ما اختير ونحّيَ لغة[2]، ووقع استعمال المختص بمعنى المستخلص عند الموحدين[3] والمستخلص هو الأراضي الزراعية والعقارات التي تخص بيت المال[4]. وهذا هو الاستعمال الأندلسي، بينما في المغرب، وأبتداء من فترة الموحدين، يستعملون مصطلح « مال المخزن »[5] (المنقول وغير المنقول). ومن هنا فالمصادر تشير الى مال الدولة كأنه مال الأمير المرابطي او الخليفة الموحدي لأنه رمز الدولة.

ولأراضي الدولة ديوان مسؤول عن إدارتها عرف في الأندلس بديوان المستخلص. وفي إمارة يوسف بن تاشفين يبدو أن مستخلص البلاد الأندلسية كلها كان تحت نظر ديوان واحد مركزه غرناطة[6]، بينما تعددت الدواوين في إمارة ابنه علي، فأنشىء في كل قاعدة أندلسية ديوان[7]. ولا تذكر المصادر شيئاً عن مثل هذا في البلاد الغربية مع المرابطين. وأغلب الظن أن المرابطين لم يأخذوا هذا المصطلح عن الأندلس. ففي بداية الدولة الموحدية — والموحدون قد ورثوا نظم الدولةالمرابطية — تركوا إدارة أراضي الدولة في يد المشرف مثل الجياني في فاس[8]. ويبدو أن الموحدين اتخذوا فيما بعد ديواناً قائماً بذاته لادارة أراضي الدولة. فهناك ذكر لأمين الضياع أيام المنصور الموحدي[9]. ويسمي

(١) **الاحاطة** ١:١٢١، ١٣١.
(٢) أنظر **تاج العروس** (خلص) (خصّ).
(٣) راجع **روض القرطاس** ١٧٠.
(٤) **نوازل ابن رشد** (مخ) ٢٠و.
(٥) أنظر أمثلة في **المن بالامامة** ٤٤٧، ٤٦٥، ٤٦٧.
(٦) يقول ابن سعيد ان أبا محمد عبدالله بن مالك في غرناطة كان يدير المستخلص بالاندلس (**المغرب** ٢:١١٧).
(٧) كابن هدية في غرناطة (**البيان المغرب** ٤:٧٤، **الاحاطة** ١:٤٣٧) وابن زهر في إشبيلية (**البيان المغرب** ٤:٦٥).
(٨) الجياني هو مشرف فاس حين فتحها عبد المؤمن وأقره في خطته، ولما خالفت هرغة وتينملل على عبد المؤمن نفى زعماءهم الى فاس وأقطعهم فيها والجياني هو المسؤول عن اسهامهم (**أخبار المهدي** ١١٦).
(٩) **أخبار المهدي** ٤٠، وهو ابن ملول وأبوه كان أحد كتاب المهدي (**المصدر ذاته** ٣٩).

صاحب روض القرطاس مثل هذا الديوان بالمختص — أيام الرشيد الموحدي[1] — استعماله هذا من باب تغليب مصطلح أندلسي على نظير له مغربي. ويشرف صاحب المستخلص على أراضي المخزن مزارعة ومساقاة ويتولى تحصيل مالها. ويبدو أن بعضهم كان مطلق اليد كابن هدية في عهد علي بن يوسف في غرناطة واضيفت له الأحباس وشارك في أعمال التعتيب[2].

ويلاحظ أن المعلومات المتوفرة عن هذه الخطة جاءت كلها عن مراكز الزراعة الأساسية مثل غرناطة وأشبيلية وفاس ومراكش. كما تجدر الاشارة الى أن ملكية الدولة للأراضي تأثرت بسياسة الاقطاع التي اتبعت.

الاقطاع

منذ أن اعتبر عمر بن عبد العزيز الأندلس ثغراً أعطى العرب الوافدين تباعاً اقطاعات واسعة حتى كادت أرض الخمس أن تتلاشى[3]. غير أن ابن أبي عامر بدّل هذه السياسة لما عجزت الرعية عن اعمار أرضها والقيام بواجب الغزو، فنزع اقطاع الجند وأعطاهم رواتب مشاهرة[4]، وأعفى الرعية عن الغزو ليتفرغوا لاعمار أرضهم على أن يعطوه كل عام ما يقيم به الأجناد. وسار ملوك الطوائف على هذا النظام الاقطاعي[5]. وهذه الجعالات التي تجمع هي ما يعرف « بمغارم الاقطاع[6] ». ومن هنا قد يفهم الانزال الذي يرد ذكره مع ملوك الطوائف على انه تفويض قائد لجمع مغارم اقطاع منطقة كأنه راتبه[7]. فهل أقرت دول مغرب القرن السادس هذا النظام او عدلته او ألغته؟

(١) **روض القرطاس** ١٧٠.
(٢) أنظر **البيان المغرب** ٤:٧٤، **الاحاطة** ١:٤٣٧.
(٣) راجع مناقشة القضية عند مؤنس: **فجر الأندلس** ٦١٨-٦٢١.
(٤) **سراج الملوك** (مخ) الباب السابع والأربعون وص ١٢٣ من المطبوع.
(٥) **التبيان** ١٧.
(٦) **المصدر ذاته** ١٠٩.
(٧) **المصدر نفسه** ١٣٢، ١٣٩، ١٥١.

لا تذكر الروايات شيئاً عن بلاد بني باديس اذ لم تعد الأرض لهم بعد أن سيطر العرب الهلالية على بلادهم. وأما بنو حماد فقد صالحوا العرب على نصف غلة بلادهم[1]. وهناك إشارتان عن الاقطاع عندهم لتأليف ثائر[2] او إيواء أمير طريد[3]. ولا يعرف شيء عن نوعه وهل هو شبيه بالاقطاع العامري او غيره. ومن وضع المقطعين وحالهم فهو ليس اقطاع رواتب، والمصادر لا توضح أهو اقطاع تمليك أم منفعة.

واتبع المرابطون سياسة اقطاع قبائلهم ما يفتحون من أراضٍ في البلاد العربية، غير أنهم في الأندلس ساروا في بداية أمرهم على نهج الاقطاع العامري[4]. ولما استقر أمرهم رجعوا الى ما كان سائداً قبله من اقطاع الجند أرزاقهما[5]. وربما كان هذا النظام الأخير هو نفس ما كانوا قد طبقوه في البلاد العربية من قبل. والظاهر أنه كان اقطاع تمليك، فانه شجع كثيراً من الناس على إحياء الأرض الموات حتى يمتلكوها اقطاعاً، فاضطر أبو محمد عبدالله بن مالك الطغنري الغرناطي تلميذ ابن بصال[6] وصاحب مستخلص الأندلس في عهد يوسف بن تاشفين أن يحدد ما يقطع تمليكاً او امتاعاً — أي اغتلالاً — قائلاً « وانما نبهناك على هذه الأرضين لأن بعض الناس لا يعلمون ذلك غالباً، فيتعبون ثم يقوم عليهم الامام فيأخذ ما بأيديهم ولا يظفرون بطائل »[7]. وكان الجند المرابطي والفقهاء هم المنتفعين أساساً من هذه السياسة، وحرم الحكام السابقون الا عبدالله بن بلقين

(١) **المعجب** ٢٢٤-٢٢٥.

(٢) مثاله ابن حرزون الزناتي الذي أقطع ضواحي الزاب (**العبر** ٦:١٧٣).

(٣) مثاله ابن صمادح صاحب المرية (**العبر** ٦:١٧٦).

(٤) أنظر كيف أعطى يوسف الانزالات القوية لعبيد بني زيري (**التبيان** ٧٣).

(٥) **سراج الملوك** (مخ) الباب السابع والأربعون وصفحة ١٢٣ من المطبوع. وهذا ما تؤكده المصادر الأخرى (راجع **الحلل الموشية** ٦٧، **البيان المغرب** ٤:٧٣).

(٦) راجع مقدمة **كتاب الفلاحة**.

(٧) **زهر البستان** (مخ) ١٥.

وأخوه تميم[1]. ويبدو أن هذه السياسة الاقطاعية هي السبب الأساسي في تقلص ظل أراضي الدولة في إمارة علي بن يوسف.

ويلاحظ أن إمارة بني مردنيش في شرق الأندلس خلال فترة الانتقال قامت على نظام إقطاعي آخر شبيه بالذي ساد في أوروبا الوسيطية. فابن مردنيش نفسه حالف ملك قشتالة واعتمد على الجند النصراني وأقطعهم أراضي القواد المسلمين السابقين[2]. وربما كان إقطاعه إقطاع تمليك إذ ان المراكشي يقول عن جنده النصراني « وأقطعهم ما كان أولئك القواد (أي القواد المسلمون) يملكونه[3] »، إلا إذا كانت عبارة المراكشي من باب تسويد صفحة ابن مردنيش لتعاونه الكامل مع نصارى إسبانيا.

وأقطع الموحدون خلال ثورتهم الأراضي التي فتحوها لقبائلهم على أسس قبَلية: فكانت جوائز لكل قبيلة جائزة[4]. وكان يتولى تقسيم الإقطاع أيام ابن تومرت أبو يوسف أيوب الجدميوى، وهو من أهل الجماعة — أي الهيئة التنفيذية في الثورة الموحدية[5]. وربما كان هذا إقطاع تمليك، إذ كانت الثورة في بدايتها وقد أراد الموحدون تملّك ما يفتحون. غير أن هذه النظرة الى الإقطاع تغيرت مع تحول الثورة الى دولة وتبدل مفهوم التوحيد من ديني الى سياسي، بعد ثورة قبائل البلاد الغربية، كما أن الغاية من الإقطاع قد اختلفت. ويمكن توضيح خمسة ضروب من الإقطاع بعد قيام الدولة قد تلقي بعض الضوء على طبيعته:

١ — **إقطاع الرواتب:** تردّد المصادر في حديثها عن الرواتب ثلاثة مصطلحات سوى الإقطاع: البركة والمواساة والإحسان. والبركة هي راتب الجند وعطاؤه.

(١) عن شدة المرابطين مع الحكام السابقين راجع **ديوان المعتمد** ١٠٠، **قلائد العقيان** ٢٨، **وفيات الأعيان** ٥:٣٥، ٣٨، **الحلة السيراء** ٢:٧٦، ٧٧، ٩٢، ١٠٢-١٠٤، وعن اقطاع ابني بلقين في السوس أنظر **العبر** ٦:١٨١.

(٢) Codera. **Decadencia.** p. 111 sqq.

(٣) **المعجب** ٢٤٩، والخط من وضعي.

(٤) **نظم الجمان** ٩٤.

(٥) **المعجب** ٣٣٨؛ وعن أهل الجماعة أنظر موسى: « التنظيمات الحزبية » ٥٩.

ويسميها المراكشي بمصطلح مشرقي هو « الجامكية »، ويقول انها تخرج ثلاث مرات في العام، مرة كل أربعة أشهر[1]. ورواتب غير الموحدين مشاهرة — وهذا هو وضع أرباب الخطط المخزنية[2]. قد أدرج المنصور الأغزاز في هذا الصنف عندما ألحقهم بالجيش الموحدي[3]. وأما المواساة والإحسان فتفرّقان كل سنة، على حسب أقدار الناس. فالأولى غلة تفرق عند تحصيل الغلات في المخازن، والثانية مبلغ من المال[4].

وكان للجند الموحدي الى جانب « البركة » إقطاعات تمثل جزءاً من راتبهم، حتى ان الموحدين احتجوا على المنصور فرض للأغزاز مشاهرة، فقال المنصور: أن « الفرق بين هؤلاء (يعني الأغزاز) وبين الموحدين، أن هؤلاء غرباء لا شيء لهم في البلاد يرجعون إليه سوى هذه الجامكية، والموحدون لهم الإقطاع والأموال المتأصلة »[5]. فالأموال قد تكون ما تملك الموحدون أيام التخميس، والإقطاع قد يكون ما أحدث كرواتب. ويبدو أن المنصور ألحق كبار الأغزاز بالموحدين، فقد أقطع شعبان وأحمد الحاجب إقطاعات واسعة[6]. ومن الراجح أن أرباب الخطط الكبرى التي تولاها موحدون أيام الثورة قد أعطوا

(١) المعجب ٢٩٠، ٣٢٢، ٣٤٠؛ وفي رواية ابن القويع عن حفصيي تونس أن البركة عندهم تخرج أربع مرات في الفطر والأضحى وربيع أول ورجب حسبما قرره ابن تومرت (**مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٣٣:٤ ق-٣٤و، **صبح الأعشى** ١٣٧:٥، ١٤٠) وقد تصور روايته هذه تطوراً لاحقاً لأن المراكشي قد عمل في الدولة الموحدية.

(٢) **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٣٥:٤و.

(٣) **المعجب** ٢٩٠.

(٤) **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٣٤:٤ق. ويبدو أن المواساة هذه اتبعت من قبل عند ملوك الطوائف، فقد رتب بنو زيري في غرناطة لقاضيهم ابن القليعي « مسانهة ومشاهرة » (**التبيان** ١١٦)، والمسانهة هي التعامل بالسنة (راجع **التاج واللسان**)، وقد تكون هي الغلات.

(٥) **المعجب** ٢٩٠.

(٦) عن شعبان أنظر ابن سعيد، **المغرب** ٧٧:٢ وعن الحاجب **المعجب** ٢٩٠-٢٩١.

إقطاعات بمثابة جزء من راتبهم[1]. وربما شمل هذا الإجراء كل من تولى خطة كبرى بعد قيام الدولة، سواء أكان موحداً أصلياً أم دخيلاً: مثل متولي خطة شيخ الطلبة[2] أو قضاء الجماعة[3].

٢ — **إقطاع التسكين:** وقد يقطع الموحدون من يخشون فتنته تسكيناً لنفسه واستجلاباً لطاعته، نظير ما فعل عبد المؤمن مع رؤساء بني هلال في البلاد الشرقية[4]، ومثلما فعل المنصور مع أعمامه لما تلكأوا عن بيعته ثم استجابوا[5]، ومثل فعله مع ابن منديل المغراوي في وادي شلف[6].

٣ — **إقطاع التأليف:** اتبع الموحدون سياسة مختلفة عن سياسة المرابطين مع الحكام السابقين أو أبنائهم أو الثوار المستسلمين ان أخذت ديارهم صلحاً. فقد كانوا يكرمونهم[7] ويقطعونهم ما يقيم أودهم[8] لأنهم أبناء ملوك سابقين[9]. ويلاحظ أن إقطاعاتهم عادة ما تكون في البلاد الغربية تغريباً لهم كيلا تحدّثهم نفوسهم بالثورة في مناطقهم السابقة. وهذا نفس ما فعله عبد المؤمن مع بني أمغار قرابة ابن تومرت لما خالفت عليه هرغة، فأقطعهم في فاس بدلاً عن إقطاعهم الذي

(١) أعطيت للمول بني ابراهيم سهوم بهانية عرفت باسمه لقاء عمله الكتابي (**أخبار المهدي** ٣٩).

(٢) أنظر عن أبي الحسن علي بن خليل الاشبيلي **المن بالامامة** ٢٢٩.

(٣) راجع ما رواه المراكشي عن محمد بن عبدالله بن طاهر **المعجب** ٣١٢-٣١٣.

(٤) **المعجب** ٢٢٥.

(٥) **المعجب** ٢٦٥.

(٦) **زبدة التاريخ** (مخ) ٢٤:٣٠ق-٢٥و.

(٣) راجع أمثلة في **المعجب** ١٩٩-٢٠٠، ٢٠٧، ٢١١، ٢٥٠، ٢٥٣-٢٥٥، ٣١٥، ٣١٨، **الكامل** ١٥٩:١١، ٢٤٥، ٤٦٨، **وفيات الأعيان** ٢١٩:٦، **بيان موحد** ٣٣، **روض القرطاس** ١٢٦، **الاحاطة** ٣١١:١.

(٨) أقطع عبد المؤمن يحيى صاحب بجاية (**المعجب** ٢٠٧، **الكامل** ١٥٩:١١) وابن بدر اللمتونى (**بيان موحد** ٣٣) والحسن صاحب المهدية (**الكامل** ٢٤٥:١١، **وفيات الأعيان** ٢١٩:٦) وابن طراد صاحب بنزرت (**العبر** ١٦٩:٦-١٧٠). وأقطع يوسف المعز ثائر قفصة (**الكامل** ٤٦٨:١١) وابن همشك **المعجب** ٢١١، **الاحاطة** ٣١١:١). وأقطع الناصر ميورقيي ميورقة (**المعجب** ٣١٨).

(٩) أنظر تعليق ابن مسعدة الشاعر (**نفح الطيب** ٤١٩:٣).

كان في مراكش قرب مواطن هرغة[1].

٤ ــ إقطاع مقابلة خدمة قدمت للدولة[2].

٥ ــ إقطاع هبة ومنة[3]: فواضح أن الغاية من الإقطاع اختلفت في حالي الثورة والدولة. في الحال الأولى كان الإقطاع احدى الوسائل التي اتبعت لتمليك الموحدين قبائلهم للاراضي المفتتحة، بينما في الثانية أصبحت الغاية من الإقطاع دفع جزء من الرواتب أو تسكيناً أو تأليفاً أو لقاء خدمة أو هبة. والمصطلحات تكشف عن اختلاف طبيعة الإقطاع في الدورين. فالرواية المعاصرة تسمى إقطاع دور الثورة جوائز[4] أو إقطاعاً[5]، بينما تستعمل المصادر المغربية المعاصرة إقطاع فترة الدولة« إسهاماً »[6]. وتشير المصادر المغربية ــ التي كتبت في المشرق ــ والمشرقية المعاصرة والمغربية المتأخرة الى الشيء ذاته بالإقطاع[7]، أو قد تستعمل المصادر المغربية المتأخرة المصطلحين مترادفين[8]. فهل الاسهام هذا إقطاع تمليك أو امتاع؟

يقول عبد الواحد المراكشي أن ابن همشك أقطع « أملاكاً ذات خطر »[9]، وردت العبارة ذاتها في الإحاطة وأعطي « سهاماً لها خطر »[10]، فكأن الاسهام هو إقطاع تمليك. والى هذا الرأي يذهب دوزي حين يقول بأن الاسهام والمساهمة

(١) قارن روايتي **أخبار المهدي** ١١٦ و١١٨.

(٢) راجع **نظم الجمان** ١٣٧، **بيان موحد** ٥٧.

(٣) أنظر **بغية الملتمس** ٥٣٠، **المن بالامامة** ٤٣٨، **الروض المعطار** ١٢١.

(٤) **نظم الجمان** ٩٤.

(٥) **المعجب** ٣٣٨.

(٦) **المن بالامامة** ٢٢٩، ٤٢٩، ٤٣٨، **أخبار المهدي** ٣٩، ١١٦، **بيان موحد** ٥٧، ٢٠١، ٢٢٧. وقد ترد صيغة الجمع « سهوم » (**أخبار المهدي** ٣٩) أو « سهمان » (**العبر** ٦:٤٣).

(٧) **المعجب** ٣١٨، ٢١١، **الكامل** ١١:٢٤٥، ٤٦٨، **وفيات الأعيان** ٦:٢١٩، **العبر** ٦:١٦٢، ١٧٠، **الروض المعطار** ١٢١، **زبدة التاريخ** (مخ) ٣:٢٥.

(٨) **العبر** ٦:٤٣.

(٩) **المعجب** ٢١١.

(١٠) **الاحاطة** ١:٣١١، وجاءت « سآماً »، وعلق المحقق أنها السوائم. وواضح أن فيها سبق قلم، فكتب الناسخ « سآماً » بدلاً من « سهاماً ».

إقطاع بشكل أرض يقرره السلطان[1]. ولكن المساهمة وقعت عند المقري بمعنى المزارعة[2]، والى شيء من هذا تشير بعض صيغ الاسهام عند الموحدين. فابن مسعدة أعطي « ضيعة يحرث له بها »[3]، وأعطى عبد المؤمن فتية بجاية « أرضاً واسعة لاحترائهم »[4]. وكان حفصيو تونس يعطون الجند « أراضي مطلقة تحرث وتزرع لهم أو تحكر ويكون لهم عشر ما يطلع منها »[5]. فربما كان الاسهام الموحدي بصورة غالبة مزارعة أو مشاركة لأن هذا يتوافق ونظرة الموحدين للملكية بعد قيام الدولة. فإن جاز هذا فربما يعني مشاركة الدولة، التي سبقت الإشارة إليها في الملكية العامة في حال أرض الفتح عنوة، أن الدولة دخلت شريكاً إقطاعياً مع الملاك الأصليين. ومن هنا ربما جاز القول بأن الموحدين رجعوا الى الإقطاع العامري وأطلقوا عليه مصطلحاً جديداً وأسموه إسهاماً. وعلى هذا يكون الإقطاع الموحدي حصة من دَخْل الأرض. وقد يكون الاسهام راجعاً الى وفاة الشخص المسهم له[6]، وتسجل في ظهير أو صك[7]. ولم يرد شيء عن الوراثة فيها. ولكن قد تنزع وتقيد ضمن المستخلص[8].

ان المصادر لا تعطي معلومات دقيقة عن مقدار ما يقطع للفرد الواحد، فهو يوصف بالسعة أو الخطر أو الولاية الكبيرة أو القرى الكثيرة أو الضيعة الواحدة[9]. فربما

(١) Dozy, **Supplément**, I, 697

(٢) **نفح الطيب** ١:٢٦٨.

(٣) **المصدر ذاته** ٣:٤١٩.

(٤) **بيان موحد** ٥٧.

(٥) **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٣٤و، **صبح الأعشى** ٥:١٤٠.

(٦) **المعجب** ٢١١، **الاحاطة** ١:٣١١.

(٧) راجع **بغية الملتمس** ٥٣٠، **المن بالامامة** ٤٢٩، ٤٣٨.

(٨) انظر **بيان موحد** ٢٠١.

(٩) راجع **المعجب** ٢١١، ٢٦٥، ٢٩٠، ٣١٣، ٣١٨، ٣٣٨، **نظم الجمان** ١٣٧، **الكامل** ١١:٤٦٨، **بيان موحد** ٥٧، **الاحاطة** ١:٣١١، **العبر** ٦:١٦٢، **نفح الطيب** ٣:٤١٩.

كانت الضيعة ــ وهي في الاصطلاح المغربي المجشر[1] ــ أقل ما يقطع للفرد الواحد لا سيا وأن الإقطاع عن جزء من الغلة لا عن رقبة الأرض. وربما كانت الضيعة عشرة فدادين[2]. ويبدو أن دخل بعض أصحاب الإقطاع كان كبيراً، فإقطاع شعبان الغزي كان يدر عليه نحو تسعة آلاف دينار كل سنة[3].

الملكية الخاصة

هناك أربع وسائل لتملك الأراضي تملكاً خاصاً: أن تأتي هبةً من الدولة أو إقطاعاً منها أو وراثةً أو شراءً. وقد عالجت فيما سبق الوسيلتين الأولى والثانية. والإشارات عن الأراضي الموروثة في القرن السادس/الثاني عشر كثيرة[4]. ويدل على كثرتها ازدياد أهمية خطة المواريث[5] واعتبار المال الموروث أطيب مكسب[6]. وأما الوسيلة الرابعة وهي الشراء فقد أثرت على الملكية الخاصة تأثيراً بالغاً لأن الفترة التي ندرسها افتتحت باضطراب سياسي كبير مع ملوك الطوائف والغزو الهلالي ثم مع فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين. ويقول ابن خلدون ان

(١) المجشر لغة القوم يخرجون بدوابهم الى الرعي و يبيتون في مكانهم. وترد عند المقري بمعنى مكان الزراعة والرعي معاً وفيه العبيد والدولاب (**نفح الطيب** ١:٢٦٨)، وترد بمعنى الضيعة في خطط المرينيين (انظر **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٥٤و-٥٦و، **صبح الأعشى** ٥:٢٠٥، ووردت فيه محرفة الى «محير».

(٢) يعطي المرينيون جندهم وأرباب الخطط رواتب ومجاشر تختلف حسب درجاتهم (**المصدران السابقان**)، وفي رواية ابن بنون عند ابن فضل الله العمري أن الحفصيين يعطون كلاً من أكابر أشياخهم محرث عشرة أزواج من البقر وأصاغرهم محرث خمسة أزواج. والزوج محرث أربعة من البقر لأن الزوج شعيتان، والشعبة راسان من البقر. وعلق ابن فضل الله قائلاً بأن الشعبة هي الفدان في دمشق (**مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٣٤و-٣٤ق، **صبح الأعشى** ٥:١٤٠-١٤١)، و يذهب دوزي الى أن الفدان زوج بقر يحرثان أرضاً (Dozy, **Supplément, II** p. 246).

(٣) **المعجب** ٢٩٠-٢٩١.

(٤) عن الوراثة راجع **المعيار** ٦:١٣٨ وما بعدها.

(٥) أنظر في ذلك **التكملة** ١:٦٧، ٧٢، ٣٤٤، **الذيل والتكملة** ١:٢٤٤، ٥:٢:٥٠٨، ابن سعيد، **المغرب** ٢:٢٨٦.

(٦) معجم الصدفي ١٧٠، **الذيل والتكملة** ٥:١:٧.

العقارات والضياع ترخص في فترة الانتقال من دولة الى أخرى حتى تتناهى أملاك الكثيرين الى الواحد. ويسمى ابن خلدون هذه الظاهرة «حوالة الأسواق»[1]. فكيف أثرت «حوالة الأسواق» هذه على الملكية الخاصة؟

سبق القول بأن ملوك الطوائف والعرب الهلالية قد عاثوا في الملكيات الخاصة عياث النار في يبيس العرفج، وجاراهم في ذلك ذوو النفوذ الاقتصادي والمركز الاجتماعي، فكثر استغلال أرض الآخرين ظلماً[2] والتعدي على الأراضي المشتركة[3]، كما كثرت نوازل الغصب[4] وبيع المضغوط[5] ومسائل الرهن[6]. فلجأ ضعفاء الناس الى بيع أراضيهم بسعر زهيد حسب ما تدل على ذلك محاولاتهم للرجوع عما أسموه «بيع الغبن» لما ضبط المرابطون حبل الأمن[7]. ويبدو أن من أراد الاحتفاظ بأرضه اتبع طريقة «الإنزال»، فينزل أحداً مكانه في ملكه، فيعتمر المنزل الأرض على كراء، ويكون الإنزال على فائدة المال دون رقبته. ويبدو أن المنزلين كانوا ذوي نفوذ عظيم، فكثيراً ما يمتنعون عن دفع الكراء[8].

وكثرت الظواهر ذاتها في فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين، وتغلب أولو الشوكة على أملاك الناس، وأصبحوا ملاكاً كباراً، بعد أن لم يكونوا شيئاً، مثل ابن ملحان[9] وابن مردنيش[10] وابن همشك[11] وابن عزون[12].

(١) **العبر** ١:٣٦٧.

(٢) **المعيار** ٩:٤٠٨ وما بعدها.

(٣) **المصدر ذاته** ٩:٤٠٩.

(٤) **المصدر نفسه** ٩:٤٠٨ وما بعدها.

(٥) **المصدر نفسه** ٦:٧٤ وما بعدها.

(٦) مثاله في مقالة عباس: «نوازل ابن رشد» ٢٤.

(٧) أنظر **المعيار** ٥:٤٨.

(٨) راجع **المعيار** ٦:١٣٨ وما بعدها.

(٩) **أعمال الأعلام** (ط. ليفي) ٢٦٤.

(١٠) **المعجب** ٢٤٩.

(١١) **الذيل والتكملة** ٥:٢:٦٦٠.

(١٢) **المن بالامامة** ٢٢٥-٢٢٦، **الحلة السيراء** ٢:٢٤٢.

واختلف وضع الملكية الخاصة مع الاستقرار الذي أشاعه المرابطون، فأقبل الناس على شراء الأراضي واستثمارها[1] في البلاد الأندلسية. ونسبة لأن البلاد الغربية كانت أكثر أمناً من الأندلسية، فقد بدأ الأندلسيون يقتنون الضياع في البلاد الغربية[2]، وقليلاً ما حدث العكس[3]، وظل الوضع غير مستقر في البلاد الشرقية مدة الدولة المرابطية[4].

ولما بسط الموحدون سيطرتهم على المغرب كله، وتبدل مفهوم التوحيد، واطمأن الناس على أموالهم، اقتنوا الدور والضياع، وازداد زحف الأندلسيين نحو البلاد الغربية مشترين للضياع، بسبب للاستقرار الذي شهدته البلاد[5]، وربما إشتروا في الأندلس ذاتها للسبب نفسه في بعض الأوقات[6].

وإذا نظر الدارس في مقدار الملكية الخاصة يلاحظ أن هناك فرقاً بين طبقات الناس وجهات المغرب المختلفة في مقدارها. فقد كانت الملكيات الخاصة صغيرة في البلاد الغربية والشرقية، إذ تكثر الإشارات الى ملكية فدان، وتسمى المزرعة فداناً[7]، وتقدر الملكية بالفدادين[8]، وقلما ترد مثل هذه الإشارات عن الأندلس[9] التي تقدر الملكية فيها بملكية بعض قرية أو ضيعة أو أكثر من ضيعة أو ملكية موزعة في غير قرية[10]، مما يوحي بأن الملكيات الخاصة كانت كبيرة في الأندلس،

(١) أنظر أمثلة في **المعيار** ٦:١٩٦ وما بعدها، وقد استرجع اليعمريون أموالهم في أبذة واتخذوا أموالاً أخرى في جهات اشبيلية (**الذيل والتكملة** ٥:٢:٦٦٠).

(٢) مثاله بنو عشرة في سلا (ابن شريفة: **أسرة بني عشرة**) وابن وجاد في الرباط (**المن بالامامة** ٤٤٦، ٤٤٧).

(٣) من هذا القليل ما اشتراه القاضي عياض في مالقة (**المرقبة العليا** ١٠١).

(٤) **المن بالامامة** ٢٣٦-٢٣٧.

(٥) مثاله علي الفهمي وابن حسان القضاعي (**الذيل والتكملة** ١:٩٠، ٥:١:٤٠٠).

(٦) مثاله ابن منظور وابن رواحة (راجع **المن بالامامة** ٤٦٦).

(٧) **رسالة ابن عبدون** ٢٧، **أخبار المهدي** ٥٤، **المعيار** ٩:١١٥، **التشوف** ٩١، ١٦٦، ١٨٣، ٢٤٨، ٢٥٥، ٣٦٨، **الذيل والتكملة** ٤:١٨٦، **روض القرطاس** ٦٣، **العبر** ٦:٢١.

(٨) **التشوف** ١٣٣.

(٩) مثاله في **التكملة** ٢:٨٧٨، **الذيل والتكملة** ١:٣٣-٣٤.

(١٠) راجع **المعيار** ٦:١٧٥، ١٧٨، ٣٠٧، ٨:١١٤، ١٠:١٢-١٣، عباس « نوازل ابن رشد » ٢٤.

فما كان يحرث من ضياع ابن المناصف (ت ٥٣٦/١١٤١-١١٤٢) كل عام ثمانمائة زوج[1] ــ ألف وستمائة فدان ــ، وبعض أرض ابن منظور في إشبيلية بيعت لابن رواحة بثلاثة آلاف مثقال ومساحتها ثمانمائة « مرجع »[2]؛ وبلغ ثمن ما بيع من أراضي ابن سفيان ــ في العصر الموحدي ــ أربعة وعشرين ألفاً سوى ما أغفل ولم يكتب، وبعد ذلك جعل في أملاكه الباقية وكيلاً للفقراء[3] فلا غرابة بعد هذا أن تصدق بعضهم بقرية[4]، أو أن تكون الأرض مما يعتمد على دخله حتى كثر صداق النساء أرضاً[5] تزرع، وأن يستنكف شاعر كابن خفاجة أن يتكسب بشعره اعتماداً على ضيعة تفلح له[6]. ويبدو أن الاستقرار السياسي في البلاد الغربية رافقه ظهور الملكيات الكبيرة في العصرين المرابطي والموحدي[7].

وقد سبقت الإشارة الى أن أملاك الشخص الواحد قد تكون متفرقة في أماكن متباعدة، ويبدو أن الميراث ساعد على هذا التباعد بما فتت من ملكيات[8]، بيد أن « الشفعة » و « المعاوضة » قد تجمعان ما يفرق[9].

وإذا ألقينا نظرة على الملاّك نجد بينهم نساء ــ ملكت بعضهن أراضي كثيرة، وربما كان ذلك وراثة أو شراء[10] ــ كما نجد بينهم متصوفة[11]. وحرص أهل العلم على اقتناء الأرض مورداً للرزق، إما تعففاً عن العمل أو زهداً أو عجزاً عن

(١) ابن سعيد، **المغرب** ١:١٦٣.

(٢) **المن بالامامة** ٤٦٦.

(٣) **بغية الملتمس** ١٥٦-١٥٧.

(٤) مثاله في **المعيار** ٨:٤٥، ١١٧.

(٥) **المعيار** ٣:٢٩١، ٢٩٧ وما بعدها، ٤:٣ وما بعدها، ٦:٣٠٨ وما بعدها.

(٦) **التكملة** ١:١٤٣.

(٧) مثاله بنو عشرة فب العصر المرابطي؛ وأما عن العصر الموحدي فانظر ما يذكر عن الفهمي في مراكش (**الذيل والتكملة** ٥:١:٤٠٠) وابن حسان القضاعي في فاس (**المصدر ذاته** ١:٩٠) وبني بهلول في قسطيلة **الاستبصار** ١٥٧).

(٨) راجع أمثلة في **المعيار** ١٠:١٢ وما بعدها.

(٩) أنظر **المعيار** ٨:٥٧، ٦٤ وما بعدها، ٧٠، ١١٤، ١٠:١٣ وما بعدها.

(١٠) راجع عنهن **المعيار** ٥:٢١٣، ٦:١٣٨، ٧:٢٩٤، ٨:١٠٦، ١١٠، ٩:١٠٥، ٢٩٤، ٤٦٢.

(١١) أنظر **التشوف** ١١١، ١٣٣، ٤٣٣

الخدمة[1]. وربما كان الفقهاء أكثر الناس ملكية في الأندلس وهو أمر قديم. فقد كان ابن عباد قبل قيام دولته يملك ثلث كورة إشبيلية[2]. وكان ابن جهور أغنى أهل قرطبة « وأفحشهم ثراء »[3]. وحافظ الفقهاء على أملاكهم وأضافوا إليها الكثير بتحالفهم مع ملوك الطوائف، حتى ان بعض المعاصرين لهم رأوا في ذلك خراب الأندلس وأهلها[4].

وتحالف الفقهاء مع المرابطين منذ بداية ثورتهم، وما إشراكهم في الخمس إلاّ مظهر من مظاهر هذا التحالف. ولما فتح المرابطون الأندلس توثقت عرى الحلف، فعمل الفقهاء الذين كانوا مع ملوك الطوائف في الدولة الجديدة محتلين للمراكز الاساسية في الإدارة باستثناء الخطط العسكرية والسياسية الكبرى[5]، فازدادت ثروتهم. وسبقت الإشارة الى أملاك ابن المناصف التي كان المؤرخ ابن اليسع بين مصدق ومكذب لها حتى رآها رأي العين[6]. وما أن يتولى أحدهم قضاء موضع حتى تصبح له فيها الأموال العريضة[7]. وكان لبني طاهر نصف كورة مرسية لمّا تملكوها في فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين[8]. وجمع بعضهم خطتي القضاء والإدارة المالية. يقول ابن عذاري عن ابن زهر مع علي بن يوسف قبل نكبته أنه كان « يولي من قبله حاكماً يحكم من حاشيته، وصاحب المدينة من توليته، وشهود البلد بحكمه، وأمر المستخلص وأملاك السلطان جارية على نهيه وأمره بمدينة إشبيلية[9].

(١) راجع **معجم الصدفي** ١٧٠، **التكملة** ٢ :٨٧٨، **تحفة القادم** ١٢٦، **الذيل والتكملة** ١ :٣٣، ٢٣٤، ٤ :٧٠-٧١، **بغية الوعاة** ٢٦١.

(٢) **الذخيرة** ١ :١ :١١٦، البيان المغرب ٣ :١٩٥، **الحلة السيراء** ٢ :٣٧، **المرقبة العليا** ٩٤.

(٣) **الذخيرة** ٢ :٩١، **نفح الطيب** ٣ :٤٣٢

(٤) أنظر آراء ابن حزم وابن حيان في موقف الفقهاء هذا عند عنان: **ملوك الطوائف** ٤٠٤، ٤٠٦ وعن آراء ابن حيان انظر **البيان المغرب** ٣ :٢٥٤.

(٥) راجع الأسماء التي يذكرها حركات عن خطط المرابطين في **النظام السياسي** بالإضافة الى مكي: «وثائق تاريخية جديدة» ١١٤، **الذخيرة** (مخ بغداد) ق ٢ :١٥١-١٥٢، **القلائد** ١٧٥-١٨١.

(٦) ابن سعيد: **المغرب** ١ :١٦٣.

(٧) مثاله أبوبكر ابن حازم (ت ٤٩٦/١١٠٣) في بياسة (ابن سعيد، **المغرب** ٢ :٧٢).

(٨) أنظر Dozy, **Abbadidarum**, I, p.151، وراجع أيضاً الفصل الذي خصهم به غسبار رميرو في Gaspar Remiro, **Historia de Murcia Musulmana**

(٩) **البيان الموحدي** ٤ :٦٥.

ولم تقتصر الملكيات الكبيرة على عدد محدود من الفقهاء وإنما شمل ذلك جميع الأسر الكبرى التي عرفت بالعلم وشغلت خطة القضاء وما يلحق بها. ومما يلفت النظر أن كتب الرجال حين تترجم لأفراد هذه الأسر تحليهم بالأصالة والوجاهة والنباهة والجلالة[1]. فالجلالة يوصف بها ذو القدر الخطير، والنباهة تدور مع المال « لأنه منبه للكريم ويستغني به عن اللئيم »[2]. وبهذا المعنى وقعت في كتب التراجم. فالضبي يقول عن ابن سفيان انه من بيت جلالة ورئاسة وتقدم[3]، فأخذ ابن الآبار ترجمته عنه وغيّر هذه العبارة بأن قال « وكان من أهل الثروة واليسار، وبيته قديم النباهة[4] ». فانظر كيف استعمل الثروة والنباهة مترادفتين. والأصالة غالباً ما تعني ملكية الأرض؛ يقول ابن الأبار عن أحد بني سفيان هؤلاء: « ولسلفه أصالة، ما زالت أملاكهم بأيديهم »[5].

ومن مراجعة جدول الأسر المتصفة بهذه الصفات في المغرب في القرن السادس/ الثاني عشر[6] يلاحظ وكأن الملكية الخاصة في البلاد الأندلسية تدور في أيدي فقهائها. وقد نقم عامة الناس على الفقهاء سيطرتهم الاقتصادية هذه — خاصة تملكهم أراضي البلاد الأندلسية — عن ذلك الشاعر يعبّر ابن البني بقوله[7]:

أهل الرياء لبستمُ ناموسكم   كالذئب يدلج في الظلام العاتم
فملكتم الدنيا بمذهب مالكٍ   وقسمتم الأموالَ بابن القاسم
وركبتم شهب الدواب بأشهب   وبأصبغ صبغت لكم في العالم

(١) انظر الملحق رقم (١).

(٢) راجع مادتي نبه وجلل في **تاج العروس ولسان العرب**.

(٣) **بغية الملتمس** ١٥٦، ٤٠١.

(٤) **الحلة السيراء** ٢ :٢٦٧، **التكملة** ١ :٧٦

(٥) **المصدر الأخير** ١ :١٩٦.

(٦) راجع الملحق رقم (١)

(٧) **المعجب** ٢٣٥، وتنسب للابيض، **زاد المسافر** ٧١، **شرح مقامات الحريري** ١ :١٨٥، **نفح الطيب** ٣ :٤٤٨.

وعلى الرغم من هذه النغمة فقد سيطر الفقهاء الملاك على الدويلات المدينية التي ظهرت في الأندلس عقب انحلال الدولة المرابطية[1]. وربما نجد تفسير هذه الظاهرة في أن الناس لم يشغلهم وقتذاك إلاّ ما يقتاتون به، والعدو متربص بالأندلس كلها، وكان هؤلاء الفقهاء الملاك أقدر على تأمين القوت للناس. كما أن بعض الفقهاء كان يتحسس مشاعر الناس فيخرج لهم عن ماله[2]. وربما كان الباعث على سيطرة كبار الملاك هذه خشيتهم من ضياع أموالهم لما شاهدوا ما فعل الموحدون في البلاد الغربية ابان ثورتهم، فانقضوا على السلطة السياسية حفاظاً على ملكياتهم، فجاءت فترة الانتقال مثبتة لسيطرة الفقهاء الدينية والاقتصادية والسياسية. ولم تفلح الثورة الموحدية في اضعاف هذه السيطرة على الرغم من أنها قد جاءت في بداية الأمر ثورة على الفقهاء المالكية وما يمثلون. فما أن استقرت دولة الموحدين حتى بدأ الفقهاء المالكية بالتعاون مع الموحدين منذ أيام عبد المؤمن، وتنظيم «طلبة الحضر» خير شاهد على ذلك. وقوي نفوذ الفقهاء مع يوسف والمنصور الموحدين[3]. فشهد القرن السادس/الثاني عشر التعاون المستمر بين الفقهاء ــ وهم كبار الملاك ــ وسلطة الحاكمين من مرابطين وموحدين، وامتد نفوذهم السياسي والاقتصادي الى البلاد الغربية.

الأحباس (الأوقاف):

لم تهتم دول المغرب في القرن السادس/الثاني عشر بالأحباس، فلم توقف شيئاً. وانتقد ابن سعيد عدم اهتمام المرابطين والموحدين، مع عظمة سلطانهم، بالأوقاف[4]. ولعلّ الإشارة الوحيدة التي وردت عن حبس أوقفتها الدولة هي تلك التي تروي عن عبد المؤمن من أنه حبس أرضاً لعقب رجل زودهم بزاد في رحلة

(١) راجع ثوار فترة الانتقال في **المعجب** ٢١٩ وما بعدها و**أعمال الأعلام** (ط. ليفي) ٢٥٢ وما بعدها، وقابل أسماء المغتربين هؤلاء بأسماء أسر الملحق رقم (١) من هذه الدراسة.

(٢) أنظر ما فعله ابن المناصف وابن سفيان في كتاب ابن سعيد **المغرب** ١٦٣:١، و**بغية الملتمس** ١٥٦-١٥٧ على التوالي.

(٣) راجع موسى: «التنظيمات الحزبية» ٦٨، ٧٩ وما بعدها. وقد أصبح من الطبيعي أن ينعم الخلفاء الموحدون على الفقهاء بالأراضي (راجع **العطاء الجزيل** (مخ) ١٨).

(٤) **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٣٨:٤ق.

قفول ابن تومرت من المشرق[1]. وكانت أصول الأحباس من الملكيات الخاصة وحدها. وكان أغلب التحبيس للمساجد[2] والأولاد وعقبهم[3] والنساء[4] والمرضى[5] والشعراء[6]. ومع انتشار التصوف كثر التحبيس دلالة على الزهد والورع[7]. وأوقفت أحباس للحرمين في أواخر القرن السادس/الثاني عشر[8] في البلاد الغربية.

وكانت الأحباس منتشرة في أرجاء المغرب كله متخللة للملكيات الخاصة وأراضي الدولة[9]. ويبدو أن مساحاتها كانت واسعة. فكان دخل أحباس مسجد القرويين في ٥٢٨/١١٣٤ أكثر من ثمانين ألف دينار مرابطي[10]، وكان دخل أرض حبسها رجل واحد في شلب على الشعراء تغل مائة دينار مرابطية في العام[11]. وانتشرت أحباس المعاهدة في البلاد الأندلسية بأسرها حسب ما كشفت القضايا المترتبة عن تغريب المعاهدة الى البلاد الغربية في إمارة علي بن يوسف[12]. ويذكر الأدريسي أن أحباس كنيسة الغراب بين شلب وقصر أبي دانس تنتشر في غرب الأندلس كله[13].

(١) **المعجب** ٢٣١.

(٢) **المعيار** ٨٠:٧، ٩١ وما بعدها.

(٣) **المصدر ذاته** ٩٥:٧.

(٤) **المعيار** ٢٩٤:٧.

(٥) **المصدر نفسه** ٢٩٤:٧، ١١٥:٩.

(٦) **المعجب** ٢١٥.

(٧) أنظر أمثلة في **التشوف** ٣٧٣-٣٧٤، **الذيل والتكملة** ٦٨٩:٢:٥.

(٨) راجع ترجمة أبي العباس القنجاري في **برنامج شيوخ الرعيني** ١٥٤، **التكملة** ١١٧:١، **الذيل والتكملة** ٤٦:١، **العقد الثمين** ٦:٣.

(٩) أنظر وصف بسائط غرناطة في **الاحاطة** ١٣٢:١.

(١٠) **روض القرطاس** ٣٣-٣٤.

(١١) **المعجب** ٢١٥.

(١٢) **المعيار** ٣٩:٨ وما بعدها.

(١٣) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٨٠-١٨١.

ولا يجوز ـــ من حيث المبدأ ـــ تحويل أرض الأحباس عما وضعت له، وليس لأحد أن يدخل في حوزته شيئاً من منافعها[1]. والتزم المرابطون وفقهاء وقتهم هذه القاعدة، فلم يجوزوا أخذ مال حبس على مسجد لإصلاح آخر وإن كان على وجه السلف[2]، وقد أغرموا أميراً مرابطياً ما استلفه من مال حبس[3]. وللحفاظ على أموال الأحباس والتشدد في ذلك ذهبوا الى عدم جواز المعاوضة فيها[4]، أو المغارسة[5] إلا بحكم القاضي، مع أنهم وافقوا على المزارعة فيها[6]، لأن أجل المزارعة قصير ومدة المغارسة طويلة.

وترد إشارتان عن الفترة الموحدية يفهم منها أن الموحدين ضموا أموال الأحباس الى المخزن. أولاهما: لما ولي ابن هود محمد بن الحسن الذباهي (ت ٦٣١/١٢٣٤) قضاء غرناطة كلفه النظر في الأحباس واسترجاع ما ضمه الموحدون الى المخزن[7]. والثانية: قول ابن أبي زرع أن إصلاح مسجد القرويين في ٥٧١/١١٧٥-١١٧٦ تم من بيت المال[8] وأحباس مسجد القرويين كثيرة. ولا يمكن التعميم من هاتين الإشارتين. فربما كانتا حالتين فرديتين، إذ يرد ذكر للأحباس وعدم تسجيلها في زمام العامل[9]، مما يعني أن الأحباس كانت تعفى من الضرائب عند الموحدين، وتلك دلالة على احترامهم لها.

ويبدو أن الوكلاء على أراضي الأحباس كانوا يأخذون من دخلها دون وجه

(١) أنظر رسالة **ابن عبد الرؤوف** ٨٤، ورسالة ابن حمدين في **المعيار** ٧:٢٦٩ وما بعدها. وقد أصبحت هذه السياسة قاعدةً فقهية عليها يقاس مثل الذي فعله القاضي عياض بشان اسوار المسلمين (راجع **المعيار** ٥:٣٠٨).

(٢) **نوازل ابن رشد** (مخ) ٢٣، **المعيار** ٧:٩١-٩٢، وجوّزه بعضهم (راجع **المعيار** ٧:١٥٩).

(٣) أنظر نازلة تميم والي تلمسان في **التشوف** ٨٩.

(٤) **المعيار** ٧:٩٤.

(٥) **المصدر ذاته** ٨:١١٠.

(٦) **المصدر ذاته** ٧:٨٠.

(٧) **المرقبة العليا** ١١٣.

(٨) **روض القرطاس** ٣٤.

(٩) **التشوف** ٢٦١ والخبر عن أغمات.

حق فيردهم القضاة[1]. ويظهر أن بعض الناس كان يتحايل ليتملك بعض ما حبس فيكتريه لمدة طويلة قد تبلغ الخمسين عاماً[2]. ومع انتشار أرض الأحباس وسعتها فقد كانت لها حرمة في القرن الذي ندرسه على الرغم من الاضطراب السياسي والتعدي على الملكيات العامة والخاصة.

سياسة الدولة الزراعية:

شغل الناس في المغرب خلال القرن السادس/الثاني عشر ثلاث قضايا أساسية كانت ذات تأثير في الزراعة، وهي: الأمن والضرائب والري. وعلى قدر الجهد الذي بذلته دول المغرب لمواجهة هذه القضايا توقف وضع الزراعة فيه ـــ بالإضافة الى وضع الحياة العمرانية عامة.

الأمن.

كان الأمن خلال القرن الخامس/الحادي عشر مشكلة الزراعة الأساسية في بيئات المغرب الثلاث، فقد خرب العرب الهلالية المناطق الزراعية في البلاد الشرقية، وعجزت زناتة عن حماية السهول الزراعية من عدوان البدو وغاراتهم[3]، فعدمت الاقوات واتصلت المجاعات[4]. ولم تكن البلاد الأندلسية أحسن حالاً. فمنذ أيام ابن أبي عامر كانت الحروب بين مسلمي الأندلس ونصارى إسبانيا قائمة على انتساف الزروع[5] في مواسمها، واشتد ذلك أيام ملوك الطوائف[6].

(١) **روض القرطاس** ٣٣.

(٢) **نوازل ابن رشد** (مخ) ١٩و.

(٣) Terrasse, **Histoire du Maroc**, pp. 203-305.

(٤) عن البلاد الغربية أنظر **روض القرطاس** ٧٢، **جذوة الاقتباس** ٢٠٩، وعن البلاد الشرقية أنظر **عقد الجمان** (مخ) ٢:٥٠٨و، ٦٠ق.

(٥) أنظر أقوال ابن أبي عامر في **الاكتفاء** ٦٤-٦٥.

(٦) مكي: « وثائق تاريخية جديدة » ١٣٩-١٤٠، **التبيان** ١٠١، **الاكتفاء** ٧٨، **الروض المعطار** ٩٢، ٨٩.

فضعف الاعمار وخلت الديار[1]. ولم تُجْدِ الحصون التي شيدت نفعاً[2] إذ هجر الفلاحون قراهم إليها[3]. فماذا فعلت دول القرن السادس/الثاني عشر لمعالجة تلك الحال؟

كان الإخفاق حليف هذه الدول إلاّ ما حفظوا من أمن في البلاد الغربية، ولفترات متقطعة في البلاد الشرقية والأندلسية. فقد أخفق بنو باديس أيضاً في رد عدوان العرب الهلالية، فهجر الناس مزارعهم وبساتينهم ولجأوا لزراعة ما جاور المدن الحصينة أو ما في داخل أسوارها[4]، فعم الغلاء وأطبقت المجاعات الى أن احتل الموحدون المنطقة[5]. وليس هناك من استثناء على ذلك غير فترة حكم يحيى ابن تميم (٤٩٧-٥٠٩/١١٠٤-١١١٦) الذي ساس العرب فزرع الناس واتسعت زراعتهم[6]. وكان وضع بلاد بني حماد أفضل من بلاد بني باديس إذ نجح أولئك في رد غارات العرب الهلالية بأن قاسموهم غلات بلادهم مناصفة[7].

وفي عهد المرابطين يمكن التمييز بين فترتين: فترة استقرار ودور اضطراب وفتن. وقد انتهى الدور الأول في الأندلس عقب معركة اقليش (Ucles) ٥٠١/١١٠٨[8]، وفي البلاد الغربية مع قيام الثورة الموحدية في ٥١٥/١١٢١. وفي هذا الدور حفظ المرابطون السهول الزراعية في البلاد الغربية من غارات أهل الجبال والبادية بما شيدوا من حصون. وفي الأندلس نقلوا الصراع الى أرض

(١) **طوق الحمامة** ٩٤، **التبيان** ١٠١، **الحلة السيراء** ٢:٣٠، **أعمال الأعلام** (ط. ليفي) ٢٤٣-٢٤٤.
(٢) راجع عن هذه الحصون: **التبيان** ٨٩ وما بعدها.
(٣) أنظر نازلة وردت لابن رشد في **المعيار** ١:١٨٥-١٨٦.
(٤) **الكامل** ١٠:٥١، ٥٣، ١٢١، ١٧٩، ٢٩٨، ١١:٣١-٣٢.
(٥) **المصدر ذاته** ١٠:١٣٩، ٢٧٩، ١١:١٢٤-١٢٥، **عقد الجمان** (مخ) ٥٨و، ٦٠ ق حتى إعتمدت على صقلية في غلاتها (**الكامل** ١١:٩٠، ١٢٤-١٢٥) وكان ذلك من أسباب توجيه نورمان صقلية للصليبيين نحو الشام بدلاً من تونس حسب رواية ابن الأثير (**الكامل** ١٠:٢٧٣).
(٦) **وفيات الأعيان** ٦:٢١٤.
(٧) **المعجب** ٢٢٤-٢٢٥.
(٨) أنظر عنها أشباخ: **تاريخ الأندلس** ١٢٢ وما بعدها.

نصارى إسبانيا ناسفين لزروعهم حارقين لبساتينهم[1]، بيد أن الاستقرار في البلاد الغربية كان أكثر منه في البلاد الأندلسية، إذ نجح نصارى إسبانيا في ضرب جهات شرق الأندلس[2]، وبدأت الجيوش المرابطية تعتمد في ميرتها على البلاد الغربية[3] بعد أن كان اعتمادها في بداية الأمر على الأندلس[4].

وفي الدور الثاني كثرت غارات نصارى إسبانيا على جميع جهات الأندلس. وضعف المرابطون بقيام الثورة الموحدية عن ردّهم[5]. وبلغت غارات النصارى مداها مع حملة ابن رذمير[6]، فشغل المرابطون بأمر المدن دون البسائط، وكان جواز ابن رشد الجدّ حاثا لعلي بن يوسف للشروع في عمليات التعتيب لأسوار المدن[7]. ولم تثمر جهود تاشفين بن علي بين عامي ٥٢٣ و ٥٣١/١١٢٩ و١١٣٧ في حماية صيفيات الأندلس[8]. وازداد الضيق مع اشتداد ثورة الموحدين وقيام المنتزين وحروبهم الداخلية، ونصارى إسبانيا يعيثون في بسائط البلاد ويحتلون بعض المدن مثل جيان والمرية وبياسة. فأخفق الناس في حماية زراعتهم[9]. فالقرى تهجر ثم

(١) تقول احدى الروايات أن المرابطين أحرقوا في حملة واحدة احدى وستين قرية (**نظم الجمان** ١٤)؛ وانظر أمثلة أخرى في مكي: «وثائق جديدة» ١٥٧، **نظم الجمان** ١٣، **روض القرطاس** ٩٩، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، **البيان المغرب** ٤:٥٢، ٥٧، ٦٢، ٦٤.
(٢) أنظر عن **جيان الكامل** ١٠:٢٠٢ وعن سيطرة السيد على بلنسية (٤٨٥-٤٩٥/١٠٩٢-١١٠٢) **الذخيرة** (مخطوط بغداد) ٣:٣٠-٣١، **التكملة** ١:٤٢٢، ٢:٨٠٦-٨٠٧، **الاكتفاء** ١٠٣، ١٠٩-١١٠، **الكامل** ١٠:١٨٩، **البيان المغرب** ٤:٣٤-٣٥، ٣٧، ٤١، ٤٢، **نفح الطيب** ٤:٤٥٥.
(٣) راجع **مجموع الاسكوريال** رقم ٤٨٨:٧٣و، **البيان المغرب** ٤:٧٣، ٨٤.
(٤) أنظر أمثلة في **روض القرطاس** ٩٨، ٩٩، ١٠٠.
(٥) **المعجب** ٢٠٨.
(٦) Bosch Villa. **Lo Almorávides,** pp. 233-236;
Codera, **Decadencia,** pp. 13-16;
Dozy, **Recherches,** I, pp. 348-367.
مكي: «وثائق جديدة» ١٢٣-١٢٤. وعن غيرها انظر ابن العربي: **أحكام القرآن** ق٢:٩٤٣، **الكامل** ١٠غ٤٩٠-٤٩١، ٥٨٦، ١١:٣٤، **البيان المغرب** ٤:٦١، ٨٥، ٨٩، **روض القرطاس** ١٠٦.
(٧) مكي: «وثائق جديدة» ١٦٧.
(٨) عن أعمال تاشفين هويثي: «علي بن يوسف» والمصادر المذكورة.
(٩) **المصدر ذاته**.

تعمر ان ظهرت المجاعات[1] أو عقد صلح[2]. وكانت هذه الأوضاع من الدوافع الأساسية التي دفعت الأندلسيين لاستدعاء الموحدين ليحكموا الأندلس[3].

وفي البلاد الغربية توقفت الزراعة منذ خروج عبد المؤمن في حملته الطويلة الأعوام (١١٣٥/٥٢٩) التي انتهت بسقوط المرابطين، فكثرت المجاعات[4] وعمّ الغلاء[5]. فلا عجب بعد هذا أنْ جلا الناس عن البلاد الشرقية والأندلسية الى البلاد الغربية لاستقرارها ثم فرّوا عنها ابان الثورة الموحدية.

ولما قامت الدولة الموحدية أوْلَى أهلُها الزراعة عناية خاصة. فأمر عبد المؤمن أهل البلاد الغربية بالعودة الى أوطانهم وفلاحتها[6]. وكانت نظمهم العسكرية تقضي على الجند بأن يتجنبوا السير في الأرض المزروعة وبدرء أهل الفساد عن الزرع[7]. وتقول الروايات ان الزراعة قد اتسعت في المغرب كله وعم الرخاء والهناء أهله، خاصة في خلافتي يوسف والمنصور[8]. بيد أن فحص الأوضاع التي سادت أيام الموحدين توضح أن هذا قد يصح في البلاد الغربية الى نهاية القرن السادس/الثانية عشر[9] ولكنه لا يتفق وأوضاع البلاد الشرقية والأندلسية بحال.

لقد تعرضت زراعة البلاد الشرقية لأعمال تخريب من حين الى آخر بفعل ثورة ابن الرند في قفصة، وفوضى الأغزاز والعرب الهلالية أيام يوسف بن عبد

(١) أنظر ما يورده ابن القطان عن مجاعة قرطبة سنة ١١٤٢/٥٣٦.
(٢) أنظر عدة نوازل عن هذا في **المعيار** ٩٣:٧، ٩٧، ١٠٣-١٠٤.
(٣) **بيان موحد** ٣٠.
(٤) **نظم الجمان** ١٨٣، **بيان موحد** ١٣.
(٥) أنظر كيف ربط ابن خلدون بين الغلاء وحروب المرابطين والموحدين (**العبر** ٦ : ٢٣٠)، وكيف أن رواية مرابطية تعزو انحباس المطر عن مراكش لسفك عبد المؤمن دماء المسلمين(**عيونه التواريخ**) (مخ) ١٧ : ٧١و.
(٦) **نظم الجمان** ١٧٥.
(٧) **المصدر ذاته** ١٢٨.
(٨) أنظرها في **المن بالامامة** ٢٨٦، **بيان موحد** ٧٣ــ٧٤، ١٣٨، **روض القرطاس** ١٤٣.
(٩) أضطربت أوضاعها بعد العقاب فكثرت المجاعات؛ أنظر **بيان موحد** ٢٤٢، ٢٤٥، ٣٠٧ وما بعدها، **روض القرطاس** ٢١، ٣٩، ٤٦، ١٨١، ١٨٢، ١٨٧.

المؤمن[1]، وتحالف الأغزاز والهلالية مع بني غانية في خلافة المنصور[2] والناصر[3]. وجاراهم المنصور في التخريب عقاباً لهم ولمن شايعهم، وتقول الرواية ان المنصور نسف زروع قفصة وأشجارها[4]. واضطرّ الناصر ــ لما أحفق في حفظ الأمن والزراعة لسيطرة بني غانية وحلفائهم على السهول الزراعية كلها حتى وصلوا أحواز تلمسان[5] ــ أن يعطي الشيخ أبا حفص الهنتاتي سلطات استثنائية في البلاد الشرقية وأن يأمره بإشاعة الاستقرار « واتخاذ المحارث والاتساع في المزارع »[6]، فهدّأها فترة ولايته[7] (٦٠٣-١٢٠٧/٦١٨-١٢٢١).

ولم يختلف وضع البلاد الأندلسية عن البلاد الشرقية، فقد منيت بتخريب زروعها ــ خاصة حول قرطبة وغرناطة ــ نتيجة هجمات نصارى إسبانيا وحلفائهم بني مردنيش وابن همشك في خلافة عبد المؤمن وردحاً من أيام يوسف ابنه[8] حتى « لجأ محاول الفلاحة في قرطبة الى حرث منزله »[9]. وبالمقابل خرّب الموحدون شرق الأندلس ــ دار بني مردنيش ــ حتى عادت مزارعها « محتطباً ومتاعاً »[10]. ومع ضم بلاد بني مردنيش (١١٧٢/٥٦٧) حاول الموحدون نقل الصراع الى مناطق نصارى إسبانيا وتخريب زروعهم[11]. وبذلوا جهوداً في بناية

(١) **الكامل** ١١:٣٨٩، ٤٦٨، **المعجب** ٢٧١.
(٢) **الكامل** ١١: ٥٢٠ــ٥٢١، **بيان موحد** ١٤٦ وما بعدها، ١٥٧.
(٣) **بيان موحد** ٢١١ــ٢١٤، ٢١٨ وما بعدها، **العبر** ٦: ١٩٤ــ١٩٥.
(٤) **الكامل** ١١: ٥٢١-٥٢٢.
(٥) **بيان موحد** ٢٢٨ــ٢٣٠.
(٦) **المصدر ذاته** ٢٢٥.
(٧) **العبر** ٦: ١٩٦.
(٨) راجع **المن الامامة** ١١٥ــ١١٦، ١١٨، ١٢٧، ١٨٦، ١٨٨ وما بعدها، ٣٩٣ وما بعدها، **الكامل** ١١: ٢٨٣، ٢٨٤، **بيان موحد** ٣٨، ٦٧ــ٦٨، ٧٦، ٧٨ــ٩٠، ٨٢ــ٨٥.
(٩) **أعمال الأعلام** (ط . ليفي) ٢٦١.
(١٠) **المن بالامامة** ٢٨٢؛ وانظر أمثلة اخرى في **المن بالامامة** ٢٠١، ٢٧٣ وما بعدها، **الكامل** ١١: ٣٥٨، **بيان موحد** ٥٣، ٦٧ــ٦٨، ٨٧.
(١١) أنظر **المن بالامامة** ٤٥٢، ٤٦٢، ٤٨٩، ٤٩٢، ٤٩٣، **المعجب** ٢٥٧، ٢٨٣. **الكامل** ١١: ٣٩٠، ١٢: ٥٧ــ٥٨، ١١٥ وما بعدها، **بيان موحد** ٩٦ــ١٩، ١٠٣ــ١٠٥، ١١٧، ١٠٢، ١٣٢ وما بعدها، ١٧٨ وما بعدها، ١٩٢ــ١٩٩ **روض القرطاس** ١٣٨ــ١٤٠، ١٤٤، ١٥١.

الحصون حمايةً للبسائط[1] وتجديد مدن خربت وزراعة أرضها، كما فعلوا في باجة سنة ١١٧٤/٥٧٠[2]، وإرسال البعوث حماية للصيفيات[3]. ولم يجدِ كل ذلك نفعاً، فظل النصارى يضربون جهات الأندلس كلها[4]. ومما يدل على عدم استقرار الزراعة في الأندلس أن الميرة ظلت ترد إليها من البلاد الغربية[5]، وكان انعدام الأقوات من أهم الأسباب في إخفاق عدد من أعمال الموحدين العسكرية في الأندلس[6] مع حرص الخلفاء على توفيرها[7]، إذ كانوا يضطرون إلى إبرام الصلح رغبة في تحسين التجارة والزراعة[8]. ونتيجة لهذه الحروب، تقلصت مساحات الزراعة في شرق الأندلس وغربيها وفي قرطبة وبياسة وبطليوس[9]. وهكذا ظل الاعتماد على الزراعة في البلاد الغربية كما كان الحال أيام المرابطين.

الضرائب

يقول ابن خلدون أن الدولة سواء قامت على سنن العصبية أو الدين، تكون قليلة الضرائب كثيرة الجباية في أول عهدها لأن الرعايا ينشطون للعمل فيكثر الاعتمار. وعندما تنتقل الدولة الى الترف تكثر الضرائب، فيثقل ذلك على الناس، فيقل الاعتمار وتنقص الجباية ولا يكون ذلك إلا تدريجياً، فإن « أقوى الأسباب في الاعتمار تقليل مقدار الوظائف على المعتمرين ما أمكن »[10]. فكأن

(١) بيان موحد ١٠٣.
(٢) المصدر ذاته ١٠٥ــ١٠٧.
(٣) المن بالامامة ١٨٢، ١٨٦، ٢٥١، ٢٦٩ وما بعدها، العطاء الجزيل. الزوائد (مخ) أوــ٣ق.
(٤) المن بالامامة ٥١٨ــ٥٢٢، المعجب ٢٨٠، ٢٨٢، بيان موحد ١٠٠ــ١٠٣، ١٠٧ــ١٠٨، ١١٠ــ١١٣، ١١٨ــ١١٩، ١٢٧، ١٧٥، ١٨٦، روض القرطاس ٤٤٤، ١٤٥، ١٥٤، ١٧٩.
(٥) المن بالامامة ١٨٢، ٢٠١ــ٢٠٢، ٢١٤، ٥٢٥، بيان موحد ٤٩، ٨٤، ١٢٧.
(٦) الكامل ١١: ١٥٧، بيان موحد ٩٦-٩٧، ١٨٠.
(٧) بيان موحد ١٣٤، ١٩٢، المن بالامامة ٤٩٨.
(٨) أنظر الروض المعطار ٤٦، ٥٩؛ وانظر مساجلة ابن عياش وابن حريق في الذيل والتكملة ٥: ٢: ٦٤٥.
(٩) العطاء الجزيل: الزوائد (مخ) ١ــ١١، حيث يورد رسالة موحدية.
(١٠) العبر ١: ٢٧٩ــ٢٨٠.

ابن خلدون في هذا قد كان يستقرئ سياسة المرابطين والموحدين الضرائبية، فما هي سياستهم وكيف أثرت على الزراعة وأحوالها؟

لا تذكر المصادر شيئاً عن الضرائب الزراعية في بلاد بني باديس، مما يؤكد ما ذهبنا إليه سابقاً من أن الزراعة قد توقفت وسلطة الدولة قد تقلصت. وكانت أوضاع الملاك والزراع قاسية في ظل حكم بني حماد. فالعرب الهلالية مشاركون للناس في غلاتهم مناصفةً، وبنو حماد يجبون منهم خراجاً أسقطه الناصر بن علناس عن أهل بجاية لما أسسها لتعمر[1].

وفرضت زناتة في البلاد الغربية قبل قيام المرابطين ما شاءت من ضرائب، وتميزت جباية هذه الضرائب بالعنف والقسوة[2]. وضيّق ملوك الطوائف على أهل الأندلس بما فرضوا من ضرائب فادحة[3]. من جزية على رؤوس المسلمين مشاهرةً، وضرائب سنوية على الغنم والبقر والدواب والنحل تفوق ثمن أصولها[4]. هذا بالإضافة الى ما أسماه ملوك الطوائف بالمعونة، يفرضونها متى شاؤوا، كلما ضيق عليهم صاحب طليطلة (الأذفونش) بطلب الجزيات السنوية التي فرضها عليهم[5]. فاستقصوا كل هذه الأنواع بالعنف، « فضعف الاعتمار وخلت الديار »[6].

وكان الزرّاع أكثر الناس تأثراً بهذه الإجراءات الضرائبية، لأن حياة المغرب تقوم أصلاً على الزراعة، حتى ان ابن عبدون يقول: « فالفلاحة هي العمران... وببطالتها تفسد الأحوال وينحل كل نظام »[7]. وكانت هذه الأوضاع سبباً في

(١) زبدة التاريخ (مخ) ٣: ١٠.
(٢) نظم الجمان ٣٣، روض القرطاس ١٠٠.
(٣) الذخيرة (مخطوط بغداد) ٣: ٤
(٤) الرد على ابن النغريلة ١٧٦، أ. Asin palacios Al Andalus 1934, P: 37
(٥) التبيان ٧٦، ٧٧، الذخيرة (مخطوط بغداد) ٢: ١٠٣، روض القرطاس ١٠٠.
(٦) أعمال الأعلام (ط. ليفي) ٢٤٤.
(٧) رسالة ابن عبدون ٥.

فتح كثير من حصون البلاد الغربية أبوابها للمرابطين، واستدعاء الأندلسيين لهم « ايثاراً للحرية »، لما شاع عن المرابطين من رد للمظالم وقطع للمغارم، وأنهم كانوا لا يأخذون إلاّ الزكاة والعشر[1]. فظهر المرابطون بمظهر المنقذ في البلاد الغربية والأندلسية[2]. وتوضح بعض الروايات ذلك فتقول بأن المرابطين التزموا الشرع، فأخذوا الزكاة والعشر والغنائم وجزيات أهل الذمة[3]. فالزكاة ربما تعني زكاة الفطرة، بينما قد يعني « العشر » ـ الذي يرد أحياناً بصيغة الأعشار أو العشور ـ زكاة المحاصيل والثمار، لأن نوازل الفترة المرابطية تستعمل هذا المصطلح بهذا المعنى[4]. فهل التزم المرابطون هذه السياسة الضرائبية طوال حكمهم، أم ان تبدلاً قد طرأ عليها؟ ومتى كان هذا التغير، وما هي أسبابه، وما هو نوعه؟

تقول إحدى روايات ابن أبي زرع الفاسي أن الفترة المرابطية لم يفرض فيها خراج ولا معونة ولا تقسيط ولا مكس ولا وظيفة، لا في بادية ولا في حاضرة[5]. وفي رواية ثانية ان هذه السياسة اتبعت في إمارة يوسف بن تاشفين وحده[6]. وتذكر رواية ثالثة أن الضرائب فرضت في أيام علي بن يوسف لما ثار عليه ابن تومرت[7]. والى شيء من الرواية الثالثة يذهب عبد الواحد المراكشي حين يذكر الخراج في أيام علي بن يوسف دون أن يبيّن متى فرض ذلك[8].

واكتفى الدارسون المحدثون من هذه الروايات المتناقضة بأن قالوا بأن الضرائب

(١) التبيان ١١٩ـــ١٢٠، ٣٤٠ـــ٣٤١، Pidal, **The Cid and his Spain,** p. 222 وقد شاع عن المرابطين ذلك في المشرق مع الحجاج (أنظر ما أورده ابن العربي في مفاخر البربر (مخ) ١٢٢).

(٢) Pidal, **The Cid and His Spain,** p.295

(٣) البكري، **المغرب** ١٦٤، **التبيان** ١٢٧، **روض القرطاس** ٨٨، ١٠٨، **جذوة الاقتباس** ٣٤٢.

(٤) **المعيار** ٥:٢١٣، ٧:٤٥، وبهذا المعنى استعمله ابن عبدون راجع **رسالة ابن عبدون** ٣.

(٥) **روض القرطاس** ١٠٨.

(٦) **المصدر ذاته** ٨٨.

(٧) **المصدر نفسه** ١٠٨.

(٨) **المعجب** ١٧٧.

كانت قليلة[1]. ولكن رأي الدارسين هذا لا يمثل إلاّ أوائل الفترة المرابطية أو فترة يوسف بن تاشفين وحده. ويبدو أن هذه الضرائب الشرعية لم تعد تفي بالتزامات الدولة العسكرية في الأندلس[2]، لا سيّما مع تقلّص أراضي الملكية العامة، ثم عيشة الترف التي بدأ المرابطون يحيونها. وأغلب الظن أن هذا التطور بدأ في أواخر إمارة يوسف بن تاشفين. فقد كتب الطرطوشي الى يوسف قائلاً: « وقد بلغني أنك استأثرت على المسلمين بالحظ الوافر من حطام الدنيا وزخرفها، فلبست الناعم، وأكلت اللين، وتمتعت بلذاتها وشهواتها »[3]. وأراد يوسف أن يفرض « المعونة » على الناس وعارضه فقيه المرية وقاضيها ابن الفراء، إلا إذا حلف في حضرة العلماء، بأن بيت المال خال من الدرهم ولا يملك هو شيئاً[4]، ولا نعلم أنه فعل ذلك. ولا ندري أفرض المعونة أم لم يفرضها، ولكن الحادثين يوضحان أن المشكلة المالية بدأت منذ أيام يوسف بن تاشفين نفسه.

ويبدو أن الأزمة المالية قد تفاقمت في إمارة علي بن يوسف، وما قضية مراجعة الملكيات الخاصة إلاّ مظهراً من مظاهرها. وليس بمستغرب أن تشهد الدولة المرابطية أزمة مالية عنيفة منذ أوائل إمارة علي بن يوسف، فمنذ موقعة أقليش (٥٠١/١١٠٨) بدأ معين الغنائم ينضب، واشتدت سيطرة النساء المرابطيات على الأموال[5]، لا سيّما وأن النظام الاجتماعي المرابطي كان يقوم على

(١) أنظر Dozy, **Histoire, IV,** p. 258، أشباخ: **تاريخ الأندلس** ١:١١٩، **قيام دولة المرابطين** ٤١٠، وربما دعاهم الى هذا القول أن يوسف لما توفي ترك في بيت المال « ثلاثة عشر ألف ربع من الورق، وخمسة آلاف وأربعين ربعاً من دنانير الذهب » (**روض القرطاس** ٨٨، **السعادة الأبدية** ٢:٨٩).

(٢) هذا مع العلم بأن المرابطين مالكية متشددون في ذلك، ومذهب مالك فيه توسعة على الدولة بشأن الزكاة، اذ تجب على المالك بشرطين: الاسلام والحرية، وبهذا فهي عنده واجبة على اليتامى والمجانين، بينما يشترط أبو حنيفة بالاضافة الى ذلك البلوغ والعقل أنظر **رسالة ابن عبد الرؤوف** ٧٨.

(٣) **مفاخر البربر** (مخ) ٣٧، ويرجح عباس أن هذه الرسالة حملها أبو بكر ابن العربي بعد وفاة والده في سنة ٤٩٢/١٠٩٩ أو ٤٩٣/١١٠٠ أنظر عباس: « الجانب السياسي من رحلة ابن العربي الى الشرق » ٢٣٠.

(٤) **وفيات الأعيان** ٧:١١٨-١١٩.

(٥) **المعجب** ١٧٧، ١٨٦ حيث يقول المراكشي « واستولى النساء على الأموال، وأسندت اليهن الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة، مشتملة على كل مفسد شرير وقاطع سبيل وصاحب خمر ومأخور ».

الأمومة طبقاً لما يقتضيه المثل الأعلى البربري[1]. فلجأ علي بن يوسف الى فرض الضرائب، وربما كان ذلك في أوائل حكمه وليس مع خروج الموحدين عليه، فإننا نعلم أن أبا عبدالله ابن حمدين (ت ٥٠٨/١١١٤-١١١٥) ــ أي قبل ثورة الموحدين بكثير ــ قطع الضرائب والمعاون عن أهل قرطبة[2]، مما يشير إلى أنها كانت قد فرضت عليهم في أوائل حكم علي بن يوسف؛ وفي سنة ٥١٥/١١٢١ أغرم علي بن يوسف أهل فاس مالاً أن مَنّ عليهم قائلاً: « فما شبعتم الخبز إلاّ في أيامنا ولا كسبتم المال إلاّ في دولتنا » بعد أن ذقتم من زناتة الأهوال[3]؛ وكان أهم ما هاجم ابن تومرت المرابطين به حين ثار عليهم، هو أنهم أحدثوا المغارم، وفرضوا المكوس، وأكلوا السحت والحرام، وفرضوا على الناس ما لم يوجبه الشرع[4]. وكان عبد المؤمن خلال ثورته وبعد فتح مراكش يشدد على قطع كل هذه البدع المستحدثة[5].

ولا ريب في أن الأزمة المالية اشتدت مع قيام الثورة الموحدية التي ضاعفت من التزامات الدولة العسكرية وساعدت على توقف الزراعة، وما رافق كل ذلك من جدب حتى جفت الأرض، وقلت المجابي، وكثرت الضرائب على الرعايا في العدوتين[6]، فخلا بيت المال « حتى رجع أكثر أجناده (أي علي بن يوسف) يكرون دوابهم »[7]. وأصبحت الدولة تقسط على الرعايا في العدوتين عدد الجند الذي يصد عدوان نصارى إسبانيا بسلاحهم ونفقاتهم[8]. واتبع التقسيط ذاته في

(١) ليفي بروفنسال: **الاسلام في المغرب والأندلس** ٢٩٩.

(٢) **نظم الجمان** ١٨.

(٣) وردت ضمن قطعة في **نظم الجمان:** ٣٣ فظن مكي أنها من كلام ابن تومرت مع أن المضمون واضح الدلالة أنها لأمير مرابطي، وقد يكون ابن تومرت استشهد به لتوضيح ظلم المرابطين.

(٤) **أعز ما يطلب** ٢٦١.

(٥) راجع رسالة العدل في **نظم الجمان:** ١٥٦-١٥٧، ١٥٨.

(٦) **بيان موحد** ١٣.

(٧) **البيان المغرب** ١٠٢:.

(٨) مثاله فاس سنة ٥٢٣/١١٢٩ راجع **نظم الجمان** ١٠٩.

بناء أسوار المدن في الأندلس[1] لرد النصارى عنها، وفي البلاد الغربية[2] لرد الموحدين، حتى ان جامعاً كالقرويين في فاس ــ على كثرة أحباسه ــ لم يستطع المرابطون ترميمه والزيادة فيه سنة ٥٢٣/١١٢٩ إلاّ بسياسة التقسيط هذه[3].

وإذا حاول المرء معرفة أنواع الضرائب التي فرضت، وإلى أي مدى أثرت على الزراعة، يجد أن المصادر تستعمل مصطلحات عدة في شيء كثير من الترادف مثل: المكوس والقبالات والمعاون والمغارم واللوازم والوظائف السلطانية بمعنى الضرائب عامة[4]. ويستوقف الدارس في هذا الاستعمال أربعة أمور:

١ - أن المكس لا يستعمل إلاّ في الضرائب على التجارة. كما أن القبالة قد تستعمل أحياناً في الضرائب على السلع، والحديث عنها في التجارة أولى، ولكن مثل هذه الضرائب التجارية لها تأثير على المزارعين كبير، ذلك لأنهم يبيعون سلعهم في الأسواق[5].

٢ - والقبالة قد ترد بمعنى كراء الأرض[6]، وقد وردت في نوازل الفترة المرابطية بهذا المعنى[7]. فربما زاد الملاّك كراء أراضيهم فأضر ذلك بالزرّاع ضرراً بليغاً، وهذا الأمر هو الذي دفع ابن عبدون الى حملته الشديدة على المتقبلين، فجعلهم شر أهل الأرض[8]. وربما جارت الدولة المرابطية الملاّك

(١) وسمي هذا التقسيط في الأندلس بالتعتيب، أي أن يدفع أهل كل بيت قدراً من المال لبناء جهة السور التي فيها منزلهم؛ أنظر عنه **نظم الجمان** ١٩١ ومناقشة عنان للقضية ومصادره في ذلك: **عصر المرابطين والموحدين** ١:١١٤-١١٦.

(٢) عن فاس راجع **نظم الجمان**: ٢٢٦، وعن مراكش **بهجة الناظرين** (مخ) ٢٩.

(٣) **نظم الجمان** ٢٢٦؛ وانظر عن ضعف المجابي لما أراد علي بن يوسف بناء سور مراكش **بهجة الناظرين** (مخ) ٢٩.

(٤) أنظر مؤنس: **وثائق تاريخية** ١٧٢، **التشوف** ٤٤٦، **نوازل البرزلي** (مخ) ١٥٧و، **العبر** ١:١٤٢، ٢٧٩-٢٨٠، **المعيار** ٦:٣٤٢، ٧:٤٥، ٩:٤٢٣-٤٢٤، ٤٢٧، Dozy, **Supplément**, II, pp. 192, 210.

(٥) **العبر** ١:٢٧٩.

(٦) Dozy, **Supplément**, II, p. 192

(٧) **المعيار** ٨:١٠٦، ١٦٨، ١٨١.

(٨) **رسالة ابن عبدون**.

في ذلك فزادت كراء أراضيها نتيجة أزمتها المالية، فإن هذا يفسر الهجوم العنيف الذي وجهه الموحدون الى القبالات[1].

٣ – والمغارم قد ترد بمعنى آخر غير معنى الضرائب، حتى في مثل هذه الحالات اتصفت المغارم في إمارة علي بن يوسف بالتعدي على حقوق الناس، حتى ان وزير يحيى بن فانو أغرام رجلاً ألف مثقال في نعامة[2].

٤ – أن المعونة أو الوظيفة في الأصل ضريبة يفرضها الأمير على رعاياه للقيام بواجب الجهاد إن كان بيت المال خالياً من الأموال — وقد سبقت الإشارة الى ما جرى بين ابن تاشفين وبين ابن الفرّاء؛ غير أن الشاطبي سمى المعونة في الحالة ذاتها « خراجاً » وجعلها من المصالح المرسلة[3]. ويبدو أن المسلمين المغاربة كانوا يسمونها خراجاً مضروباً على الأرض[4]. وبذلك يمكن أن نفهم رواية المراكشي حين يقول بأن الخراج كان يجبى في ايام علي بن يوسف[5]، كما أن هناك عدة نوازل عن الوظائف بمعنى الخراج المضروب على الأرض في أيام ابن رشد[6]. وتذكر رواية للتادلي وظيفة مثل ذلك على رعاة في قرية تاجنيت من تادلا[7]، مما يشير الى أن الخراج كان مضروباً على الأرض والماشية. وهناك إشارة عن خراج أرض أهل الذمة الخراجية[8].

والمصادر لا تسعف في توضيح مقدار الخراج من هذا النوع، غير أن الوظيفة على قرية في الأندلس كانت خمسين ديناراً، ونصيب أحدهم أربعة

(١) **نظم الجمان** ١٥٦.
(٢) حدث ذلك في اجرسيف حينما مر بها ابن تومرت في رحلة القفول (**أخبار المهدي** ٦٢).
(٣) **الجواهر المختارة** (مخ) ٦٥:٢، وأورد المؤلف ذلك في سياق خبر طلب يوسف للمعونة وقال ان هذا هو رأي الغزالي في **المستصفى** (**المصدر ذاته** ٦٦:٢).
(٤) وردت نازلة على ابن رشد وصاحبها يدفع خراج أرضه للسلطان (**المعيار** ٤٠٩:٩).
(٥) **المعجب** ١٧٧.
(٦) أنظر **نوازل البرزلي** (مخ) ١٥٧و، **المعيار** ٣٤٢:٦ وما بعدها.
(٧) **التشوف** ٤٤٦.
(٨) **المعيار** ٤٠:٨.

دنانير[1]. وكانت وظيفة رعاة تاجنيت مائتي دينار[2]. كما أن الخراج هذا قد يوزعه عامل السلطان أو أهل القرية بينهم على الرؤوس أو على قدر الأموال[3]. ولا ريب في أن توزيع الوظائف على الرؤوس يفتح باب تحيّف القوي على الضعيف. وكانت هذه الوظائف تجمع سنوياً[4].

من كل هذا يتضح أن المرابطين وإن تقيدوا بأخذ الزكاة فطرة وعشراً من المسلمين، وأخذ جزيات من أهل الذمة، واكتفوا بالغنائم في بداية أمرهم — فقد اضطرهم تبدل الأحوال الى فرض ضرائب جديدة وبخاصة في أوائل إمارة علي بن يوسف، والخراج جزء من هذه الضرائب. ويبدو أن عبء الضرائب هذه كان السبب الرئيسي في ثورة الموحدين، لأن المصامدة كانوا أهل زراعة وديارهم كانت منطقة الاستقرار وقتذاك فتأثروا بالضرائب الجديدة أكثر من غيرهم. وكان ابن خلدون قد نظر الى هذا حين قال: « فإذا رضيت القبيل بالمغارم في ربقة من الذلّ فلا تطمعن لها بملك آخر الدهر »[5]. ويظهر أن ابن تومرت نفسه قبل أن يذهب الى إيجيليز — حيث بدأ ثورته — نزل تامدغوست وبنى داراً ومخزناً[6]، مما يوحي بأن الرجل أراد أن يرتبط بالأرض زارعاً مثل بقية المصامدة أهله، فشعر بتذمر الناس واستغلّه.

ولا يستبعد أن هذه الضرائب — لا سيّما الخراج — كانت من أسباب ثورات فترة الانتقال في الأندلس، لما ضعف أمر المرابطين مع قيام الثورة الموحدية، وبخاصة أن قواد هذه الثورات كانوا من الفقهاء، وهم كبار

(١) **المعيار** ٣٤٢:٦.
(٢) **التشوف** ٤٤٦.
(٣) **نوازل البرزلي** (مخ) ١٥٧و، **المعيار** ٣٤٢:٦، ٤٢٣:٩-٤٢٤، ٤٢٧.
(٤) استنتاجاً من رواية ابن الأثير أن مماليك علي بن يوسف كانوا يصعدون جبل درن كل سنة « ويأخذون مالهم فيه من الأموال المقررة » (**الكامل** ٥٧٣:١٠، **وفيات الأعيان** ٥١:٥).
(٥) **العبر** ١٤٢:١، وفي الأصل « رأيت » بدلاً من « رضيت ».
(٦) **أخبار المهدي** ٧٢.

الملاّك. بل ان الثائر الوحيد الذي لم يكن من بيوت الأصالة والنباهة ــ وهو أحمد بن قسيّ ــ استغل سوء الوضع الضرائي في غرب الأندلس لما علمه من سوء وضع الملاك والزراع فيها، إذ ان أصله من بادية شلب، واشتغل في أعمال الجباية للمرابطين في شلب، فتقرب من العامة بأن خرج من ماله وتصدق به وتزمّد واتصل بزعيم المتصوفة وقتئذ ــ وهو ابن العريف صاحب « محاسن المجالس » ــ، « ثم ادعى الهداية مخرقةً وتمويهاً »[1]، وقام بثورة عرفت بثورة المريدين[2]. ويدل على وسائل ثورته وأسبابها قوله:

وما تدفع الأبطال بالوعظ عن حمى	ولا الحرب تطفي بالرّقى والتمائم
ولكن ببيض مرهفات وذبّل	مواردها ماء الطلى والغلاصم
ولا صلح حتى نطعن الخيل بالقنا	ونضرب بالبيض الرّقاق الصوارم
ونحن أناس قد حمتنا سيوفنا	**عن الظلم لما جرتم بالمظالم**[3]

ولئن نجحت ثورة ابن تومرت ومهديته، فلقد أخفقت ثورة ابن قسي ومهديته، وهذه مسائل ستعالج في خاتمة هذه الدراسة.

ولم تكن الضرائب وحدها سبباً في هذه الثورات، فالوسائل التي اتبعت في جَمْع الضرائب هيأت دواعي التذمر والثورة. فقد كان العمال الذين يجبون الضرائب الشرعية سوط عذاب سلط على ظهور الزرّاع. فأصحاب الأموال يدفعون أجر الخُرّاص الذين يخرصون الزيتون قبل آوان قطفه، وإن وقعت آفة فعلى صاحب المال، مما جعل ابن عبدون يقترح أن يسقط ربع الخرص تحسباً لمثل هذه الحالة، وأن يمنع الخرص منعاً باتاً إذ انه يقوم على الظن، وكثيراً ما أخذ المحصول عشوراً دون نصاب، فإن استحال قطعة فلا أقل من أن تتبع سنة أهل قرطبة الذين لا يخرصون المحصول « إلاّ في الفشقار بعد خروج ما يلزمه عند الحصاد »[4]. ولم يكن الخرص قاصرا على

(١) **الحلة السيراء** ٢:١٩٧، **أعمال الأعلام** (ط. ليفي) ٢٤٩.
(٢) من المؤسف أن أهم مصدر لهذه الثورة هو كتاب ثورة المريدين لابن صاحب الصلاة، وهو ضائع.
(٣) **الحلة السيراء** ٢:٢٠٠، والخط تحت البيت الأخير من وضعي. وتجدر الاشارة الى أن المظالم المرابطية في فترة علي بن يوسف لا ترد الا مقترنة بالضرائب وجباياتها.
(٤) **رسالة ابن عبدون** ٦.

الثمار ــ كما يرى الفقهاء ــ بل تعدّى ذلك الى الحبوب[1]، فأصبح الشرع في وادٍ والواقع في واد آخر.

وابتلي الزراع بالقُبّاض مثلما ابتلوا بالخراص. فالقباض لا يعدلون في الميزان ويأخذون من حقوق الناس ظلماً وعدواناً. فيصفهم ابن عبدون باللصوصية[2] والقسوة على الناس[3]، ويقترح أن يكون عمل الخراص والقباض تحت نظر القاضي حتى يردّهم عن الاثم والعدوان[4]. وغنيٌّ عن القول ان القضاة هم الملاّك غالباً.

ولما زادت الضرائب المفروضة في إمارة علي بن يوسف اشتدت قسوة الجُبَاة حتى هجاهم الشاعر بذلك[5]، وثار الفقيه المتطلع للسلطة مثل ابن تومرت، وتبعه عامل الجباية الذي أراد انتهاز الفرصة واستغلال التذمر لإحراز السلطان مثل ابن قسيّ. فلما شنّ ابن تومرت هجومه الفكري على المرابطين انتقى أحاديث تصف المرابطين بأنهم ذوو « أسياط كأذناب البقر يضربون بها الناس »، « ليست عند أحد سواهم »[6]. ومن عجز عن الهجاء أو الثورة استعان بدعاء المتصوفة على العمال الجائرين[7].

ومما ضاعف نقمة الناس على الضرائب وجباتها أن المرابطين أوكلوا الى اليهود جباية الضرائب في عدة مناطق في الأندلس[8]، وأسند علي بن يوسف الى جنده الرومي جباية البلاد الغربية وبخاصة جبل درن[9]، وأحياناً كانت توكل الى

(١) **المعيار** ٥:٢١٣.
(٢) **رسالة ابن عبدون** ٦-٧.
(٣) **رسالة ابن عبدون** ٦٩، Lévi-Provençal, **Séville musulmane**, p. 10
(٤) **رسالة ابن عبدون** ٧.
(٥) يقول ابن سهل عن المرابط:

تجلو الرعية من مخافة جوره	لجلائه اذ يلتقي الأقرانا

ابن سعيد، **المغرب** ٢:٢٦٨.
(٦) **أعز ما يطلب** ٢٦٠-٢٦١، **نظم الجمان** ٢٦.
(٧) **التشوف** ١٢٩-١٣٠.
(٨) أشباخ: **تاريخ الأندلس** ٢:٢٣٩.
(٩) **الكامل:** ١٠:٥٧٣، **وفيات الأعيان** ٥:٥١.

الجيش عامة[1]، فاستذلوا الأعراض في درن[2]، ومن عجز عن اداء الوظيفة صودرت أمواله[3]. فلا عجب أن هاجت المصامدة وثارت وتبعهم الأندلسيون[4]. ويبدو أن علي بن يوسف أراد أن يحدّ من نقمة الناس بمحاسبة عماله[5] في بعض الأحيان، وحثّهم على العدل في أحيان أخرى[6]. ولكن إجراءاته جاءت متأخرة[7].

وهكذا عانت مراكز الاستقرار المرابطي منذ بداية حكم علي بن يوسف مشكلة الضرائب التي أثرت على أوضاع الملاك والزراع، وما قلة المجابي إلاّ مظهراً لانحسار أراضي الزراعة أو التهرب عن دفع الضرائب؛ غير أن استخدام الجيش في الجباية ترك الزرّاع بين أمرين: ترك ما يزرعون، أو الثورة على الدولة، أو الأمرين معاً، وهذا الخيار الأخير هو ما فعله المصامدة في البلاد الغربية؛ أما في البلاد الأندلسية فقد كانت الثورات ثورات ملاّك فقهاء، ففي صراعهم على السلطة والانفراد بها، سعوا الى التعاون مع نصارى اسبانيا الذين أعانوهم لقاء مال التزم به الثائر المسلم، وحتى يستطيع الثائر المسلم أن يدفع جزية النصارى الأسبان التي فرضت عليه، كان يضيّق على الرعية ويتحيّفها بأنواع من المظالم[8]. ولقد

(١) مثاله في **التشوف** ٤٤٦.
(٢) **الكامل** ١٠:٥٧٣، **وفيات الأعيان** ٥:٥١.
(٣) مثاله في **التشوف** ٤٤٦.
(٤) يبدو أن يوسف بن تاشفين كان يعلم بأن الضرائب والقسوة في جبايتها لا تنفع مع المصامدة؛ وكان مما وصى به ابنه علي « ألا يهيج أهل جبل درن » (**الحلل الموشية** ٦٧).
(٥) أنظر مثلاً محاسبة عيسى بن الوكيل عامل الجباية في غرناطة (**البيان المغرب** ٤:٧٧، **الروض المعطار** ١٩٧).
(٦) أنظر خطابه الذي أرسله الى ابن فاطمة، ومنه يفهم أنه أرسله الى جميع الولاة (**البيان المغرب** ٤:٦٣)؛ وانظر رسائل أخرى عند مكي: « وثائق تاريخية » ١٨٣-١٨٥.
(٧) في سنة ١١٢٩/٥٢٣ تبيّن رسالة رسمية أن « عصائب المتظلمين تحتشد « في مراكش متظلمة من عمال اللوازم السلطانية الجارية في مالقة حتى اضطر علي بن يوسف لتفويض الوهيبي قاضي مالقة لتصفحها واسقاط ما لم يكن موجوداً من قبل ولا هو في مصلحة المسلمين (أنظر مكي: وثائق تاريخية ١٧١-١٧٣).
(٨) أنظر ما فعله أحمد بن حمدين في أندوجر ويحيى بن غانية في قرطبة (**أعمال الأعلام** (ط. ليفي) ٢٥٤)، وابن خميس في مالقة (**المصدر ذاته** ٢٥٥)، وابن عبد العزيز في بلنسية (**المصدر ذاته** ٢٥٦، **الحلة السيراء** ٢:٢١٢)، وابن مردنيش في مرسية، وقد بلغت الضريبة التي دفعها في أربعة أعوام لصاحب برشلونة مائة ألف مثقال حشمية (**أعمال الأعمال** (ط. ليفي) ٢٦٠).

فرض ابن مردنيش في المواشي والبقول والحبوب « معاون ثقيلة تقارب أصول الأثمان »[1]. ولعل الوحيد بين ثوار فترة الانتقال الذي اهتم بالزراعة وتوسيع نطاقها دون اللجوء الى فرض ضرائب جديدة هو أحمد بن محمد بن ملحان في وادي آش وبسطة، فقد أستعان بالفلاحة لإثراء موارد خزينته[2].

وتجدر الإشارة الى أن الموحدين في سياستهم الضرائبية توخوا انتهاج نظام ضرائبي واحد حتى نهاية القرن السادس/الثاني عشر، فقد هاجم ابن تومرت الضرائب التي استحدثها المرابطون، وركز عبد المؤمن ــ أيام الثورة وبعد قيام الدولة ــ على أن من في طاعة الموحدين « ... لا يطلبون إلاّ بما توجبه السنّة وتطلبه، ولا يلزمون ــ ومعاذ الله ــ مكسباً ولا مغرماً ولا قبالةً ولا سيّما مما تسميه الظلمة بأسمائها وتلقبه »[3]. والتزم يوسف والمنصور والناصر بهذه السياسة[4]، ولم يرد أن الموحدين قد فرضوا شيئاً مما انتقدوه على المرابطين إلاّ بعد هزيمتهم في العقاب[5].

ويبدو أن الموحدين خلال القرن السادس/الثاني عشر اقتصروا على الزكاة والعشور وأخماس المعادن والغنائم والخراج. فالزكاة قد تعني الفطرة، وربما أريد بالعشور زكاة الحرث والماشية[6]. وكانت الأولى تحت إشراف القاضي الذي يوزعها على مستحقيها[7]، بينما توضع الثانية في مواضعها وتقيد ضمن مصادر دخل

(١) المصدر ذاته ٢٦١.
(٢) المصدر نفسه ٢٦٤.
(٣) **رسائل موحدية** ٢١-٢٢، وانظر أيضاً **أخبار المهدي** ١٤٠، **نظم الجمان** ١٥٦-١٥٧، **المعجب** ٢٢٧، **روض القرطاس** ١٢٣.
(٤) راجع **المعجب** ٢٥٦، ٣١٠، **الكامل** ١١:٥٠٥، **بيان موحد** ٧٣، ١٠٧، ١٤٤، ٢١٩، **روض القرطاس** ١٣٥، ١٣٨، ١٤٣.
(٥) راجع كيف أن الرشيد ثم الواثق ألغيا المغارم واقتصرا على ما جرى عليه العمل في أول الدولة (**بيان موحد** ٢٨٤، ٤٥٥).
(٦) سبقت الاشارة لمناقشة هذه القضية مع المرابطين؛ وعن ذكر العشور متميزة عن الخراج مع الموحدين راجع **روض القرطاس** ١٥٢.
(٧) **بيان موحد** ١١٦.

الدولة[١]، وهذا ما جرى عليه العمل في أخماس المعادن والغنائم[٢]. غير أن الخراج يحتاج الى شيء من التوضيح وخاصة أن ابن أبي زرع يقول بأن عبد المؤمن قد فرضه في سنة ١١٦٠/٥٥٥ وهو قافل من غزوة المهدية حيث أمر « ... بتكسير بلاد أفريقية والمغرب... بالفراسخ والأميال طولاً وعرضاً، فأسقط من التكسير الثلث في الجبال والشعارى والأنهار والسبخات والطرقات والخروق، وما بقي سقط عليه الخراج وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق، فهو أول من أحدث ذلك بالمغرب »[٣]. وقد قبل الدارسون هذه الرواية في مجملها وخاصة تاريخ تسقيط الموحدين للخراج[٤] وتحفظ البعض في أن يكون عبد المؤمن أول من فرض الخراج في المغرب[٥]. فما هو الخراج الذي فرض، ومتى تمّ تسقيطه؟

يبدو أن رواية روض القرطاس هذه تخلط بين فرض الخراج وطريقة جبايته إذ ان ابن صاحب الصلاة ــ وهو معاصر للحَدَث ــ لا يذكر أن خراجاً قد فرض وقتئذٍ، بل يوضح أن عبد المؤمن قد واجه أزمة مالية سببها خيانة العمال المشرفين على المجابي[٦]، وهذا ما تؤكده رسالة عبد المؤمن الى طلبة بجاية في مطلع سنة ١١٦٠/٥٥٦[٧]. وعلى هذا فرواية روض القرطاس قد لا تعني إلاّ طريقة تقدير « الخراج » وجبايته على أسس قبلية في البلاد الغربية والشرقية؛ وكلمة الخراج هنا ربما تعني وظيفةً فرضها الموحدون من قبل.

(١) **رسائل موحدية** ٢١، **المن بالامامة** ٢٨٦.

(٢) عن أخماس المعادن أنظر فيما يلي فصل الصناعة: سياسة الدولة: الضرائب. وعن الغنائم راجع موسى: **تنظيمات الموحدين** ٣٢٣-٣٢٥ والمصادر المذكورة هنالك.

(٣) **روض القرطاس** ١٢٩.

(٤) أنظر Hopkins, **Med. Mus. Gov.**, 34-35; Huici, **Historia**, I, p. 193 أشباخ: **تاريخ الأندلس** ٥٧:٢، ٢٤٧، عنان: **عصر المرابطين والموحدين** ٣٧٧:١؛ وكنت قد تابعت هذا الرأي في دراسة سابقة: أنظر موسى **تنظيمات الموحدين** ٣٢٥-٣٢٦.

(٥) Hopkins, **Med. Mus. Gov.**, pp. 34-35.

(٦) **المن بالامامة** ١٧٧-١٧٩، **بيان موحد** ٤٤.

(٧) أنظر **أخبار المهدي** ١٤١-١٤٢ وخاصة ص ١٤٥.

وإذا أراد الدارس تحديد نوعية هذه الوظيفة، واجهته مشكلة كبرى لأن المصادر الموحدية أو التي أخذت عنها، سواء كانت مغربية أم مشرقية، تسمي كل ما يجبى خراجاً إلا الزكاة ــ فطرةً وحرثاً وماشيةً[١] ــ حتى ان ابن صاحب الصلاة يطلق هذا المصطلح على كراء الأسواق التي بنتها الدولة[٢]. ومن هنا فربما تشير لفظة الخراج هذه الى ما سبق وأسميناه بمشاركة الدولة أو الأراضي الخراجية العنوية أو الإقطاع الموحدي فيما فتح عنوة من أراضي، حيث ان المصادر لا تذكر شيئاً فرض سواه، وقد أعفوا منه من فُتِحَتْ أرضهم صلحاً كما اعفوا منه الصلحاء من أهل التصوف[٣]. ومما يؤكد أن الموحدين لم يفرضوا بعد المشاركة هذه ضرائب جديدة أنّ الدولة من المشاركة كان كبيراً. فقد كان يجمع عيناً ونقداً فالعين من الزرع يحفظ في المطامير في مواضعه لاستعمال الجيش في حال مروره في حملة عسكرية[٤] ثم يجمع في ساعة الحاجة في موضع واحد. ويدل على عظم كميته أن ابن صاحب الصلاة يصف تجميع الشعير والقمح في سلا والمهدية بأنه كان « كأمثال الجبال»[٥]، وكان عدد الخيل الواصلة في سنة ١١٦٩/٥٦٥ من أفريقية أربعة آلاف فرس ومن تلمسان ألف فرس[٦]. وكان المال الصامت من أفريقية مائة وخمسين حملاً[٧]، ومن إشبيلية مثلها[٨]، ومن تلمسان خمسين حملاً[٩]. ويبدو أن

(١) راجع **المن بالامامة** ٣٥٣، **بيان موحد** ٧٥، **روض القرطاس** ١٣٥، ١٥٢، **وفيات الأعيان** ٣٣١:٧، ٣٣٥، **نهاية الأرب** ٢٢١.

(٢) **المن بالامامة** ٤٨٥-٤٨٦.

(٣) **بهجة الناظرين** (مخ) ٥١.

(٤) أنظر **رسائل موحدية** ٢٢٦، **الكامل** ١١: ٢٤١، **بيان موحد** ١٥٨، ١٧٤، ٢٣٥، **روض القرطاس** ١٥٥، **نهاية الأرب** ٢١٠.

(٥) **المن بالامامة** ٢١٤.

(٦) **المصدر نفسه** ٤١٩، **بيان موحد** ٩٠.

(٧) **المن بالامامة** ٤١٩، **المعجب** ٢٥٥، **نهاية الأرب** ٢٢١.

(٨) **وفيات الأعيان** ١٣٥:٧.

(٩) **المن بالامامة** ٤١٩.

الحمل هو ما يحمله البغل الواحد[1]. هذا بالإضافة الى دخل الدولة من الأراضي الواسعة التي استصلحتها وزرعتها في مراكش ومكناس وفاس والمقرمدة وتازا[2]. وكان مبيع غلة أحد بساتين عبد المؤمن في مراكش عام ٥٤٣/١١٤٨ ثلاثين ألف دينار مؤمنية[3]، وبلغ ثمن زيتون بحيرة مكناس في العام الواحد خمسة وثلاثين ألف دينار، وبحيرة فاس خمسين ألف دينار[4].

من كل ما تقدم يمكن القول بأن الموحدين لم يكونوا في حاجة الى موارد جديدة عندما تنتابهم ضائقة مالية، بل كانوا في أشد الحاجة الى تنظيم الجباية، ومن هنا تتضح أهمية رواية صاحب روض القرطاس على اضطرابها. إذ يبدو أن عبد المؤمن، وقد واجه أزمة مالية وهو عائد من حملته الأفريقية، شرع في تنظيم الجباية «الخراجية» على أساسين: أولاً فرض الخراج على الأراضي الصالحة للزراعة، فلهذا اسقط الثلث مقابل ما لا يصلح للزراعة؛ ثانياً جعلت القبيلة الوحدة الأساسية لجمع الضرائب في البلاد الشرقية والغربية، وهذا يتوافق مع تنظيمات الموحدين ونظم دولتهم، التي قامت على التنظيم القبلي، وهو ما يتمشى وأوضاع المنطقتين بالمقارنة للبلاد الأندلسية، خاصة وأن الملكيات الفردية في الأندلس كبيرة متسعة بينما هي في البلاد الشرقية والغربية صغيرة متفرقة، وجمع الضرائب في مثل هذه الملكيات الصغيرة على أساس القبيلة قد ييسر أمر الجباية[5]. ولم يعدل الموحدون في أوقات الجباية في هذا التنظيم الجديد.

(١) الحمل هو ما تحمله الدابة مطلقاً و يستعمل بمعنى الكمية الكبيرة (Dozy, **Supplément**, I, p. 327) غير أن ابن خلكان نقلاً عن مجموع العماد بن جبريل استعمل بغلاً بدلاً من حمل (**وفيات الأعيان** ١٣٥:٧).

(٢) أنظر المنوني: **العلوم والآداب** ٢٤٠-٢٤١ والمصادر المذكورة.

(٣) **الحلل الموشية** ١٢١.

(٤) الروض الهتون ٧، وورد عند ابن فضل الله أن ثمن غلة بحيرة فاس في عام كان خمسة وأربعين ألف دينار (راجع **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤٣:٤ق، **صبح الأعشى** ١٥٧:٥).

(٥) قبائل البلاد الغربية كانت تتشارك حتى في الطعام، اذ يقدم كل منهم نصيبه فيه (راجع **كتاب الأنساب** ٢٦، ٣٨).

ورافق هذا التنظيم لجمع الخراج وضع سياسة متشددة مع عمال الجباية ومحاسبتهم. ولقد اهتم عبد المؤمن وخلفاؤه خلال القرن السادس/الثاني عشر بتعقب عمال الجباية ومحاسبتهم، فكانوا يسألون الرعية عنهم[1]، ويستدعونهم من بعد لمراجعة أعمالهم[2]، ويغتنمون فرصة مرورهم بمواطن العمال مجتازين في حملة عسكرية لتفقد سيرتهم في الناس[3]. فكثرت نكبة عمال الجباية لتقصير اكتشف أو لتشكي الناس منهم، وغدت هذه النكبات من أهم ظواهر العصر الموحدي في فترة الدراسة هذه[4]، الأمر الذي يؤكد أن الموحدين عزفوا عن فرض ضرائب جديدة، وجهدوا في تحسين طريقة الجباية وضبطها بمراقبة العمال وعدم إثقال كاهل الزرّاع، متوخين العدل، مترفقين بالناس، حتى ان الجيش الموحدي لم يستخدم في الجباية إلاّ بعد العقاب[5]. ويبدو أن هذه السياسة مع نظام الضرائب الثابت على نمط واحد كانا من دواعي تشجيع الناس على الزراعة والتعلق بالدولة الموحدية أن قام ثائر وفرض على الناس مغارم جديدة واشتد في جبايتها[6]. ولعل هذه النتيجة تؤكد ما ذهبنا إليه من أن ضرائب المرابطين كانت السبب الأساسي في قيام الثورة الموحدية، فلما نجحت ثورتهم أولى موضوع الضرائب نوعاً وتحصيلاً اهتماماً خاصاً.

وإذا نظر الدارس في خطة الإشراف على ضرائب القرن السادس/الثاني عشر يجد أن المصادر تستعمل ثلاثة مصطلحات وكأنها مترادفة، وهي صاحب

(١) **المن بالامامة** ١٧٨، ٤٢٠، **المعجب** ٢٨٥-٢٨٦.

(٢) **المن بالامامة** ١٨٢، ١٨٧، ٢٠٦، ٣٩٤-٣٩٥.

(٣) **المصدر ذاته** ١٧٨، **بيان موحد** ١٣١، ١٨١، ١٨٨، ٢٠٠.

(٤) راجع المصادر المذكورة في الجدول رقم ٢ الملحق بهذه الدراسة.

(٥) أنظر مثاله أيام الرشيد في **بيان موحد** ٢٩٨.

(٦) أنظر مثلاً كيف أن أهل البلاد الشرقية ساعدوا الناصر على استرداد المنطقة من بني غانية سنة ٥٩٥/١١٩٩ حين أغرم ابن غانية أهل قابس ستين ألف دينار وأهل تونس مائة ألف دينار وأهل نفوسة مائة ألف دينار (**العبر** ١٩٤:٦-١٩٥).

الأعمال والمشرف وصاحب الأشغال[1]. ولكن دراسة ما تورده هذه المصادر توضح أن هناك فروقاً بين المصطلحات من حيث المدلول واستعماله وتغيّره مع الزمن. فبينما لا ترد إشارة عن البلاد الشرقية في ظل صنهاجة الشرق، لا تشير الرسائل المرابطية والمصادر التي أخذت عنها مباشرة لمتولي هذه الخطة إلاّ بصاحب الأعمال[2]، وهذا ما جرت عليه عادة الموحدين في رسائلهم[3]. وعلى هذا يمكن القول بأن « الأعمال » هي المصطلح المرابطي والموحدي الرسمي لديوان الجباية. وتسمي المصادر الموحدية، عندما تشير الى الأندلس، والمصادر الأندلسية والمغربية المرينية عامة، صاحب الأعمال بالمشرف. والمشرف اصطلاح اندلسي كان يطلق على منْ يقوم بكل الواجبات والحقوق اللازمة عن الإيراد والإصدار للسلع[4] فأصبح يطلق في هذه المصادر على مسؤول الجباية الحافظ للأموال المتجمعة عنها الصارف لها في وجهها، وفدت دار الاشراف مركز هذا العمل ومحاسبة العمال القائمين عليه[5]، وهكذا أصبح مصطلح المشرف الأندلسي يطابق مصطلح صاحب الأعمال المغربي في القرن السادس/الثاني عشر.

وتجدر الإشارة الى أن ابن خلدون يذهب الى أن الموحدين أطلقوا على متولي هذه الخطة « صاحب الأشغال »، وأخذ الحصفيون عنهم ذاك[6]. ويبدو أن الرأي يصور تطوراً لاحقاً، إذ انه خلال القرن السادس/الثاني عشر كان عمل

(١) راجع مصادر الملحق الثاني وخاصة **أخبار المهدي** ٦٥، ١٠١، **المن بالامامة** ٤٦٧، **بيان موحد** ١٧، ١٩، ١١٢، ١٢٨، ١٤٠، ابن سعيد، **المغرب** ١:٢٤٩، **الحلة السيراء** ٢٣٥، ٢٣٦، **العبر** ١:٢٤٥، ٦:١٦٦.

(٢) أنظر مكي: « وثائق تاريخية جديدة » ١٨٣-١٨٥، **الذخيرة** (مخ) ١:٣:١٤٠، **قلائد العقيان** (القاهرة) ١١٣، ابن سعيد، **المغرب** ٢:١٦٣، ٣١٤، **نفح الطيب** ٢:٣٣٥، ٣٣٦.

(٣) أنظر التعريف الموحدي في **رسائل موحدية** (مخ الملكية) ٢٤.

(٤) **المن بالامامة** ١٨٧ ح ٣ والمصادر المذكورة هنالك.

(٥) عن الموحدية راجع **المن بالامامة** ١٨٧، ٢٠٤، ٤٦٧، ٤٧٦ وعن الأخرى أنظر **بيان موحد** ١٧٢، ٢٢٨، ٢٣٧، **الذيل والتكملة** ١:٢٩٤، **الاحاطة** (مخ) ٦٥، **نفح الطيب** ٣:٦١، ٥٣١، **التشوف** ٤٧٣-٤٧٤، **مناقب أبي العباس السبتي** (مخ) ١٩ ق.

(٦) **العبر** ١:٢٤١، ٢٤٥.

صاحب الأشغال هو الإشراف على ديوان العسكرية في الولايات[1]. وتشير الرسائل الموحدية في وضوح الى الاختلاف في طبيعة خطتي « الأشغال » و « الأعمال »[2]، حتى إذا جمعتا لشخص واحد بسبب مركزه الاجتماعي أو قدراته الإدارية أو نتيجة لحالِ الأمن في ولايةٍ ما، حرصت الرسائل على توضيح ذلك[3]. ولما أنشأ المنصور في سنة ٥٩٣/١١٩٦ ديواناً مركزياً للأشغال، حرص على عدم تدخل ذلك الديوان في أعمال الجباية[4]؛ غير أنه في خلافة الناصر أصبح صاحب الأشغال المركزي مسؤولاً عن « الأعمال » أيضاً[5] بعد أن كان هذا من اختصاص الوزير الموحدي[6]. ويبدو أن هذا الوضع الجديد هو الذي ورثه حفصيّو تونس، وإليه يشير ابن خلدون. والجدير بالذكر أن صاحب الأعمال أو المشرف حسب هذا المفهوم قد يدعى أحياناً بصاحب المخزن[7].

وتنظيم الإدارة المالية في القرن السادس/الثاني عشر أوضح عند الموحدين منه عند المرابطين بسبب اعتماد المرابطين على الجيش في الجباية، بينما حرص الموحدون على حماية الزراع وحفظ الأموال. ففي ديوان الجباية كتاب في جميع جهات الولاية الواحدة يقيدون المتحصل في أزمة وخرائط، ويضبطونها بالشهود، ويرفعونها الى الخليفة، فيختمها بخاتمه، مما ييسر محاسبة العمال على أعمالهم فلا يتعدون على الناس ظلماً ولا ينهبون أموال الدولة، وان فعلوا نكبوا[8]. هذا بالإضافة الى اهتمام الموحدين بنقل عمال الجباية من مكان الى آخر حتى لا

(١) **بيان موحد** ٦٨.

(٢) **رسائل موحدية** (مخ الملكية) ١٧، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٤، ٢٩، ٤٢، ٤٣، ٥٦.

(٣) أنظرها في **بيان موحد** ٦٧، ١٨٢، ٢١٤ واشارات اليها في **الذيل والتكملة** ٤:٢١٤، ٢١٩، ٢٢٥، ٢٣٧.

(٤) **بيان موحد** ٦٨.

(٥) راجع **بيان موحد** ٢٠١، ٢٢٧، ٢٣٧، **الغصون اليانعة** ١٥٠-١٥١، **الذيل والتكملة** ٥:١:١٨٠، **العبر** ٩:٢٤٩.

(٦) موسى: **تنظيمات الموحدين** ١٩٦ خاصة الحاشية رقم ٣.

(٧) **المصدر ذاته** ١٩٨ وما بعدها.

(٨) أنظر الملحق الثاني القسم الموحدي.

يتنفذوا ويتمكنوا. ويبدو أن هذا التنظيم كان من أهم دواعي الاستقرار الزراعي في العصر الموحدي كما سيجيء بيانه.

ومن هنا يمكن القول بأن نظام ملكية الأراضي والضرائب المفروضة على الأراضي والسياسة التي اتبعتها دول المغرب في القرن السادس/الثاني عشر جعلت البلاد الغربية هي مواطن الزراعة الأساسية وهذا ما تؤكده دراسة خطة هذه الدول في الري واستصلاح الأراضي وزراعتها ونظرتهم الى الزراع.

الري

لا تذكر المصادر شيئاً عن البلاد الشرقية في ظل صنهاجة الشرق، مما يؤكد تقلّص الأراضي الزراعية نتيجة الهجمة الهلالية. وتورد المصادر بعض إشارات عن المرابطين تدل على أنهم اهتموا بالري في البلاد الأندلسية وأولوه عناية خاصة في البلاد الغربية. ففي سنة ٥٣١/١١٢٧ شيد تاشفين بن علي نواعير على نهر قرطبة[1]. ودأب ابن هدية صاحب المستخلص على غرس الأشجار في مناطق المياه لتخفيف تبخرها[2]. أما في البلاد الغربية فمنذ إمارة يوسف بن تاشفين كانت سياسة المرابطين هي استحداث وسائل للري جديدة، ولقد قام المهندس الأندلسي عبدالله بن يونس بجلب المياه الى مراكش لزراعة بساتينها، واستخرجها بطريقة هندسية بحيث ترتفع من منخفض الأرض إلى أعلاها بغير روافع[3]. وواصل علي ابن يوسف سياسة والده هذه مستفيداً من خبرات المُعاهِدة الذين أجلوا عن الأندلس[4]. ويبدو أنه قد نجح في ذلك في منطقة مراكش حيث كثر استنباط المياه التي فرعت جداول[5]. ومع معرفة المرابطين بإقامة السدود لأسباب عسكرية[6]

(١) **نظم الجمان** ٢٢٨.
(٢) **الاحاطة** ١:٤٣٧-٤٣٨.
(٣) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٦٧-٦٨، ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٢٥.
(٤) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٦٨-٦٩.
(٥) أنظر وصف ابن القطان لمعركة البحيرة عام ٥٢٤/١١٣٠ (**نظم الجمان** ١١٩)؛ وعن تاريخها راجع Huici, **Historia** I, pp. 83-84
(٦) مثاله في **نظم الجمان** ١٣.

لا يرد ما يشير الى أنهم استفادوا من تلك المعرفة في أعمال الري.

وأغلب الظن أن هذه الجهود المرابطية قد توقفت خلال فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين[1]، ولكن ما أن استقر الأمر لهؤلاء حتى شرعوا في إكمال ما بدأه أولئك محاولين الاستفادة من تجارب العهد الروماني بالكشف عن آثار الري القديمة وتجديدها[2]، أو تقليدها في منطقة أخرى[3]، مستفيدين من خبرات المهندسين الأندلسيين مثل الحاج يعيش[4] وابن ملجان[5]. وفي العصر الموحدي لم تعد الخبرة الأندلسية المعتمد الوحيد، بل ان بعض أهل البلاد الغربية قد برزوا في هذا المجال حتى ان سيداً من بني عبد المؤمن علي بن عمر بن عبد المؤمن كان من أعلم الناس بأمور الري، وقد استفيد منه في غير موضع[6].

ولقد شهد العصر الموحدي جهوداً كثيرة لتوفير المياه سواء للشرب أو الزراعة، فاستنبطوها من باطن الأرض[7]، وجلبوها من أماكن توفرها الى مناطق الزراعة. فلقد جلب عبد المؤمن المياه الى مراكش وسلا والرباط[8]، وجرّ يوسف المياه الى إشبيلية وفاس وسبتة والرباط[9]. وفعل المنصور الشيء ذاته في مراكش وفاس[10]، وجلبها الناصر الى فاس أيضاً[11]. ويبدو أن الأماكن التي جُرّت منها المياه كانت

(١) ترد اشارتان عن البلاد الأندلسية فقط، وقد جاءت الأولى عن جهود ابن ملجان الناجحة في وادي آش (**أعمال الأعلام** (ط. ليفي) ٢٦٤) والثانية عن محاولة ابن همشك الفاشلة لاقامة سد على نهر مرسية عند شقورة (راجع **كتاب الجغرافية** ٩٩).
(٢) أنظر مثاله جر المياه الى أشبيلية من قلعة جابر في **المن بالامامة** ٢٣٥.
(٣) أنظر ما فعله يوسف في سبتة على مثال ما كان في قرطاجنة (**الاستبصار** ١٣٧-١٣٨)؛ وعن قرطاجنة راجع **المعجب** ٣٥١.
(٤) **المن بالامامة** ٤٦٨-٤٦٩.
(٥) استخدم في اجراء المياه على بحائر مراكش (**أعمال الأعلام** (ط. ليفي) ٢٦٤).
(٦) **بيان موحد** ١٥٠-١٥١، **الغصون اليانعة** ١٥٠-١٥٢.
(٧) **الروض المعطار** ١٢١.
(٨) **أخبار المهدي** ١١٣، **المن بالامامة** ٤٤٨، **كتاب الجغرافية** ١١٥-١١٦، **روض القرطاس** ١٢٥، ١٧٦.
(٩) **المن بالامامة** ٤٦٨-٤٦٩، **الاستبصار** ١٣٧، ١٤٠، ١٨٠، **روض القرطاس** ٤٠-٤١.
(١٠) **الاستبصار** ١٨٠-١٨١، ٢١٠، **المعجب** ٢٨٧، **روض القرطاس** ١٧٩.
(١١) **روض القرطاس** ٤٦، ١٥٤، ١٨٠.

بعيدة. فمياه إشبيلية كانت من قلعة جابر، ومياه سلا من عين غبولة، ومياه الرباط من مكان يبعد نحو عشرين ميلاً، وتلك التي جلبت الى سبتة كانت تبعد نحو ستة أميال. ولهذا استعمل الموحدون طريقة الوزن التي استعملها المرابطون من قبل[1].

وكانت المياه تحفظ في آبار[2] أو صهاريج (برك)، كانت الصهاريج أكثر شيوعاً، وقد بنى عبد المؤمن عدداً منها في مراكش[3] وشيد يوسف عدداً آخر في مراكش والرباط[4] وأقام المنصور عدداً آخر أيضاً في كل من مراكش ومكناسة وفاس[5]. والظاهر أن الصهاريج كانت كبيرة حتى ان أحد صهريجي عبد المؤمن المراكشيين كان يستعمل في تدريب حفاظ الموحدين على العوم وأعمال البحرية[6]، ولا يكاد القوي أن يقطعه عوما الا بمشقة[7]، وكان طول احد صهاريج المنصور في مراكش ٣٨٠ باعاً[8]، وطول احد صهاريجه في فاس من كل جانب مائتان وستة عشر ذراعاً بالمرفق، ويضيف ابن منقذ أن عندهم ما هو أطول من ذلك[9]. وكان الموحدون يحرصون على غرس أشجار كثيرة حول هذه الصهاريج للتقليل من درجة تبخّر المياه[10]. وتفرع هذه المياه المجموعة جداول للسقي[11] ويسقي الجدول الواحد عشرة فراسخ في بعض المناطق[12]. والجدير بالذكر أن الموحدين

(١) **المن بالامامة** ٤٦٨-٤٦٩.
(٢) أنظر **المصدر ذاته** ٢٣٦، ١٩٢، **بيان موحد** ٨٣.
(٣) **الاستبصار** ٢١٠.
(٤) **المن بالامامة** ٤٤٩، **الاستبصار** ١٤٠، و٢١٠.
(٥) **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٤٣ق، ٤٩ق، **صبح الأعشى** ٥:١٥٧.
(٦) موسى: **تنظيمات الموحدين** ١١٦ والمصادر المذكورة هنالك.
(٧) **الاستبصار** ٢١٠.
(٨) **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٤٨ق.
(٩) **المصدر ذاته** ٤:٤٣و، **صبح الأعشى** ٥:١٥٧.
(١٠) **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٤٨ق.
(١١) **المصدر ذاته** ٤:٤٩ق، **المعجب** ٢٨٧، **الروض المعطار** ١٢١.
(١٢) **المصدر الأخير** ١٧٢.

كانوا يهتمون بصيانة هذه الجداول وتجديدها[1]، مما يدلّ على عظيم اهتمامهم بالري ووسائله.

وبالاضافة الى هذا شيد الموحدون نواعير كثيرة وخاصة على نهر أشبيلية[2]، ولا يستبعد أن يكونوا قد استفادوا من خبرتهم في تشييد السدود لأغراض عسكرية[3] في أعمال الري أيضاً، اذ يقول صاحب الاستبصار — وهو من طلبتهم — أن نهر سبو سهل خروجه للبطاح لسقيها « وما أسهل خروجه في بعض المواضع لو تنبه له الأمر العالي، وهذا لا بد منه »[4]. ويبدو أن هذه الجهود حفزت همم الناس فجاروا الدولة في جهودها، فكثر اهتمام الناس بالري، فشيدوا النواعير وحفروا الآبار وفرعوا النهيرات جداول[5]. ولا غرو بعد هذا أن زادت الأراضي المزروعة ولا سيا في البلاد الغربية لأن أكثر هذه الإشارات عنها.

استصلاح الأراضي وزراعتها:

لعلّه من الطبيعي أن تكون مساحة الأراضي المستصلحة متوقفة على القدر الذي بذلته دول المغرب في القرن السادس في أعمال الري. ولهذا لا ترد أي إشارة عن البلاد الشرقية ولا تظهر جهود المرابطين إلا في البلاد الغربية خاصة حول مراكش حيث وفروا مياها كثيرة[6]، بينما تردد المصادر أو تشير الى أراض كثيرة استصلحت واستغلت في الفترة الموحدية. فقد أنشأ الموحدون بحائر[7] كثيرة في مكان واحد في السهول والجبال في بيئات المغرب الثلاث. وتتجلى جهود عبد

(١) أنظر **المن بالامامة** ٤٤٩، **روض القرطاس** ٤١.
(٢) **بيان موحد** ١٩٨.
(٣) أنظر أمثلة في **أخبار المهدي** ١٠٠، **الكامل** ١٠:٥٨١، **بيان موحد**.
(٤) **الاستبصار** ١٨٧.
(٥) راجع **الاحاطة** ١:١٢٥، ٣٠٩، **الحلة السيراء** ٢:٢٦٧، **بيان موحد** ٥١، **صلة الصلة** ٩٤، **روض القرطاس** ٢١، **مسالك الأبصار** (أحمد الثالث) ٣:١:١١٦، **الروض المعطار** ١٧٢، ١٨٣.
(٦) ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٢٥.
(٧) البحيرة في الاصطلاح المغربي تعني البستان (أنظر **نظم الجمان** ١١٩، **الاستبصار** ١٨٧) بينما في الاستعمال الصقلي ترد بمعنى الصهريج (أنظر **رحلة بنيامين** ١٨١).

المؤمن في الرباط ومراكش وجبل طارق[1]. وتظهر أعمال يوسف في مراكش ومكناسة وفاس وأشبيلية[2]، ويركز المنصور اهتمامه على مراكش وأشبيلية وبجاية[3]، ويهتم الناصر بمراكش ومالقة وتلمسان وقسنطينة[4]. ويبدو أن مساحة كل بحيرة كانت واسعة، فقد كانت مساحة احدى بحيرات المنصور في مراكش اثني عشر ميلاً[5]. وجلب يوسف عشرات الألوف من الغروسات لبحيرته قرب باب قرمونة في أشبيلية[6]، وامتدت بحائر الموحدين في السهول المتصلة بمدينة أشبيلية[7]. ويبدو من هذه الإشارات أن منطقة الزراعة الأساسية كانت في البلاد الغربية عامة ومنطقة أشبيلية من البلاد الأندلسية خاصة، وهذا أمر غير مستبعد لأن هذه كانت مناطق الاستقرار والأمن خلال القرن السادس. وأغلب الظن أن هذا الجهد الموحدي شجع الناس على الزراعة، فأخذوا يستثمرون أراضي لم تكن زراعية من قبل. ففي أشبيلية شملت الزراعة حتى مناطق الحلفا[8]، وفي سهول فاس انتشرت الزراعة حتى في الأماكن المالحة بعد إصلاحها[9]، وعمت الزراعة سهول البلاد الغربية كلها بعد أن كانت مقفرة[10].

مساعدة الزرّاع وقت الآفات:

يغلب على الظن أن المرابطين لم يهتموا كثيراً بالزراع في حالة نزول آفة أو

(١) راجع **أخبار المهدي** ١٢٠، **كتاب الجغرافية** ١١٦، **المن بالامامة** ١٤١-١٤٢، ٤٤٨، **المعجب** ٢٠١، ٢٢٧، **الروض المعطار** ١٢١.

(٢) **المن بالامامة** ٤٣٢، ٤٦٥-٤٦٦، **بيان موحد** ١٣١، ١٣٢، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤٨:٤و-٤٩و.

(٣) **المعجب** ٢٨٧، **بيان موحد** ١٥٠، ١٩٨، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤٨:٤ق-٤٩و.

(٤) **وفيات الأعيان** ١٥:٧، **بيان موحد** ١٥١، **الاحاطة** ٤١٩:١، **الغصون اليانعة** ١٥٠-١٥٢.

(٥) **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤٨:٤ق.

(٦) **المن بالامامة** ٤٦٥-٤٦٦.

(٧) **المن بالامامة** ٤٣٢.

(٨) أنظر **رسالة ابن عبدون** ٣٥-٣٦.

(٩) **روض القرطاس** ١٧.

(١٠) قارن المادة التي يوردها البكري بتلك التي يذكرها الادريسي عن البلاد العربية في الملحق الخامس من هذه الدراسة.

وقوع مجاعة. فلا يرد أنهم عملوا على تسليف الزراع البذور ان احتاجوها الا اذا كانت الارض من المستخلص، وحتى في مثل هذا الحال لا نجد الا إشارة واحدة عن غرناطة وصاحب مستخلصها ابن هدية[1]، وهذا يبعث على الظن أنها لم تكن خطة مقررة للدولة بل ربما كانت بادرة فردية. ويبدو أن مشاركة الدولة الموحدية الزراع في أراضيهم جعلت الموحدين أكثر حرصاً على مساعدة الزراع وقت الحاجة. ففي أوقات المجاعات كانوا يفرقون الطعام على الناس، وخاصة الزراع، للقوي بأجر وللضعيف بلا ثمن[2]، وغدت حسبة الطعام من أهم دواوين الدولة[3].

وكان الجراد من الآفات الكبرى على الزرع وخاصة في البلاد الأندلسية. وكان أمويّو قرطبة يأمرون بعقره وهو دبيب[4]. والراجح أن هذه السياسة أهملت في الفترة المرابطية حتى استفحلت خطر الجراد على زرع الأندلس في أعوام متصلة ولا تتدخل الدولة الا بعد أن يكثر الضرر. وكثرت الإشارات عن مثل هذه الحالات[5]، بينما لا نجد الا إشارة واحدة عن الفترة الموحدية وهذا يدعو الى القول بأن الموحدين ربما رجعوا الى سياسة أمويي قرطبة في هذا الشأن[6].

النظام الزراعي

ان أوضاع الفلاحين وطريقة الزراعة من العوامل المؤثرة في نوعية الانتاج وكميته. ودراسة هاتين المسألتين تكشف أيضاً عن تباين في أوضاع الزرّاع بين الفترتين المرابطية والموحدية في القرن السادس/ الثاني عشر وعن استمرار في طريقة الزراعة في الفترتين.

(١) أنظر **البيان المغرب** ٧٤:٤، **الاحاطة** ٤٣٧:١-٤٣٨.

(٢) راجع **التشوف** ١٦٢، **بيان موحد** ٢٤٥، **نفح الطيب** ٣٧٨:١.

(٣) أنظر **بيان موحد** ١٣١، الفاسي: « ابن خبازة » ٢٢٥-٢٢٦.

(٤) **تقويم قرطبة** p. 63.

(٥) أنظر مكي: « وثائق تاريخية جديدة » ١٦٤، ١٨٦، ١٨٨، **نظم الجمان** ١٩٩، ٢٠٢، ٢٠٨، ٢١٧، **روض القرطاس** ١٧٢.

(٦) **التشوف** ١٥٩، وقد جاءت الاشارة عن البلاد الشرقية وحدها.

أوضاع الفلاحين:

كانت الظاهرة الغالبة في المغرب في القرن السادس أن الملاّك لا يفلحون ما يملكون من أراض باستثناء أصحاب الملكيات الصغيرة وخاصة في البلاد الغربية حيث تشاركهم نساؤهم وافراد عائلاتهم في العمل[١]. وقد كان للتصوف أثر إيجابي في اتجاه بعضهم لفلاحة أراضيهم زهداً وتعبداً[٢]. والظاهر أن صغار الملاك هؤلاء كانوا يتعاونون على أعمال الزراعة حرثاً وبذراً وتنظيفاً وحصاداً[٣]. وأما كبار الملاك فغالباً ما كانوا يسكنون المدن، ويتخذون وكلاء على أراضيهم، فيقوم هؤلاء بالإشراف على كراء أراضي موكليهم أو مزارعتها أو مغارستها[٤]. وكان لأراضي الأحباس وكلاء تحت نظر القاضي[٥]. ومن هنا انتشرت ظاهرة وجود العمال الزراعيين في المغرب في القرن السادس، وهم ثلاثة أصناف:

١ - فلاحون يستأجرون أراضي غيرهم، وعددهم قليل، وقد يكون الكراء لعام أو اثنين أو قد يبلغ الأجل أعواماً في حال المغارسة[٦]. ويبدو أن الملاك في الفترة المرابطية كانوا يفرضون عليهم دفع الكراء حتى وإن لم يتمكن المكتري من زراعة الأرض إن توالى القحط[٧].

٢ - زراع مشاركون لأصحاب الأرض في غلتها وهم أكثر الزراع. واختلفت حصة هؤلاء الزراع في أيام صنهاجة الشرق والمرابطين حسب المنطقة ونوعية العمل زراعة أو غراسة وطبيعة الأرض وما تحتاجه من خدمة وما يساهم

(١) أنظر **المعيار** ١٠٥:٩، **الوافي بالوفيات** (مخ معهد) ٢٣:٧ق-٢٤و، **أجوبة نفيسة** (مخ) ٢٠٢، **الجواهر المختارة** (مخ) ١٦١:١.

(٢) راجع **التشوف** ٩١-٩٢، ١١٢، ٢١٠و ٣٨٣.

(٣) أنظر **المصدر ذاته** ٨٠، ٩١، ١١٣.

(٤) راجع **المعيار** ٢٩١:٣، ١٠٦:٨، ٤١:١٠. والجدير بالذكر أن الوكيل في اسبانيا القرن الرابع عشر أصبح يعني الرجل الموكل اليه ادارة أموال السلطان، وربما أطلقت الكلمة أيضاً على من يتحصل الجمارك (أنظر Dozy, **Supplément**, II, p. 838)

(٥) **روض القرطاس** ٣٣-٣٤، **المعيار** ١٣٠:١ وما بعدها.

(٦) أنظر **المعيار** ٣٠٩:٦، ٢٩٤:٧، ١٠٦:٨، ١٧٤.

(٧) **نوازل البرزلي** (مخ) ٢٦٩و وما بعدها.

به رب الأرض من بذور والات عمل[١]. والغالب أن نصيب الفلاح في البلاد الغربية والشرقية هو الخمس، ولهذا يسمى خماسا[٢]، بينما تختلف النسبة في البلاد الأندلسية، فقد تكون النصف أو الثلث أو الربع أو الخمس[٣]. ويبدو أن بعض الملاك كانوا يشتطون على المشاركين فيحرمون المشارك من التبن[٤]. أو يفرضون عليه خدمة الحيوان الخاص برب الأرض[٥]، أو يطلبونه بكراء الأرض ان زرع بعض البقول في أرض مغارسة[٦]. ومع أن المذهب المالكي لا يجوز المزارعة أو المغارسة إلا على الاعتدال فقد جوّز فقهاء المغرب ــ وهم من كبار الملاّك ــ أنواع المغارسة والمزارعة كلها على حكم عادة أهل البلد[٧] بل ان بعضهم لم ير للعامل حظاً من المشاركة أن أخفق في تقديم نصف البذر ولم يجعل له إلاّ أجرة عمله[٨]. ولا ترد نوازل عن الفترة الموحدية، فربّما طبق نظام مشاركة الدولة في حال الملكيات الخاصة مما سمح بقدر من الاستقرار النسبي للفلاحين وأوضاعهم.

٣ - عمال الأجرة للحرث والبذر والتنظيف والتزبيل والقطف والحصاد[٩]. ويبدو أن هؤلاء العمال الزراعيين كانوا يخلقون مشكلات كثيرة لأصحاب الأراضي خلال الفترة المرابطية، حتى ان ابن عبدون في رسالته اقترح حلاً لمثل هذه المشكلات أن يقطع العامل الزراعي عملاً معلوماً بأجر معلوم لأن

(١) **نوازل ابن رشد** (مخ) ١١١ق، ١٥٥ق، **نوازل ابن عياض** ٥٩و-٥٩ق، **المعيار** ٩٢:٨، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٥، ١٢٢، ٢٢٩.

(٢) **المعيار** ٩٢:٨-٩٨.

(٣) **نوازل ابن رشد** (مخ) ١١١ق، ١٥٥ق، **نوازل البرزلي** (مخ) ٢٩٠ق، **المعيار** ٤٩:٥، ١٤١:٦، ٩٩:٨، ١١٠، ٢٢٩.

(٤) **المعيار** ٩٣:٨، ٩٧.

(٥) **المصدر ذاته** ٩٧:٨.

(٦) **المصدر نفسه** ١١٢:٨.

(٧) أنظر الآراء المختلفة في **المعيار** ٩٩:٨، ١٠٣، ٩٧-٩٨.

(٨) أنظر أمثلة في **نوازل ابن عياض** (مخ) ٥٩و-٥٩ق، **المعيار** ٩٨:٨، ١٠٥.

(٩) راجع **التشوف** ١٧٠، ٣٦٨، ٤٤٠، **المعيار** ٥٠:٥، ١٢٢:٦، ١٤٢:٨.

في هذا راحة للفريقين: المالك والأجير[1]. كما أن هؤلاء الأجراء كانوا يستغلون ضعف الأمن في بعض المناطق ويفرضون أجرة عالية على أعمالهم، فيجمعون الزيتون في البلاد الشرقية قبل الفتح الموحدي بالثلث، ويحصدون الزرع سبعة أيام بدينار، وينقلونه الى المدينة بثلث دينار لكل حمل، وهذه مبالغ تقارب نصف ثمن الزرع[2] هذا سوى إجراء الحراسة خوف الماشية والخنازير والطير، وقد يشترك جماعة في حارس واحد[3] وقد ينصب بعضهم الخيال على هيئة إنسان لتفزيع الطير[4]. وأغلب الظن أن مثل هذه العوامل هي التي أدت الى انتشار طريقة مشاركة الملاك للزراع دون غيرها في المغرب كله.

ويعيش الفلاحون في القرى أو القصور — كما تسمى في البلاد الشرقية — التي انتشرت في مناطق الزراعة حتى لتكاد أن تكون متصلة[5]، فلا تبعد الواحدة عن الأخرى إلاّ ميلين أو ثلاثة[6]. وتتكون القرية من اثني عشر الى خمسين داراً[7]، وغالباً ما يكون سكانها قليلي العدد حتى ان اربع عشرة قرية لا يكون فيها إلاّ

(١) **رسالة ابن عبدون** ٥٦.
(٢) **المعيار** ١:٣٠٢.
(٣) أنظر **المعيار** ٨:١٢٧، ١٦٨.
(٤) راجع **ديوان ابن قزمان** 59، **أمثال الزجالي** 577, 603، **ابن شريفة أمثال** 137، **الزجل في الأندلس** 190.
(٥) عن الأندلس عموماً أنظر روايتي اليسع وابن سعيد (**ابن الشباط** ١٠٠، **نفح الطيب** ١:٢٠٥-٢٠٦)؛ وعن شرف إشبيلية (**وفيات الأعيان** ٧:١١٩، **نفح الطيب** ١:٣٥٩، ٣:٢٠٣، **الروض المعطار** ١٩، ١٠١)؛ وقرطبة (مؤنس: « وصف جديد لقرطبة الاسلامية » ١٧٩-١٨١)؛ وشرق الأندلس (**المن بالامامة** ٢٧٩، **نفح الطيب** ١:١٦٨-١٦٩)؛ وقرمونة (**الروض المعطار** ١٥٩)؛ وماردة (**كتاب الجغرافية** (مخ الرباط) ٤٨)؛ وجيان (**الروض المعطار**) ٧٠؛ وعن وادي سبو (البكري، **المغرب** ١٤١-١٤٢، **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٧٦-٧٧)؛ ووادي درعة وسجلماسة (**المصدرين ذاتهما** ١٥٣، ٦١ على التوالي)؛ ووادي شلف (**الاستبصار** ١٧١)؛ وفحص زيدور (**الاستبصار** ١٧٦)؛ وفحص متيجة (**زبدة التاريخ** (مخ) ٣:٢٥؛ وأبه (**مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤: ٣٠ق).
(٦) **المعيار** ١:١٨٩ وما بعدها.
(٧) **المعيار** ١:١٨٦، **نفح الطيب**.

مسجد جامع واحد[1]. وفي مواسم الحصاد والقطف يخرجون عن قراهم ويقيمون في مزارعهم أو بساتينهم[2]. وكان الزراع أكثر الناس في المغرب تأثراً بأوضاع الأمن، فقراهم تخرب أوقات الفتن والحروب فيهجرونها، ثم تعمر وقت السلم والاستقرار. ومن هنا يستطيع المرء أن يفهم الخدمة التي أسداها الموحدون للزراعة بما اشاعوا من أمن[3].

طريقة الزراعة

يبدو أن العمل الزراعي في المغرب كان يقوم على الدورة الزراعية الثلاثية، فالأرض بين بور وقليب ومعمور. فالبور، مع طيبها في ذاتها، لا تصلح إلاّ بالقليب والتزبيل[4]. والقلب هو حرث الأرض مرتين الى أربع حسب الأرض ونوع الزرع أو الغرس. ويبدأ القلب عادة في ينائر ويستمر الى يونيو حيث تترك للحر المفرط. ومع أن هذا عمل شاق فلا مندوحة عنه لأن بعض المحاصيل لا يجود إلا في أرض القليب كالقمح والعدس[5]. ولأن القليب يجود الأرض فتجدهم يشترطونه في كراء الأرض أو مزارعتها أو مغارستها[6]. وأحياناً يستعيضون عن القليب بزراعة ما يزيد التربة خصوبة مثل اللوبيا والفول والكرسنة والجلجان والترمس[7]. ويحرص الفلاح على الاستفادة من أرضه، فيزرع غير محصول في وقت واحد في ذات الأرض، فتجد البقول مع الغروس[8] واللوبيا والحبق والسمسم مع الزعفران[9].

(١) أنظر أمثلة في **المعيار** ١:١٨٩-٢٢٥.
(٢) **رسالة ابن عبدون** ٥٦.
(٣) لم يخفق الموحدون الا في قفصة التي كانت قبل الهلاليين ذات قصور كثيرة فخربوها ولم يفلح الموحدون في تجديدها (راجع البكري، **المغرب** ٤٧، **الاستبصار** ١٥٣-١٥٤).
(٤) أنظر **كتاب الفلاحة** ٥٧، **نوازل ابن عياض** (مخ) ٦٢، **المعيار** ٥:٢٣٦.
(٥) **كتاب الفلاحة** ٥٦-٥٧، ١١٢ وقد تزبل أرض القليب (**بغية الملتمس** ٣٠٨).
(٦) **المعيار** ٨:١٠٦، ١٠٨.
(٧) **كتاب الفلاحة** ١١٣.
(٨) **المعيار** ٨:١١١.
(٩) **كتاب الفلاحة** ١١٧.

وفي أوان الزرع تحرث الأرض بالثور حرث زراعة[١]. وتختلف عدد السكك حسب طبيعة الأرض ونوع الغرس أو الزرع[٢]. ولهذا يشترط عددها في عقود المزارعة والمغارسة[٣]. وبعد الحرث تعدل الأرض ليستوي جري الماء عليها. ويتم تعديل الأرض الصغيرة بالمرجيقل (ميزان الماء) والكبيرة بالجاروف الذي تجذبه البقر[٤]. ونظراً لاتساع نطاق الزراعة حتى شملت الهضاب، وخاصة في العصر الموحدي، فقد اهتم أهل القرن السادس ببناء أرض البساتين وتشييد الصرائم حتى تستوي كل قطعة من أرض منفصلة عن الأخرى. فاستعملت الأحجار والآجر لهذا الغرض[٥] أو لتسوير البساتين حياطة عليها[٦]؛ هذا بالإضافة الى العناية الفائقة بتشييد عرائش الكروم[٧]، حتى ان ابن خيدن صرف ثروة ضخمة لبناء بستانه في فاس[٨].

ومتى تمّ تعديل الأرض خططت للغراسة خطوطاً مستقيمة مقابلة للريح من كل جهة. وتتباعد الغروسات باختلاف أنواع الثمار[٩]؛ وقد يكون من النوامي أو التكابيس[١٠]. وإن كان التعديل لزراعة المحاصيل فتسوى الأرض أحواضاً وتتباعد البذور بدرجات تختلف باختلاف الأنواع[١١].

(١) **مناقب أبي العباس** (مخ) ٩٩و، **المعيار** ٦:٤١، ٨:١٠٤، ٩:٤٢٣.
(٢) راجع **كتاب الفلاحة** ٥٦، ١٠٩، ١١٠، ١١٢-١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٧-١١٨، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤.
(٣) **نوازل ابن رشد** (مخ) ٤ق.
(٤) **كتاب الفلاحة** ٥٥؛ وانظر وصف المرجيقل ورسمه نقلاً عن ابن ليون عند Dozy **Supplément, II** p. 579.
(٥) أنظر أمثلة في **المن بالامامة** ٢٨٢، ٢٦٧، **أخبار المهدي** ٧٢، **الغصون اليانعة** ١٥٠-١٥٢، **الاحاطة** ١:٤١٩، وعن حدائق الأعيان في مراكش أيام المنصور راجع **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٤٩و.
(٦) **التكملة** ١:٩٣.
(٧) **المن بالامامة** ٢٨٢، **معجم الصدفي** ١٤٥.
(٨) **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٤٣ق.
(٩) راجع ابن بصال، **كتاب الفلاحة** ٥٦، ٦٠، ٦٢-٦٧، ٧١.
(١٠) أنظر **كتاب الفلاحة** ٥٩-٦٠ فصل التكابيس خاصة ٨٧-٨٨.
(١١) أنظر مصادر الحاشية (٢) أعلاه.

ومع كل هذا فإن فلاحي القرن السادس كانوا يهتمون بالتزبيل اهتماماً بالغاً، فيتخذونه من زبل الخيل والبغال والحمير والآدمي والغنم والحمام، أو يجمعونه من الكناسات، أو يولدونه من الحشيش والتراب بعد تعفينها مدة من الزمن. وكل نوع من هذه يدبر على نسق معيّن[١]. وكانوا يعرفون أي نوع منها يوافق أي نوع من التربة، وما يسقى من الزرع بمياه المطر أو الأنهار أو العيون أو الآبار[٢]. كما يوالون الزرع والغرس بالتزبيل، يتعهدونها بالتنظيف من العشب عزقاً أو حرثاً في حال الغرس[٣] الذي يحرصون على تشذيبه وإصلاحه حتى يعمر، وهو ما يعرف عندهم بالتشمير[٤].

ويدل على تطور أساليب الزراعة عندهم أنهم عرفوا التركيب — الذي تسميه العامة بالترقيع[٥] — معرفة تامة. فعرفوا طبائع الثمار وغرائزها، فتبينوا المنافر والمساعد والمتقارب والمتناسب والزمن الموافق لكل نوع[٦]. ويزرعون أشياء في غير وقتها كزراعة الخضر والياسمين والموز وتغطيتها فلا يضر بها الجليد[٧] أو زراعة قصب السكر واللوز في فحص البيره مع أنهما لا يكونان في الأندلس إلاّ ساحليين[٨]. ويروى أن أبا مروان ابن أبي العلا بن زهر زرع كرمة تسقى بماء يكسبه قوة الأدوية المسهلة واستعمل الثمر في علاج عبد المؤمن[٩].

وإذا حصد الزرع جمع في الأندر حيث يدرس أو يقشر[١٠]. فأيام الحصاد أو

(١) راجع **كتاب الفلاحة** ٤٩-٥٣ عن خاصية كل نوع وطريقة تحضيره.
(٢) **المصدر ذاته** ٣٩-٤٠، ٤١ وما بعدها.
(٣) **المعيار** ٦:١٣٢، ٨:١١٢، **رسالة ابن البناء** ٧.
(٤) **كتاب الفلاحة** ٨٩.
(٥) **تقويم قرطبة** 62، **رسالة ابن البناء** ٦.
(٦) أنظر **كتاب الفلاحة** ٩١ وما بعدها والملحق الثالث من هذه الدراسة.
(٧) **تقويم قرطبة** 173، **ابن العوام** II, p. 432.
(٨) **أنظر الشقندي في نفح الطيب** ٣:٢١٩.
(٩) وقد ألف لعبد المؤمن كتاباً في الأغذية؛ راجع **طبقات ابن أبي أصيبعة** ٢:٦٦-٦٧.
(١٠) الاندر هو ما يعرف المشرق بالبيدر (**أمثال العوام** (المطبوع) 51)؛ وعن تقشير الأرز راجع **كتاب الفلاحة** ١١٢.

القطف ــ ويسميه الأندلسيون العصير[1] ــ هي أيام أعياد عند الفلاحين[2]. ويبدو أن أعوام المجاعات والفتن والحروب جعلت تخزين الطعام من ضرورات الحياة، فالمخزن أو المطمورة جزء أساسي في المزرعة أو بيت المزارع[3]. ففي الأندلس وتل أطلس الشرقي ينحتون المطامير في الصخور[4]. وفي سهول البلاد الشرقية والغربية ربما يجمع الحصاد ويطين عليه فيحفظ سنين[5]. هذا ويبدو أنه كانت لهم طرائق لحفظ الفواكه ــ مثل التفاح والرمان والقسطل والبلوط والجوز واللوز ــ طرية لمدة تزيد على ستة أشهر فتؤكل في غير موسمها[6].

فإذا نظر الدارس في هذا العمل الزراعي وقابله بالتقويم الزراعي الملحق بهذه الدراسة[7]، وجد أن عمل المزارع كان يستغرق العام بأكمله، لا سيما وأن الغراسة والزراعة، في أكثر الحالات، قد يقوم بهما زارع واحد. ومن هنا فإن أوضاع الزراعة، كما هي سياسة الدولة، تؤثر على الإنتاج سلباً أو إيجاباً. فما هي مناطق الإنتاج، وما هي كميته في القرن السادس/الثاني عشر؟

الحاصلات ومناطقها

إن نظام الأراضي وسياسة الدولة وأوضاع الزراع كلها عوامل أثرت على المساحات المزروعة وكمية الحاصلات وأنواعها. وقد بينت في الملحق الرابع من

(١) **أمثال العوام** (الاطروحة) ١:٢١٧.

(٢) أنظر وصف ابن سعيد ليوم عصير في مالقة (١:٤٢٣-٤٢٤) وكيف أن يوم العنصرة يوافق حصاد القمح في قرطبة (**تقويم قرطبة**)؛ وانظر عن الأعياد جملة **تقويم قرطبة** 32, 81, 99.

Simonet, **Mozárabes, pp.** 320, 329, 331, 334, 615

179, 167, 163, 157, 155, 151, 139, 113, 101.

وقارن أوقاتها بأيام القطف أو الحصاد في الملحق الثالث من هذه الدراسة.

(٣) أنظر **أخبار المهدي** ٧٢، **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٩٦.

(٤) **نفح الطيب** ١:٢٠٥-٢٠٦، **نزهة المشتاق** (ط.د) ٩٦، **كتاب الجغرافية** ٨٢-٨٣.

(٥) راجع **الكامل** ١١:٢٤١، **مسالك الأبصار** (ا(آيا صوفيا) ٤:٤٢و، **وض القرطاس** ٢١، **المعيار** ٦:٣٥٧.

(٦) أنظر وصف ابن بصال لهذه الطرق في **كتاب الفلاحة** ١٧٩-١٨٠.

(٧) أنظر الملحق الثالث.

هذه الدراسة الحاصلات ومناطقها، ويتوجب هنا أن أشير الى النتائج المستخلصة من ذلك الجدول وربطها بالعوامل التي ذكرت آنفا[1].

إن الصورة التي يعطيها البكري[2] عن مناطق الزراعة في البلاد الشرقية توضح أن البلاد الشرقية كلها كانت مناطق زراعة مزدهرة إلاّ سواحل تل أطلس الشرقي. ونتيجة للغزوة الهلالية انحسرت المناطق المزروعة في البلاد الشرقية بينما عمرت سواحل تل أطلس الشرقي[3]. ولم تفلح جهود الموحدين في إعادة ازدهار هذه المناطق إلاّ جزئياً، كمثل نجاحهم في فحوص مليانة وعجيسه وبل ومتيجة (مدية). ويتجلى إخفاقهم في هضاب تل أطلس الشرقي، من القيروان الى قلعة حماد[4]، والمناطق شبه الصحراوية. وبالنتيجة ساهمت جهود الموحدين في تطوير زراعة سواحل تل أطلس الشرقي، تلك الزراعة التي بدأت قبل الفتح الموحدي.

ورافق تقلص أراضي الزراعة انحسار في المحاصيل وأنواعها. فلقد انعدمت زراعة الشعير والقمح والحنطة إلاّ داخل أسوار المدن الحصينة، وجار الناس بالشكوى من قلتها[5]؛ واختفت زراعة الزعفران من هضاب تل أطلس الشرقي، وقصب السكر من جلولا والقطن من فحص متيجة والزاب، وتدنى إنتاج الحرير في قابس، بينما بدأت زراعة الشعير والقمح والحنطة والقطن في ساحل تل أطلس الشرقي. ولم ينتج عن جهود الموحدين إلا انتعاش جزئي يتمثل باتساع نطاق الزراعة في ساحل تل أطلس الشرقي قمحاً وشعيراً وحنطة وقصب سكر واستفادة من الأخشاب في منطقتي بجاية وتونس، بالإضافة الى ازدهار الحرير في قابس والقطن في قسطيلية والقمح والشعير والحنطة في فحص متيجة.

(١) حيثما ذكرنا أمراً عن منطقة يمكن الرجوع اليه في حواشي الملحق الرابع من هذه الدراسة. واذا ذكر أمر لا يرد في ذلك الملحق حددنا المصدر.

(٢) يلاحظ أن النشاط الاقتصادي الذي يذكره البكري قد بدأ أيام الأغالبة والرستميين واستمر أيام الفاطميين (قارن مادة البكري مع ما يذكره اليعقوبي **البلدان** ٣٤٩-٣٥٠، وانظر أيضاً 76-78 Maçais, G., **Berbérie musulmane,**، الجنجاني: **القيروان** ١٠٣.

(٣) قارن ما يرد عند البكري والادريسي عن مراسي هذا الساحل خاصة مرسى القل و بجاية.

(٤) أنظر كيف يذكر صاحب الاستبصار أن هذه المناطق كانت عامرة ولكن في عصره فيها بعض السكنى (**الاستبصار** ١٦١-١٦٢).

(٥) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٠٤.

ويلاحظ أن انحسار الزراعة أدى الى اتجاه قوي نحو البَسْتَنة، فأصبحت المحاصيل الرئيسية للبلاد الشرقية هي الزيتون في قابس وصفاقس، والتمر في قابس والبلاد الجريدية والزاب (حتى ان صاحب كتاب الجغرافية ليقول ان التمر أصبح طعام أفريقية بسبب سيطرة العرب عليها[1])، والحناء في قابس، والكرو ياء والكمون في قفصة وقسطيلية وتل أطلس الشرقي، واهتم أهل قفصة بالزهور وصناعة ماء الورد[2]، وقد كانت كلها مناطق زراعة وما البستنة إلا بعض إنتاجها وليس عليها الاعتماد.

ويبدو أن الدافع للاتجاه نحو البستنة دون الزراعة بالإضافة الى اضطراب الأمن هو الهجرات من البلاد الشرقية نتيجة الغزو الهلالي ثم النورماني، فقلت الأيدي العاملة حتى ان الناس كانوا يضطرون لاستئجار عمال زراعيين للحصاد أو لقطف الزيتون وحمله للمدن بما يقارب نصف ثمن المحصول[3].

وكانت مناطق الزراعة في البلاد الغربية قبل العهد المرابطي قليلة جداً مثل بعض المناطق حول تلمسان وفاس وسبتة ودرعة وسجلماسة. وما يذكره البكري عن منطقة البصرة — ويعني بها سهول جبال غمارة الغربية — يجب أخذه بشيء من الحذر لأنه ربما يصور ما كانت عليه المنطقة في القرن الرابع/العاشر الميلادي، أيام ازدهار زراعتها، حتى ان الناصر المرواني حاول احتلالها[4]، ومن بعد ذلك خربها يوسف بن زيري عندما خلف الفاطميين على أفريقية، ولم تقل بعدها العثرة[5] إلا في أيام المرابطين. ويدل على عدم الاهتمام بالزراعة في البلاد الغربية أن سهول سواحلها الغربية قبل الفتح المرابطي كانت مأسدة[6]؛ واختلف الحال مع المرابطين فقد عمت الزراعة جميع مناطقها سهولاً وجبالاً حتى ان دكالة

(١) **كتاب الجغرافية** ١٠٧.
(٢) **الاستبصار** ١٥٤.
(٣) **المعيار** ١:٣٠٢.
(٤) **روض القرطاس** ٥٣-٥٤، ٦١-٦٢.
(٥) الجنجاني: **القيروان** ٩٩-١٠٠ ومصادره في ذلك.
(٦) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٧١، ٧٢.

وحدها كانت تزرع المنطقة من السوس الى مراكش[1]. وزاد الموحدون ما بدأه المرابطون إلا في درعة وسجلماسة حيث تحول الناس بعد خرابها على أيدي الموحدين[2] من الزراعة الى البستنة[3].

وكان إنتاج البلاد الغربية قبل الفتح المرابطي ضئيلاً فلا يذكر إلا قمح سجلماسة، وقطن مستغانم وماسينة — على مرحلة من فاس — وبعض الاستفادة من الخشب في فاس وسجلماسة، وتين القاط الذي يحمل زبيباً الى فاس التي تبعد مرحلتين من منطقة الإنتاج، وزبيب سجلماسة وجوزها وتمرها التي تحمل الى الصحراء. وتميزت الفترة المرابطية بتنوع المحاصيل ووفرة الإنتاج. وقد عمت زراعة القمح والشعير والحنطة البلاد الغربية كلها سهلاً وجبلاً، خاصة السهول الغربية ومرتفعات تادلا وتازا وسفوح درن، وأصبحت البلاد الغربية المصدر الأساسي لطعام الأندلس؛ بالإضافة الى حبوب أخرى مثل الحمص والفول في منطقتي البصرة ومرسى فضالة. وظهر القطن والكتان مجدداً في منطقة البصرة مع وجوده في سجلماسة التي كانت تصدره لجهات المغرب، إلى جانب زراعة مساحات كبيرة في تادلا ووادي أم ربيع. وأدخل المرابطون الزيتون كمحصول تجاري في فاس ومراكش، والأرز في السوس، وقصب السكر في بليونش والسوس. ويلاحظ ازدهار زراعة الفواكه خاصة العنب والتين في فاس ومكناسة وجبل درن، والنخيل في السوس ودرعة وسجلماسة، والكمون في وازلفن ووادي أم ربيع وسجلماسة ودرعة، والحناء في وازلفن وبلاد حاحة وسجلماسة ودرعة.

والجدير بالذكر أن الموحدين حافظوا على مستوى الإنتاج المرابطي، وضاعفوا إنتاج بعض المحاصيل بأن شجعوا على زراعته في مناطق جديدة، كالذي فعلوه بالنسبة لزراعة الحبوب والفواكه في فاس وتازا وتلمسان ومراكش ودرن. واتسعت زراعة السكر في السوس وامتد نطاقها الى سلا ومراكش ووادي نفيس، وأصبح

(١) **المصدر ذاته** ٧٤، **الاستبصار** ٢٠٩.
(٢) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٦١.
(٣) **كتاب الجغرافية** ١١٧-١١٨.

سكر « المغرب » يعمّ الآفاق[1]. وضاعف الموحدون إنتاج الزيتون وخاصة في مراكش وفاس ومكناسة ودرن ودرعة. وبعد أن كان المغاربة لا يعرفون سوى زيت الهرجان (الأرقان) أصبحوا لا يستطيبون غير زيت الزيتون[2]. وظهر إنتاج التمر في مراكش وجنوب تلمسان، وقطع الأخشاب في جبال غمارة ومنطقة فاس، وجمع الأعشاب الطبية في منطقة فاس، والاستفادة من ثمر شجر التاكوت في أعمال الدباغة في درعة. ومن هنا فالعهد الموحدي يمثل امتداداً للعصر المرابطي من حيث زيادة مساحات المناطق الزراعية وتنويع المحاصيل وكثرة الإنتاج.

أما تحليل المعلومات الواردة عن البلاد الأندلسية فيحتاج الى التذكير بما تقدم من حديث عن قضية الأمن، حيث وضح أن مناطق الزراعة تتسع أيام السلم وتتقلّص وقت الحرب أو الفتن. وقد نجح المرابطون في حفظ استقرار البلاد الأندلسية حتى عام ١١٠٨/٥٠١، ومن بعد ذلك اضطرب حبل الأمن وتقلّصت مناطق الزراعة خاصة في فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين. ولم يفلح الموحدون في إحياء زراعة قرطبة، وان نجحوا جزئياً في ذلك في مناطق بلنسية ومرسية وشلب، وأصبح الاهتمام مركزاً على جهات الجنوب مثل إشبيلية ومالقة والمرية وجبل طارق وبعض الداخل مثل جيان وغرناطة.

إن فحص المعلومات الواردة عن الزراعة يكشف عن قلة الإنتاج وعدم إدخال محاصيل جديدة. فمع أن القمح والشعير والحنطة تذكر من بين حاصلات مرسية وغرناطة وجيان وأشبيلية وشلب، يبدو أن الإنتاج كان قليلاً[3] ولا يكفي أهل الأندلس حتى أصبح جل طعامهم من المستورد[4]، كما أصبح البلوط غياثاً لأهل

(١) أنظر رواية ابن سعيد في **مسالك الأبصار** (أحمد الثالث) ٣:١:١٠٠.
(٢) راجع **الاستبصار** ٢١٠، ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٢٥.
(٣) أنظر **كتاب الجغرافية** ١٠٠، ويشير الأدريسي الى قمح وشعير قرطبة (**نزهة المشتاق** (ط.د.) ٢٠٥) غير أن الحميري يقول بأن زراعة ذلك توقفت بسبب الفتن (**الروض المعطار** ٥٩).
(٤) **المعيار** ٨:١٤٢.

قرطبة[1]. ولا تشير المصادر الى زراعة سوى قصب السكر والقطن في سواحل الأندلس وسهل غرناطة والزعفران في جيان وبلنسية وغرناطة، والزعفران هو الشيء الوحيد الذي تضاعفت أهميته نسبة لتوقف زراعته في البلاد الشرقية، فغدا زعفران الأندلس يعم المغرب كله[2].

ورافق تقلص الزراعة اتجاه واضح نحو الاهتمام بالبستنة مع وفرة الإنتاج في الجنوب. فالحرير الذي ينتج في جيان وغرناطة قد قلّ إنتاجه في القرن السادس/الثاني عشر[3]، بينما كان الإنتاج الأكثر كثافة في الفواكه، في بلنسية ومرسية ومالقة وجيان وغرناطة، وفي الزيتون في شرق إشبيلية. ويضاف الى ذلك الأعشاب الطبية في غرناطة وإشبيلية ـــ ويبدو أن عقاقير الأندلس ظلت تعمّ المغرب كله ـــ وقطع الأخشاب في بلنسية ومرسية وجيان وشلب، والقرمز لصباغة الجلود في بلنسية وإشبيلية، والحلفا من لقنت التي تصدر الى جميع بلاد البحر، وعود العطر من دلاية وشلب.

من كل ما تقدم يتضح أن البلاد الغربية كانت منطقة الزراعة الأساسية في مغرب القرن السادس/الثاني عشر؛ وإذا كانت الزراعة هي عصب اقتصاد المغرب فقد يفسر هذا الوضع الدور السياسي والعسكري القيادي الذي قامت به البلاد الغربية خلال فترة الدراسة هذه.

الرعي والدواجن والصيد

إن تربية الحيوان والدواجن والصيد ربما كانت أعمالاً قائمة بذاتها، ولكن كثيراً ما تكون متصلة بالزراعة سواء من حيث المناطق أو الأشخاص القائمين بها

(١) **نزهة المشتاق** (ط. د.) ٢١٣.
(٢) **مسالك الأبصار** (أحمد الثالث) ٣:١:٣٠٠.
(٣) يذكر الادريسي روايتين عن الحرير في جيان، احداهما ـــ ويبدو أنه أخذها عن مصدر أقدم ونقلها الحميري في روضه ـــ تقول بأن في جيان ما يزيد على ثلاثة آلاف قرية يربّى بها دود الحرير (أنظر **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٢٠٢، **الروض المعطار** ٧٠)، والثانية ـــ وهي ربما تعبّر عن وقته ـــ تقول بأن في جيان قرى تشف على ستمائة قرية يربّى بها دود الحرير (أنظر **نزهة المشتاق** (ط.د) ١٧٤).

أو لاعتماد الواحدة على الأخرى. فدراسة مثل هذه الأعمال المتصلة بالزراعة عمل مكمل لدراسة اقتصاد المغرب في القرن السادس/الثاني عشر.

الرعي

هناك نوعان من الرعي: الرعي المختلط بمناطق الزراعة والرعي شبه الصحراوي. ففي الحالة الأولى عادة ما يكون صاحب الماشية هو المزارع أو صاحب الأرض، بينما في الحالة الثانية لا يتعاطى صاحب الماشية مهنة غير الرعي. ويستطيع الناظر في الملحق الخامس من هذه الدراسة، على ضوء هذا التمييز بين نوعي الرعي، أن يتبيّن اتساع مناطق الرعي الصحراوي على حساب الرعي المختلط بمناطق الزراعة في البلاد الشرقية نتيجة للغزو الهلالي، باستثناء المناطق الحصينة التي احتفظت بزراعتها مثل تونس وسوسة وقسنطينة والمسيلة. كما يستطيع أيضاً أن يتبيّن ظهور الرعي المختلط بمناطق الزراعة بدرجة كبيرة في ساحل تل أطلس الشرقي. وفي البلاد الأندلسية يلمح بوضوح اتساع مناطق الرعي شبه الصحراوي في مناطق الزراعة لا سيّما في قرطبة وجيان وشلب والمنطقة بين شرق إشبيلية وبطليوس، حتى ان غنائم نصارى شمال إسبانيا إن أغاروا على هذه الجهات لا تكون إلاّ من الماشية والأغنام[1]، ولا يغنمون إلاّ أعداداً كبيرة حتى من منطقة صغيرة مثل استجة، حيث غنموا خمسين ألفاً من الغنم وألفين من البقر[2]، في مرة واحدة. وفي البلاد الغربية شمل الرعي المختلط بمناطق الزراعة مناطق الرعي شبه الصحراوي التي كانت قبل قيام دولة الموحدين.

ولا يقتصر ممتهن الرعي على نوع واحد من الحيوانات، وكثيراً ما تربى الأبقار والأغنام والخيول والبغال والجمال في منطقة واحدة، وذلك يعتمد على اختلاف البيئة الجغرافية. وبما أن بيئات المغرب تختلف جغرافيا فقد ظهر اختلاف في توزيع ثرواته الحيوانية في بيئاته المختلفة. لقد كانت منطقة الأغنام والأبقار في البلاد الشرقية هي جبل زغوان وبونة وشرشال والجزائر وجيجل وقسنطينة، وفي

(١) أنظر أمثلة في **البيان المغرب** ٤:٧٧، **بيان موحد** ٦٧، ٩٨، ١١١، ١٧٥-١٧٦.
(٢) **بيان موحد** ٩٨.

البلاد الغربية هي تلمسان وجبال غمارة وسهولها الغربية ومنطقة فاس وتادلا والسهول الساحلية الغربية والسوس وسجلماسة ودرعة، وفي البلاد الأندلسية منطقة قرطبة وجيان وشرف إشبيلية وشلب. وتجدر الإشارة الى أن الأبقار والأغنام كثرت في البلاد الغربية، وكثيراً ما كانت تصدر الى سواحل الأندلس الشرقية من تلمسان والى السواحل الغربية الأندلسية من سهول البلاد الغربية الساحلية. ومما يلفت النظر هنا أن البلاد الجريدية لم تعرف الأبقار مع كثرة ثمرها، مما يدعو الى الظن بأنهم لم يعرفوا تجارب العراق في طحن نوى التمر والرطب والبسر علفاً للبقر[1].

وكانت منطقة الخيول في البلاد الشرقية هي جبل زغوان والمسيلة والزاب الى منطقتي تلمسان وسجلماسة، حيث اشتهر بنو مرين بتربيتها، وخاصة بنو راشد في هضاب ونشريس؛ وفي البلاد الغربية كانت منطقة الخيول هي منطقة تلمسان ــ لا سيّما وجدة ــ وجبال فازاز وديار صنهاجة قبل قيام الدولة المرابطية وبعدها[2]. ولم يعرف عن البلاد الأندلسية وجبل درن انها مناطق منتجة للخيول، وهذا ربما ساعد في تفسير ظاهرتين: عسكرية وتجارية. فمن الوجهة العسكرية كانت قوة الموحدين ــ وهم في جبلهم بعد ــ تعتمد على ما يغنمون من خيل المرابطين[3]. ولعل هذا يفسر لم آثر عبد المؤمن فتح تلمسان ــ وهي منطقة الخيول الأساسية في البلاد الغربية[4] ــ قبل أن يفتح مراكش والسهول الغربية. كما يفسر حرص الموحدين على أفريقية وتلمسان على الرغم مما واجههم فيها من صعاب، لأن الخيول كانت جزءاً أساسياً من خراجها وإسهامها في حملات الموحدين على الأندلس[5] التي تفتقر الى الخيول حتى ان تلمسان قد فرض عليها في

(١) أنظر عن العراق **وفيات الأعيان** ٦:٢٥٥.
(٢) **وفيات الأعيان** ٧:١٢٨.
(٣) أنظر **نظم الجمان** ٨٢، ٩١، ٢٤٢-٢٤٣، **روض القرطاس** ١١٥.
(٤) يقول الحضرمي أن الفارس ليتجهز من تلمسان (أنظر ابن سعيد، **المغرب** ٢:٢٤٦).
(٥) **المن بالامامة** ٤١٩، **بيان موحد** ٩٠، **روض القرطاس** ١٣١. وتجدر الاشارة الى أن الموحدين تحالفوا مع زناتة أفريقية وتلمسان وهؤلاء أموالهم الابل والخيل (**روض القرطاس** ١٨٧).

سنة ٥٨٠/١١٨٤ سبعمائة فرس معونة للأندلس[1]. ومن الناحية التجارية أصبحت سوق الخيل في أشبيلية ومراكش من أهم الأسواق[2]. و يبدو أن الخيل المستوردة كانت نافقة في الأندلس لا لانعدام إنتاج الخيل وحسب، بل لأن الفارس الأندلسي كان يحتاج الى فرسين: واحد لركوبه والآخر لمن يحمل سلاحه، بينا لا يستعمل الفارس من البلاد الغربية أو الشرقية غير فرس واحد[3].

و يبدو أن جبل زغوان قرب تونس كان مصدر البغال الرئيسي. وللبغال أهمية كبرى في الحياة الاجتماعية، فهي ركوبة الخاصة[4]، وقد تستعمل في حمل الأثقال[5]، أو نقل المحاصيل في أفريقية[6].

وكانت منطقة الابل في البلاد الشرقية صحراء زناتة وبني مرين وبسائط باغاية في تل أطلس الشرقي لمزاته وضريسة البربريتين. وتكاثرت مناطق الابل فعمت البلاد الشرقية، باستثناء ساحل تل أطلس الشرقي، مع الهلاليين. وفي البلاد الغربية كانت مناطق الابل درعة وسجلماسة وصحراء صنهاجة، ومع الفتح المرابطي انتشرت مناطقها في سهول البلاد الغربية الساحلية حتى ان اختيار مراكش عاصمة للمرابطين كان بسبب بسائطها التي تصلح مرعىً لإبلهم[7]. ومما يدل على انتشار الابل مع الفتح المرابطي أن الأندلس عام الزلاقة عرفت الابل في الحرب؛ و يبدو أن الابل ظلت تستعمل في تنقلات العساكر[8].

أما منطقتا الحمير فقد كانت أفريقية ودرن[9]، بينما كانت تكثر الخنازير في

(١) **بيان موحد** ١٤٢.

(٢) أنظر عنهما **التكملة** ١:١٧١، ٢:٦٢٦، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٤٩ق.

(٣) **مسالك الأبصار** (أحمد الثالث) ٣:١:١٤١.

(٤) **العطاء الجزيل** (مخ) ٥٣-٥٤، **المعجب** ١١٣، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٤٨ق، **صبح الأعشى** ٥:١٦١.

(٥) **الاحاطة** ١:٤١٥.

(٦) **المعجب** ٢٢٥.

(٧) **البيان المغرب** ٤:١٩-٢٠، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٤٩ق-٥٠و.

(٨) أنظر الاشارة الى ذلك في **الحلة السيراء** ٢:٢٢٠.

(٩) **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٣٠و، **صبح الأعشي** ٥:١١٣.

الأندلس[1]. والجدير بالذكر أن الكلاب كانت تسمن بغرض الأكل في البلاد الجريدية وسجلماسة، كما يبدو أن بعض الكلاب كانت تربى لأغراض الحراسة وتباع بسعر مرتفع فقد بيع واحد بخمسة دنانير[2].

و يبدو أن العادة هي أن يقوم أصحاب الماشية بالرعي في مناطق الرعي شبه الصحراوي إذ لا ترد إشارة عن استئجارهم لعمال رعي أو حراسة، بينما يختلف الحال في مناطق الرعي المختلط بالزراعة، حيث ان أرباب الماشية غالباً ما يكونون هم ملاك الأراضي أو الفلاحين. والملكية قد تكون عشرين بقرة أو مائتي شاة أو أربعمائة رأس أو قد تصل إلى ألف أو ألفين[3]. وفي حال الملكيات الصغيرة قد يقوم رب الماشية برعيها بمساعدة زوجته التي قد تساعد أيضاً في بيع اللبن ومستخرجاته[4]. وقد يجمع جماعة مواشيهم فيتناوبون العمل رعياً وحراسة[5]، أو يستأجرون راعياً وحارساً مثلما يصنع كبار الملاك[6]. وربما يكون الأجر مياومةً أو مسانهة، و يتفاوت بين رغيفين في اليوم وعشرة دنانير في السنة[7]. ومن مشكلات الرعي شبه الصحراوي في العهد المرابطي كثرة حوادث الغصب حتى أفتى بعض الفقهاء بجواز التعامل شراءً وهديةً بالمال المغصوب إذا لم يعرف أصحابه[8]. ومن مشكلات الرعي شبه الصحراوي وذلك المختلط بمناطق الزراعة

(١) بالاضافة الى مصادر الملحق الخامس أنظر **رسالة الجرسيفي** ١٢٢، **المعيار** ٨:١٢٧، ١٦٨، مؤنس: « الثغر الأعلى الأندلسي » ١٣٣، **وفيات الأعيان** ٥:٥٠.

(٢) ابن سعيد، **المغرب** ٢:١٨٦.

(٣) أنظر **نوازل ابن رشد** (مخ) ٩٥و، ١٣٢و، ١٤٨و، ٢٠٧ق، **المعيار** ٨:١١٤، ٩:٣٠٥، **بيان موحد** ٥٧.

(٤) **أخبار المهدي** ٦١، **المعجب** ٣٣٩، **المعيار** ٧:٤٥، **الجواهر المختارة** (خ) ١:١٦٠.

(٥) **المعيار** ٨:٢٠٥ وما بعدها.

(٦) أنظر **نوازل ابن رشد** ١٤٨و، **المعيار** ٤:١٥٥، ٥:١٨٨، ٨:١٦٦، ٢٠٥، ٢١١، **أخبار المهدي** ١١٨، **التشوف** ١٠٦، ١١٤، ١٩٧، **القرطاس** ٤٠، ٤٢، ٨١، **بهجة الناظرين** (مخ) ١١٢، **تحفة القضاة ببعض مسائل الرعاة** (مخ) ١٣و.

(٧) راجع **التشوف** ١٩٧، **المعيار** ٨:١٦٦، ٢١١.

(٨) أنظر عنها **المعيار** ٥:٦٠ وما بعدها ويمثل هذا الرأي ابن رشد خاصة ويخالفه ابن الحاج الذي لا يرى فيها عير الهدية (راجع **المعيار** ٥:٤١٠ وما بعدها).

ضياع الماشية أو اختلاطها في أيام الفتن أو حين يضرب العدو على ديار المسلمين. وتبرز هذه المشكلة بصورة كبرى في البلاد الأندلسية خاصة[1]. ومن مشاكل الرعي المختلط بمناطق الزراعة النزاع المستمر على المسارح[2] وإفساد الماشية للزرع[3]، حتى ان بعض الصالحين تحرز في مكسب ما يرعى في أرض الغير[4].

تربية الدواجن

كان الفلاحون يربون الحمام والدجاج بغرض أكلها وبيعها والاستفادة من زبلها في إصلاح الأرض. وكانت أبراج الحمام تنتشر في فحص غرناطة على مدى أربعين ميلاً. ويبدو أن الفلاحين بالتجربة ربطوا بين طرق الغذاء وإنتاج الدجاجة فيقول ابن خلدون أن مما اكتشفوه أن الدجاج إذا غذيت بالحبوب المطبوخة في بعر الأبل، واتخذ بيضها ثم حضن، جاء الدجاج منها أعظم ما يكون في الحجم. وقد يستغنون عن ذلك بطرح البعر مع البيض المحضن[5].

تربية النحل

إن الاتجاه نحو البستنة، نتيجة لانعدام الأمن في البلاد الشرقية والأندلسية واتساع الزراعة في البلاد الغربية وادخال محاصيل جديدة فيها تلبية للحاجات المستجدة، أدى الى انتشار أجباح النحل في المغرب، فكثر إنتاج العسل في مغرب القرن السادس. في البلاد الشرقية كانت منطقة الإنتاج قبل الغزو الهلالي جلولا وبونة بينما أصبحت هضاب تل أطلس الشرقي وخاصة قسنطينة المصدر الأساسي للعسل. ولم تعرف البلاد الغربية إنتاج العسل بكميات كبيرة قبل الفتح المرابطي، بينما كثر ذلك في العهدين المرابطي والموحدي، خاصة في ساحل تلمسان ومنطقة البصرة وتادلا وأرض دكالة وبلاد حاحة ـــ التي اختصت بعسلها

(١) **المعيار** ١٠:١٧٢، **المن بالامامة** ٣٥٧، ٣٩٧، ٥١٨-٥١٩، **العطاء الجزيل** (مخ) ٥٣-٥٤.
(٢) راجع عدة نوازل في **المعيار** ٨:٨٦ وما بعدها.
(٣) **أجوبة نفيسة** (مخ) ٢١٥ وما بعدها.
(٤) **التشوف** ١١٥.
(٥) **العبر** ١:٩١.

الأبيض ـــ والسوس. وفي البلاد الأندلسية عمّ الإنتاج لا سيّما في جيان وقرمونة وقصر أبي دانس وباجة وشلب.

الصيد

كان الصيد بقصد المتعة والاستفادة من اللحوم مثل الصيد البري في قصر عبد الكريم وجبل درن، أو بقصد التجارة مثل صيد الفنك في البلاد الجريدية، واللمط في صحراء صنهاجة لجلودها، وصيد الخواص في بحيرة بنزرت لفرائه، وصيد النعام في البسائط بين مراكش وسلا لبيع بيضها والاستفادة من شحمها في العقاقير. وفي مراكش، حيث يؤكل الجراد، كان يصاد الجراد ويباع منه فيها ثلاثون حملاً كل يوم. وكان السمك أكثر ما يصاد في المغرب في السواحل عند تونس وبنزرت وبونة وقصر عبد الكريم وسبتة والمعمورة وسواحل الأندلس خاصة المنكب، وفي الأنهار مثل نهر المسيلة ونهر سبو ووادي وانسيفن. ويستعمل صيادو تونس النقارة بينما تستعمل في سواحل الأندلس الشباك[1]. ويحمل السمك الى المناطق الداخلية طرياً محفوظاً في العسل أو مجففاً. والجدير بالذكر أن اصطياد السمك في البلاد الغربية كثر خلال القرن السادس.

من كل ما سبق مناقشته يتضح أن البلاد الغربية أصبحت خلال القرن السادس منطقة الإنتاج الرئيسية في المغرب فيكف أثر هذا التحول في وضع الصناعة والتجارة؟

(١) ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٠٧، ١٢٠.

الفصل الرابع

الصناعة

الفصل الرابع

الصناعة

يعنى بالصناعة في هذه الدراسة تصنيع الإنتاج الزراعي وما يتصل به واستنباط المعادن وتصنيعها، والاستفادة من ذلك كله في متطلبات الإنسان الضرورية والكمالية[1]. ولا تجيء دراسة الصناعة مكتملة بغير النظر في ثلاثة عوامل تؤثر في الوضع الصناعي ازدهاراً أو اضمحلالاً. والعوامل الثلاثة هي: نظرة المجتمع الى العمل، وموقف الدولة منه، وأوضاع العمال من حيث علاقتهم بربّ العمل وخبراتهم الفنية وقدراتهم التقنية ومستواهم المعيشي.

نظرة المجتمع الى العمل

كان الغالب على المغاربة في القرن السادس أنهم يعجبون بالصناعة ويحبون تعلم حرفها و يكرهون القصور فيها.[2] والمهن لا تذم إلاّ لقلة عائدها أو قصور القائم عليها عن إتقانها[3]. ومع أن أرباب رؤوس المال قد يستأجرون العمال

(١) يقسم ابن خلدون الصناعة الى معينة وغير معينة؛ الأولى مثل النجارة والثانية مثل القضاء والفتيا والخطابة والتدريس (أنظر طرشونة: « نظرية ابن خلدون في الاقتصاد » ٩٦٦)، وصنف الصناعة « المعين » هو ما يعني به هذا الفصل.

(٢) **أمثال العوام** (الأطروحة) ١:٢٣٣ وما بعدها ومصادره في ذلك.

(٣) أنظر **أمثال العوام** خاصة رقمي ٥١١ و٦٦٤ وصفحتي ١١٥ و ١٤٨.

للقيام بعملهم، فقد كان بعضهم يحترف مهنة كراهية العطالة[١]. ومن ضاق حاله بعد يسر وعلو منزلة وفقدان رئاسة أو ملك أو وظيفة لا يجد غضاضة في التعيش من صنعة يحترفها[٢]. وبعض الشعراء وأهل العلم والخطط قد يستنكفون أن يأخذوا عطاء السلطان موثرين أن يأكلوا من كد أيديهم أو يجمعون مع عطائه صنعة تحسباً لنوائب الدهر.[٣] وتجد النساء العاملات يشترطن في عقود نكاحهن ألاّ يمنعن ممارسة صنائعهن[٤]. وعلى الرغم من أن القرن السادس كان عصر انتشار التصوف في المغرب، فقل ما تجد متصوفاً ترك عمله زهداً[٥]، بل الغالب على متصوفة الفترة هذه اتخاذ الحرف رمزاً للتواضع والزهد والتعبد[٦]. ولا غرو بعد هذا ان شاعت النسبة الى المهنة، مثل الدبّاغ والدبّاج والأبّار والجيّار والرفّاء، إلى جانب النسبة إلى المدينة أو القبيلة في تراجم رجال القرن السادس. ويبدو أن الاقبال على الصنائع انتقل مع المغاربة في القرن السادس حيث رحلوا. يذكر المقريزي أن ما يقارب الألفين من المغاربة كانوا يعملون بالأجر في حمامات معسكر صلاح الدين في حصاره على عكا[٧]. وينبغي ألاّ يظن بأن هذا الاقبال على العمل كان يشمل طبقات المغاربة كلها، فقد سبقت الإشارة الى هجرات الأندلسيين ــ لا سيّما الكتاب منهم ــ الى البلاد الغربية ثم الشرقية طلباً لتولي الخطط السلطانية.

---

(١) راجع **التكملة** ١:٩٣-٩٤، **الغصون اليانعة** ١٣٧.

(٢) راجع أمثلة في **الذخيرة** ٣:٣٢٣، **القلائد** ٢٨، **زاد المسافر** ٦٦، **وفيات الأعيان** ٣:٩٣، ٥:٣٥، ٣٨، **الحلة السيراء** ٢:٧٦، ٧٧، **الذيل والتكملة** ١:١٣٥، **أعلام الأعلام** (ط. ليفي)، ٦٤، **نفح الطيب** ٣:٥٣٣.

(٣) أنظر A.R. Nykl, **Hispano-Arabic Poetry**, pp. 326-7 **التكملة** ١:١٢١، ابن سعيد: **المغرب** ٢:٢٨٣، ٣٧٣، **الذيل والتكملة** ١:٣٠٥، ٥:١:٣٢١، ٤٢٦، **روض القرطاس** ٢٣، ٢٤.

(٤) راجع **المعيار** ٦:٢١٢ وما بعدها.

(٥) **النجم الثاقب** (مخ) ٥٥و.

(٦) **المقصد الشريف** (مخ) ٧٣ق، **فهرسة عياض** (مخ) ٤٨، **الذيل والتكملة** ٥:١:٣٠٦، ٥:٢:٦٦٧، **التشوف** ٦، ٧٩، ١٠١-١٠٢، ١٥٩.

(٧) **السلوك** (ط. زيادة) ١:٩٤.

موقف دول القرن السادس من العمل

إن المعلومات المتوفرة في مصادر هذه الدراسة عن موقف بني باديس وبني حماد والمرابطين قليلة نادرة. ومن هذا القليل يمكن القول بأنه لم تكن لبني باديس سياسة مشجعة على التصنيع، وذلك لضعف الزراعة وتوقف التعدين وقلة الصناعات المعدنية بسبب الغزو الهلالي للمناطق الداخلية والهجوم النورماني على جهات الساحل. وكان حظ بني حماد أفضل من بني عمهم، إذ شهدت مناطقهم الساحلية ازدهاراً زراعياً لأنها عاشت بمنأى عن الخطرين (الهلالي والنورماني)، فقامت صناعات ناشطة نسبياً بتشجيع الدولة الحمادية التي وفرت باسطولها حماية الساحل ونقل المواد بين جهاته، حتى قيل ان صاحب بجاية كان يضاهي صاحب مصر[١].

أما المرابطون فقد فرضوا الأمن في البلاد الغربية والأندلسية منذ قيامهم الى ردح من إمارة علي بن يوسف، وتأقلموا بسرعة مع الحضارة الأندلسية، وقامت نهضة زراعية في البلاد الغربية لم تعرف قبلهم. وكل هذا كان من العوامل التي ساعدت على قيام صناعات جديدة في البلاد الغربية، وتطوير القديم منها في البلاد الأندلسية، لا سيّما وإن الدولة قد كانت بحاجة كبيرة الى الصناعات الحربية ومواد المعمار وأدواته، فضلاً عما احتاجه الترف الذي دب في حياة المرابطين من متطلبات. ولما كانت البلاد الغربية هي مركز السلطان السياسي ومكان الصناعات الجديدة، فقد نقلت الدولة الخبرات الأندلسية الى البلاد الغربية وشجعتها في شتى المجالات[٢] خاصة في مجالي البناء والهندسة، فاستفادوا من خبرات الأندلسيين من أمثال عرفاء البنائين مثل أبي يحيى العتاد[٣] وصخر بن مسعود وأبي عبدالله محمد الخولاني[٤] والمهندس عبدالله بن يونس[٥].

---

(١) **الاستبصار** ١٣٠.

(٢) أنظر مثلاً هجرة أسرة بني جامع الذين كانوا صناع أواني نحاسية في **المعجب** ٣١٠.

(٣) **روض القرطاس** ٣٥.

(٤) **المصدر ذاته** ٣٦.

(٥) **نزهة المشتاق** (ط.د) ٦٧-٦٨.

واضطرت الأزمة المالية علي بن يوسف لفرض ضرائب باهظة، وقد سبقت الإشـارة الى آثارها بالنسبة للزراعة؛ ويبدو أن الشيء ذاته حدث بالنسبة للصناعة، ففرض على كل الصناعات قبالات[1] كانت من أشد ما أنكره ابن تومرت على المرابطين ــ وقد استثمر ذلك في دعايته السياسة في ثورته عليهم[2] ــ هذا عدا عما ترتب على ثورة الموحدين من انجلاء الناس عن البلاد الغربية الى الأندلسية وهروب الخبرات.

ولما نجحت الثورة الموحدية حرص عبد المؤمن على حماية الصناع، ونهى المصامدة عن قتل العامة في مراكش ساعة فتحها لأنهم الصناع الذين ينتفع بهم[3]؛ وعندما قتلت قبيلة مكناسة الفحامين في جبلهم أعمل السيف في مكناسة تأديباً وعقاباً[4]. وأسقط جميع القبالات عن الصناعات. وسار خلفاؤه على نهجه[5]، فقد جرد يوسف حملتين قادهما بنفسه على صنهاجة الجبل وأهل السوس لما اعتدوا على العدانين في تينك المنطقتين[6]، وبنى حصناً على مقربة من مكان التعدين في زجندر من السوس لسكنى الصناع[7]. ويبدو أن محاولة إعادة تعمير قرطبة في سنة ١١٦٢/٥٥٧[8] تشكل جزءاً من سياسته في استغلال المناجم واستصلاحها[9]، لأن قرطبة كانت مركزاً هاماً للمعادن في الأندلس حسبما سيأتي بيانه.

والراجح أن الضرائب على الصناعات في الفترة الموحدية قد قررت حسب

(١) المصدر ذاته ٧٠.
(٢) أنظر ما سبق، فصل الزراعة ص ٢١٢ وما بعدها والمصادر المذكورة هنالك.
(٣) **الكامل** ١٠، ٥٨٤-٥٨٥.
(٤) **أخبار المهدي** ١٠٩-١١٠.
(٥) أنظر الزراعة ص ٢١٩، والمصادر المذكورة هنالك.
(٦) **أخبار المهدي** ١٢٣، ١٢٨، **بيان موحد** ٧٦-٧٧.
(٧) **المعجب** ٣٦١، **روض القرطاس** ١٣٩.
(٨) **المن بالامامة** ٢٠٦.
(٩) أنظر عن هذه السياسة أشباخ: **تاريخ الأندلس** ٢:٢٥٤.

دخل الصناع وترك تقديرها وتحصيلها لأمين كل صنعة في كل مدينة[1]. ويقوم هذا الأمين برفعها الى مشرف (صاحب أعمال) مدينته الذي يحتفظ بإحصاء لكل الصناعات وأربابها وعمالها[2]. وكان المنصور يحرص على الاجتماع بأمناء الصناعات مرتين في كل شهر لتفقد سيرتهم في أسواقهم[3]. أما المعادن فقد فرض عليها الموحدون الخمس، وإن امتنع أهل معدن عن إعطائه، سيّر الموحدون عليهم حملة عسكرية، كالذي فعله يوسف في السوس لما ظهر معدن جديد وامتنع أهله عن إخراج حق الدولة[4]. والظاهر أن الموحدين قد عينوا قاضياً في كل معدن حتى يؤكدوا حق الدولة فيما يستخرج[5]. ولا ترد إشارة عن مشاركة الدولة الموحدية لأرباب الصنائع في ملكية مصانعهم أو معادنهم، مثل الذي فعلت الدولة الموحدية بالنسبة للأراضي والعقارات مما يؤكد ما ذهبنا إليه سابقاً من أن المشاركة تلك إنما كانت سياسة زراعية فقط.

ومما شجع الصناعة في ظل الموحدين ازدياد حاجة الدولة للصناعات العسكرية، واتساع نطاق المعمار خاصة في البلاد الغربية، وامتداد أثر الحضارة الأندلسية الى جميع الطبقات في البلاد الغربية، حتى ان قصور الخاصة أصبحت مكتفية ذاتياً في كل نواحي الحياة[6]، ومن ثمّ زاد الطلب على أشياء الترف وأدوات الزينة والزخرف. فأكمل الموحدون ما بدأه المرابطون من استجلاب الخبرات الأندلسية الصناعية الى البلاد الغربية في مختلف الصنائع[7]. واستفادت

(١) سيأتي شرح أمين الصنعة في الحديث عن تنظيمات المهن وعن طريقة تحصيل الضرائب راجع **العطاء الجزيل** (مخ) ١٣٧، **عنوان الدراية** ١١٥.
(٢) **روض القرطاس** ٢٥-٢٦.
(٣) **المعجب** ٢٨٥.
(٤) **بيان موحد** ١٢٠.
(٥) نعرف من هؤلاء القضاة أبا عبدالله الرعيني الذي تولى قضاء معدن عوام قرب فاس (أنظر **التكملة** ٢:٥٦٠، **العلوم والآداب** ٢٦٠).
(٦) أنظر رواية ابن سعيد في **مسالك الأبصار** ٤:٤٨ق، **صبح الأعشى** ٥:١١١.
(٧) **نفح الطيب** ٣:١٥٣.

الدولة الموحدية من المبرزين في كل صناعة مثل أحمد بن باسة[1] وابن الليث الصقيلي[2] وأبي الحسن ابن محمد الأزرق وأبي شامة الجياني[3] في البناء، وعمر بن مرجى الإشبيلي في الزخرفة[4]، والحاج يعيش المالقي المعروف بالأحوص في الهندسة الميكانيكية والمساحة[5]. ولا ريب أن ما قام به عبد المؤمن من مسح للبلاد الشرقية والغربية لتقدير الضرائب على أراضيها قد احتاج الى خبراء في المساحة كثيرين، وربما كان ابن حسان القضاعي أحدهم[6]، واستفاد الموحدون من ابن النقرات في الكيمياء[7] وابن رشد الحفيد وابن طفيل وابن جعفر الذهبي، وغيرهم، في الطب والصيدلة[8]، هذا عدا عن اعداد كبيرة من النساخين والوراقين سيرد الحديث عنهم في الوراقة.

ولعله من المفيد أن نشير هنا الى أن الخبرة الصناعية في العصر الموحدي لم تعد تقتصر على الأندلسيين، فقد برز عدد من أهل البلاد الغربية في مختلف الصنائع، حتى ان الموحدين إن أرادوا تشييد عمارة في الأندلس أصبحوا يستدعون عرفاء البنائين من مراكش وسبتة وفاس وبقية مدن العدوة المغربية[9]. وبرز من أهل البلاد الغربية في الصنائع عدد كبير، وعلى سبيل التمثيل نذكر السيد أبا الحسن علي بن يوسف بن عبد المؤمن في البناء وهندسة الري[10]، وعلي الغمارى في البناء[11]، وسعيد الغمارى في الطب[12] وأبا علي المراكشي في الهندسة، وله كتاب

(١) المن بالامامة ١٣٩، ٣٠٦، ٤٧٤، ٤٨١.
(٢) روض القرطاس ١٥١.
(٣) روض القرطاس ٣٦، ٤٦، جذوة الاقتباس ٤٥، زهرة الآس ١٤.
(٤) المن بالامامة ٤٤٠.
(٥) رسائل موحدية ٩٧.
(٦) أنظر مقدمة سوق المهر: د.
(٧) جذوة الاقتباس ٣٠٥.
(٨) أنظر عنهم وعن غيرهم ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢:٦٦-٨١.
(٩) أنظر المن بالامامة ٤٧٤.
(١٠) الغصون اليانعة ١٥٠-١٥٢.
(١١) المن بالامامة ٤٨٢.
(١٢) وفيات الأعيان ٧:١٣٧.

في القطوع المخروطة[1]. ويبدو ان هذا الاتجاه في اكتساب الخبرات الصناعية قد بدأ بصورة بطيئة منذ أيام المرابطين، فقد روى أن ابن تاتلي من أولاد الملثمين كان طبيباً[2]. ومن هنا يبدو أن ابن غالب قد بالغ في روايته حينما قال بأن أهل الصنائع من الأندلسيين، نتيجة لتفوقهم في صنائعهم، قطعوا معاش رصفائهم من أهل البلاد الغربية «وصيروهم أتباعاً لهم ومتصرفين بين أيديهم»[3]. وربما يصح قوله على بداية الأمر أيام المرابطين دون العصر الموحدي.

أوضاع العمال

أ ـ أرباب العمل

تشير النوازل الى الملكية في المعادن وآلات العمل من أرحاء وأفران وحمامات وملاحات ومعاصر ومطاحن ومناسج. وللنساء نصيب في هذه الملكيات[4].

وتتفاوت ملكية الشخص الواحد من الارحاء والمعاصر بين الواحدة والعشرة[5]، وقد يشترك غير واحد في ملكية رحًى واحدة[6]، وقد يمتلك شخص واحد اثني عشر زوجاً من المطاحن في أسرتها[7]، بينما الغالب في ملكية المعادن وصناعة الأجبان اشتراك غير شخص، وربما بلغ عدد الشركاء ستة عشر شخصاً[8]. والظاهر أن كثيراً من هؤلاء الملاّك ينتمون الى الفقهاء أو ذوي النفوذ الإداري[9]. ويبدو أن

(١) وكتابه مفقود؛ أنظر عنه العلوم والآداب ١٠٦.
(٢) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء ٢:٢٠٣-٢٠٤.
(٣) نفح الطيب ٣:١٥٢.
(٤) أنظر عنهن نوازل البرزلي (مخ) ٢٠٧ق، المعيار ٥:٢٢٢ وما بعدها، ٨:١١٤، ٩:٤٠٨ وما بعدها، ١٠:٦٦.
(٥) المعيار ٩:٤٠٨ وما بعدها، الحلة السيراء ٢:٢٦٠، نوازل ابن رشد (مخ) ٧و-٧ق.
(٦) نوازل البرزلي (مخ) ٢٠٧ق، المعيار ٦:٣٥٥، ٨:١١٤، ٩:٤٠٩ بيان موحد ١٦.
(٧) المعيار ١٠:٦٦.
(٨) نوازل البرزلي (مخ) ٢٠٨ق، نوازل ابن رشد (مخ) ١٤٣و، المعيار ٨:١١٥، ٩:٩١، الشرايبي: الرماح (مخ) ٦٦ق-٦٧و.
(٩) الحلة السيراء ٢:٢٦٠، المعيار ٥:٢٢٢.

دَخْلهم من هذه الملكيات كان كبيراً، فقد التزم أحدهم بجراية معلّم للحديث في جامع القرويين تسعة أعوام، وهي أربعمائة دينار سنوياً، بالإضافة الى ما يحتاجه من كسوة ومؤن مواسم[1]. وقلما يقوم المالك بالخدمة[2]، وغالباً ما يستأجر عمالاً يشتغلون تحت إشرافه ــ وهذا النوع من العمال هو ما تسميه النوازل بالعامل الخاص ــ[3] و يكون عددهم في مركز التعدين نحو ألف عامل[4].

وفي بعض الحالات يلجأ الملاّك الى تأجير آلة الصناعة الى مستثمر أو صناع. وهناك ثلاثة أنواع من الكراء: الأول أن يكون الأجر معلوماً والأجل معلوماً[5]؛ والثاني أن يفرض رب الآلة على الصانع مبلغاً معيناً من المال على كل قطعة تنسج أو كمية تعصر أو تطحن[6]؛ والثالث أن تكون أجرة الكراء نصف الدخل أو ثلثه أو ربعه[7]. وعادة ما تكون شروط الكراء لمصلحة الملاك، ومجحفة بالمستثمرين والصناع، فكثيراً ما يشترط أولئك على هؤلاء بناء ما تحتاجه الرحى أو الملاحة أو الحمام أو الفرن من بناء[8] أو صيانة ما هو قائم[9]، وترك القديم على حاله التي كان عليها عندما بدأ العقد أو وفق شروط تملى على حسب رغبة المالك. و يبدو أن الملاك كانوا يطالبون بالأجر حتى عندما تتعطل الآلة عن العمل بسبب جائحة تعم البلد[10]. و يشترطون عصر زيتونهم وطحن قمحهم بلا أجر[11]. ومثل هذه الأنواع من الكراء كانت تسمى في الفترة المرابطية

(١) الذيل والتكملة ١:٢٤٠-٢٤١.
(٢) مثاله أنظر المعيار ٥:٢٢، ١٠:٦٦.
(٣) أنظر كشف القناع عن مسائل الصناع (مخ) ٣٩و-٤٠و.
(٤) نزهة المشتاق (ط.د.) ٢١٤.
(٥) نوازل ابن رشد (مخ) ٧و-٧ق، عباس: « نوازل ابن رشد » ٣٥، العقد المنظم للحكام (مخ) ٨٠و، المعيار ٨:١٧٨.
(٦) المعيار ٨:١٩٦.
(٧) المعيار ٨:١٨٢، الجواهر المختارة (مخ) ١:١٧٤، العقد المنظم للحكام (مخ) ٨٠ق.
(٨) أنظر مصادر الحاشية السابقة والصفحات ذاتها.
(٩) المعيار ٨:١٦٩، ١٧٨ وما بعدها، ١٠:١٦٧.
(١٠) عباس: « نوازل ابن رشد » ٣٧، المعيار ٨:١٦٩، ١٨٠، العقد المنظم للحكام (مخ) ٨٠و-٨٠ق.
(١١) المعيار ٥:١٢٢، عباس: « نوازل ابن رشد » ٣٥.

بالقبالات[1]، ولعل هذا يفسر ثورة ابن عبدون على المتقبلين، ويجعلهم شر أهل الأرض، كما يفسر ثورة الموحدين على الظاهرة نفسها، مما يبعث على الظن أن الثورة الموحدية لم تكن على الدولة المرابطية وحدها بسبب ما فرضت من ضرائب، وإنما كانت أيضاً تستهدف كبار الملاّك سواء ملكوا الأرض أم أدوات الصناعة وآلاتها.

ب ــ الصناع وخبراتهم ومستواهم المعيشي:

وكان المغاربة يطلقون على من يعملون في الصناعات لفظ « الصناع »[2]، و يشير إليهم الموحدون في تنظيماتهم الحزبية بمصطلح خاص هو « عبيد المخزن »[3]، وهذا تعبير له دلالته إذ يعني أن الصناع هم خدام الدولة. وهناك ثلاثة أصناف من الصناع: الأول الصانع الخاص ــ وقد سبقت الإشارة إليه ــ؛ الثاني الصانع المشترك، وهو ليس بأجير عند ربّ عمل، وإنما يجلس للعمل ويخدم كل من يقدم إليه حاجته[4]؛ والثالث هو الصانع المتجول مثل صانع الأواني الحديدية أو الخشبية المخروطة، و ينتقل من بلد الى آخر حسب العرض والطلب[5].

ولم يكن الصناع رجالاً فحسب، بل كان بينهم عدد كبير من النساء، وجلّ صناعتهن النسيج والغزل[6]. و يلاحظ أن الأسرة كانت تساعد ربها في مهنته،

(١) المعيار ٨:١٧٨.
(٢) أنظر أخبار وتراجم أندلسية ٢١، المن بالامامة ٣٥١، ٣٥٢، رسالة السقطي ٦٢، وما بعدها، بيان موحد ٧٥، المعيار ١٢:٤٤.
(٣) مسالك الأبصار (آيا صوفيا) ٤:٣٢و.
(٤) كشف القناع عن مسائل الصناع (مخ) ٣٩و-٤٠و.
(٥) الذيل والتكملة ٥:١:٣٢١.
(٦) راجع رسالة ابن عبدون ٥٥، نزهة المشتاق (ط.د.) ٦٢، كتاب الجغرافية ١٠٢، المعجب ١٥٥، التشوف ٨٤، ١٢٥، أعمال الأعلام (ط.ليفي) ٦٤، الجواهر المختارة (مخ) ١:١٦٤، مناقب أبي العباس السبتي (مخ) ١٠٣و.

فتجد الزوجة وأبناءها يساعدون الأب في صنعته[١]، فغلبت الوراثة في الصنائع[٢]، ومن يحاول أن يشذ عن مهنة آبائه ربما وجد تثبيطاً في أول أمره[٣].

و يبدو أن حصر أهل كل صنعة في سوق واحد، مثل سوق الوراقين والطوابين والفخارين والعطارين والصباغين والدباغين،[٤] جعل تنظيم الصناع على أساس المهن أمراً ميسوراً، فتجد على رأس كل مهنة رئيساً قد يسمى في الفترة المرابطية بالرئيس أو المقدم أو العريف المقدم أو الأمين[٥]. و يكون تعيينه عادة من قبل القاضي أو المحتسب، وواجبه حل المشكلات بين أهل صنعته ومساعدة الدولة في كشف أساليب مكرهم وغشهم ومراقبة الإنتاج وجودته، ولهذا يتعين أن يكون من أهل الحذق في مهنته[٦]. وفي العصر الموحدي كان رئيس الصنعة غالباً ما يدعى عريفاً أو أميناً[٧]. وكان المنصور يعين أمناء الصناع في مراكش، ويجتمع بهم مرتين كلّ شهر. وأضاف الموحدون الى واجبات أمين الصنعة تحصيل ضرائب أهل مهنته في بلدته حسب ما سبقت الإشارة إليه. والجدير بالذكر أن أهل الصناعات لم يكونوا يتميزون بلباس مختلف فحسب، بل ان أهل الصنعة الواحدة قد يتميزون بلباس مختلف من منطقة الى أخرى[٨]. وفي كل مهنة نجد المعلم

(١) مثاله في **الوافي بالوفيات** (مخ) ٧:٥٨.
(٢) أنظر أمثلة في **التكملة** ٢:٤٨١، ٥٩٣، **الذيل والتكملة** ٥:١:٣٧، ١٩٨، **طبقات الأمم** ٨٤ ابن أبي اصيبعة، **طبقات الأطباء** ٢:٦٤، ١٨١، **معجم الصدفي** ٢٤٥-٢٤٦، **برنامج الرعيني** ٨٨، **الغصون اليانعة** ٣٦، ابن سعيد، **المغرب** ٢:٣٢١، **الديباج المذهب** ٦٩.: والجدير بالذكر أن وراثة المهن قد رافقها منذ تأسيس فاس حصر المهنة في قبيلة واحدة، إذ ان ادريس لما اختط المدينة وأنزل القبائل بها أمر كل قبيلة أن تحترف ما لا تحترفه الأخرى (أنظر **قصة المهاجرين** (مخ) ١ق).
(٣) مثاله في **الذيل والتكملة** ٥:١:٢٢٩-٢٣٠.
(٤) أنظر الاشارات الى هذه الأسواق في **نظم الجمان** ١١٨، **بيان موحد** ٣٠٢، **روض القرطاس** ٢٦، **التكملة** ٢:٦٤٣، ٨٨٢، **الذيل والتكملة** ١:٢٧٢، ٢٠٦، **التشوف** ٣٠١، ٣٣٨، ٣٨٨، ٤٠٥، **الاحاطة** ١:٤١٩، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٥٠و، ٥٩ق.
(٥) **رسالة ابن عبدون** ٣٩، ٥٣، ٥٧، **رسالة السقطي** ٣٩، ٥٦، **أخبار المهدي** ٦٥، **التكملة** ١:٣٣٤.
(٦) **رسالة ابن عبدون** ٢٤، ٥٧، **رسالة السقطي** ٩، **رسالة الجرسيفي** ١٢٥.
(٧) **الاحاطة** ١:٤١٩، **المن بالامامة** ٤٧٤، ٤٨١-٤٨٢، **المعجب** ٢٨٥.
(٨) **المن بالامامة** ١١٧ حيث يذكر أن لبس زياتي قرطبة يختلف عن لبس زياتي اشبيلية.

والعامل والمتعلم. و يبدو أن معلمي الصنائع كانوا يطغون على عم اكتشفت الدولة غشاً في صنعة أحدهم أدعى أنه من فعل ء للضرب والهوان[١]. ومن الضروري القول بان هذه التنظيمات لا تعني النقابـ بمفهومها المعاصر لأنها لا تقوم على تكتل مطلبي، وإنما هي مؤسسة تخدم الدولة في تسيير الأمور.

وأغلب الظن أن وضع الصناع كان تعيساً، وحياتهم حياة تعب ونكد، ودخلهم يكاد لا يقيم الاود[٢]. ولهذا فقد يتخذ الصانع غير مهنة في وقت واحد[٣]. وربما تفننوا في أساليب الغش في أعمالهم، وخاصة صناع المحاشي ورفو الثياب والحاكة[٤]، مما جعل القاعدة عند الفقهاء هي تضمين الصانع المشترك ثمن ما يضيع منه[٥].

الصناعات الزراعية وما يتصل بها

إن مراكز هذه الصناعات قد تأثرت الى مدى بعيد بالتيارات التي أثرت في الهجرات السكانية والزراعة وظروف الأمن. وسيلمح القارئ أن الصناعات الزراعية تركزت بصورة عامة في ساحل تل أطلس الشرقي من البلاد الشرقية، وفي مناطق شرق الأندلس وجنوبها. وشهدت البلاد الغربية تطوراً كبيراً في الصناعات الزراعية لم تعهده من قبل.

النسيج

توقف إنتاج الحرير في البلاد الشرقية وأخفق الموحدون في أحياء طرز الحرير

(١) **رسالة السقطي** ٢٦-٢٧، **المعيار** ٨:٢٠ وما بعدها.
(٢) **أمثال العوام** (المطبوع) رقم ١٥٥ ص ٤١، **نفح الطيب** ٣:٥٥٣، **وفيات الأعيان** ٥:٣٥.
(٣) **الذيل والتكملة** ٥:١:٣٢١، **روض القرطاس** ١١٩.
(٤) عباس: « نوازل ابن رشد » ٤٥، ٤٦، **المعيار** ٦:١٤١ وما بعدها؛ وانظر كيف كان النساء يدلكن القطن والكتان بعد نسجهما حتى يسحن وجههما و يزيد وزنهما (**رسالة ابن عبد الرؤوف** ٧٤).
(٥) أنظر **كشف القناع عن مسائل الصناع** (مخ) ٣٩و-٤٠و، **المعيار** ٦:١٤٢ وما بعدها.

في قابس على الرغم من نجاحهم في إنعاش إنتاج الحرير فيها[١]. وتفردت الأندلس بصناعة المنسوجات الحريرية. وكانت مراكزها في القرن السادس هي مالقة وجيان وغرناطة والمرية ومرسية[٢].

والراجح أن إنتاج جيان وغرناطة في القرن السادس قد تدنى كثيراً بالنسبة لما كان عليه من قبل، ذلك لأن المشتغلين بزراعة الحرير وتصنيعه غالباً ما كانوا من المعاهدة الذين نقل نصارى إسبانيا في سنة ١٠٩٤/٤٨٧ عدداً منهم الى طليطلة لعمارتها، كما أن المرابطين قد غرّبوا عدداً آخر الى البلاد الغربية اثر حملة ابن رذمير، ولم يكن وضع هؤلاء المعاهدة بأفضل حالاً مع الموحدين من وضعهم أيام المرابطين[٣]. وهذا كله ربما كان هو السبب في ازدهار المرية خلال العصر المرابطي في صناعة الحرير[٤]. لكن لما ضرب الروم المرية في فترة الانتقال[٥]، تفردت مرسية ومالقة بصناعة الحرير في العصر الموحدي. وتنوعت في مرسية أصناف الحلل والديباج، ومنها كانت تجهز العروس في المغرب[٦]. وتعددت أنواع القماش الحريري في مالقة[٧] وكان ثمن الحلة الموشية من إنتاجها يتجاوز آلاف الدنانير، وهذا النوع ينتج برسم الملوك والخاصة[٨]. ويغلب على الظن أن الإنتاج كان كبيراً، فقد كان جل أهل المرية ــ أيام ازدهارها ــ صناع نسيج

---

(١) ذكر الادريسي أن انتاج الحرير قد توقف في قابس (**نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٠٦). ولم يذكر الاستبصار ولا المصادر المعاصرة للموحدين شيئاً عن طرز حرير قابس، ويبدو أن هذه الصناعة قد استؤنفت في القرن السابع/الثالث عشر بفضل جهود الحفصيين (راجع **مسالك الأبصار** ٣٥:٤و-٣٥ق).

(٢) راجع **كتاب الجغرافية** ٢٤٠؛ وانظر روايتي الشقندي وابن سعيد في **نفح الطيب** ٢٠١:١، ٢١٩:٣-٢٢١؛ وراجع أيضاً **الروض المعطار** ٤٥، ١٤٣-١٤٤، ١٨٤.

(٣) أنظر عن نقلهم الى طليطلة **البيان المغرب** ٣٦:٤، وراجع عن موقف المرابطين والموحدين ما سبق في الفصل الثالث: أهل الذمة

(٤) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٩٧، **كتاب الجغرافية** ١٠٢.

(٥) **الروض المعطار** ١٨٤.

(٦) **المغرب** ٢٤٥:٢-٢٤٦، **نفح الطيب** ٢٢١:٣.

(٧) **كتاب الجغرافية** ٩٣ حاشية ٢٤٥ من نسختين.

(٨) **نفح الطيب** ٢١٩:٣.

وحياكة[١]. وبلغت طرز الحرير فيها ثمانمائة طراز[٢].

لقد أجاد أهل المرية تقليد الجرجاني والأصبهاني والسقلاطون (أصلاً يوناني) والعتابي (وهو البغدادي) وصنعوا الستور المكللة والمعاجر[٣]. وتميزت الأندلس بصناعة الديباج، والى الوشي المذهب من إنتاج مالقة ومرسية والمرية انتهى التفضيل، ومن صنعته يتعجب المشارقة[٤]. وقد تفردت مالقة بصناعة القلشاني[٥]، وغرناطة وبسطة بالملبد المختم ذي الألوان[٦]. وكان الصناع يزينون إنتاجهم هذا بالصور والزخارف الهندسية على هيئة المعين أو غيره. وقد ازدانت قطعة من إنتاج المرية في إمارة علي بن يوسف بدوائر بداخلها أسود تفترس وعولاً صغيرة، وحول هذه الدوائر مجموعة من الحيوانات الخرافية[٧]. وأهدى ناصح صاحب ديوان سبتة الى الناصر الموحدي ثوبين حريريين نسجاً بأنواع الجواهر وجعلت فيهما أعلام من اليواقيت[٨].

ويلاحظ الدارس أن التغيير الذي طرأ على مناطق زراعة الكتان والقطن في القرن السادس أثر على مراكز المنسوجات القطنية والكتانية تأثيراً كبيراً. لقد اختفت هذه الصناعة من باجة الأندلس[٩]، وازدهرت في بلنسية وكيران ــ بين دانية وشاطبة ــ[١٠] وفي المدن الساحلية الحصينة في البلاد الشرقية مثل تونس

---

(١) **كتاب الجغرافية** ١٠٢.

(٢) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٩٧، **الروض المعطار** ١٨٤، **فرحة الأنفس** ٢٨٣. وبالغ المقري في نقله وجعل العدد يزيد على الأربعة آلاف (راجع **نفح الطيب** ١٦٣:١).

(٣) أنظر **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٩٧؛ والمعاجر ما يضعه النساء على رؤوسهن أو يلتحفن به.

(٤) أنظر رواية ابن سعيد في **نفح الطيب** ٢٠١:١، وقد ورد بعضها في **كتاب الجغرافية** ٢٤٠ لابن سعيد.

(٥) **الروض المعطار** ١٦٣.

(٦) **نفح الطيب** ٢٠١:١.

(٧) أنظر رسم القطعة ووصفها عند مورينو: **الفن الاسلامي في اسبانيا** ٤١٦، ٤١٩.

(٨) **التذكار** (مخ) ٣٩ق.

(٩) كانت صناعة الكتان مزدهرة فيها أيام بني عباد (**نفح الطيب** ١٥٩:١).

(١٠) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٩٢، **كتاب الجغرافية** ١٠٢.

والمهدية وبونة وبجاية[1]؛ وبينما تختفي في البلاد الغربية عن سجلماسة، تظهر بصورة مكثفة في مراكش وفاس — حيث كثر إنتاج القطن في السهول الغربية ومرتفعات تادلا، وقد كان في فاس وحدها ٣٠٦٤ داراً معدة للحياكة[2]. وقد تميز الإنتاج المغربي في هذا القرن مع كثرة الكمية بجودة الصنعة؛ فالتونسي المعروف بالأفريقي قد يكون رقاعاً من القطن والكتان أو الكتان وحده وهو أمتع من النصافي، ويضاهي الكتاني منه ثياب الحرير[3]. ويباع البلنسي والكيراني بالأثمان الغالية. ويتميز الكيراني ببياضه، ويصعب على المرء أن يفرق بينه وبين الكاغد[4].

ولم تعرف البلاد الأندلسية في هذه الفترة بصناعة الثياب المتخذة من الأصواف، مع العلم بأن شنترين كانت في القرن الرابع/العاشر مشهورة بها، وكان الثوب من وبرها يباع بألف دينار[5]. ويبدو أن هنالك تحولاً الى صناعات صوفية أخرى، فقد تفردت البلاد الأندلسية بصناعة البُسُط والطنافس طوال القرن السادس. وانتشرت صناعة الثياب من الأصواف في البلاد الشرقية والغربية. وعلى الرغم من أن طراف في البلاد الشرقية لم تعد تنتج شيئاً، بعد أن كانت مركز هذه الصناعة قبل الغزو الهلالي[6]، فقد ازدهرت هذه الصناعة، خاصة في العصر الموحدي، وعُرفت قفصة بأرديتها وطيالسها وعمائمها الصوفية، ونفزاوة بتفاصيلها، والقلعة بأكسيتها، ودرجين بأثوابها الدرجينية[7]. وازدهرت هذه الصناعة في البلاد الغربية في العصرين المرابطي والموحدي في تلمسان ووجدة

(١) راجع المن بالامامة ٤٥٠، الاستبصار ١٢٩، العطاء الجزيل: الزوائد ١٨، **كتاب الجغرافية** ١٠٩، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٣١و.
(٢) عن مراكش راجع **نزهة المشتاق** (ط.د) ٧٠، وعن فاس أنظر **روض القرطاس** ٢٦.
(٣) **كتاب الجغرافية** ١٠٩، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٣١و.
(٤) **نزهة المشتاق** (ط.د) ١٩٢.
(٥) **وفيات الأعيان** ٧:١٣٨.
(٦) عن ازدهارها انظر البكري، **المغرب** ٤٧ ولم يرد عنها شيء في مصادر القرن السادس أو ما أخذت عنها.
(٧) أنظر **الاستبصار** ١٥٤، ١٥٩، ١٧٠، ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١١٣.

وجبل مديونة وسلا والسوس وبدلا رجراجة وسجلماسة ولمطة[1]، مع أنها لم تعرف قبل ذلك بصورة كبيرة إلا في وجدة[2]. وأغلب الظن أن الإنتاج كان جيد الصنعة، إذ ان أكسية قفصة كانت تضاهي ثياب الشرب، وتفاصيل نفزاوة تحمل الى الاسكندرية. والكساء التلمساني رقيق مختم وغير مختم وقد يزن تسع أواق[3]، وأكسية السوس رقيقة ولهذا يفضلها بربر مكناسة على غيرها[4]، وبرانيس مديونة لا ينفذ منها المطر، وأكسية رجراجة يلتحف بها نساء الحضرة المراكشية، ويباع زوج البرانيس اللمطية بخمسين ديناراً.

ولعل خير ما يصور شغف أهل القرن السادس بجيّد المنسوج وغريبه أن أهل صفاقس كانوا يستخرجون من البحر ما يشبه البصل، فينشرونه في الشمس، فتتفتح كمائمه عن وبر، فيغزل، ثم ينسج ثياباً مختمة وغير مختمة، يباع الواحد منها بمائتي دينار[5].

ومن الصوف كان المغاربة يصنعون البسط (الطنافس)[6]. ولا يذكر أن البلاد الشرقية والغربية عرفت بهذه الصناعة إلا في جبال ونشريس عند بني توجين في العصر الموحدي[7]. وكانت البسط تصنع في البلاد الأندلسية في تنتالة (قرب مرسية) وكونكة وجنجالة ومالقة[8]، وتفردت مرسية بصناعة الحصر واتقانها[9]. ومما يدل على أن شرق الأندلس كان المنطقة الأساسية لإنتاج البسط أن المنصور طيّر الى شرق الأندلس يأمر بنسج كسا وفرش جامع القيروان لما أراد

(١) راجع **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٦٢، ٨٠، ٨٢، ٨٧، ١٥٩، **كتاب الجغرافية** ١١٧، **الاستبصار** ١٥٩، ١٧٧، ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٢٥، ١٢٧، ١٤٠، ١٤١، **اتحاف أشراف الملا** (مخ) ١٥.
(٢) البكري، **المغرب** ١٤٧.
(٣) **كتاب الجغرافية** ١١٣، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٣٥ق.
(٤) **نزهة المشتاق** (ط.د) ٦٢، ٧٨.
(٥) انظر وصف ابن سعيد الذي شاهده في **صبح الأعشى** ٥:١٠٤.
(٦) ابن الشباط ١٥٠.
(٧) ابن سعيد **كتاب الجغرافية** ١٤١.
(٨) **نزهة المشتاق** (ط.د.)؛ وانظر روايتي ابن سعيد والشقندي في **نفح الطيب** ١:٢٠١، ٣:٢٢١.
(٩) رواية ابن سعيد في **نفح الطيب** ١:٢٠١.

تعميره[1]. وقد تميزت الظنافس المغربية بطولها ولونها الأحمر وزخرفة متنها وحاشيتها بأشكال هندسية مختلفة[2]. وكانت الحيطان تزين بحصر مرسية نظراً لجودة صنعتها وجمال منظرها وتناسق ألوانها[3]. وخير ما يصور متانة صنعة البسط الأندلسية أن الموحدين قد فرشوا جسر وادي أم ربيع بفرش لا يؤثر فيها الحافر[4].

وقد شجع على كثرة الإنتاج من المنسوجات وجودته عاملان: عادة اللباس المغربية وإقبال دول القرن السادس على شراء المنسوجات، لا سيّما أن هذه الدول لم تتخذ دور طراز مثلما فعل أمويو قرطبة وملوك الطوائف[5].

فكانت عادة المغاربة اتخاذ ثياب الصوف في الشتاء وثياب القطن والكتان في الصيف[6]. والغالب أن الناس أقبلت على شراء الغالي من الثياب وانتشرت عادة لبس الحرير حتى اضطر المنصور الى الأمر بقطع لباس الغالي منه[7]. ويبدو أن الناس كانوا يتفننون في تفصيل ملابسهم، ولهم في ذلك أساليب متعددة متغيرة تأخذ شكل « الموضات »[8]، ولهذا ازدهر فن الخياطة. كذلك بلغ الرفو غاية الإتقان، حتى ان الرفاء يرفو الثوب ويصعب على غير أهل الصنعة معرفته[9].

---

(١) **بيان موحد** ١٦٢.

(٢) أنظر مرزوق: **الفنون الزخرفية الاسلامية** ١٣٩ ومصادره في ذلك.

(٣) رواية الشقندي في **نفح الطيب** ٣:٢٢١.

(٤) **المعجب** ٣٥٩.

(٥) لم تظهر هذه الخطة الا في أواخر العصر الموحدي وهو خارج نطاق هذه الدراسة (أنظر **العبر** ١:٦٧).

(٦) أنظر رواية ابن سعيد في **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٣٥و ٦٠و **صبح الأعشى** ٥:١٤٢، وانظر كيف أن المنصور جعل ذلك للمرضى في بيمارستانه المراكشي وجعل لهم أيضاً ثياب ليل ونهار (**المعجب** ٢٨٧). وعادة ما ينتقل الناس في الأندلس الى لباس الشتاء في أكتوبر (**تقويم قرطبة** ١٥٩).

(٧) **بيان موحد** ١٤٥، وكثيراً ما كان الموتى يسترون بالحرير في العصر المرابطي (**المعيار** ١:٢٨٠-٢٨٢).

(٨) انظر كيف أن ابن تومرت نهى الناس في بجاية عما ظهر فيها من لباس الناس « للفتوحات للرجال وعمائم الجاهلية » **أخبار المهدي** ٥٢.

(٩) انظر **المعيار** ٦:١٤٢، عباس: « نوازل ابن رشد » ٤٦.

أما دول مغرب القرن السادس فقد أقبلت على شراء المنسوجات لاتخاذ البنود ووهب الخلع. ويبدو أن حاجة الموحدين خاصة قد تضاعفت لكثرة البنود والأعلام التي اتخذوها[1] والخلع التي أخرجوها للعامة والخاصة في كثير من المناسبات[2]، والكسوات التي جعلوها جزءاً من رواتب الجند والفرسان[3]. فلا غرو بعد هذا ان كانت الدولة الموحدية تشتري كميات كثيرة، وأبلغ شاهد على هذا أن ما أخرج من المخازن من الحرير وضروب الثياب والديباج، لما أمر المنصور بقطع الغالي من الحرير، « بيعت منه ذخائر لا تحصى »[4]. وهذا لا يعني أن جميع طبقات المجتمع قد نعمت بهذا المستوى الرفيع من المنسوجات، وكثيراً ما كان لبس الجلود والقبطيات دون أكمام مظهراً من مظاهر الفقر والبؤس[5].

صناعة الورق والوراقة

إن صناعة الورق تتصل بالمنسوجات لأن الورق قد كان يصنع في المغرب من القطن والكتان[6]. وأغلب الظن أن الورق قد صنع في البلاد الشرقية في عصر الأغالبة وفي البلاد الأندلسية في عهد أمويي قرطبة[7]. ومن الثابت أن شاطبة كانت متفردة بهذه الصناعة في المغرب خلال النصف الأول من القرن السادس، ومنها يعم الورق « المشارق والمغارب »[8]، خاصة أنه لا ترد إشارة عن إنتاج

---

(١) انظر عن البنود والأعلام، موسى: **تنظيمات الموحدين** ٢٨٢.

(٢) انظر **المعجب** ٢٥٥.

(٣) الكسوة التامة عند الموحدين عادة تتكون عمامة وغفارة و برانيس وقبطية وكساء (**المن بالامامة** ٢٩١، ٤٣٧، ٤٥٠)، وأحياناً قد يضاف الخباء (**المصدر ذاته** ٤٥٠).

(٤) **بيان موحد** ١٤٥.

(٥) راجع **أمثال العوام** (مطبوع) رقمي ٤٨٣، ٥٥٤، **ديوان ابن قزمان** ٩٨، **الزجل في الأندلس** ٧٣.

(٦) انظر Imamuddin, **Some Aspects of the Socio-Economic and Cultural History**, p. 108. عبد الوهاب: **ورقات عن الحضارة العربية** ٢:١٦٤، أشباخ: **تاريخ الأندلس** ٢:٢٥٢.

(٧) هذه قضية خلافية، فمن الدارسين من يرى أن الورق قد دخل الأندلس في مطلع القرن السادس (أنظر عبد الوهاب: **ورقات عن الحضارة العربية** ١:٢٠٧-٢٠٨، ٢:١٦٥-١٦٧) ومنهم من يرى ذلك في عصر خلافة قرطبة (راجع Imamuddin, **op. cit.**, pp. 107-8).

(٨) **نزهة المشتاق** (ط.د) ١٩٢

الورق في مثل هذه الفترة عن البلاد الشرقية ولا الغربية، مع العلم بأن البلاد الشرقية كانت منتجة للورق قبل الغزو الهلالي[١]. ويبدو أن الأسباب في هذا ترجع الى قلة القطن والكتان في البلاد الشرقية بعد الغزو الهلالي، وعدم توفر الخبرة الفنية مع وجود المواد الخام في البلاد الغربية، وميل الناس إلى استخدام الرق في المنطقتين[٢]. والجدير بالذكر أنه حتى مطلع القرن السادس ترد إشارات عن استخدام الرق في الكتابة في البلاد الغربية والشرقية باديةً وحاضرة[٣]. وقد ظهرت مراكز جديدة لصناعة الورق في العصر الموحدي، مثل بلنسية في البلاد الأندلسية[٤] وسبتة[٥] وفاس[٦] في البلاد الغربية. وقد كان في فاس وحدها أيام المنصور والناصر أربعمائة بيت متخذة لصناعة الورق. وربما أصبحت بلنسية الموحدية المركز الرئيسي في البلاد الأندلسية للورق وليس شاطبة، وذلك استنتاجاً من وفرة الكتان وجودته فيها وانعدامه في شاطبة، وكثرة عدد الوراقين والنساخ في الأولى وقلته في الثانية.

والراجح أن الأندلس في العصر المرابطي قد أنتجت الورق الملوّن[٧]، ولكن الإنتاج لم يكن جيداً، إذ ان ابن عبدون يشدد في رسالته على أن يطّلب من صناع الورق أن يزيدوا في قالب الكاغد وفي دلكه[٨]. وخير ما يصوّر جودة الإنتاج في العصر الموحدي ما يرويه المقري من أن أحد المغاربة كتب الى الكامل الأيوبي « رقعة في ورقة بيضاء، إنْ قُرئت في ضوء السراج كانت فضية، وإنْ قُرئت في الشمس كانت ذهبية، وإنْ قُرئت في الظلّ كانت حبراً أسود »[٩].

(١) عن الانتاج راجع عبد الوهاب: **ورقات عن الحضارة العربية** ١:٢٠٨-٢٠٩، ٢:١٦٤ وما بعدها.
(٢) **المرجع نفسه** ٢:١٥٤ وما بعدها.
(٣) انظر **نظم الجمان** ١٥، **أخبار المهدي** ٥٩؛ وفي مكتبة علي بن يوسف حفظ أعز ما يطلب مكتوباً في رقّ غزال.
(٤) Imamuddin, **op. cit.**, p. 108
(٥) بن عبدالله: « الاقتصاد المغربي في مختلف العصور » ١٧.
(٦) **روض القرطاس** ٢٦.
(٧) **رسالة السقطي** ٤٠.
(٨) **رسالة ابن عبدون** ٤٨.
(٩) **نفح الطيب** ٤:٣٢٦-٣٢٧.

إن ظهور مراكز جديدة لصناعة الورق، لا سيّما في البلاد الغربية، يدعو الى القول بأن الطلب على الورق قد ازداد، ومن ثم كثر الإنتاج، خاصة وأن المواد الخام قد توفرت خلال القرن السادس مع اتساع زراعة القطن في البلاد الغربية. وربما يرجع السبب في ازدهار صناعة الورق خاصة في البلاد الغربية الى عاملين؛ أولاً: إن البلاد الغربية قد أصبحت مركز القيادة الأساسية والإدارية، والدولة تحتاج الى الورق لتقييد شؤون الإدارة وخاصة المالية منها، كما أن القيادتين المرابطية والموحدية قامتا على رسالتين دينيتين، فكثيراً ما استخدمت الرسائل للدعاية السياسية[١]؛ ثانياً: عظم الاهتمام بالكتب، وأصبحت البلاد الغربية سوقاً جديدة، ويؤكد ذلك ما لقيته صنعتا الوراقة والنسخ من ازدهار والمكتبات الخاصة من انتشار وما حظيت به الكتب من عناية. ومن كتب التراجم يمكن استخراج الجداول الآتية عن الوراقين والناسخين والمكتبات العامة وتوزيع ذلك في جهات مغرب القرن السادس:

(١) الوراقون[٢]

البلد	بلنسية	اشبيلية	دانية	جيان	قرطبة	مرسية	المرية	مالقة	مراكش	فاس	سبتة	بجاية	تونس
العدد	١٥	٥	٣	٣	٢	٤	١	٣	٦	٣	١	٢	٢

(١) انظر موسى: **تنظيمات الموحدين** ١٩٢.
(٢) راجع عنه **التكملة** ١:١٠٩، ٢٥١، ٢٧٩، ٢:٤٤٥، ٤٨١، ٤٩٠، ٥٠٣، ٥٩٣، ٦٣٤، ٦٤٧، ٧٣٩، ٧٤٦، ٨٠٧، ٨١٧، ٨٨٢، **فقهاء مالقة** (مخ) ٣٧و، ٤٠ق، **الذيل والتكملة** ١:٣٠، ٣٢٢، ٣٤٤، ٣٥٥، ٥:١:٦٩، ٧١، ٥:٢:٣٠٥، ٦٥٢، **وفيات الأعيان** ٣:٩٣، **الوافي بالوفيات** (مخ) ٧:٥٨، **جذوة الاقتباس** ٢٦٢، ٢٦٧، **نفح الطيب** ٣:٥٣٣، **الأعلام** ٤:٣٧٧ **لمح السحر** (مخ) ٤٧و، **عنوان الدراية** ٢٥، ١٢٤.

(٢)النساخون[1]

البلد	بلنسية	اشبيلية	دانية	غرناطة	قرطبة	مرسية	المرية	مالقة	مراكش	فاس	سبتة	بجاية
العدد	٢٨	١٣	٢	٥	٤	٤	١	٣		٦	٣	٤

(٣)المكتبات الخاصة[2]:

البلد	بلنسية	اشبيلية	غرناطة	قرطبة	مراكش	فاس	سبتة	بجاية	سلا
العدد	٤	٨	٣	١	١١	٤	١	٢	١

(١) راجع عنه المن بالامامة ٤٧٩، ٤٨٠، التكملة ١:٣٠، ٧٨، ٩٣-٩٤، ٣٤٤، ٢:٩٦، ٢٥١، ٢٧٩، ٤٩٠، ٥٠٣، ٥٨٨، ٥٩٣، ٦١٩، ١٣١، ٦٣٥، ٦٤٧، ٤٣٩، ٤٣٦، ٨٠٧، ٨١٧، برنامج الرعيني ٨٢، زاد المسافر ٦٦، وفيات الأعيان ٣:٩٣، ابن سعيد، المغرب ١:٢٥٤، ٣٢١، الفصون اليانعة ٣١، صلة الصلة ٩٤، الاحاطة ١:٣٧٢، الذيل والتكملة ١:٩٤، ١٠٩، ٢٢٥، ٢٤٣، ٣٠٥، ٣٢٢، ٣٥٥، ٤:٥، ١٠، ٧٣، ١٧٧، ٥:١:٦٩، ٧١، ٩٨، ١٣٢، ١٨٨، ١٩٢، ٢٣١، ٢٣١، ٢٣٢، ٥:٢:٢٦٥، ٥٩٤، الوافي بالوفيات (مخ) ٧:٢٢و، ٥٨و، عيون التواريخ (مخ) ١٦:٦٢ق-٦٣و، عنوان الدراية ٢٥، ١٢٤.

(٢) راجع عنه المن بالامامة ٤٨٠، معجم الصدفي ١٩٤، نظم الجمان ١٥، فقهاء مالقة (مخ) ٣٧و، ٤٩ق، التكملة ١:٩٤، ١٠٨، ١١٦، ٢:٤٧٩، ٥١٠، ٧١٢، الذيل والتكملة ١:٨٧، ٩٨، ٣٠٥، ٤:٧٣، ٥:١:٩٢، ٣٢١، ٤٠٢، ٥:٢:٤٦٣، ٥٩٤، ٦٨٢، ابن سعيد، المغرب ١:٧١، ٢٥٤، الصلة ١:٢٨٨، الاحاطة ١:٢١٥-٢١٦، طبقات الأطباء ٢:٧٩، الديباج المذهب ٤٩-٥٠، جذوة الاقتباس ٢٥٣، ٢٦٢، ٢٦٧، ٢٨١، نفح الطيب ٢:٥٠٢، الأعلام ٤:٩٧٧.

من هذه الجداول يتضح، أولاً: أن شرق الأندلس احتل الصدارة في النسخ والوراقة، وفي هذا كانت بلنسية رائدة مدنه، ولعل هذا يؤكد ما سبقت الإشارة إليه من أن إنتاج الورق قد تحول من شاطبة إليها؛ وثانياً: أن قرطبة لم تعد مركز الوراقة والنسخ كما كانت عليه قبل القرن السادس، وقد فاقتها إشبيلية في هذا المجال[1]؛ ثالثاً: كانت الوراقة والنسخ أكثر انتشاراً في البلاد الغربية منها في البلاد الشرقية ــ والجدير بالذكر أن أكثر من قاموا بالمهنتين في البلاد الغربية جاءوا من البلاد الأندلسية، غير أن عدد أهل البلاد الغربية الأصليين تكاثر في العصر الموحدي ــ؛ رابعاً: أن المقارنة بين جدول المكتبات الخاصة وجدولي الوراقين والنساخين تشير الى أن البلاد الغربية ــ خاصة مراكش ــ وإشبيلية ربما كانت سوق الكتاب المغربي، بينما كانت بلنسية منطقة صناعته؛ خامساً: أن هذه الاتجاهات ذاتها أكدتها من قبل دراسة الهجرات السكانية والمناطق الزراعية من ازدهار البلاد الغربية على حساب الشرقية، وشرق الأندلس وجنوبها على حساب وسطها وغربها؛ سادساً: أن أغلب المعلومات وردت عن العصر الموحدي لا سيّما فيما يختص باهتمام أهل البلاد الغربية وراقةً ونسخاً واقتناء كتب، ولا ينبغي أن يظن أن هذا التطور نتاج للفترة الموحدية، فقد كانت بدايته في العصر المرابطي وتأكد بروزه فيما بعد. ومن المفيد هنا أن نشير الى أن حوّاء بنت تاشفين ــ وزوجة سير بن علي ــ وابن ياسين الصنهاجي وابن عمر الصنهاجي والي بلنسية اهتموا بجمع الكتب، وبوجه خاص الأخير منهم، فقد حلاه ابن الابار قائلاً: « وهو فخر لصنهاجة »[2]. ويدل على شغفهم بالكتاب أن المكتبات الخاصة كانت تضم عدداً من مجلدات قد تبلغ خمسمائة مجلد[3] أو تقدر بالأحمال[4]، أو يباع ما يخلفه أحدهم بستة آلاف دينار[5]، أو بمائة ألف درهم في وقت مجاعة

(١) لقد كان فيما سلف في الربض الشرقي وحده مائة وسبعون امرأة يكتبن المصاحف بالخط الكوفي (المعجب ٣٧٢)، وكان أهل قرطبة يفاخرون أهل اشبيلية بأن بلدتهم تنفق فيها الكتب بينما تنفق في اشبيلية أدوات الموسيقى (أنظر نفح الطيب ١:١٥٥، ٢٠٨).

(٢) راجع البيان المغرب ٤:٥٧، نظم الجمان ١٥، التكملة ٢:٧١٢، معجم الصدفي ١٩٤.

(٣) الذيل والتكملة ٥:٢:٦٨٢.

(٤) المصدر ذاته ١:٢٢٩، ٥:١:١٩٢.

(٥) التكملة ١:٩٤، نفح الطيب ٢:٥٠٢.

عظمى[1]. وقد بلغ اهتمام الموحدين بالكتب أن أنشأ يوسف خزانة علمية، واهتم بجمع الكتب إليها من جميع المغرب، واستمرت هذه الخزانة طوال العصر الموحدي، ومتولي خطتها يعتبر من ذوي النفوذ في البلاط الموحدي[2]. وقد انعكس كل هذا على العناية بالكتب نسخاً وشكلاً، حتى ان بعضهم تخصص في نوع دون آخر. فالمصاحف أكثر ما ينتسخ[3]، غير أن ما ينسخه ابن عابد البلنسي يغالي الناس في ثمنه و يتنافسون عليه[4]. وقد تخصص ابن عبدالله الإشبيلي في نسخ كتب المبتدئين[5]. ولم يهتم النساخ بحسن الخط فحسب، بل ان بعضهم تميز بمقابلة الكتب وتصحيحها[6]. واستعملوا المداد الأسود والأحمر والأبيض[7]، واشتهرت بلنسية بالكتابة بالذهب[8]. والراجح أنهم استعملوا مداداً لا تؤثر فيه الحرارة، لأنه يركب من الصمغ العربي والعفص والزاج[9].

وأدت هذه العناية بالكتب الى تطوير صناعة التسفير ــ التجليد ــ، وقد وصلنا كتاب عنها من أحد المشتغلين بها عند الموحدين وهو «التيسير في صناعة التسفير» لبكر ابن ابراهيم الإشبيلي »[10]. والى جانب الزخرفة والتزويق والتلوين والتذهيب فقد تفرد القرن السادس باستعمال السكين في التسوية[11]، ومحاولة

(١) الذيل والتكملة ٥:١:٤٠٢.

(٢) أنظر المعجب ٢٣٩؛ و يعرف اثنان توليا خطة الخزانة العلمية هذه: ابن الصقر وابن شلبون (أنظر الذيل والتكملة ١:٢٢٨، ٥:١:٢٧٤، الاحاطة ١:٢٧٤.

(٣) ابن غطوس نسخ ألف مصحف (التكملة ٢:٥٩٣).

(٤) الذيل والتكملة ٥:١:٩٨.

(٥) الذيل والتكملة ٥:١:٢٣٢.

(٦) المصدر نفسه ١:٣٠.

(٧) بيان موحد ٣٢٠.

(٨) ابن سعيد، المغرب ٢:٣٢١.

(٩) عبد الوهاب: ورقات عن الحضارة العربية ٢:١٥٥.

(١٠) نشرة الأستاذ عبدالله كنون: صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد م٧-٨ (١٩٥٩-١٩٦٠) ١-٤٢.

(١١) التسفير ١١.

القضاء على أرضة الكتب بطبخ نشا الأغرية في أصول العلقم أو تبخير الكتب باعضاء الهدهد وريشه[1]. وأعظم أثرين في فن التجليد الموحدي هما مصحف ابن تومرت ومصحف الخليفة عثمان بن عفان اللذان كانا يحملان في مقدمة الركب الموحدي بين يدي الخليفة[2]. وقد جمع الموحدون الصناع والمهندسين والصواغين والنظامين والجلائين والنقاشين والزواقين والمرصعين والنجارين والمجلدين وعرفاء البنائين فصنعوا لمصحف عثمان أغشية سندسية وذهبية وفضية وحلوه بالجوهر النفيس والياقوت الأحمر والأصفر والأخضر والزمرد الأخضر[3].

و يبدو أن القرن السادس شهد التصوير في الكتب، وأغلب الظن أن ذلك لم يكن شائعاً، ولم أجد سوى شاهدين، أولهما كتاب النبات المحفوظ في المكتبة الأهلية في باريس[4]، والثاني ما ذكر من أن ابن رشد الحفيد قدم كتابه في الحيوان للمنصور الموحدي وفيه جميع صور الحيوانات[5].

الصناعات الجلدية:

أن تفشي ظاهرة الرعي شبه الصحراوي في البلاد الشرقية جعل الجلود أبرز منتوجاتها، وقد تحولت قابس من مركز نسيج الى مركز دباغة[6]. وفي البلاد الأندلسية يبدو أن غرناطة قد أصبحت مركز الدباغة الأساسي بدلاً عن باجة حيث اضطرب الأمن في جهاتها طوال القرن السادس، والمدابغ عادة ما تكون خارج أسوار المدن[7]. وأدى ازدهار الرعي المختلط بالزراعة في البلاد الغربية الى

(١) المصدر ذاته ١٢، ٤٠.

(٢) المن بالامامة ٤٣٩، المعجب ٢٥٣.

(٣) راجع المن بالامامة ٤٣٩-٤٤٠ و يعتبر الذيل والتكملة (١:١٥٦-١٥٩) أوسع مصدر عن هذا المصحف. وانظر أيضاً رسالة ابن طفيل في نفح الطيب ١:٦١١ وما بعدها.

(٤) انظر عنه مرزوق: الفنون الزخرفية الاسلامية ١٢١.

(٥) راجع المنوني: العلوم والآداب ٢٦٦.

(٦) نزهة المشتاق (ط.د) ١٠٦.

(٧) انظر رواية ابن سعيد عن غرناطة في مسالك الأبصار ((آيا صوفيا) ٤:٥٩ق، صبح الأعشى ٥:١٤؛ ومع أن ابن سعيد يذكر باجة فقد جاءت روايته عن الرازي (راجع المغرب ١:٤٠٣، نفح الطيب ١:١٥٩).

استمرار مراكز الدباغة القديمة وقيام مراكز أخرى جديدة. فقد استمرت الدباغة في درعة وسجلماسة[1] وأغمات التي احتفظت بهذه الصناعة[2] على الرغم من أن تأسيس مراكش قد جذب الصناعات الى العاصمة الجديدة، والمراكز الجديدة هي مراكش وسلا وفاس التي كان فيها أيام المنصور الموحدي ٨٦ داراً للدباغة[3]. وكانوا في العادة يستعملون القرمز في الدباغة[4] ولكن هذا لم يمنع من استعمال مواد محلية أخرى كثمر شجر التاكوت في درعة.

وبالنسبة لمراكز المصنوعات الجلدية، يلاحظ المرء أن قرطبة فقدت مكانتها التي اشتهرت بها، وظهرت مالقة، وخاصة في العصر الموحدي، مركزاً أساسياً لصناعة الأغشية والحزم والمدورات الجلدية[5]. وفي البلاد الشرقية اختصت بنزرت بصناعة الفراء الثمين من جلد طير الخواص[6]. وفي البلاد الغربية كانت تلمسان مركز المصنوعات الجلدية التي يتجهز بها الفارس[7]. وظهرت أزكي ولمطة في صناعة الدرق اللمطية[8] التي ينبو عنها السيف والرمح[9]، وهي أكثر ما كان يستعمله الجيشان المرابطي والموحدي[10]. ويبدو أن أهل البلاد الغربية قد كانوا يستعملون زاهي الجلود فرشاً بدلاً من البسط[11]، ولعل هذا يوضح عزوف أهلها عن صناعة البسط حسبما سبقت الإشارة إليه. وبرع أهل بجاية وفاس وإشبيلية

(١) البكري، **المغرب** ١٥٢، **الاستبصار** ٢٠٧.

(٢) **المعجب** ٣٨٨.

(٣) **روض القرطاس** ٢٦، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤: ٥٠و، **اتحاف أشراف الملا** (مخ) ١٥.

(٤) انظر **نفح الطيب** ١٤١:١.

(٥) عن قرطبة قبل القرن السادس أنظر Imamuddin, **op. cit.**, p. 107 ولم يرد عنها شيء في مصادر القرن السادس ومن أخذت عنها. وأما عن مالقة فانظر **كتاب الجغرافية** ٩٣ حاشية ٢٤٥ عن نسختين، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤: ٦١و، **صبح الأعشى** ٢١٩:٥.

(٦) انظر الملحق الخامس من هذه الدراسة.

(٧) ابن سعيد، **المغرب** ٢٤٦:٢.

(٨) **نزهة المشتاق** (ط.د)، ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١١٢.

(٩) **مسالك الأبصار** (أحمد الثالث) ١٤٢:١:٣.

(١٠) انظر **قيام دولة المرابطين** ٣٨٣، موسى: **تنظيمات الموحدين** ٢٨٣.

(١١) لقد فرش المنصور بيمارستان مراكش بفرش الأديم الى جنب البسط (**المعجب** ٢٨٧).

وغرناطة في صناعة الأحذية[1] التي كانت تظهر منها « موضات »، فقد نهى ابن تومرت في بجاية الرجال عن لبس ما أسماه « الأقراق الزرارية »[2]. وأغلب الظن أنها كانت مما يلبسه المغتون[3].

الصباغة

في القرن السادس كانوا يصبغون النسيج والصناعات الجلدية، وعرفوا الألوان الأولية والمركبة من لون أحمر وأسود وأبيض وأخضر وأصفر وجوزي — هو مركب الأخضر والأسود —[4] ومن مواد الصباغ، النيلة والقرمز والزعفران[5]. ويبدو أن قلة إنتاج الزعفران في البلاد الشرقية ألجأت أهلها الى استحداث بديل له هو الطرطار الذي ينبت في الخمر ويصبغ به الصوف أحمر[6]. واستعمل بعضهم الكبريت ليرد أكسية الصوف بيضاء[7]. وتتفاوت أسعار الصباغ بتفاوت ألوانها، اما لصعوبة تركيبها أو لعدم وجود مادتها واستيرادها[8]. وعادة ما يصبغ الحرير في موضع إنتاجه. وكان الأندلسيون يتخذون من ذلك عيداً[9]. وتصبغ بقية المصنوعات في مواضع صناعتها. وقد بلغت فاس شأواً بعيداً في الصباغة في العصر الموحدي، وقد كان فيها ١١٦ داراً للصباغة، وعادة ما تكون دور الصباغة على الأنهار[10]. ويدل على حذق الصناع لفن الصباغة أن الخياطين قد كانوا يأخذون الملاحف البالية فيصبغونها ويكمدونها فتظهر كالجديدة[11].

(١) انظر Oliver Asin, J., "Quercus en la Spain Musulmane", especially pp. 125-130.

(٢) **أخبار المهدي** ٥٢ والأقراق تعني الصنادل والأخفاف ومفردها قرق (Dozy, **Supplément, II**, p. 334)

(٣) انظر كيف تباع الأقراق مع أدوات الموسيقى في فاس في **أخبار المهدي** ٦٥.

(٤) أنظر **المن بالامامة** ٤٤٥، ٤٨٦، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤: ٣٥ق، **صبح الأعشى** ١٤٢:٥.

(٥) انظر عنها الملحقين الرابع والخامس من هذه الدراسة.

(٦) **المعيار** ٢١٢:٦.

(٧) **المصدر نفسه** ٤٠:٦.

(٨) **انظر نوازل ابن رشد** (مخ) ١٠١و.

(٩) راجع ما يرويه ابن سعيد عن قرية نارجة من عمل مالقة (**نفح الطيب** ١٧٨:١).

(١٠) **روض القرطاس** ٢٦.

(١١) **المعيار** ١٤٢:٦.

الصناعة الخشبية

شهد القرن السادس انتشاراً واسعاً في الصناعات الخشبية، وظهرت مناطق جديدة لإنتاجها، وتميزت بكثرة الإنتاج وجودته وذلك لأن الأغراض قد تنوعت. فقد اضطرت الضرورات العسكرية الموحدين لإقامة الجسور في أودية السهول الغربية، وشيد عبد المؤمن جسراً من قوارب ممسوكة بأخشاب ضخمة بين الرباط وسلا[1]، وجدد ابنه يوسف هذا الجسر بآخر أضخم منه[2]، ووضع آخر مثيلاً له على وادي إشبيلية[3].

وقد كان للضرورات العسكرية نفسها تأثير كبير على بناء السفن. ولم يكن لسواحل البلاد الغربية والشرقية في النصف الأول من هذا القرن دور بارز في إنشاء السفن، وكان مركز الإنشاء في سواحل البلاد الأندلسية. وقد أخفق بنو باديس في المحافظة على دور الصناعة التي شيدها الأغالبة والفاطميون بسبب سيطرة النورمان على البحر والعرب الهلالية على البر، بينما استطاع بنو حماد إنتاج السفن في بجاية ــ التي أمنت من الخطرين معاً ــ وذلك لوفرة الخشب في مناطقها وكثرة الزفت والقطران في جبالها[4]. واستثمرت الدولة المرابطية مراسي البلاد الأندلسية لإنشاء السفن الحربية والتجارية مثل طرطوشة ولقنت ودانية وبلنسية وشلب وقصر أبي دانس ومالقة وقادس والمرية. وقد كانت الأخيرتان منها قاعدتي الأسطول المرابطي[5]، بينما يبدو أن الإنشاء في قصر مصمودة وسبته وطنجة من البلاد الغربية كان يغلب عليه الطابع التجاري[6]. وقد تغير الموقف

(١) المن بالامامة ٤٤٣.
(٢) المصدر نفسه ٤٤٩-٤٥٠، المعجب ٣٥٩، بيان موحد ١٣٠.
(٢) المن بالامامة ٢٣٤، ٤٦١-٤٦٢، بيان موحد ٩٥، روض القرطاس ١٣٨، ١٧٧.
(٤) نزهة المشتاق (ط.د) ٩٠.
(٥) انظر نزهة المشتاق (ط.د) ١٨٠، ١٨١، ١٩٠، ١٩٣، ١٩٥، مسالك الأبصار (آيا صوفيا) ٤:٦٠ق، ٦١و، صبح الأعشى ٥:٢١٧، ٢١٩، الروض المعطار ٧٦، ١٠٦، ١٢٤، ١٦٢، ١٧٠، ابن سعيد، كتاب الجغرافية ٢٤٠، نفح الطيب ١:١٦٢.
(٦) يقول الادريسي: تنشأ فيها السفن التي يسافر فيها الى الأندلس ــ (راجع نزهة المشتاق (ط. د) ١٦٨).

كله في النصف الثاني من القرن السادس مع الموحدين، بعد أن خرب نصارى إسبانيا المرية، وفقد شرق الأندلس طرطوشة التي تميزت أخشابها بطولها وعرضها وعدم فعل السوس فيها[1]، ولم تعد غرب الأندلس مكان أمن. ومع أن الموحدين استفادوا من دور الإنشاء الأندلسية التي ورثوها عن المرابطين، فقد كان تركيز الموحدين على دور الإنشاء في سواحل البلاد الشرقية والغربية، وجعلوا سبتة قاعدة لاسطولهم، ووسعوا دور الإنشاء التي كانت قائمة في هذه السواحل مثل سبتة وبجاية، وجددوا ما أهمل مثل المهدية وتونس وعنابة ووهران وهنين وبادس، وأسسوا دوراً أخرى جديدة في سلا[2] والحبالات قرب فاس[3]، مستفيدين من خشب أرز جبال غمارة[4]. ويبيّن كثرة الإنتاج ونوعيته ان عبد المؤمن قد أنشأ في المراسي العدوية وحدها في سنة ١١٦٢/٥٥٧ مائتي قطعة[5]. وقد تنوعت السفن في القرن السادس بين صغرى وكبرى من شيني وطريدة وشلندي وغراب وشخاتير ومراكب ومسطحات وحراريس وزوارق[6].

ولم تكن النهضة المعمارية التي شهدها هذا القرن بأقل أثراً من الضرورات العسكرية. فعمارة المساجد وبناء القصور والمستشفيات تركت آثاراً كبرى في تطوير الصناعات الخشبية بما احتاجته من سقوف وشبابيك وأبواب ومنابر ومقصورات وأثاثات وتحف زخرفية حسبما سيجيء تفضيله في هذا الفصل.

ولقد اشتهرت تلمسان بصناعة كل ما يتعلق بركوب الخيل من أدوات خشبية[7]، ولمطة (بسروج) الابل[8]، وغرناطة بمراوح الحلفا[9]، وشريس

(١) نزهة المشتاق (ط.د) ١٩٠.
(٢) راجع موسى: تنظيمات الموحدين ٣٠٨-٣٠٩.
(٣) انظر زهرة الآس ١٠.
(٤) كتاب الجغرافية ١٣٩.
(٥) المن بالامامة ٢١٤ وقد انقلب العدد في مصدر متأخر الى اربعمائة (انظر روض القرطاس ١٣١).
(٦) موسى: تنظيمات الموحدين ٣١٠.
(٧) ابن سعيد، كتاب الجغرافية ١٤٠.
(٨) نزهة المشتاق (ط.د) ١٥٩.
(٩) الذيل والتكملة ١:٣٠٥.

بغرابيلها[١]، ومالقة بأطباق الخوص[٢]، ومرسية بالأسرة المرصعة[٣]، وتونس بالاقلام من قصب طبرقة وخشبها[٤]، وحصن قيشاطة -بين بسطة وجيان- بالقصاع والمخابي والأطباق، وينتج منها ما يعم المغرب كله[٥]، وفاس بالمخروطات الخشبية ــ وقد كان يدخل فاس من خشب الأرز كل يوم ما لا يحصى كثرة ــ[٦] ويلاحظ أن مناطق الإنتاج هذه قد كانت البلاد الغربية وساحل تل أطلس الشرقي وشرق الأندلس وجنوبها.

ولعل خير ما يصور تطور الصناعة الخشبية في هذا القرن أن التحف كانت تصنع بقصد الملاعب للأعياد مثل الزرافات وما يشبهها[٧] أو بغرض الزينة في القصور؛ فقد روي أن في ساحة قصر ابن جامع، الوزير الموحدي، خمسمائة جارية يلعبن على خيول صنعت من الخشب[٨]. وكانت السقوف الخشبية تغشى بالقصدير والأصباغ الملونة[٩]. وكانت المنابر والمقصورات تزخرف بأشكال هندسية ونباتية، وتطعم حشوات المنابر بالعاج والأبنوس والصندل وأنواع الأخشاب، وهذا ما صنعه المرابطون في منبري جامع علي بن يوسف في مراكش[١٠] والقرويين في فاس[١١]. وتابع الموحدون هذا النهج وأضافوا إليه تذهيب المنبر مثل الذي صنع في منبر جامع عبد المؤمن في مراكش[١٢] ومنبر يوسف بن عبد المؤمن في إشبيلية[١٣].

(١) **الروض المعطار** ١٠١.
(٢) **كتاب الجغرافية** ٩٣ حاشية ٢٤٥ عن نسختين، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٦١و.
(٣) **نفح الطيب** ١:٢٠١.
(٤) ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٤٣.
(٥) **نزهة المشتاق** (ط.د) ١٠٣، **الروض المعطار** ١٦٥.
(٦) **الاستبصار** ١٨٧، **روض القرطاس** ١٧ مسالك الأبصار (آيا صوفيا) ٤:٤٣ق.
(٧) انظر **نوازل البرزلي** (مخ) ١٣٣ق، **المعيار** ٦:٥٢، وقد نسبت صناعتها الى القيروان، وربما كان ذلك يشير الى مبدأ ظهورها ثم انتشارها في البلاد الغربية والأندلسية مع هجرة القيروانيين اليها.
(٨) **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٥٠و.
(٩) **المصدر ذاته** ٤:٤٢ق، **صبح الأعشى** ٥:١٦٥.
(١٠) انظر مرزوق: **الفنون الزخرفية الاسلامية** ١٥٨-١٥٩.
(١١) **روض القرطاس** ٣٥.
(١٢) الغرناطي: **شرح المقصورة** ١:٧٠.
(١٣) **المن بالامامة** ٤٧٨

وفي العصر الموحدي استفادوا من المعارف الميكانيكية في الصناعات الخشبية، وعلى ذلك ثلاثة شواهد. أولاً: كان باب منبر جامع عبد المؤمن في مراكش يفتح من تلقائه متى صعد إليه الخطيب؛ ثانياً: أن مقصورة الجامع ذاته كانت تسع ألف شخص، وتتحرك بواسطة عجلات ثبتت في أسفلها، ولها ستة جوانب تمت بواسطة مفاصل متحركة، وتتحرك العجلات وتمتد المفاصل في وقت واحد، ولا يترتب على ذلك أقل صوت، وتبدأ الحركة تلقائياً متى دخل الخليفة الجامع فتتحرك المقصورة ويخرج من داخلها المنبر الذي جعل فيها مستوراً[١]؛ ثالثاً: وضع مصحف عثمان في تابوت له باب بدفتين يفتحان بمفتاح، ومتى ما فتح خرج كرسي، وتركب المصحف عليه تلقائياً، ويظل الكرسي بما حمل يتحرك جيئةً وذهاباً، واذا رجع الى موضعه ينغلق الباب تلقائياً[٢].

صناعة آلات الموسيق

ربما تأثرت صناعة الموسيق في البلاد الشرقية بهجرات القيروانيين خاصة الى البلاد الغربية[٣]، غير أنه في مطلع القرن السادس تجددت هذه الصناعة بقدوم ابن الصلت (ت ٥٢٨/١١٣٤) من المشرق، فقد وضع الالحان ومن وقتئذ نسبت اليه الأغاني « الافريقية »[٤]. ولم تؤثر حملات الفقهاء أو الثورتان المرابطية والموحدية في بدء أمريهما على انتشار الغناء بين الناس، إذ ظل الناس مقبلين عليه من شتى الطبقات من أمراء مرابطين وسادة موحدين وأرباب خطط وعامة. وقد اتخذ العامة من أفراحهم ومواسم حصادهم وقطفهم وصباغهم أعياداً[٥]. وفي هذا القرن وضع ابن ابراهيم الخذوج الأصبحي كتاب الأغاني الأندلسية على نسق

(١) **شرح المقصورة** ١:٧٠، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٤٩ق.
(٢) انظر رسالة ابن طفيل في **نفح الطيب** ٦١٣-٦١٤.
(٣) يروى أن أهل فاس تكسبوا الغناء من مهاجرة القيروان (راجع **كتاب الجغرافية** ١١٢).
(٤) ابن سعيد، **المغرب** ١:٢٦٢، **نفح الطيب** ٢:١٠٦.
(٥) انظر **المعيار** ٢:٣٢٤، ٣:١٤٠، ١٩٦، ١١، ٦١ وما بعدها، **نوازل ابن عياض** ١٧ق، **أخبار المهدي** ٦٠، ٦٢-٦٣، **بغية الملتمس** ٥٩، **التشوف** ٣٠٧، ٣٦٩، ٤١٢، ٤٣٦، **الوافي بالوفيات** ٢:٢٤٢، **روض القرطاس** ٨١، ١١١، ١٧٣، **نفح الطيب** ١:١٧٨، ٤:٩٦، ١٢٠، ٥:٢٧٥-٢٧٦.

كتاب أبي الفرج[١]. وخير ما يصور ظاهرة انتشار الغناء هذه، أن المنصور لما تولى الخلافة كان شراء الجواري المغنيات من أنفق السلع، فأمر بقطعها[٢]. فلا عجب بعد هذا أن تعددت آلات الموسيقى وتنوعت وكثر إنتاجها. وقد كانت أكثر ما تصنع في أشبيلية ومنها تجلب الى سائر المغرب[٣]. والآلات التي كانت تصنع ــ فيما يرويه الشقندي ــ هي الخيال والكريج والعود والروطة والرباب والقانون والمؤنس والكثيرة والقثار والزلامي والشقرة والنورة ــ وهما مزماران أحدهما غليظ الصوت والآخر رقيقه ــ والبوق والدف وأفوال واليرا وأبو قرون ودبدبة السودان وحماقي البربر[٤]. وقد عدد صاحب كتاب الامتاع الذي كان مما صنف للمنصور الموحدي عن السماع احدى وثلاثين آلة بعضها لم يرد ذكره في رسالة الشقندي، منها الغربال والمصافق والغرف والكوس والشاهين والسفاقين والشيذان والقرطبة، وكلها مما يستعمل في عصره[٥]. وعدد من هذه الآلات ــ خاصة الأنواع الأخيرة في رسالة الشقندي ــ لا ترد في المعاجم اللغوية، مما يشير الى أنها آلات محلية وبصنعتها انفرد المغرب.

ومن المفيد أن نلحق صناعة الطبول بآلات الموسيقى[٦]. ويبدو أن الطبول مع المرابطين ثم الموحدين أصبحت تستخدم في أغراض عسكرية إرهاباً للعدو قبل بدء المعركة، كما اتخذها الموحدون إعلاناً عن بشرى تزف، أو تنظيماً لسير الجيش، وقد بلغت عدتها في العصر الموحدين مائة طبل[٧]. وتميزت مع الكثرة بالفخامة، يقول صاحب كتاب الحلل الموشية في وصف طبل الرحيل عند الموحدين[٨] أنه

(١) **نفح الطيب** ٣: ١٨٥، **برنامج الرعيني** ١٦٤

(٢) **بيان موحد** ١٤٣، ١٤٥.

(٣) **نفح الطيب** ٣:٢١٣.

(٤) المصدر نفسه والصفحة ذاتها، وقارنه بقراءة المنوفي: **العلوم والآداب** ٢٣٩.

(٥) **الامتاع** (مخ) ١٢ وما بعدها.

(٦) لقد ذكر صاحب الامتاع الطبل بين آلات الموسيقى في عصره (انظر الامتاع ١٢ق).

(٧) عن المرابطين انظر
وعن الموحدين راجع موسى: **تنظيمات الموحدين** ٢٧٢-٢٧٣.

(٨) **الحلل الموشية** ١٢٦-١٢٧، Dozy, **Abbadidarum**, II, p. 247,

« طبل كبير مستدير الشكل دوره خمسة عشر ذراعاً، منشأ من خشب أخضر اللون مذهب، فإذا ضرب فيه ثلاث ضربات علم أنه طبل الرحيل فيرحل الناس، وكان يسمع على مسيرة نصف يوم من مكان مرتفع في يوم لا ريح فيه ».

المطاحن

كانت الأقوات في البلاد الأندلسية تطحن بالأرحاء التي تديرها المياه أو الحيوانات أو الرياح. وغالباً ما يتخذ الأندلسيون الأرحاء المائية لكثرة مياه الأندلس وحسن تقسيمها وتفريعها جداول[١]، حتى ان الأرحاء لتتخذ في جيان وغرناطة في المنازل أو عند مداخلها[٢]. وابتكر أهل مرسية تجليس الأرحاء على ظهر المراكب والانتقال بها من موضع الى آخر[٣]. ولا ترد الإشارة عن الأرحاء الهوائية الا عن طركونة وهي خارج مجال الدراسة هذه[٤].

ويبدو أنه قبل القرن السادس لم تعرف البلاد الشرقية والغربية الأرحاء المائية الا في أودية البلاد الشرقية والساحل الشمالي من البلاد الغربية وعيون مياهها. واذا علم المرء قلة الاستفادة من الأودية والأنهار في المناطق المذكورة[٥] غلب على ظنه أن أهل البلاد الغربية والشرقية كانوا أكثر استعمالاً للأرحاء التي تديرها الحيوانات. ويبدو أن كثرة انتاج الحنطة والشعير والقمح في البلاد الغربية وازدياد سكانها ووفرة مياهها نتيجة للمشاريع المائية التي حرص عليها الموحدون، دفعت الموحدين وأهل البلاد الغربية الى ادخال الأرحاء المائية بأعداد كبيرة. يقول صاحب كتاب الجغرافية ان أرحاء مراكش كانت من عمل عبد المؤمن[٦].

(١) انظر المصادر المذكورة في مصادر أنهار البلاد الأندلس وعيون مياهها في الفصل الثاني مما تقدم.

(٢) **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٥٩و، **الاحاطة** ١:١٢٥، **صبح الأعشى** ٥:٢١٥، **الروض المعطار** ٢٣-٢٤، ٧٠-٧١.

(٣) **الروض المعطار** ١٩٢.

(٤) **المصدر ذاته** ١٤٩.

(٥) راجع مصادر أنهار البلاد الغربية والشرقية وعيون مياهها في الفصل الثاني مما تقدم.

(٦) **كتاب الجغرافية** ١١٦.

ويثبت أبن ابي زرع من زمام مشرف فاس في خلافة الناصر أن أرحاء فاس قد بلغت ٤٧٢ رحىً داخل أسوارها، سوى ما بخارجها[١]. وحاول الموحدون إدخال الرحى الهوائية في المغرب، فقد صنع المهندس الحاج يعيش واحدة في مدينة جبل الفتح لما أنشأ عبد المؤمن مدينته الحديثة، ولكن سريعا ما تعطلت عن العمل لعدم الاهتمام بها[٢].

وقد وصلنا وصف دقيق لبيت الرحى في نازلة وردت على ابن رشد من جيان. ومنها يستفاد معرفة مقاييس الحجارة ومادة دواليبها وسدها، ومقاييس اصطبل الدواب وبرج الرحى ونوع موادهما. ومن وصف بيت الرحى يمكن القول انهم كانوا يعتنون عناية فائقة ببنائه فيستخدمون البلوط والحديد والقرميد ويشكون الحيطان بالجص[٣].

صناعة الزيوت والصابون

لا تشير المصادر الى استخراج الزيت في المغرب في القرن السادس الا من الزيتون والآرقان[٤] (أو الهرجان أو الأرجان). وأما الحبوب مثل السمسم فقليلة لا تعتصر[٥]. ولا ترد إشارة الى أن المغاربة قد استخرجوا الزيت من بذر القطن مع كثرة انتاجها له في البلاد الغربية في فترة الدراسة هذه.

(١) **روض القرطاس** ٢٦، وفي رواية ابن سعيد عند العمري ثلاثة آلاف رحى (**مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٤٣ق)، وعند القلقشندي ستمائة رحى (**صبح الأعشى** ٥:١٥٥)، وفي رواية السلاحي تقارب أربعمائة (أنظر **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٤٢ق). وقد ضعف العمري رواية ابن سعيد، وقد يكون ابن سعيد كان يعني منطقة فاس كلها؛ أما رواية السلاحي فهي تعبّر عن الفترة المرينية.

(٢) **المن بالامامة** ١٤٢.

(٣) عباس: « **نوازل ابن رشد** » ٣٥.

(٤) اسم بربري لشجر في السوس ودرن يشبه الاجاص وله ثمر أخضر يصفّر اذا نضج (انظر **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٦٥.

(٥) انظر **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٤٧و، **صبح الأعشى** ٥:١٧٧.

ويحدد الطغنري في زهره ثلاث طرق لاستخلاص الزيت من الزيتون وهي العصر أو الطحن أو الغلي[١]. وأما زيت الآرقان فلا يكون الا بالطحن[٢]. وكانت صفاقس قبل القرن السادس وخلاله مركز معاصر الزيتون في البلاد الشرقية، ومنها يحمل الزيت الى بلاد الروم وصقلية وايطاليا وسواحل أوربا[٣]. ونظراً لتحول الزراعة نحو البستنة في هذه المنطقة، ومن ثم ازدياد كمية الزيتون، فقد ظهر مركز جديد للزيت هو قابس[٤]. وظلت أشبيلية مصدراً رئيسياً للزيت في البلاد الأندلسية وتصديره الى بقية بلاد المغرب والمشرق[٥]، مع اختصاص شوذر من قرى جيان. ولقنت من عمل مرسية بصناعة الزيت[٦] أيضاً. وقد تمّ التحول الأكبر في صناعة الزيت في البلاد الغربية، حيث كان أهلها يستخرجون زيت الأرقان ويستطيبونه، ويصنع في بلاد حاحة والسوس ودرن[٧]. ولكن بعد أن الموحدون زراعة الزيتون وكثرت معاصره في مراكش[٨] وتينملل[٩] ومكناسة[١٠] تحول الناس الى زيت الزيتون. ويبدو أن السبب في هذا التحول لا يرجع الى وفرة الزيتون وحسب، بل قد يرجع الى صعوبة استخلاص الزيت من الأرقان، اذ بعد قطف الثمر، يوضع الثمر بين يدي المعز فتأكل قشرته الخارجية فيؤخذ فيغسل فيكسر ثم بعد ذلك يطحن زيتاً[١١].

ويبدو أن كمية الانتاج الكبيرة من الزيت خلال العصر الموحدي أدت الى

(١) **زهر البستان** (مخ) ٨٧–٨٨.

(٢) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٦٥.

(٣) البكري، **المغرب** ٢٠، **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٠٧، **الاستبصار** ١١٧.

(٤) انظر ظهور معاصر الزيت فيها مع الادريسي (**نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٠٦.

(٥) **كتاب الجغرافية** ٨٩، **الروض المعطار** ١٩.

(٦) ابن سعيد، **المغرب** ٢:٢٧٤، **الروض المعطار** ١١٧.

(٧) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٦٥، **كتاب الجغرافية** ١١٨، **الاستبصار** ٢١٢، **العبر** ٦:٢٦٤.

(٨) **كتاب الجغرافية** ١١٦، **الاستبصار** ٢١٠.

(٩) **كتاب الجغرافية** ١٢٥.

(١٠) **الاستبصار** ١٨٨.

(١١) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٦٥.

ازدهار صناعة الصابون في مراكش[1] وفاس التي كان فيها على عصر المنصور ٤٧ داراً لصناعته[2]، ويظهر أن لونه كان أسمر[3].

صناعة السكر

لقد طرأ تغيير كبير على صناعة السكر في فترة الدراسة هذه، فتوقف انتاج السكر في البلاد الشرقية مع صنهاجة الشرق[4]، وقل إنتاجه في سواحل البلاد الأندلسية، غير أن المنكب كانت منطقة الانتاج الرئيسية فيها[5]، بينما كثر إنتاجه في السوس في العصر المرابطي[6]. ولما وسع الموحدون زراعة السكر تضاعف إنتاج السوس من السكر مع كثرة معاصره في تارودنت وايجلي[7]. وظهرت معاصره في مراكش — وبلغت أربعين معصرة — وفي سلا وفي الجزائر[8]. وقد كان انتاج مراكش أكبر من انتاج السوس[9]، غير أن انتاج الاولى أقل مستوى من الثانية، يقول ابن سعيد أن سكر مراكش في نهاية البياض اذا كان مكرراً، وصلب ولطيف المذاق، ويقارب سكر مصر[10]، ويؤكد الادريسي وصاحب الاستبصار أن السكر السوسي يساوي السليماني والطبرزد ويشف على جميع أنواع السكر في الطيب والصفاء[11]. ولما كان أهل السوس يفضلون العسل على السكر[12] فان السكر السوسي كان يصدر الى جميع جهات المغرب مع أن انتاجه أقل من المراكشي[13].

(١) راجع **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٧٠.
(٢) **روض القرطاس** ٢٦.
(٣) يقول السيد أبو الربيع في صدر بيت « واسمر يصرف السودان بيضاً » (**الغصون اليانعة** ١٣٣).
(٤) ذكر البكري السكر في قابس وجلولا ولم يرد عنه شيئاً بعد ذلك (**المغرب** ١٧، ٢٣).
(٥) راجع الملحق الرابع، و **مسالك الأبصار** ٤:٦٠ق، **صبح الأعشى** ٥:١١٨.
(٦) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٦٢.
(٧) **كتاب الجغرافية** ١١٧، **الاستبصار** ٢١٢.
(٨) **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٥٧ق، **صبح الأعشى** ٥:١٧٦.
(٩) **المصدران الأخيران** والصفحات ذاتها.
(١٠) **المصدران ذاتهما** والصفحات نفسها
(١١) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٦٢.
(١٢) **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٥٧ق، **صبح الأعشى** ٥:١٧٦.
(١٣) **الاستبصار** ١١٧.

صناعة الخمور

كانت الخمر تباع في المغرب في الاسواق في مطلع القرن السادس[1]، وعلى الرغم من محاولة المرابطين قطع ذلك في بداية أمرهم فقد انتشر شربها بين بعض أمراء المرابطين وخاصة دولتهم وكثير من عامتها[2]، حتى ان ابن عبدون يقترح على المحتسب أخذ السلاح من الناس قبل بداية الشرب في الأعراس[3]. ولم تبذل الدولة المرابطية جهوداً جدية لمنع الخمر الا بعد أن تفاقت الثورة الموحدية[4]. ومنع الموحدون الخمر في دور الثورة، ولكن في طور الدولة أحلوا الربّ المصنوع من العنب — وربما كان ذلك تأليفاً للمصامدة الذين يكثرون من شربه[5] —، وكان الخلفاء، وخاصة يوسف منهم يقدمونه في الاحتفالات الرسمية ويجرون منه أنهاراً[6]، وفتح ذلك باباً للشرب بين السادة بني عبد المؤمن وعامة الناس[7]، حتى اضطر المنصور لقطعه، فأريقت من الخمر أموال جمة[8].

ان موقف الدولة المرابطية يدعو الى التساؤل عن درجة اعتراف الدولة بصناعة الخمر. وليس هناك ما يشير الى إجابة قطعية عن مثل هذا السؤال، غير أن كثرة النوازل عن بيع الكرم لمن يعصرونه خمراً، وأن الفقهاء لا يبلغون في ذلك أبعد من الكراهة[9] يدعو الى الظن بأن الدولة قد تغاضت عن صناعة الخمر.

(١) **وفيات الأعيان** ٥:٥٠، **روض القرطاس** ١١١.
(٢) انظر **المعجب** ١٩٤، ابن سعيد، **المغرب** ٢:١٢٧، **المطرب** ٧٦، **الاحاطة** ١:٤١٣، ٤١٤، **روض القرطاس** ٨١.
(٣) **رسالة ابن عبدون** ٥٤.
(٤) انظر جهود ابن معيشة قاضي فاس وتاشفين بن علي والي الأندلس في **نظم الجمان** ٢٢٣، مؤنس: « نصوص سياسية » ١١٣.
(٥) يسميه أهل السوس انزيز ويكثر شربه في الصيف (راجع **نزهة المشتاق** (ط.د) ٦٢-٦٣، **الأنواء** ١٢، **أمثال العوام** (مطبوع) رقم ٧٠١).
(٦) راجع **المن بالامامة** ٤٣٣، ٤٩٤، **بيان موحد** ٩١.
(٧) انظر **المن بالامامة** ١٧٤-١٧٥، **المعجب** ٢٣٦، ٢٩٦، ٢٩٩، **وفيات الأعيان** ٧:١٣٤، **التشوف** ١٨٠، ٢٢٩، ٤٣٨، ٤٤٠، **بيان موحد** ٤٣، ٥٤، **نفح الطيب** ١:١٧٨، **لمح السحر** (مخ) ٤٧و.
(٨) **رسائل موحدية** ١٦٤ وما بعدها، **بيان موحد** ١٤٤.
(٩) راجع **نوازل البرزلي** (مخ) ١٤٤ق، **المعيار** ٦:٥١ وما بعدها، ١٥١ وما بعدها.

ولكن مع الموحدين كانت للرب أسواق[١]، غير أن كثيراً من الناس كان يصنع خمره في منزله[٢]، وخاصة الفلاحين منهم[٣]. ومع أن الفواكه عامة تعتصر خموراً فالعنب أكثرها استعمالاً، وقد اختصت مرسية بخمور من التين والزبيب[٤] واشتهر السوس بصناعة الخمر من العسل[٥]. وكانت مراكز الانتاج المشهورة في القرن السادس جيجل في البلاد الشرقية[٦]، ومراكش وفاس ودرن والسوس في الغربية[٧]، ومرسية ولورقة ومالقة وبلنسية وأشبيلية في الأندلسية[٨].

ماء الورد

ان المؤثرات التي غيرت مناطق الزراعة ونوع المحاصيل قد تركت أثراً كبيراً على هذه الصناعة. ففضلاً عن المناطق التي اشتهرت بها من قبل مثل مدن شرق الأندلس وأشبيلية وفاس[٩]، ظهرت مراكز جديدة لم تعرف بصناعة ماء الورد من قبل، مثل قفصة التي كثرت كمية التقطير فيها وبرع أهلها في انتاجه حتى ان ما يصنع كان يشبه الجوري ويصدر الى مصر[١٠]، كما أن مراكش أصبحت تنتج منه كميات كبيرة تصدر الى جميع البلاد الغربية[١١]. وقد أعطى الطغنري وصفاً دقيقاً لهذه الصناعة. فوصف الفرن ومقاييسه وطريقة التقطير وحفظ الانتاج وتطييبه بالمسك أو الشب أو الكافور ونسب ذلك[١٢].

(١) انظر Alain et Deverdun, "Les Portes anciennes de Marrakech," **Hepéris**, T. 44, pp. 121-123.

(٢) راجع **التشوف** ١٨٠، ٢٢٩ بالاضافة الى مصادر الحاشية السابقة.

(٣) انظر **زهر البستان** (مخ) ٦٠-٦١، وعن طريقة الصناعة **المصدر ذاته** ٦٤.

(٤) ابن سعيد، **المغرب** ٢:٢٧٤.

(٥) **الاستبصار** ٢١٢، وهو ما كان يشربه أمويو قرطبة (انظر **كتاب الطبيخ** ٢٣٨).

(٦) **الاستبصار** ١٢٨، ويذكر أنها تصدر الى بجاية.

(٧) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٦٢-٦٣، ٢١١، **الاستبصار** ٢١٢، **نظم الجمان** ٢٢٣، **التشوف** ٢٢٣.

(٨) مؤنس: « نصوص سياسية » ١١٣، ابن سعيد، **المغرب** ١:٤٢٤، ٢:٢٧٤، **الروض المعطار** ١٧١.

(٩) راجع عنها الملحق الرابع.

(١٠) **الاستبصار** ١٥٤.

(١١) **كتاب الجغرافية** ١١٦.

(١٢) **زهر البستان** (مخ) ٦٩ وما بعدها.

صناعة الطبيخ

لقد طرأ على فن الطبيخ في القرن السادس تطور كبير خاصة في البلاد الغربية. ويشهد على هذا التطور كتابان من العصر الموحدي: الأول مختصر في الأغذية وقد صنف برسم عبد المؤمن[١]، وفيه عناية خاصة بأنواع الخبز واللحوم وصناعتها[٢]؛ والثاني كتاب الطبيخ الذي يصف كل لون من الطعام وطريقة تحضيره وتقديمه وفوائده. ويبدو أن اهتمام الموحدين هو سبب هذا التطور في صناعة الطعام. ففضلاً عن حياة الترف في قصور الخاصة، لقد كان خلفاء الموحدين يقيمون مآدب كبرى للواصلين الى حضرتهم استعداداً لغزو أو احتفالاً بمناسبة دينية أو سياسية، ويستمر الإطعام خمسة عشر يوماً، يدخل في كل يوم ما يزيد عن الثلاثة آلاف شخص[٣]. وانعكس هذا الاهتمام على حياة العامة حتى ان أسواق الطعام التي لا يدخلها ذوو المكانة الاجتماعية، ويذم صانعو الطعام فيها في الأمثال المغربية بعدم النظافة[٤]، أصبحت في هذا العصر بهية المنظر متنوعة المآكل[٥]. وانتقلت طرائق الطعام الأندلسي وأنواعه الى البلاد الغربية وخاصة المجبنات التي اختصت بها شريش[٦].

العقاقير والعطور

ليس بين أيدينا معلومات تفصيلية عن عمل العقاقير والعطور في هذه الفترة، ولكن ثلاثة ظواهر تؤكد تطور الصنعتين: تقدم الكيمياء وازدهار الدراسات

(١) **مختصر في الأغذية** (مخ) ١و.

(٢) **المصدر ذاته** ٢ق-١٦ق.

(٣) **المن بالامامة** ١٢٦، ٢٩١، ٤٣٣، **بيان موحد** ٩١.

(٤) انظر **أمثال العوام** (مطبوع) رقم ٥١٤؛ وكان الناس يتخوفون من الطباخين لأجل ذلك (**كتاب الطبيخ**) ٧٩).

(٥) أنظر كيف وصف أحد كتاب الرسائل في القرن السادس سوق الطعام (**العطاء الجزيل** (مخ) ١٤).

(٦) المجبنات قطائف يضاف الجبن الى عجينها وتغلى بالزيت (انظر **كتاب الطبيخ** ٨٩، ١٩٩-٢٠١، **أمثال العوام** (مطبوع) ٣١، **نفح الطيب** ١:١٨٤.

الطبية[1]، وما أنشأه المنصور الموحدي من مستشفيات للمرضى والمجانين في كل المغرب[2]. ويبدو أنه قد ألحق بكل مستشفى بيتاً لصنع الأشربة والأدهان والأكحال[3]. والغالب أن هذه النهضة الموحدية في البلاد الغربية قد بدأت مع المرابطين استنتاجاً مما توحي به الاهتمامات الطبية والكيماوية عند ابن تاتلي[4] وأبي إسحاق ابن يوسف المرابطيين، وللأخير وضع ابن زهر كتابه « الاقتصاد في صلاح الأجساد »[5]. والراجح أن المغاربة قد استفادوا من تجارب غيرهم في هذه الصنعة وأضافوا جديداً. يقول السقطي عن العقاقير انها قد بلغت « نحو الثلاثة ألف في العدد، والاختراعات لا تنقطع »[6]. وتؤكد رواية السقطي هذه المعلومات الواردة في كتاب الأعشاب الذي وصلنا عن الفترة الموحدية، حيث يبيّن مصنفه الأعشاب باسمائها اليونانية والعربية والبربرية وغيرها ومكان كل نوع وخصائصه.

المعادن والمواد غير المعدنية

طريقة الاستخراج

أورد الأدريسي نصاً في غاية الأهمية عن طريقة التعدين الذي شاهده في

---

(١) دراسة هاتين الظاهرتين خارج مجال هذه الدراسة، وعنهما أنظر Imamuddin, **op. cit.**, pp. 161 Sqq. والمنوفي: **العلوم والآداب** ١٢١ وما بعدها، **طبقات الأطباء** ٢: ٥٢-٥٣..

(٢) **روض القرطاس** ١٤٣؛ وقد ذكر ابن أبي زرع أن مستشفى المجانين في فاس يقع خارج باب الخوخة (روض القرطاس ٢٠-٢١).

(٣) انظر عن بيمارستان مراكش **المعجب** ٢٨٧، **طبقات الأطباء** ٢: ٧٩.

(٤) انظر عنه **طبقات الأطباء** ٢: ٢٠٣-٢٠٤.

(٥) **الذيل والتكملة** ٥: ١: ١٨-١٩.

(٦) الكتاب هو **عمدة الطبيب في معرفة النبات لكل لبيب**، وهو محفوظ في الخزانة العامة - رباط الفتح ورقمه ٣٥٠٥د، وقد نسب الى ابن بطلان، غير أن الأستاذ ابراهيم الكتاني في بحث لم ينشر رجّح أنه لاشبيلي موحدي استناداً على اشارات في الكتاب، ولا يستبعد أن يكون لابن الرومية العشّاب (» راجع عن ابن الرومية **التكملة** ١: ١٢١، **الاحاطة** ١: ٢١٩، **الوافي بالوفيات** (مخ) ٨: ٢٠). والجدير بالذكر أن المختصر في الأغذية قد احتوى فصولاً عن العقاقير والعطور المستعملة في المغرب (انظر **مختصر في الأغذية** (مخ) ١٦ق وما بعدها.

حصن أبال من قرطبة. وذكر الأدريسي أن عمق البئر أكثر من خمسين ومائتي قامة، ويخدم المعدن أكثر من ألف شخص، تتخصص كل مجموعة في عمل، من قطع الأحجار وصنع أواني السبك والحرق ونقل الحطب[1]. وهذا عمل شاق كثير التكاليف، ولهذا فإن استمرار معدن في إنتاجه كان يتطلب العائد المادي الكبير وضمان عدم مزاحمة إنتاج آخر له وتوفر الأمن. وقد أثرت هذه العوامل على مناطق استخراج المعادن في المغرب في القرن السادس تأثيراً كبيراً، فتوقف إنتاج بعض المعادن وازدهر غيرها.

مناطق المعادن والمواد غير المعدنية

كانت المواد المعدنية وغير المعدنية وافرة في البلاد الشرقية قبل الغزو الهلالي، مثل حجارة أرحاء مجانة وفضتها ونحاس جبال كتامة وخزف تونس ومرجان مرسى الخزر وملح طرابلس الذي يحمل الى القيروان. بيد أن إنتاج هذه المواد قد توقف ولا يرد ذكر شيء منها في القرن السادس سوى أحجار مجانة ومرجان مرسى الخزر[2]. ويظهر أن التعدين انتقل الى المنطقة الأكثر أمناً في ساحل تل أطلس، وظهر جص جيجل وحديد بجاية وبونة وزفت بجاية وقطرانها[3]. وفي ظل الموحدين استفاد أهل البلاد الشرقية من رخام تونس ومرمرها[4] وزجاج نفزاوة[5]. وربما يرجع السبب في ضعف التعدين وعدم الاستفادة من المواد غير المعدنية الى استنفاذ ما كان موجوداً من المعادن والمواد غير المعدنية وعدم البحث عن الجديد منها، ذلك لأن الخبرات قد نزحت بسبب الموجة الهلالية.

ولقد توقف إنتاج كثير من المعادن التي كانت معروفة في البلاد الأندلسية قبل الفتح المرابطي، بيد أن الناس وجدت لها بديلاً، باستثناء ذهب فرنجولش

---

(١) **نزهة المشتاق** (ط.ب) ٢١٤، ونقله الحميري في روضه (الروض المعطار ١٠).

(٢) انظر البكري، **المغرب** ٤٠، ٤٩، ٥٢، ٨٢-١٤٥، **الاستبصار** ١٦١، ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٤٣.

(٣) راجع **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٩٠، ٩١، ٩٨، ١١٦، ١١٧، ١١٨.

(٤) **المعجب** ٣٥٢، وترد الى تونس من قرطاجنة.

(٥) ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٤٣.

من قرطبة[١]، ولعل السبب في ذلك أن وارد الذهب من السودان كان يغني المرابطين عن البحث والتنقيب. ولكن العصر المرابطي وجد بديلاً لفضة مرسية وباغة في فرنجولش من قرطبة[٢]. واستعاض العصر المرابطي عن حديد فريش قرب قرطبة وحديد أبذة بما استخرج في إشبيلية وحصن قسطنطينة من أعمال قرطبة[٣]. وأغلب الظن أن التوتيا قرب المنكب كانت ما استخرج في هذا العصر المرابطي[٤]. وخلال الفترة الموحدية انتقل التعدين من جهات قرطبة الى جنوب البلاد الأندلسية وشرقها. ويبدو أن فتن فترة الانتقال وهجرة الناس جنوباً كانت السبب في هذا التحول، ولعل هذا مما يفسر محاولة الموحدين المخفقة لإعادة تعمير قرطبة في سنة ١١٦٢/٥٥٧ وجعلها عاصمة للأندلس[٥]. وفي العصر الموحدي استثمر ذهب وادي حدرو في وسط غرناطة[٦] والحديد قرب إشبيلية[٧] وأيضاً في بكارش قرب المرية وفي أوربة قرب دانية[٨]. كما استخرج الرصاص قرب المرية[٩].

---

(١) **الروض المعطار** ١٤٣، وروايته عن الرازي، ولم تذكر مصادر القرن السادس شيئاً، وهناك منطقتان للذهب وهما خارجتان عن ناطق هذه الدراسة هما لاردة واشبونة (انظر عنهما **كتاب الجغرافية** ٨٢، ٨٥).

(٢) عن مرسية و باغة انظر **الروض المعطار** ١٨٢، **نفح الطيب** ١٥٩:١، ولم تذكر مصادر القرن السادس عنهما شيئاً؛ وعن فرتجولش انظر **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٢٠٧، **نفح الطيب** ٢٠٠:١.

(٣) انظر فريش وأبذة **نفح الطيب** ١٨٢:١، **الروض المعطار** ١٤٣، وربما تكون هذه رواية الرازي، ولم يذكر عنهما شيء في مصادر القرن السادس. والقسطنطينية واشبيلية راجع **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٩٥، ٢٠٧، **الروض المعطار** ٧٦.

(٤) انظر **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٩٩.

(٥) **المن بالامامة** ٢٠٣، وما بعدها.

(٦) وكان الانتاج قليلاً و يباع بزيادة الربع والخمس في المثقال عن الذهب الآخر (**كتاب الجغرافية** ٩٥-٩٦)، ولم يذكره المراكشي ضمن قائمته بمعادن الأندلس، وقد ذكره ابن الحكيم في العصر المريني (انظر **الدوحة المشتبكة** ٢٣).

(٧) رواية ابن سعيد في **نفح الطيب** ٢٠١:١.

(٨) **المعجب** ٣٦٣، **نفح الطيب** ١٦٢:١.

(٩) في رواية المراكشي في دلاية وعند والد ابن سعيد في برجة (**المعجب** ٣٦٣، ابن سعيد، **المغرب** ٢٢٨:٢).

وأما المواد غير المعدنية التي كانت في البلاد الأندلسية قبل القرن السادس فقد أصبحت على أربعة أضرب في القرن السادس: منها ما استمر استثماره طوال القرن السادس لتوفر مادته وأمن منطقته وعدم تأثرها السلبي بتيارات الهجرة، مثل زاج إشبيلية[١] وعنبر الشواطىء خاصة شذونة[٢]؛ ومنها ما انقطع — ربما لنفاد مادته — ولم يجد العصر المرابطي له بديلاً، مثل شب لبلة[٣]؛ ومنها ما انقطع ووجد له بديل، مثل زئبق فحص البلوط الذي استخرج بدلاً عنه زئبق أبال[٤]؛ ومنها ما استمر استثماره في موضع وانقطع في آخر ووجد أهل الأندلس لما انقطع بديلاً خلال العصر المرابطي. ومن النوع الأول رخام فريش[٥]، ومن الثاني انقطاع رخام باغة واستثمار رخام المرية[٦].

وفي العصر الموحدي كان الاستثمار يتجه نحو الجنوب والشرق باستثناء زئبق بطروش قرب قرطبة مع اضطراب منطقته لأنه لا يوجد في غيرها[٧]. وسوى ذلك فإن المصادر لا تشير الى غير كحل بسطة[٨] والكبريت الأحمر في مرسية[٩] وحصى المرية الذي يشبه الدر في رونقه وله ألوان عجيبة، فيتخذ للزخرف الزينة[١٠]،

---

(١) **كتاب الجغرافية** ٨٨-٨٩، ابن سعيد، **المغرب** ٣٣٩:١، **الروض المعطار** ١٦٨، **نفح الطيب** ٢٠١:١.

(٢) **مسالك الأبصار** (أحمد الثالث) ١٠٠:١:٣، **الروض المعطار** ١٠١.

(٣) ابن سعيد، **المغرب** ٣٣٩:١ وروايته عن الرازي؛ وانظر أيضاً **الروض المعطار** ١٦٨.

(٤) ذكر الحميري فحص البلوط ولم يرد في مصادر القرن السادس (**الروض المعطار** ١٤٢)، وأما أبال فقد شاهد الادريسي تعدينه (**نزهة المشتاق** (ط.د.) ٢٠٧، **الروض المعطار** ١٠).

(٥) انظر **نفح الطيب** ٢٠١:١ (رواية الرازي)، **نزهة المشتاق** (ط. د.) ٢٠٧، **الروض المعطار** ١٤٣.

(٦) معدن باغة ذكره في النفح برواية الرازي (**نفح الطيب** ٢٠١:١)، ولم يرد ذكره في القرن السادس؛ وعن المرية انظر **المصدر ذاته** ١٦٢:١.

(٧) يذكره صاحب كتاب الجغرافية ولا يذكر شيئاً عن زئبق أبال الذي زاره الادريسي (**كتاب الجغرافية** ٨٧)، ولعله هو نفسه الذي يذكره المراكشي (**المعجب** ٣٦٣).

(٨) **كتاب الجغرافية** ٩٦.

(٩) **المصدر ذاته** ٩٩.

(١٠) **نفح الطيب** ٢٠١:١ (رواية ابن سعيد).

واكتشاف نوع من التراب قرب إشبيلية يخلط بالدقيق فلا يمتاز عنه لمجانسته له فيؤكل[١].

و يذكر البكري ثلاثة معادن كانت تستخرج قبل القرن السادس في البلاد الغربية وهي ذهب تازا ونحاس تيحامين ـــ في الطريق بين أغمات وسجلماسة ـــ وحديد أرزو[٢]. والراجح أن مادة هذه المعادن قد استهلكت قبل القرن السادس بأمد بعيد، إذ ان تاريخ معدن تازا في رواية البكري نفسه يرجع الى القرن الثالث، هذا فضلاً عن أن المرابطين والموحدين، مع اهتمامهم بالمعادن، لم يستثمروا واحداً منها، خاصة أن العصر المرابطي شهد بداية استثمار الثروات المعدنية في البلاد الغربية، فاستخرج النحاس في داي والسوس، ولقي نحاس داي رواجاً كبيراً لأن لونه يميل الى البياض و يدخل في لجام الفضة ولا يتشرح إذا طرق[٣]. واتسع نطاق استخراج المعادن في الفترة الموحدية في البلاد الغربية وكثرت معادنها، وكانت الفضة تستخرج من معدن عوام قرب فاس[٤] ومعدن وركناس في ديار صنهاجة الظل[٥] وقرب زجندر في السوس في ديار هرغة[٦] ومن معدن رقيد جنوبي السوس ومن جبل فازاز[٧]. كما استثمرت معادن النحاس والتوتيا في السوس[٨]، ومعادن الحديد في تمسامان ـــ على الطريق بين سبتة

(١) **كتاب الجغرافية** ٨٩.
(٢) البكري، **المغرب** ٧٠، ١١٨.
(٣) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٧٥؛ والجدير بالذكر أن الادريسي يشك في وجود النحاس في السوس و يقول إن العامة تنسب نحاس داي الى السوس وداي ليست في السوس. والواقع أن العامة لم تنسب ذلك الى السوس إلا لأن السوس قد عرفت النحاس. و يذكر صاحب كتاب الجغرافية نحاس السوس و ينص على أن النحاس يحمل من مراكش الى فاس (**كتاب الجغرافية** ١١٦، ١١٧).
(٤) ذكره ابن الأبار دون تحديد نوع المعدن (التكملة ٢:٥٦٠)، وحدد صاحب كتاب الجغرافية النوع وجاء اسم المكان مصحفاً الى غوان (**كتاب الجغرافية** ١١٥).
(٥) انظر **أخبار المهدي** ١٢٣، **كتاب الجغرافية** ١١٥، **المعجب** ٣٦٢.
(٦) **المعجب** ٣٦١، ٣٦٢، **بيان موحد** ١٢٠، **روض القرطاس** ١٣٩.
(٧) **الاستبصار** ١٤١.
(٨) **المعجب** ٣٦٣، وربما تشير احدى روايات البيذق عن العدانين في أغبار من السوس الى أحد هذين المدنين (انظر **أخبار المهدي** ١٢٨).

ووهران ـــ وفي وايسنتار ـــ على ساحل البحر بين سلا ومراكش[١].

وهناك ثلاث مواد غير معدنية كانت تستثمر خلال القرن السادس كله هي المرجان والعنبر والملح. وقد اختصت سبتة بالمرجان واستخرج العنبر في الشواطىء الغربية[٢]. وأما الملح فقد كان يؤخذ من ملاّحة قرب فاس طولها ١٨ ميلاً وفيها من الأنواع ما لا يشبه بعضه بعضاً. غير أن ملحها بدأ بالتناقص، فبعد أن كان الحمل منه يباع في فاس بدرهم أصبح يباع كلّ عشرة أصوع بدرهم[٣]، ولعل هذا هو السبب الذي أدى الى ظهور ملاحتين جديدتين في العصر الموحدي، واحدة في بلاد حاحة[٤] والأخرى في جبل تاجموت قرب مراكش[٥]. واستخرج الشب في العصر الموحدي في السوس[٦]، والصدف من نهر فاس، وقد كان هذا الصدف يقوم مقام الجوهر النفيس، تباع الحبة منه بمثقال لحسن صفائه وعظم جرمه[٧].

من كل ما سبق يتضح أن المغرب في القرن السادس لم يعرف استخراج الذهب إلاّ القليل الذي كان في وادي حدرو بينما كثر إنتاج الفضة في العصر الموحدي. و يلاحظ أن المعادن والمواد غير المعدنية تركزت في ساحل تل أطلس الشرقي وجنوب البلاد الأندلسية وغربيها وفي البلاد الغربية كلها، وعلى وجه خاص منطقة السوس. ولا ريب في أن هذا التوزيع للمعادن والمواد غير المعدنية قد ترك أثره على الصناعات المعدنية وغير المعدنية ومراكزها.

الصناعات المعدنية

كانت بجاية مدينة الصناعات المعدنية في النصف الأول من القرن السادس

(١) **المعجب** ٣٦٢.
(٢) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٦٨، **مسالك الأبصار** (أحمد الثالث) ٣:١:١٠٠.
(٣) **روض القرطاس** ١٧.
(٤) ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٢٥ (رواية ابن فاطمة).
(٥) **بيان موحد** ٣٥.
(٦) **كتاب الجغرافية** ١١٧.
(٧) **روض القرطاس** ١٧.

في البلاد الشرقية[1]، وتأكد وضعها هذا أيام الموحدين، مع مشاركة تونس لها في إنتاج المصنوعات المعدنية[2]، واختصت قفصة في العصر الموحدي بصناعة الأواني الذهبية[3]. وقد كانت بسطة والمرية داري «صنعة الأندلس» في العصر المرابطي[4]، مع وجود مراكز أخرى بدأت تأخذ الدور الرئيسي في العصر الموحدي، بعد أن انهارت صناعة المرية خلال فترة الانتقال. فتخصصت هذه المراكز بألوان من الصناعات المعدنية مع وجود صناعة الأسلحة الثقيلة في كل منها[5]. وقد اختصت مرسية ومالقة بصناعة آلات الصفر والنحاس والحديد من سكاكين ومقصات مذهبة وجميع ما يحتاجه المنزل من أوان خاصة استعداداً لعرس، ويبدو أن مرسية كانت أكثر إنتاجاً، ومنها تصدر هذه الصناعات الى البلاد الشرقية والغربية[6]؛ وتميزت إشبيلية بصناعة الأسلحة[7] وشقة بالدروع والبيضات التي تنسب إليها[8]. وبدأت البلاد الغربية تأخذ نصيبها من هذه الصناعات، مع تخصص كل جهة في نوع منها، مثل تلمسان في إنتاج عدة الخيل[9] ونول لمطة في صناعة عدة الأبل[10] وتخصص فاس في مصنوعات النحاس[11].

ولئن بدأت هذه الصناعات فيها خلال العصر المرابطي، فقد بلغت كامل ازدهارها في العصر الموحدي، خاصة أن المعادن المكتشفة قد ساعدت على

(١) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٩٠-٩١.
(٢) خاصة في صناعة الأسلحة والسكة حسبما ما سيوضح فيما يلي.
(٣) **الاستبصار** ١٥٤.
(٤) **نزهة المشتاق** (ط. د.) ١٩٧، ٢٠٢، **الجغرافية** ١٠١، **نفح الطيب** ١:١٦٣، **الروض المعطار** ١٨٤.
(٥) انظر ما يقوله ابن سعيد عن أسلحة الأندلس في **نفح الطيب** ١:٢٠٢.
(٦) راجع عن مرسية رواية ابن سعيد في **نفح الطيب** ١:٢٠١-٢٠٢ وروايته عن مالقة في **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٦١و، **صبح الأعشى** ٥:٢١٩.
(٧) **نفح الطيب** ١:٢٠١-٢٠٢، **الاحاطة** ١:٤٥٧-٤٥٨.
(٨) **كتاب الجغرافية** ٨٢.
(٩) ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٤٠.
(١٠) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٥٩.
(١١) **روض القرطاس** ٢٦.

مضاعفة الإنتاج حتى أصبحت فاس مركز الصناعات المعدنية في البلاد الغربية. وكان في فاس ١٢ داراً لصناعة النحاس والحديد[1]، وبرع أهلها في صناعة المخروطات النحاسية بشكل خاص[2]. وظهرت أبجلي في العصر الموحدي واشتهرت بصناعاتها النحاسية التي تصدر الى السودان[3].

وهناك ثلاثة مجالات جعلت إنتاج المرابطين ثم الموحدين من الصناعات المعدنية يتكاثف وصنعتها تتقن ومراكزها تنتشر، وهي المعمار والأسلحة والسكة.

إن المعمار الذي بدأت العناية به مع المرابطين وبلغ شأواً عظيماً مع الموحدين احتاج للصناعات المعدنية في البناء نفسه. وفي تأثيث المساجد والقصور وتزينها، وفيما لحق ذلك من طلب لأدوات الترف. وقد سبقت الإشارة الى تطعيم المصنوعات الخشبية بالمعادن وتذهيبها وتذهيب النسيج والكتب فضلاً عن اتخاذ الحلي وتذهيب الأواني الفخارية حسبما سيوضح فيما يلي، ولعل هذه المتطلبات هي التي دفعت الى تلوين المعادن. وقد كان الصناع يستعملون التوتيا ليصير النحاس أخضر[4]. ويوضح تقدم الصناعة المعدنية في مجال المعمار استخدام الحديد والرصاص أنابيب لجر المياه الى المدن أو توزيعها فيها، مثل الذي فعله عبد المؤمن في الرباط[5] والناصر في فاس[6]، واتخاذ الصفر المزخرف شبابيك[7] وثريات لتزين المساجد[8]. ولعل خير ما يصور تقدم الصناعة المعدنية في الفترة الموحدية أن تفافيح صومعة إشبيلية الأربع قد موهت بسبعة آلاف مثقال يعقوبية كبار، ورفعت كل واحدة على عمود حديدي يزن أربعين ربعاً يمتد عالياً غير متأثر بزعازع الريح

(١) **روض القرطاس** ٢٦.
(٢) **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٤٣ق.
(٣) **الاستبصار** ٢١٢.
(٤) **المعجب** ٣٦٣.
(٥) انظر **مقدمة الفتح** ٤٢، ١٣٩-١٤٠.
(٦) راجع **روض القرطاس** ٤٥-٤٦، **زهرة الآس** ٨٢.
(٧) انظر وصف جامع المنصور في تامراكش في **مسالك الأبصار** ٤:٤٩ق.
(٨) مثال ذلك ثريتا جامع الأندلسيين في فاس والجامع الأعظم في مكناس (راجع عنهما **زهرة الآس** ٥٩، المنوني: **العلوم والآداب** ٢٥٧).

والأمطار[١]، كما أنه في عصر يوسف الموحدي نصبت ساعة على باب جامع مراكش، ارتفاعها في الهواء خمسون ذراعاً، وتنزل عند انقضاء كل ساعة صنجة وزنها مائة درهم، وتتحرك بنزولها أجراس يسمع وقعها من بعد[٢]. وكانت ثرية جامع القرويين في فاس المؤلفة من ٥٠٩ قنديلاً تزن ٢/١ ١٧ قنطاراً و ١٣ رطلاً من النحاس، وتحمل هذه القناديل قنطاراً وسبع قلال من الزيت[٣].

والراجح أن صناعة الأسلحة كانت أكثر تقدماً خلال القرن الخامس في البلاد الأندلسية عنها في البلاد الغربية والشرقية. وكانت الأسلحة في هذه خفيفة قصيرة بينا في تلك ثقيلة طويلة[٤]. ولم يألف المرابطون في بدء أمرهم لبس الخوذات والدروع والزرد مثلما كان الأندلسيون يفعلون[٥]، ولكن حروب المرابطين مع نصارى إسبانيا اضطرتهم لاتخاذها والاكثار منها خاصة في مطلع القرن السادس[٦]. وضاعف الموحدون إنتاجها في عاصمة كل ولاية[٧]. وقيل انه كان يضرب لعبد المؤمن كل يوم عشرة قناطير من الأسحلة في جميع بلاده[٨]. و يصور تطور الصناعة المعدنية في هذا النوع من الصناعات استخدام الجيش الموحدي للكرات الحديدية الملتهبة في دكّ الحصون[٩] والمجانيق الكبار التي يرمي الواحد منها مائة ربع من الحديد[١٠].

وبينا اتخذ كل من بني باديس وبني حماد داراً واحدة لسكّ العملة في

(١) **المن بالامامة** ٤٨٣-٤٨٤، **روض القرطاس** ١٥١ وفي رواية ابن أبي زرع « بمائة ألف دينار ».

(٢) رواية ابن سعيد في **مسالك الأبصار** ٤٨:٤و، **صبح الأعشى** ١٦٢:٥.

(٣) **روض القرطاس** ٣٨-٣٩.

(٤) انظر مقارنة ابن سعيد بين النوعين في **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٦١:٤و **صبح الأعشى** ٢١٩:٥.

(٥) مؤنس: « الثغر الأعلى » ١٤١.

(٦) انظر **الاحاطة ١**: ٤٥٧-٤٥٨.

(٧) راجع عن أسلحة الموحدين موسى: **تنظيمات الموحدين** ٣٨٣ وما بعدها.

(٨) **روض القرطاس** ١٣١.

(٩) **رسائل موحدية** ١٠٥-١٠٧، ١٦٦، ٢٠٤، ٢٠٥، **بيان موحد** ١١٤، ١٨٤، ٢٢٢، **روض القرطاس** ١٦٥٣، ١٥٦.

(١٠) **روض القرطاس** ١٥٣.

العاصمة[١]، اتبع المرابطون سياسة مختلفة، وضربوا العملة ذهبية وفضية في جميع مدن دولتهم، مثل إشبيلية وبلنسية والجزيرة الخضراء ودانية وغرناطة وقرطبة ومالقة ومرسية والمرية وسرقسطة وستلوكة وقونكة من البلاد الأندلسية، وأغمات وتلمسان وسجلماسة وفاس ومراكش ونول لمطة وسبتة وسلا من البلاد الغربية[٢]. وجرى الموحدون على هذا النهج المرابطي، بيْد أن الدينار كان لا يضرب إلا في فاس حيث كان فيها دارا سكة، ثم ضمها الناصر في دار واحدة[٣]. والغالب أن ضرب الذهب دنانير كان أكثر في الفترة المرابطية منه في الفترة الموحدية. وهذا لا يستغرب إذ توفر للمرابطين ذهب السودان وأخفق الموحدون في استخراج الذهب في المغرب، بينما كثر عندهم إنتاج معادن الفضة. وربما يوحي إجراء الناصر ذلك بأزمة الدينار الموحدي.

الصناعات الفخارية وما يقاربها

تركزت هذه الصناعات في جنوب البلاد الأندلسية وشرقها، و يبدو أن المرية كانت رائدتها في العصر المرابطي، بيد أنه بعد خراب المرية، أصبح أكثر التصنيع في مدينتي مالقة ومرسية[٤]. وانتشرت بعض هذه الصناعات في العصر الموحدي في البلاد الشرقية والغربية، مثل تونس ـــ وقد سبقت الإشارة الى رخامها ومرمرها ـــ، وقفصة التي اشتهرت بخزفها الأبيض المعروف بالريحية[٥]، وفاس التي أصبحت في العصر الموحدي منطقة كبرى لإنتاج الفخار، وقد كان فيها أيام

(١) عبد الوهاب: **ورقات في الحضارة العربية** ١:١:٤١٥-٤١٦.

(٢) راجع **قيام دولة المرابطين** ٣٥٢ وخاصة الحاشيتين ٥ و ٦ حيث أورد هذه الاحصاءات من كتب السكة المرابطية المحفوظة في المتاحف.

(٣) **الدوحة المشتبكة** ٥١؛ وعن دور المغرب انظر موسى: **تنظيمات الموحدين** ٣٣٧ وما بعدها.

(٤) عن انتاج المناطق الثلاث انظر **نفح الطيب** ١٥٢:١، ٢٠٢. والجدير بالذكر أن صاحب الجغرافية يشير الى مالقة كمركز انتاج أساسي (انظر **كتاب الجغرافية** ٩٣ح ٢٤٥ عن نسختين)؛ و يثني ابن سعيد على انتاج مالقة (راجع **المغرب** ٤٢٤:١، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٦١:٤و، **صبح الأعشى** ٢١٩:٥)، وقد استمرت متفردة بالانتاج حتى القرن السابع (انظر ذكرها عند ابن بطوطة **رحلة ابن بطوطة** ٦٧).

(٥) **الاستبصار** ١٥٤.

المنصور والناصر ١٨٨ معملاً للفخار خارج سورها[1]. والى جانب الأواني الفخارية المذهبة أو المزججة كان الصناع ينتخبون نوعاً من المفصص (الفسيفساء) ونوعاً من الزليج المدهون بالألوان المختلفة، ويفرشون به البيوت، ويقيمونه مقام الرخام[2]. ويزينون بالرخام منازلهم ويستعملونه في برك المياه[3]، ويزخرفون به القبور[4]. كما يستخدمون القرميد في عمل السقوف[5].

الصناعات الزجاجية

كانت المرية ومرسية ومالقة مناطق صناعة الزجاج في القرن السادس في البلاد الأندلسية، ثم تفردت بها مرسية ومالقة بعد خراب المرية[6]. وانتقلت هذه الصناعة في العصر الموحدي الى البلاد الشرقية والغربية، فاشتهرت في الأولى قفصة[7]، وربما كان لاستخراج زجاج نفزاوة أثر في تطور صناعة قفصة هذه. وفي الثانية تركزت في فاس التي كان فيها ١١ موضعاً لعمل الزجاج[8].

الهندسة المعمارية

تتجلى الهندسة المعمارية في القرن السادس في توسيع المدن واستحداثها وتشييد الأسوار وبناء القلاع والمساجد والقصور وإقامة الجسور ولا تسعف المصادر على توضيح ما كانت عليه الهندسة المعمارية في القرن السادس في البلاد الشرقية في ظل صنهاجة الشرق. غير أن المعلومات تتوفر بصورة خاصة عن عصري

(١) **روض القرطاس** ٢٦.
(٢) **نفح الطيب** ١:٢٠٢، **صبح الأعشى** ٥:١٥٦.
(٣) انظر **المعجب** ٢٨٧ ووصفه لبيمارستان مراكش، وكذلك **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٤٨ق.
(٤) انظر أمثلة في **الصلة**، ٢:٥٥٨، ٦٢١، **التكملة** ١:٨٤، ٢٧٣، ٤١٧، **الحلة السيراء** ٢:٣٦٧.
(٥) **أمثال العوام** (مطبوع) ٤٥.
(٦) راجع **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٩٧، ابن سعيد، **المغرب** ١:٤٢٤، **نفح الطيب** ١:١٦٢، ٢٠٢، **الروض المعطار** ١٨٤.
(٧) **الاستبصار** ١٥٤.
(٨) **روض القرطاس** ١٥٤.

المرابطين والموحدين في البلاد الغربية، وهي تصور العناية الكبرى بالبلاد الغربية وجنوب الأندلس، وتعكس اهتمام الموحدين أكثر من اهتمام المرابطين بالعمار، ولكن الدارس يلمح أن ماحدث في الفترة الموحدية ما هو إلا تطوير لما بدأه المرابطون. وخير ما يصور ظاهرة الاستمرار هذه تأسيس المرابطين لمدينة مراكش وتوسيع عبد المؤمن فيوسف ثم المنصور لها[1]، وتحويل حصون المرابطين في الرباط ومكناسة وتازا الى مدن موحدية[2]. بيد أن همة الموحدين في البناء تبرز منذ طور الثورة والفتح فكانوا يبنون ما يفتحون في السوس[3] أو يشيدون مدناً حول المدينة التي يحاصرونها إن استعصى فتحها السريع[4]. وتميز المنصور منهم بهمة عالية في البناء[5].

ولعل خير ما يصور تطور الهندسة المعمارية كثرة المباني التي شيدت وبالإضافة لما سبقت الإشارة إليه استحدث الموحدون مدينة في جبل طارق[6]،

(١) يجعل ابن عذارى في احدى رواياته تأسيس مراكش في إمارة أبي بكر بن عمر (**البيان المغرب** ٤:١٩-٢٠)، وتجعلها روايات ابن أبي زرع في إمارة يوسف بن تاشفين (**روض القرطاس** ٨٩). وعن توسيع عبد المؤمن لمراكش انظر **كتاب الجغرافية** ١١٦، وعن يوسف راجع **المن بالامامة** ٢٩٠، ٤٦٤، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٤٨، وعن المنصور الذي سمى ما زاد في بناء مدينة مراكش بحومة الصالحة أو تامراكش أو مراكش الجديدة انظر **المن بالامامة** ٤٦٧، **المعجب** ٢٩٢، ٣٦٠، **بيان موحد** ١٤٥، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٤٨ق.
(٢) انظر ما سبق ص ٧٨، **روض القرطاس** ١٢٤، ١٧٦. وتجدر الاشارة الى أن تاشفين بن علي هو الذي بنى قصبة الرباط (**بيان موحد** ٢٠، **اتحاف أشراف الملا** (مخ) وهو أرجوزة عن الرباط)، ومن المصادر ما ينسب الاختطاط الى عبد المؤمن (**أخبار المهدي** ١١٨، **الكامل** ١٢:١٣٥، **وفيات الأعيان** ٧:٩)، وينسب تمصيرها الى يوسف (**المن بالامامة** ٤٤٨، ٤٤٩)، أو ينسب البداية الى عبد المؤمن والتمصير الى المنصور (**المعجب** ٣٥٩، ٣٦٦، **روض القرطاس** ١٥١). ولعل هذا الاختلاف يصور أن عملها تكامل في فترات متتابعة.
(٣) **البيان المغرب** ٤:١٨.
(٤) راجع ابن الأثير عن بناء عبد المؤمن لمدينة كاملة بجامعها في حصارة مراكش (**الكامل** ١٠:٥٨٣).
(٥) **المعجب** ٢٩٢.
(٦) **رسائل موحدية** ٩٥، **المن بالامامة** ١٣٧، ١٤٠، ١٤٣، ١٧١، **بيان موحد** ٤٢-٤٣، ٤٥.

وبنوا المنازل للعساكر وموظفي الدولة في فاس وسبتة ورباط هسكورة وإشبيلية وقرطبة[١]، وهو اتجاه بدأه المرابطون[٢]. ومع أن المرابطين قد بنوا في بداية دولتهم أسواراً وحصوناً كثيرة، فيبدو أن الضرورة العسكرية لم تلجئهم الى ذلك إلا بعد أن واجهوا خطر النصارى في الأندلس واندلاع الثورة الموحدية في المغرب في وقت واحد، فشيدوا أسواراً كثيرة في العدوتين[٣]، بينما أكثر الموحدون من بناء الأسوار واتخاذ القلاع طوال دولتهم في ساحل أطلس وجنوب الأندلس وشرقها والبلاد الغربية[٤]. ولعل هذه النزعة العسكرية هي التي دفعت الموحدين لبناء القناطر الحجرية[٥] بالإضافة لما عرفوه من الجسور المركبية الخشبية. وبعث الطابع الديني للدولتين المرابطية والموحدية النشاط في إصلاح المساجد والجوامع وتجديدها واستحداثها، فكان المرابطون يقومون بذلك والثورة الموحدية توشك أن تقضي على دولتهم[٦]. وسار الموحدون على هذا النهج سواء ابان ثورتهم أم بعد قيام دولتهم

(١) انظر **المعجب** ٢٤٨، **بيان موحد** ٤٢-٤٣، ٤٥، ١١٠، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤٩:٤و-٤٩ق.

(٢) انظر عمل تاشفين في اشبيلية في سنة ١١٢٩/٥٢٣ في **الاحاطة** ٤٥٧:١.

(٣) عن قلاع فترة التأسيس انظر ما سبق ص ٨٦؛ والاستثناء لعدم اهتمامهم بالأسوار قبل الفترة الثانية هو تشييد يوسف بن تاشفين لسور سبتة سنة ١٠٩٨/٤٩١. وأما تشييد الأسوار والقلاع في السوس فانظر عنه **أخبار المهدي** ١٢٨-١٣٠، وعن مراكش **نظم الجمان** ٨٩، وعن سبتة **المصدر ذاته** ١١٣، وعن مجمل البلاد الغربية راجع **أخبار المهدي** ٧٧، ٨٥، **نظم الجمان** ١٩٥، **البيان المغرب** ١٥:٤. وعن تسوير مدن الأندلس الذي عرف بالتعتيب راجع **نظم الجمان** ٢٠٧، **البيان المغرب** ٧٣:٤-٧٤.

(٤) راجع عنها **المن بالامامة** ٢٣٦، **وأخبار المهدي** ٨٧-٨٨، **المعجب** ٢٩٢، **الكامل** ٧٥٣:١٠، **البيان المغرب** ٢٨:٤، **بيان موحد** ٣٨، ١٢٦، ١٧٨، ١٨٩، **روض القرطاس** ٢٠، ٢٢، ١٢٣، ١٢٦، ١٣٨، ١٥١، ١٥٣، ١٥٤، ١٧٧، ١٨٠، H. Terrasse et Basset, "Sanctuaries et fortesses almohades", p. 37 sqq.

(٥) انظر عن قنطرة تانسيفت **بيان موحد** ٣٠٨، **روض القرطاس** ١٣٨، ١٧٧، وعن قنطرة سلا الحجرية مع وجود الجسر المركبي **المعجب** ٣٥٩.

(٦) مثل مراكش وسبتة وبلنسية وغرناطة (راجع **التكملة** ٩١٤:٢، **نظم الجمان** ١٢٥، ٢٢٣-٢٢٤، **البيان المغرب** ٥٨:٤، **روض القرطاس** ٢٣، **الاحاطة** ٤٥٨:١، **نفح الطيب** ٢٣٢:٣). وقد كلف جامع علي بن يوسف الذي بناه في مراكش سنة ١١٣١/٥٢٥ ستين ألف دينار (**نظم الجمان** ١٢٥).

طوال القرن السادس[١]. وبالإضافة الى هذا تميز عصر المنصور الموحدي بإنشاء عدد من المدارس والمستشفيات في البلاد الغربية والشرقية والأندلسية[٢].

وحفز هذا النشاط المعماري الناس من أمراء مرابطين وسادة موحدين وخاصة في الدولتين[٣] ومياسير من الناس ــ وخاصة في فاس ومراكش ــ على بناء القصور[٤].

ويتجلى تطور صنعة المعمار هذه في أربعة أشياء: ضخامة البناء وسرعة الإنجاز وحسن التخطيط والمهارة الفنية.

وعرف المرابطون والموحدون منذ بداية عهديهما البناء بالطين والحجر معاً[٥]، بيد أن مباني الموحدين تميزت بالضخامة. ولعل ذلك يعزى الى أنه في العصر الموحدي اكتشف البناء بالطابية[٦] وأحكمت صنعة أساس البنيان. فقد ذكر ابن صاحب الصلاة أن ابن باسة لما أراد بناء صومعة إشبيلية حفر الأساس حتى وصل الى موضع الماء، فردم البئر المكتشف بالأحجار والجيار، وبلط فوق الماء حتى أمن قعود الأساس[٧]. وقد وصف جامع إشبيلية المنصوري بأنه قد فاق جامع قرطبة في اتساع أرجائه وفخامة مبانيه. وقيل عن جامع تامراكش أن ليس بعد

(١) عن دور الثورة انظر (**أخبار المهدي** ٥٨-٥٩، **الكامل** ٥٧٢:١٠). وكان عبد المؤمن قد أمر في سنة ١١٠٧/٥٥٠ ببناء المساجد واصلاحها في جميع طاعته (**روض القرطاس** ١٢٧)، وسار خلفاؤه على نهجه، وأعظم آثارهم في ذلك كانت في تينملل ومراكش والرباط وإشبيلية (راجع عنها **المن بالامامة** ٢٣٦، ٤٧٤، وما بعدها، **نظم الجمان** ١٥٢، **المعجب** ٢٦٦، **بيان موحد** ٩٨، **روض القرطاس** ٤٠، ١٢٣، ١٣٨، ١٥١، ١٥٤، ١٧٦، ١٧٩، ١٨٠، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا ٤٨:٤و).

(٢) **روض القرطاس** ١٤٣.

(٣) انظر **البيان المغرب** ١٩:٤-٢٠، **بيان موحد** ٧٩، ٩٥، ٢٧٣، **روض القرطاس** ٤٤، ٨٩، ١٦١، **الاحاطة** ١٢٥:١، ٤١٩، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤٨:٤و-٤٩و.

(٤) انظر **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤٢و-٤٢ق.

(٥) انظر **أخبار المهدي** ٨٧-٨٨، **البيان المغرب** ١٩:٤-٢٠، **روض القرطاس** ٨٩.

(٦) راجع دراسة عبد العزيز سالم عن تحصينات الموحدين (**المغرب الكبير** ٨٥٨:٢-٨٦٤).

(٧) **المن بالامامة** ٤٨٢.

جامع قرطبة مثله[1]. ويقول المراكشي عن جامع الرباط أن ليس في بلاد المغرب أكبر منه[2]. وكان ارتفاع صومعة الكتبية في مراكش مائة وعشرة أذرع[3]، وقد أريد لصومعة حسّان أن تكون على قرار هيئة منار الاسكندرية[4]، وقد بنيت هاتان الصومعتان بالإضافة لثالثتهما صومعة إشبيلية التي تظهر للعين على مرحلة[5] بغير درج.

وتميز العصر الموحدي، مع ضخامة البناء وإحكام صنعته، بسرعة الإنجاز. فقد أنشئت مدينة جبل الفتح في عام[6]، وتمّ مسجد إشبيلية دون صومعته في أقل من عام[7]، ولم تستغرق إنشاءات المنصور على كثرتها أكثر من ثلاثة أعوام[8].

ويتجلى حسن التخطيط في مدينتي الرباط وتامراكش في اتساع الشوارع وتسريب المياه الى المنازل والقصور. ولكن الدارس يلمح شيئاً من التنظيم الطبقي في بناء تامراكش، فديار الناس تقرب أو تبعد من قصر الخلافة على حسب درجات الناس في تنظيمات الموحدين الحزبية[9]. كما يتضح التخطيط في القصور التي بنيت بحيث ان كل قصر قد كان مكتفياً ذاتياً بكل ما يحتاجه المرء من شؤون الحياة[10].

وخير ما يبرز إحكام الصناع للبناء المدرجات التي شيدها يوسف بن عبد المؤمن على وادي إشبيلية ليجنب المدينة فيضان واديها[11]، أو تسريب المياه في

(١) المنوني: **العلوم والآداب** نقلاً عن مخطوط **روض الأنس** لصالح بن شريف، **المن بالامامة** ٢٣٥.
(٢) **المعجب** ٢٦٦.
(٣) **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤٨:٤و.
(٤) **المعجب** ٢٦٦.
(٥) **المن بالامامة** ٤٨١.
(٦) قارن الروايات الواردة في **المن بالامامة** ١٣٧، ١٤٠، ١٤٣، ١٧١، **روض القرطاس** ١٣٠، ١٧٧.
(٧) **المن بالامامة** ٤٧٩.
(٨) **روض القرطاس** ١٥١-١٥٢.
(٩) **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤٨:٤ق، ٤٩و-٤٩ق، **بيان موحد** ١٤٥.
(١٠) **صبح الأعشى** ١٦١:٥.
(١١) **روض القرطاس** ١٣٨، ١٧٧.

أقبية تحت الأرض[1] أو في أقواس ممدودة عليها قنوات المياه[2]، أو عدم ترك حضنة أو رقدة في أرضية البناء كالذي فعله الخولاني في صحن القرويين بحيث إذا صبت في أعلاه قلة ماء انحدرت الى أسفله مجموعة لا ينقص منها شيء لشدة اعتداله[3]، أو القدرة على تغطية الحيطان بالجص كالذي فعله أهل فاس لما دخلها عبد المؤمن، وخافوا على زخارف منبر جامع القرويين، فغطوه بالكاغد ولبسوه بالجص وغسلوه على البياض فلم يظهر منه شيء ولا تأثرت صنعة المنبر بشيء[4].

من كل ما تقدم يتضح أن الصناعات في القرن السادس قد تركزت في ساحل تل أطلس في البلاد الشرقية، مع ظهور دور قفصة الصناعي. وربما كان تطور قفصة الصناعي يرجع الى سياسة الموحدين في تأليف قلوب أهلها، وهي منطقة أطراف، بعد أن فقدت زراعتها. كما يتضح أن جلّ صناعات البلاد الشرقية كانت قائمة على منتجات الرعي والبستنة خلال القرن السادس. وحدث تحول هام في البلاد الأندلسية خلال القرن السادس فأصبح شرق البلاد الأندلسية وجنوبها منطقتي الصناعة بعد أن انهار اقتصاد قرطبة مع فترة الانتقال[5]. كما يستفاد أن المرية كانت مركز الصناعة في النصف الأول، غير أن خرابها جعل من مرسية ومالقة وإشبيلية المراكز الأساسية للصناعات في النصف الثاني من القرن السادس في البلاد الأندلسية. وأما البلاد الغربية فقد شهدت نهضة صناعية شاملة برزت فيها مراكش قاعدة للتصنيع الزراعي وفاس منطقة للصناعة الزراعية والمعدنية. ولعل هذا التطور الصناعي يدل على أن الموقف من أهل الذمة، الذين اشتهروا بالصناعات من قبل، لم يؤثر كثيراً على التقدم الصناعي إلا بقدر ما أثرت الهجرات عامة وظروف الأمن خاصة. ويلاحظ المرء

(١) **المن بالامامة** ٤٤٨، ٤٧٧.
(٢) انظر **مقدمة الفتح** ١٢٩.
(٣) **روض القرطاس** ٣٦.
(٤) **المصدر ذاته** ٣٥.
(٥) انظر عن حال قرطبة هذا **نظم الجمان** ٢١٧، **الحلة السيراء** ٢٥٩:٢، **البيان المغرب** ١٩٣:٤.

الفصل الخامس

التجارة

الفصل الخامس
التجارة

من الطبيعي أن تتأثر التجارة في المغرب خلال القرن السادس بما طرأ من تغييرات في مراكز الإنتاج الزراعي والصناعي، لكن التجار، في سعيهم للحصول على الربح، نشطوا بشكل جديد، لا سيّما أن المغاربة قد شغفوا بالعمل، والتجارة جزء منه[1]، وكان سعيهم متصلاً مع أن المخاطر التي اعترضتهم كانت كثيرة[2]. على أن موقف الدولة من التجارة والتجار أمر يتوجب أن يؤخذ دوماً بعين الاعتبار، لأن هذا الموقف يؤثر على أصناف العاملين في التجارة والأسواق وطرق التعامل فيها، والطرق التي تسلك والصادرات التي تنقل والواردات التي تجلب.

موقف دول مغرب القرن السادس من التجارة

صنهاجة الشرق

إن انهيار الزراعة في البلاد الشرقية ونزوح الناس الى المدن الساحلية أو المدن الداخلية الحصينة لم يترك أمام دول صنهاجة الشرق غير الاعتماد على التجارة

(١) عن العمل انظر ما سبق ص ٢٦١؛ وعن الاحتراف بالتجارة عند مختلف سكان المغرب انظر الفصل الثالث. و يدل على الاهتمام بالعمل في التجارة أن كثيراً من المتصوفة كانوا يفضلون العمل التجاري (انظر عنهم **المعيار** ١٥٩:٧، **فهرسة عياض** (مخ) ٤٨، **التشوف** ٣٩، ٢٨٨، ٣٦٢، ٢٤٢، ٢٤٦، ٤٢٩، ٤٥١). وان جاءت بعض الأمثال في ذم التجارة (انظر **أمثال العوام** (مط.) ١٥٨-١٥٩)، فقد كانت أكثر الأمثال تحض على العمل فيها وتفضلها على غيرها من النشاط الاقتصادي (انظر **أمثال العوام** (الاطروحة) ٢١٣ وما بعدها).

(٢) راجع أمثلة في **البيان المغرب** ٣٢:٤، ٥٨، **بيان موحد** ٢١٤.

كمصدر أساسي للدخل. وأخفق بنو باديس، على الرغم من الجهود التي بذلها تميم بن المعز وابنه يحيى، في تأمين الطرق البرية[1]، ومن ثمّ فكروا في البحر وما وراءه. وحاولوا تأمين الطرق البحرية في سواحل دولتهم[2] واحتكار النقل البحري[3] والاستفادة من خبرة بعض المشارقة فيه[4]. لكن ضعف بلاد بني باديس اقتصادياً اضطرهم الى العمل في التجارة الخارجية، ولما كانت علاقتهم بفاطميي مصر وحمّاديي بجاية متوترة[5]، لم يجد بنو باديس حليفاً لهم سوى نورمان صقلية. وقد كان للنورمان مصالح في التجارة مع البلاد الشرقية، فلم يشتركوا في غزوات المدن الإيطالية لها[6]، وصرفوا الصليبيين عنها[7]، ونقشوا آية من سورة الصف في عملتهم لتجد قبولاً في أسواقها[8]. غير أن محاولة بني باديس احتكار النقل البحري[9]، أو إخفاقهم في حماية سفن النورمان[10]، كثيراً ما كانت تؤدي الى توتر العلاقات بين الفريقين. وقد بلغت نقمة النورمان ذروتها يوم حاول بنو باديس التحالف مع المرابطين لضرب صقلية[11]، فشرع النورمان في احتلال موانىء بلاد بني باديس. فما أن انتصف القرن السادس حتى كانت الموانىء من طرابلس

(١) انظر **الكامل** ١٠:٤٥٠-٤٥١، ٥٢٢.
(٢) راجع **الكامل** ١٠:٥١٣-٥١٤، **البيان المغرب** ٤:٦٢.
(٣) انظر **الكامل** ١٠:٥٢٩-٥٣٠، ٦١١، **التذكار** (مخ) ١٨ق وما بعدها، **المعيار** ٣:٣٣٤-٣٣٥.
(٤) انظر استخدام تميم بن المعز لجرجي الشامي (**العبر** ٦:١٦١)، وربما استفادوا من خبرات أبي الصلت في شئون البحر؛ وأبو الصلت أفريقي، وقد حاول رفع مركب من عقر البحر بطريقة هندسية للأفضل بن أمير الجيوش في مصر، ثم عاد واستقر في بلاد بني باديس (راجع عنه **طبقات الأطباء** ٢:٥٣).
(٥) انظر عن الفاطميين **الكامل** ١٠:٤٧٥، **وفيات الأعيان** ٣:٤١٦-٤١٧، ٢١٦، **عيون التواريخ** (مخ) ١٦:١٥ق؛ وعن بني حماد **الكامل** ١١:٣٤، ١٢٨، **وفيات الأعيان** ٦:٢١٧، **نظم الجمان** ٢٣٣-٢٣٤، خاصة المصادر المذكورة في حاشية التحقيق.
(٦) Amari, M., **Diplomi arabi** p. 33
(٧) **الكامل** ١٠:٢٧٣.
(٨) مورينو: **المسلمون في صقلية** ٢٠.
(٩) **الكامل** ١٠:٥٢٩-٥٣٠، ٦١١، **التذكار** (مخ) ١٨ ق وما بعدها.
(١٠) **الكامل** ١١:٣٤.
(١١) **المصدر ذاته** ١١:٦١١-٦١٣.

الى بونة تحت الاحتلال النورماني[1]، فتقلصت تجارتها وقضي على المهدية كمركز أساسي للتجارة البحرية[2]، واحتلت تونس مكانتها، إذ استطاع بنو خراسان الذين استقلوا بها فرض الأمن فيها[3]، وحافظوا على علاقات طيبة مع صقلية، وفتحوا مدينتهم لتجار المدن الإيطالية (خاصة بيزا التي منحت امتيازات خاصة) من حمايةٍ لمراكبها وتزويدها، وإعفاء تجارها من عشور بعض الصادرات أو تخفيضها. فكان بنو خراسان يأخذون عن جوال الحبوب خمسة أمداد فأخذوا من تجار بيزا أربعة أمداد فقط[4].

وكان بنو حماد في وضع تجاري أفضل من بني باديس لما صالحوا العرب على نصف غلة بلادهم، وأعفوا أهل بجاية من الضرائب على التجارة الداخلة الى المدينة[5]. وكانوا على علاقات طيبة مع المرية أيام بني صمادح[6] ثم المرابطين. وشجعوا التجارة مع المدن الإيطالية[7]. وحسن علاقتهم مع المرابطين جعل بجاية من أهم مراكز التجارة في السلع الواردة من السودان حسبما سيتضح فيما بعد.

المرابطون

كان اضطراب الأمن وفوضى الضرائب في البلاد الأندلسية والغربية من أكبر العوامل التي أعاقت التجارة قبل قيام المرابطين. فقد كان قادة الحصون يقطعون السبل في البلاد الأندلسية[8]، وكان ملوك الطوائف يفرضون قبالات على كل ما

(١) راجع عنها **الكامل** ١٠:١٩٧-١٩٨، ١١:٩٠، ٩١-٩٢، ١٠٢، ١٠٦، ١٠٩، ١٢٠، ١٢٥-١٢٩، ١٨٧، **وفيات الأعيان** ٦:٢١٧، ٦:٢١٧، **بيان موحد** ٦٧-٦٨، **المكتبة الصقلية** ٢٨٢-٢٨٣.
(٢) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٠٧ وما بعدها.
(٣) Mas-Latrie, **Traité de paix**, p. 20
(٤) Mas-Latrie, **op. cit.**, pp. 38-39; Amari, **Diplomi arabi**, pp. 2-5.
(٥) **زبدة التاريخ** (مخ) ٣:١٠.
(٦) **أعمال الأعلام** (ط. ليفي) ١٩١-١٩٢.
(٧) Mas-Latrie, **Traité de paix**, p. III
(٨) **التبيان** ٩٥ وما بعدها.

يباع في الأسواق[1]. وأخفقت زناتة في حماية التجار وطرق التجارة في البلاد الغربية، كما فرضت مغارم باهظة على التجارة، وكانت هذه المغارم من أهم العوامل التي دفعت الفقهاء من التجار لاستدعاء المرابطين لغزو البلاد الغربية[2].

ويستطيع الدارس أن يتبيّن موقفين مختلفين للمرابطين من التجارة الداخلية: الأول قبل موقعة أقليش (١١٠٨/٥٠١) والثاني بعد هذه الموقعة. ففي الفترة الأولى كانت سياستهم مشجعة للتجارة الداخلية في البلاد الغربية والأندلسية، فحفظوا الأمن في هذه بنقل الصراع الى مناطق نصارى إسبانيا، وفي تلك بتشييدهم القلاع والصحون[3]. كما أن الأسطول المرابطي ذبّ عن شواطىء البلاد الأندلسية والغربية فمهد السبل لحركة النقل البحري[4]. وقطع المرابطون جميع أنواع الضرائب التي فرضها ملوك الطوائف ورؤساء زناتة واقتصروا على الزكاة في التجارة[5]. ولئن لم يقم المرابطون ببناء الأسواق فقد ظلوا يستثمرون ما آلت ملكيته الى الدولة من حوانيت وراثةً عن ملوك الطوائف[6].

وتبدل هذا الوضع تدريجياً بعد موقعة أقليش، أي في الفترة الثانية، حينما تحول الجيش المرابطي في الأندلس من الهجوم الى الدفاع، وبلغ التبدل منتهاه بقيام الثورة الموحدية. فانعدم الأمن على النفس والمال في البر والبحر[7]، وكثرت حوادث قطع الطرق على السفار من التجار[8]، ووجد قطاع الطرق حماية من المتنفذات من نساء المرابطين والمتنفذين[9]، حتى ان علي بن يوسف لجأ لاستخدام

(١) **الرد على ابن النغريلة** ١٧٦-١٧٧.
(٢) **كتاب بعض مشاهير فاس** ٥٩، **روض القرطاس** ٨٠، ٨١.
(٣) انظر ما سبق ص ٨٦.
(٤) **كتاب الجغرافية** ١٠١، **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٥٥، **قيام دولة المرابطين** ٤٠١. ويدل على قوة الأسطول المرابطي أن أهل المرية طلبوا من قائده ابن ميمون تولّي البلد لما عجز المرابطون عن حمايته وثارت الأندلس عليهم إثر قيام الموحدين على المرابطين (انظر Barbour, N., "Sea Power...", p. 107).
(٥) انظر ما سبق ص ١٩٩ وما بعدها، ٢٠٧.
(٦) وردت عدة نوازل بشأنها (انظر **المعيار** ٦:١١٤).
(٧) راجع مناقشة أفضلية الحج أم الجهاد في **نوازل ابن رشد** (مخ) ١١٢ق.
(٨) أخبار المهدي ٦٧، **البيان المغرب** ٤:٩١، **الصلة** ٢:٦٠٥، **أعمال الأعلام** (ط. ليفي) ٢٤٩.
(٩) **المعجب** ١٧٧، ١٨٦.

قاطع طريق – هو الفلاكي – في محاولاته صد هجوم الموحدين عن مراكش[1]. وعجز الأسطول عن حماية السواحل، فأصبحت الموانىء، خاصة الأندلسية، عرضة لهجمات أساطيل المدن الإيطالية والدول الأوربية التي تحالفت مع نصارى إسبانيا، فضُرب مركز التجارة المرابطية البحري الرئيسي – المرية – في سنة ١١٤٧/٥٤٢ فخربت منذ ذلك الوقت[2].

وفي هذا الدور الثاني من عصر المرابطين، ونتيجة للأزمة المالية، فرضت الدولة ضرائب على كل السلع[3] بل ان الضريبة كانت تؤخذ أكثر من مرة: مرة من البائع وأخرى من المشتري، أو تؤخذ أكثر من البائع إن كان زارعاً مرة على الثمار أو الزرع وأخرى عند البيع[4]، أو قد تستوفى في كل مدينة تمر بها السلعة[5]. هذا فضلاً عن تحجير المراسي وفرض قبالات عليها[6]. وقد اتسم تحصيل هذه الضرائب بشيء كثير من الظلم والتعدي، فترك أمرها للمتقبلين الذين قد يرسلون غير شخص لجبايتها ممن تجب عليه[7]، أو يستغلون اختلاف المكاييل والموازين فيأخذون أكثر من المتوجب، وهذا ما حدا بابن عبدون أن يقترح تحديد ما يأخذه المتقبل من الناس، ثم يثبت ذلك في زمام توضع نسخ منه عند القاضي والمشرف، فإن تعداه المتقبل عوقب؛ ويصف ابن عبدون المتقبلين بأنهم شر خلق

(١) كان الفلاكي من قطاع الطرق في اشبيلية حتى سنة ١١٣٢/٥٢٦، ثم استخدمه علي بن يوسف في بناء الحصون والقلاع في جبل درن لتحول دون نزول الموحدين الى بسائط مراكش (**نظم الجمان** ٨٦، ١٩٢-١٩٣).
(٢) انظر ما يلي ص ٣١٥ الحاشية ٣ بالاضافة الى **كتاب الجغرافية** ٩٢، Barbour, N., "Sea Power...", p. 107. وراجع كيف أن الانجليز والألمان ساعدوا ملك البرتغال في الوقت ذاته على أخذ اشبونة (Ebid., p. 108)
(٣) **نزهة المشتاق** (ط.د.)، **رسالة ابن عبدون** ٣١.
(٤) **رسالة ابن عبدون** ٣١-٣٢.
(٥) **المصدر ذاته** ٣٣، **رسالة السقطي** ١٠، ١٦.
(٦) **أخبار المهدي** ٦٧، والتحجير مصطلح شرعي يعني منع التصرف أو الانتفاع، وهنا يستعمل استعمالاً خاصاً بمعنى عدم الانتفاع إلا لقاء أجر يدفع؛ انظر Dozy, **Supplément**, II, 250
(٧) **رسالة السقطي** ١٠، ١٦.

الله، و يرى أن ينزلوا منزلة اليهود والنصارى في اللبس خزياً وعاراً[1]. و يبدو أن التجّار كانوا يتهربون من دفع هذه الضرائب لكثرتها[2]، لا سيّما المتّارون لأنهم أكثر الناس نقلة[3]. وورث الموحدون قضيتي الأمن والضرائب، وما يترتب عليهما، عن المرابطين.

ولئن حدد موقف المرابطين دورين للتجارة الداخلية فازدهرت في أولهما وتعثرت في ثانيهما، فإن التجارة الخارجية قد واجهت صعوبات كثيرة نتيجة لعلاقات المرابطين الخارجية، باستثناء التجارة مع السودان. ولقد كانت علاقاتهم ببلاد السودان ممتازة، وقد حرصوا على أن تكون صحراء صنهاجة طريقاً لتجارة السودان، حيث انهم اكتشفوا، حسبما ما يذكره الادريسي، طريقاً صحراوياً من سجلماسة الى مصر لما احتل الموحدون جبل درن وقطعوا اتصال السهول الغربية ببلاد الصحراء[4]. و يبدو أن هذا الطريق ظل مستعملاً الى أن سقطت مراكش في يد الموحدين[5].

ولكن التجارة مع بلاد البحر الأبيض المتوسط واجهت صعاباً كثيرة، لأن علاقة المرابطين ببلاد البحر المتوسط كانت متوترة. فالحروب الطاحنة مع نصارى إسبانيا جعلت التجارة معهم وعبرهم الى أوربا براً لا تزدهر إلاّ في سنوات الهدنة، وهذه كانت كثيراً ما تخرق[6]. وأما مصر الفاطمية فقد كانت سيئة الظن بالمغاربة الذين اعترفوا بالعباسيين، وكان بدر الجمالي يضيق عليهم، حتى انه من أراد الحج من المغاربة كان يعدل عن طريق مصر؛ وعلى الرغم من ان

---

(١) **رسالة ابن عبدون** ٣٠، ٣١-٣٢، ٤١، ٤٩، ٥١، ٥٨.
(٢) يروي ابن عبدون أن الجباة يلاحقون الناس في المساجد و يرى قطع ذلك (**رسالة ابن عبدون** ٧٣).
(٣) انظر **المعيار** ٨:٢٨٦، **أمثال العوام** (مط.) ١٤٢.
(٤) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٦٢-١٦٣.
(٥) كان مطروقاً في سنة ١١٤٧/٥٤٢ (انظر **التشوف** ١١٨).
(٦) مثاله في **البيان المغرب** ٤:٩١-٩٢.

الأفضل حاول استصلاح المغاربة[1] فإنه يبدو أن سياسته لم تستمر طويلاً[2].

وعلى هذا لم يبق أمام المرابطين سوى التعامل التجاري مع صقلية والمدن الإيطالية التي بسطت سيطرتها على البحر المتوسط في آواخر القرن الخامس/الحادي عشر[3]. بيد أن علاقة المرابطين بهذه القوى البحرية لم تكن أحسن حالاً من علاقة المرابطين مع نصارى إسبانيا. و يبدو أن الكل كان يتربص بالآخر الدوائر، وذلك لأن المرابطين كانوا يتشوفون الى السيطرة البحرية على غربي البحر المتوسط. وقد واتتهم الفرصة يوم تحالفوا مع بني باديس في العقد الثاني من القرن السادس وغزا أسطولهم سواحل صقلية وايطاليا[4]؛ غير أن الثورة الموحدية شغلتهم عن مواصلة جهودهم البحرية فاضطروا الى الاتفاق مع المدن الإيطالية، خاصة بيزا وجنوة، في عامي ٥٣١-١١٣٧/٥٣٢-١١٣٨. وتشجيعاً لهم على التجارة في المغرب لم يأخذ المرابطون منهم غير العشر (١٠٪)[5]، في الوقت الذي فرضوا ضرائب كثيرة على التجارة الداخلية. و يظهر أن المدن الإيطالية كانت لا تزال ترغب في السيطرة التجارية، ولهذا انتهزت بيزا وجنوة ضعف المرابطين في فترة الانتقال وفرضتا على مرسية وبلنسية اتفاقات تجارية تشمل امتيازات كثيرة لتجار جنوة وبيزا وكانت هذه الاتفاقات تجدد

---

(١) **الكامل** ١٠:٤١٤؛ وعن اعتراف المرابطين بالعباسيين انظر **ريحان الألباب** (مخ) ٣٤ق.
(٢) يبدو أن نوعاً من الاتصال تمّ مع علي بن يوسف (انظر **ريحان الألباب** (مخ) ٣٥ق). غير أن ابن القطان يروي في أخبار سنة ١١٣٣/٥٢٨-١١٣٤ أن الأمر كان يضيّق على التجار الغرباء (**نظم الجمان** ١٠٠).
(٣) Barbour N., **"Sea Power..."**, p. 107
(٤) انظر **كتاب الجغرافية** ٧٥، ١٠١، **الكامل** ١٠:٦١١، **البيان المغرب** ٤:٦٦-٦٧، **المكتبة الصقلية** ٢٨٢-٢٨٣. و يبدو أن احتلال ميورقة كان مقدمة لهذه المحاولة (عن احتلال ميورقة انظر ما سبق ص ٤٥).
(٥) Mas-Latrie, **Traité de Paix**, pp. 37, 49.
و يذكر الشقندي أن المرية كانت محط سفن تجار النصارى وتعشيرها (**نفح الطيب** ٣:٢٢٠).

حتى فتح الموحدون شرق الأندلس سنة ١١٧٢/٥٦٧[1]. وفي فترة الانتقال بالذات تحالفت جنوة وبيزا مع نصارى إسبانيا وخربوا المرية[2] وأغاروا على سبتة[3]. ان هذا التوتر في علاقة المرابطين بالقوى البحرية الأساسية في غربي البحر المتوسط ربما يساعد على فهم سر احتفاظ المرابطين طوال حكمهم بعلاقات ممتازة مع بجاية، تلك المدينة التي كانت تردها مراكب مسيحيي أوربا وبصفة خاصة تجار المدن الإيطالية[4].

الموحدون

كان موقف الموحدين من التجارة الداخلية مشجعاً بينما أعاقت مواقفهم من الدول المعاصرة لهم حركة التجارة الخارجية. وهناك ستة عوامل شجعت على العمل التجاري الداخلي في عهد الموحدين:

أولاً: لقد نجح الموحدون في إشاعة الأمن في جميع أرجاء دولتهم خلال القرن السادس، خاصة في البلاد الأندلسية بعد «توحيد» ابن همشك في ١١٦٩/٥٦٤[5]. (ويستثنى من ذلك أوضاع المناطق الداخلية من البلاد الشرقية بعد ثورة الميورقيين فيها)[6]. وقد أكد عبد المؤمن «رسالة العدل» على حماية التجار وتأمين طرق التجارة متوعداً بقتل من يخالف هذا الأمر[7]، بل إنه أنزل العقوبات بأصحاب حوادث الاعتداء على التجار أو قطع الطرق التي عرفت

(١) Mas-Latrie, **Traité de paix**, pp. 35-48

(٢) انظر ما يلي ص ٣١٥ الحاشية ٣.

(٣) **البيان المغرب** ١٠٣:٤.

(٤) عن علاقة المرابطين ببني حماد انظر ما سبق ص ٣٩. ويدل على حرص المرابطين على تقوية هذه العلاقة أنهم في سنة ١١٠٤/٤٩٧ عزلوا والي تلمسان ارضاء لبني حماد لما أساء اليهم (ابن الكردبوس، **الاكتفاء** ١١٢).

(٥) **المن بالامامة** ٣٨٩-٣٩٠.

(٦) انظر **المعجب** ٢٢٧، **بيان موحد** ٦٥، **روض القرطاس** ١٤٣.

(٧) **رسائل موحدية** ٥-٦، **نظم الجمان** ١٦٧.

منفذاً بذلك وعيده، وسار خلفاؤه على نهجه[1]، حتى عندما كان يصادف أن يكون المعتدي سيداً من بني عبد المؤمن[2]. ولم يتردد الموحدون في تسيير حملة على قبيلة تعتدي على التجار مثل الذي فعله المنصور والناصر مع عتاة زناتة قرب تلمسان[3]. ولقد سيطر الأسطول الموحدي على سواحل المغرب كلها فلم يحدث اعتداء قوة بحرية على سواحل البلاد الغربية، وكف الأيدي عن الشرقية[4] ولم يجر اعتداء بحري في السواحل الأندلسية غير احتلال الصليبيين لشلب في ١١٩٠/٥٨٦، وقد استردت منهم في ١١٩١/٥٨٧[5]. وكان ظهور الأسطول الموحدي مظهر اطمئنان لأهل السواحل الشرقية والأندلسية، فخافه الأعداء وسعى في طلبه المسلمون البعداء[6].

ثانياً: قطع عبد المؤمن جميع المغارم والقبالات والمكوس التي فرضها المرابطون في الدور الثاني من عصرهم، وقد سار خلفاء عبد المؤمن على هذا النهج. كما إنه طبق على التجارة النظام نفسه الذي اتبع في الصناعة[7]. وحرص الموحدون على تسبيل الجسور دون قبالة ولا اجارة عمالة[8].

ثالثاً: يلاحظ أن الدولة لم تدخل شريكاً مع التجار الذين افتتحت بلادهم عنوة، مثلما فعل الموحدون في ملكية الأراضي، بل كانت الدولة الموحدية تعوض

(١) راجع **المن بالامامة** ٣٦٧-٣٦٨، **التشوف** ٣١٩، ٣٨٧، ٤٠٣، **بيان موحد** ٢٠٤، ٢٢٨-٢٣٠، ٢٣٥، الذهبي، **تاريخ الاسلام** (مخ) ١٣: ٢٥١ق، **الروض المعطار** ٦٧، **نفح الطيب** ١٠٧:٣.

(٢) انظر أسباب قتل المنصور للسيد الرشيد (بيان موحد ١٧٢)..

(٣) **بيان موحد** ٢٢٨-٢٣٠، **الروض المعطار** ٦٧؛ ولم يظهر قطاع الطرق بصورة قوية الا بعد القرن السادس مثل الينشتي في شرق الأندلس (**بيان موحد** ٢٥٥).

(٤) **العطاء الجزيل**: الزوائد (مخ) ١٨-١٩.

(٥) **بيان موحد** ١٧٥ وما بعدها، **المعجب** ٢٨٠،
Barbour, N., "Sea Power..." p. 108.

(٦) راجع **العطاء الجزيل: الزوائد** (مخ) ١٨-١٩، **المعجب** ٢١٦، **الكامل** ١١٤:١٢، **وفيات الأعيان** ٦٠:٧، **مفرج الكروب** ٤٩٦:٢ وما بعدها **الروضتين** ١٧٠:٢.

(٧) انظر ما سبق ٢١٠ وما بعدها.

(٨) **المن بالامامة** ٢٣٤-٢٣٥، **بيان موحد** ١٣٨.

التجار عما يفقدونه في كارثة عامة[1]. وأقرضت الدولة طلبة الحضر أموالاً يتاجرون بها ثم يردون السلف[2].

رابعاً: كانت الدولة الموحدية تبني الأسواق إن احترقت[3]، أو تقيم غيرها إذا اتسعت المدينة[4]، أو عندما تبني مدينة جديدة[5] أو تجدد أخرى اخترمتها الحروب[6]. وفي هذا كانت الدولة شديدة الحرص على تشييد الفنادق للسفار من التجار[7].

خامساً: مهد الموحدون الطرق في جميع أنحاء دولتهم ببناء الجسور وتشييد المنازل وتجهيز الصهاريج توفيراً للماء[8]. وإذا كان تمهيد هذه الطرق يتم للاستعمال العسكري فإن التجار يسلكون هذه الطرق ذاتها، ولهذا تجد الموحدين يمنعون السفار من سلوكها إذا أراد الموحدون القيام بعمل عسكري[9].

سادساً: كانت رواتب الجيش وأرباب الخطط تخرج بصورة منتظمة مما أنعش حركة الأسواق[10].

---

(١) **بيان موحد** ٢٣٥.

(٢) **نظم الجمان** ١٣٧-١٣٨، **بيان موحد** ٥٧. وتجدر الاشارة الى أن أبا الحزم جَهْوَر رئيس قرطبة أيام الطوائف جعل للجند رؤوس أموال يتاجرون بها و يأخذون ربحها، وهذا الربح هو راتبهم (الحلة السيراء ٢:٣٢-٣٣).

(٣) انظر عن فاس ومراكش **روض القرطاس** ٣٤، **بيان موحد** ٢٣٥.

(٤) راجع عن اشبيلية **المن بالامامة** ٤٨٥-٤٨٦، وعن مراكش ما سبق في مصادر الحاشية ٤ من ص ٢٥٨، وعن مكناسة **الاستبصار** ١٨٧، وعن قصر عبد الكريم **المصدر ذاته** ١٨٩.

(٥) انظر عن الرباط ومدينة جبل الفتح المصادر المذكورة فيما سبق ص ٢٥٥.

(٦) مثاله باجه؛ انظر عنها **بيان موحد** ١٠٦-١٠٧.

(٧) راجع الحاشية ٥ من هذه الصفحة بالاضافة الى **الاستبصار** ١٨٩، **التكملة** ٢:٥٧٧.

(٨) **المن بالامامة** ٤٤١-٤٤٦، **بيان موحد** ٥٥، ١٥٨، **روض القرطاس** ١٤٣.

(٩) **أخبار المهدي** ١١٣، **الكامل** ١١:١٥٩؛ ولكن الجيش قد يسلك طريقاً غير معروفة في بعض الأحيان (مثاله في **المعجب** ٢٣٢).

(١٠) ربطت الروايات المعاصرة للموحدين بين المسألتين (راجع **المن بالامامة** ٣٤٧، ٣٥٣، **بيان موحد** ٧٣-٧٤).

وإذا نحن انتقلنا الى التجارة الخارجية وجدنا أن هذه واجهت مشكلات كبرى في العصر الموحدي، فالتجارة مع السودان مثلاً تأخرت عما كانت عليه أيام المرابطين، و يرجع ذلك الى ثلاثة أسباب:

أولاً: دخل تجار غانة في التجارة عبر الصحراء ووجدوا دعماً من دولتهم، وقامت تلك الدولة بالتضييق على التجار المغاربة في العمل في أسواقها حتى ان الموحدين هددوا ملوك غانة بمعاملة تجارهم بالمثل[1].

ثانياً: لم تكن صحراء صنهاجة مكاناً آمناً للتجار المغاربة على الرغم من تحالف الموحدين مع مسّوفة[2] واشتراك أهل الصحراء وغانة في حروب الموحدين مع نصارى اسبانيا على حكم التطوع[3]، وذلك بأن صحراء صنهاجة كانت ملجأ الثائرين من صنهاجة على الموحدين أيام عبد المؤمن[4]؛ وتحالفت صنهاجة الصحراء مع الميورقيين في ثورتهم في البلاد الشرقية[5]، فكثرت حوادث قطع الطريق على التجار بين سجلماسة وغانة[6].

ثالثاً: بسبب هذه الأوضاع في صحراء صنهاجة تحولت التجارة مع السودان عبر الصحراء من سواحل المحيط الى وسط الصحراء في اتجاه وركلان والواحات الى مصر. وقد أسهم انتقال تعدين الذهب من جنوب غانة الى منطقة مالي في هذا التحول إسهاماً كبيراً[7]، وهو تحول أصبح تاماً في القرن التالي[8].

(١) **نفح الطيب** ٣:١٠٥.

(٢) انظر عنهم **أخبار المهدي** ١٣، ١٤، ٢٠، ٦٠.

(٣) **بيان موحد** ١٧٤، ١٨٠.

(٤) **أخبار المهدي** ٩٧، ١٢٣.

(٥) **المعجب** ٢٦٧.

(٦) **نفح الطيب** ٣:١٠٧.

(٧) مع احتلال غانة الموقت من قبل المرابطين بدأ التعدين ينتقل جنوباً حتى أصبحت منطقة مالي هي مركز تعدين الذهب في النصف الثاني من القرن السادس (عن احتلال غانة انظر Farias, M., "The Almoravides..." p. 849 sqq. وعن تعدين الذهب راجع **مسالك الأبصار** ٤:٢٠و، ٢٤ق، **صبح الأعشى** ٥:٢٨٧، ٢٩٠.

Fage, "Some Thoughts on State-formation..", pp. 33-34.

وعن تحول الطرق التجارية انظر Musa., I., "On the nature of Izlamization... in **Bilad as-Sudan"**, pp. 28 sqq.

(٨) **نفح الطيب** ٥:٢٠٥-٢٠٦.

وكانت الحرب الدائمة التي شنها الموحدون على نصارى اسبانيا لا تشجع على التجارة معهم وعبرهم الى أوربا، ولم يتم ذلك إلا في حالات الصلح والهدنة[1]. ولم تكن علاقة الموحدين بالمشرق بأحسن حالاً من علاقة المرابطين به. فقد كانت علاقات الموحدين متأزمة مع الفاطميين ثم الأيوبيين[2]، وعلى الرغم من أن عدداً من المغاربة قد عمل مكرماً في الدولتين، وأولى الأيوبيون المغاربة الذين يقاتلون معهم والمتصوفة عناية خاصة[3]، إلا أنهم كانوا يضيقون على من يرد من المغرب حاجاً أو تاجراً[4]، ويأخذون العشور من تجار المسلمين الغرباء[5]. فضيّق الموحدون على التجار المشارقة الداخلين الى بلادهم وثقفوا أموالهم[6]. ومن أراد من المغاربة السفر الى المشرق واجه من الموحدين إجراءات شديدة[7]. ولقد دفع المغاربة ثمن مقاتلة بعضهم في صفوف المسلمين ضد الصليبيين، ففرض الصليبيون مكوساً على رأس كل مغربي يدخل بلادهم جزاء تعاون المغاربة مع المشارقة المسلمين[8]. أضف الى هذه الصعاب أن طريق البر من طرابلس الى مصر لم يكن آمناً لسيطرة العرب عليه[9]، وزادت مشكلاته حدةً لما أخفق الموحدون في القضاء على ثورة الميورقيين وحلفائهم في المناطق الداخلية من البلاد الشرقية. ومن ثم فقد كان طريق البحر هو السبيل الرئيسي لتجارة المغرب في العصر الموحدي، سواء مع أوربا أم المشرق، كما كان عليه الحال أيام المرابطين.

---

(١) انظر أمثلة في **البيان الموحد** ١٨٦، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٩، ٢١٨، ٢٤٤، **الروض المعطار** ٤٦، ٥٩، **الذيل والتكملة** ٥:١:٦٤٥.

(٢) انظر موسي: **تنظيمات الموحدين** ٥٦، **مرآة الزمان** (مخ) ١٣:٩٨ق، **وفيات الأعيان** ٣:٦٨. و يبدو أن الموحدين وجهوا دعاة الى المشرق (انظر توقع تملك الموحدين للمشرق في **رحلة ابن جبير** ٥٦-٥٧).

(٣) راجع **طبقات الأطباء** ٢:١٤٤-١٥٥، ٢٤٠، ٣٣٣، **فوات الوفيات** ٢:٢٣٤، **نفح الطيب** ٢:١٠٤، ١٢٠، ١٣٣، ٦٣٧، ٦٩٢، **رحلة ابن جبير** ٢٥٠؛ ٢٥٧، ٢٨٠.

(٤) **الذيل والتكملة** ٥:٢:٥٩٨ وما بعدها، ابن سعيد، **المغرب** ١:٤٢٧، **رحلة ابن جبير** ١٣، ٣٨.

(٥) **رحلة ابن جبير** ٥٦.

(٦) **رسائل موحدية** ١٧، **نظم الجمان** ١٤٨، **بيان موحد** ٥٧.

(٧) **التشوف** ١٧٩.

(٨) **رحلة ابن جبير** ٢٧٤.

(٩) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٨١، ١٨٣، ١٨٦، **المعجب** ٣٤٧-٣٤٨.

وكان الأسطول الموحدي قوة ضاربة قادرة على حماية سواحل المغرب، بيد أنه لم يكن قادراً على بسط سلطانه على البحر الأبيض المتوسط كله، ولهذا كان على الموحدين التعامل مع القوى البحرية التجارية الأخرى، وهذا كان رهناً بالعلاقات السياسية[1]. وقد كانت القوى البحرية التجارية في الحوض الغربي للبحر المتوسط ثلاثاً: ميورقة وصقلية والجمهوريات الإيطالية. واستطاعت ميورقة أن تحتفظ بعلاقات تجارية واسعة مع جنوة وبيزا[2]، وكان للميورقيين سفرتان الى أوربا[3]؛ ولما كان الميورقيون على علاقة حسنة مع الموحدين، فقد كانت بجاية مركز تجارة الميورقيين الأفريقية[4]. ولكن احتلال الميورقيين لبجاية في سنة ٥٨٠/١١٨٤ وما تبعه من ثورة الميورقيين في أفريقية أوقف هذه التجارة وانتهى بالموحدين لاحتلال ميورقة[5].

أما صقلية فقد كانت تحتل مدن بني باديس الساحلية وأجلى الموحدون النورمان عنها وألحقوا بأساطيل صقلية هزائم بحيث اضطر النورمان الى التحالف مع الموحدين في سنة ٥٧٦/١١٨١ ومهادنتهم كسباً لودهم، كما دفعوا لهم أتاوة سنوية[6]. وعلى هذا سمح الموحدون للنورمان باستثمار فندقين في زويلة والمهدية[7]. ولكن ما أن سنحت للنورمان الفرصة في سنة ٥٨١/١١٨٥ للتحالف مع الميورقيين ضد الموحدين حتى اغتنموها[8]، فتأزّمت علاقتهم مع الموحدين حتى بلغت ذروتها مع ختام فترة الدراسة هذه حين بدأت الجاليات المسلمة بالنزوح من صقلية الى تونس[9].

---

(١) مثاله ما أمر به عبد المؤمن من تثقيف التجار الواصلين الى مالقة لما همّ بفتح بقية الأندلس وصد النصارى عن سواحلها (**نظم الجمان** ١٣).

(٢) لهم اتفاقات جددت في ١١٨١ و١١٨٤ و١١٨٨.
(Mas-Latrie; **Traité de paix,** p. XIV)

(٣) **المعجب** ٢٦٩.

(٤) انظر ما سبق ص ٤٥ الحاشية ١، **عنوان الدراية** ٢٣-٢٤.

(٥) انظر ما سبق ص ٤٥ الحاشية ١، خاصة **الاستبصار** ١٣١.

(٦) انظر: **الكامل** ١١:٤٤، ٤٦٨، **المعجب** ٢٥٢.

(٧) Mas-Latrie; **Traité de paix,** p. 52

(٨) **بيان موحد** ١٥٥، ١٥٧، ٢١٥، ٢١٦.

(٩) **المصدر ذاته** ٢٣٤.

ولم يبق للموحدين، والحالة هذه، سوى التعامل مع المدن الإيطالية. وإن كنا لا نعرف شيئاً عن طبيعة علاقة الموحدين مع أمالفي والبندقية، فإن الاتفاقات الموحدية مع جنوة وبيزا تشير في وضوح الى تفضيل جنوة على بيزا على أساس هذه السياسة. لقد كان الجنويون لا يتعدون على مراكب المسلمين، ومن فعل منهم شيئاً من ذلك عاقبوه، وقد نوهت الوثائق الرسمية بسلوكهم هذا[١]. فمنحهم الموحدون في سنة ٥٥٥/١١٦٠ امتيازات خاصة إذ سمحوا لسفن جنوة بالاتجار في كل المراسي، وخفضت عن تجارها العشور (١٠٪) بحيث لا يطالبون إلاّ بـ ٨٪، باستثناء مرسى بجاية حيث كان على التجار دفع العشر على أن يذهب الفرق بينه وبين الامتياز الى مدينة جنوة[٢]. وقد جدد هذا الاتفاق مرتين في سنتي ٥٧١/١١٧٦ و ٥٨٧/١١٩١[٣]. وقد وصف جغرافي معاصر جنوة بأنها قريش الروم، بينما نعت بيزا بالشدة في البحر والتعدي فيه[٤]. وقد كثرت شكوى الموحدين من أعمال القرصنة التي كان يقوم بها أهل بيزا[٥]. ويبدو أن تعاون بيزا مع المرابطين أسخط الموحدين على تجار بيزا، فلم يرضَ الموحدون عنهم إلا في خلافة يوسف حين منحهم امتيازاتهم السابقة في بلاد بني باديس، وسمح لهم ببناء فندقين في زويلة والمهدية في سنة ٥٦١/١١٦٦[٦]. والراجح أن أعمال القرصنة من جانب أهل بيزا دفعت الموحدين في سنة ٥٧٨/١١٨٢ للتضييق على تجار بيزا مرة أخرى، فلم يسمحوا لأي من تجار بيزا بالتجارة في المراسي الموحدية إلاّ إذا جلب بضاعة بخمسمائة دينار[٧]، فلما ظهرت منهم محاولة لمنع القرصنة

(١) Amari, **Diplomi arabi,** pp. 8-9, 33-35, 41-47, 66-67

(٢) Mas-Latrie, **Traité de paix,** pp. 47-49, 89, 108;
Krueger, H., "The Wares of Exchange...", p. 67;
"Genoese Trade...", p. 379.
سعد: **أسس العلاقات الاقتصادية** ١٨١-١٨٢.

(٣) Krueger, H., "Genoese Trade..." p. 379

(٤) **كتاب الجغرافية** ٧٧-٧٨.

(٥) راجع الحاشية ١.

(٦) Mas-Latrie, **op. cit.,** pp. 48-49

(٧) Amari, **Diplomi arabi,** pp. 11-12

جدد يوسف معاهدته السابقة مع بيزا في سنة ٥٨٠/١١٨٤[١]. بيد أن تحالف بيزا مع ميورقة في عام ٥٨٠/١١٨٤ ضد الموحدين[٢] أدى الى توتر العلاقات مجدداً. ولما عقد المنصور اتفاقاً جديداً مع بيزا في سنة ٥٨٢/١١٨٦ كانت شروطه قاسية، منها: التأكيد على منع القرصنة، وألاّ يتاجر أهل بيزا إلاّ في سبتة ووهران وبجاية وتونس، وألا ينزلوا ساحلاً إلاّ لضرورة، وألاّ ينزلوا المرية إلاّ لإصلاح سفنهم، وألاّ يحملوا في سفنهم أحداً من المسلمين؛ ومن خالف شرطاً من هذه الشروط من تجارهم فدمه مباح[٣].

وعلى الرغم من أن مواقف الموحدين السياسية مع أغلب الدول المعاصرة لهم كان يشوبها التوتر، فانهم كانوا يرون ضرورة تشجيع التجارة الخارجية، ومن ثم لم يأخذوا عشوراً من تجار المسلمين الغرباء[٤]. وجاءت معاهداتهم في الغالب الأعم مشجعة لأهل الصلح من النصارى، فلم يأخذوا منهم غير العشر عن البضائع الواردة؛ أما الجواهر واللآلي والزمرد والياقوت والنقود والفضة فقد أخذوا عنها ٥٪[٥]. وأسقط الموحدون العشر عما تبايعه التجار في مراكبهم وعن السفن التي يبيعها تجار المدن الإيطالية لأشخاص مسلمين أو نصارى معاهدين[٦]، مع التشديد على عدم بيع البضائع المخطوفة[٧]. وكان الموحدون يرغبون تجاراً من غير أهل الصلح في التجارة معهم[٨]، ويسعون في تجديد الصلة مع من انقطع عنهم بدعوته الى التجارة وتجديد عهده وضمان سلامته[٩]

(١) Mas-Latrie; **op. cit.,** p. 50.

(٢) انظر عن هذا الحلف Amari, **Diplomi arabi,** pp. 14-15

(٣) Mas-Latrie; **Traité de paix,** pp. 51-52,
Amari, **Diplomi arabi,** pp. 19-22

(٤) **رحلة ابن جبير** ٥٦.

(٥) Amari, **op. cit.,** pp. 9, 12, 12, 92 سعد: **أسس العلاقات الاقتصادية** ١٨١، ١٨٣.

(٦) **المصدران ذاتهما** p. 21، ١٨٤ على التوالي.

(٧) سعد: **أسس العلاقات الاقتصادية** ١٦٤ وما بعدها.

(٨) Amari, **op. cit.,** p. 21 سعد: **أسس العلاقات الاقتصادية** ١٨٤.

(٩) Amari, **op. cit.,** pp. 23-28, 29-30, 35-37, 53-54

وحرصاً من الموحدين على سلامة أموال التجار الأجانب وضماناً لتحصيل الضرائب منهم كان البيع والدفع يتم عن طريق ديوان الأشراف[١]. والمشرف هو المسؤول عن التجار الأجانب في كل مدينة[٢]، خاصة في سبتة وبجاية وتونس، فهو الذي يكتب إليهم داعياً للتجارة أو منبهاً على مخالفة[٣]، وقلما يكتب الوالي أو الخليفة إلا لتأكيد موقف المشرف من قضية ما[٤]. ولأن أكثر التجارة الخارجية مع أوربا والمشرق يسلك طريق البحر، فقد ارتبط ذلك بقضية الأمن، وأصبح لصاحب أشغال البحر الموحدي في سبتة دور في التجارة الخارجية، فهو الذي ينفذ تعليمات الدولة بشأن التجار الغرباء، وقد كانت السكة والضرائب ضمن اختصاصاته في سبتة[٥]. فكيف أثرت مواقف دول القرن السادس من التجارة والتغييرات التي طرأت على مراكز الإنتاج والاستهلاك على التجار: أصنافاً وأجناساً؟

العاملون في التجارة

أصناف التجار المغاربة

تعددت أصناف التجار في المغرب خلال القرن السادس باختلاف مقادير رؤوس الأموال والوضع الاجتماعي لأصحابها والطريقة التي استثمروها بها. هذا فضلاً عن تباعد مراكز الإنتاج والاستهلاك وما يتطلبه ذلك من انتقال هو رهن بما وفرته مواقف دول المغرب من أوضاع مشجعة له أو مثبطة.

ويستطيع الدارس أن يتبين ثلاث مجموعات مختلفة بين تجار المغرب في فترة الدراسة هذه من حيث القدرة على الاستثمار. فالأولى تتكون ممن يستثمرون أقل من مائة دينار في تجارتها ويقومون بالعمل بأنفسهم، سواء أكانوا تجاراً مقيمين أم

(١) Amari, **Diplomi arabi**, pp. 61, 76, 93
(٢) **نظم الجمان** ١٤٨، **بيان موحد** ٥٧.
(٣) مثاله عند Amari, **op. cit.**, pp. 23, 27, 46, 38, 41, 53
(٤) انظر **Ibid**, pp. 11, 29, 45, 66, 78
(٥) **رسائل موحدية** ١٧، **رسائل موحدية** (مخ) ٤.

سفاراً. والمقيم منهم عادة ما يكتري الحانوت الذي يستعمله. وقد يكون الكراء لمدة طويلة فيدفع منجماً مشاهرة أو مسانهةً[١]. ويبدو أن وضعهم في أيام صنهاجة الشرق والدور المرابطي الثاني قد ساء كثيراً حتى انهم لم يقووا على دفع إيجار حوانيتهم[٢]؛ أما في أيام الموحدين فقد انتعش حالهم نسبياً مع ازدهار التجارة الداخلية، فلم يقبلوا أن يخلوا حوانيتهم إلاّ لقاء خلوّ مجزٍ[٣].

أما المجموعة الثانية فهي ما كانت تستثمر ألف[٤] أو خمسمائة[٥] أو مائتين[٦] أو مائة دينار[٧]. والمجموعة الثالثة ما كانت تستثمر أكثر من ألف دينار، وتقدر الثروة المستثمرة في هذه الحالة بالألوف من الدنانير[٨]. ويخرج بعضهم مائة أو ثمانين أو سبعين حملاً في تجارته، علماً أن مثل هؤلاء التجار لا يستثمرون كل ما يملكون. فمن استثمر أربعة آلاف دينار يمسك قدرها تحسباً لنوائب الدهر[٩]. وقد يملك أحد أهل هذه الفئة أكثر حوانيت المدينة التي يقيم فيها[١٠]. وقد يدبر بعض أهل هاتين الطبقتين تجارته بنفسه[١١]، أو مشاركاً لأخوته[١٢]، أو مستعيناً

(١) انظر **المعيار** ٦:١٠٣ وما بعدها، **التقيد الأبي** (مخ) ٥٤ وما بعدها.
(٢) راجع نوازل عنها في **المعيار** ٨:١٨ وما بعدها، عباس: « نوازل ابن رشد » ٣٧.
(٣) **الرماح** (مخ) ٦٧ق-٦٨و؛ ويذكر أن الخلويسمى في فاس المفتاح وفي مراكش الحلاوة.
(٤) أغلب ما يعطيه المرابطون والموحدون ويصرف في التجارة هو ألف دينار (انظر أمثلة **نظم الجمان** ١٣٧-١٣٨، **بيان موحد ٥٧، ١٠٨**، **الذيل والتكملة** ١:٢٢٧، ٢٨١، ابن سعيد، **المغرب** ٢:٣٤، **نفح الطيب** ٣:٥٧٠-٥٧١.
(٥) **الاحاطة** (مخ) ٣٢٣، **التشوف** ١٦٩؛ وقد سبقت الاشارة الى شرط الموحدين على تجار بيزا.
(٦) **المعيار** ٨:١١٣.
(٧) **المصدر ذاته** ٩:٨٨.
(٨) انظر أمثلة في **المعيار** ٦:٣٥٦ وما بعدها، **البيان المغرب** ٤:١٨، ٢٢؛ وتجار أغمات يعلنون عن أموالهم بأن يضع الواحد منهم علامات على باب داره لتدل على مقدار ماله (**نزهة المشتاق** (ط.د.) ٦٦).
(٩) **نزهة المشتاق** (ط.د) ٦٦، **نفح الطيب** ٥:٢٠٥.
(١٠) **نزهة الألباب** (مخ) ٥٢.
(١١) انظر أمثلة في **التكملة** ١:١١٠، ٢٦٧، ٢:٦١١، ٩١١، **الذيل والتكملة** ١:٣٤٨، ٥:١:١٢٠، **جذوة الاقتباس** ٦٩.
(١٢) **نفح الطيب** ٥:٢٠٥ حيث يورد المقري مثالاً لاشتراك أخوة من جدوده في تجارة السودان، فأقام واحد في تلمسان والثاني في سجلماسة والثالث في بلاد السودان.

بعبيده ومواليه[١]. ولما كان أكثر الطبقتين من الفقهاء أرباب الخطط الرسمية أو كبار ملاك الأراضي والصنائع[٢]، وبينهم بعض النساء[٣]، ولما كان عمل التجارة يتطلب نوعاً من التفرغ والنقلة، لجأ أرباب الأموال من هؤلاء الى تسليف أموالهم أو اتخاذ الوكلاء والشركاء. فلا غرو أن كثرت الإشارات الى المسلف والوكيل والشريك بين تجار القرن السادس.

كثيراً ما تردد ذكر المسلف في نوازل الفترة المرابطية والصنهاجية[٤]. ويظهر أن ظاهرة السلف كانت كثيرة في العصر الموحدي، الأمر الذي يفسر قطع المنصور الشهادة على الخط في الدرهم والدينار[٥]. وربما كان المسلف تاجراً اشتهر بذلك[٦]، ولعله من كبار التجار، ولهذا فإن الذي لم يرد منهم في أن يسلف أهل السوق يحاول أن يخفي حاله[٧]. ولا يستبعد أن يكون الصرافون ممن يسلفون التجار، ذلك لأن صغار التجار كانوا يودعون أموالهم عند الصرافين، ويحيل هؤلاء التجار من يتعامل معهم من كبار التجار على الصرافين[٨]، ومما يرجح القول بأن الصرافين كانوا يسلفون التجار هو أن اليهود المغاربة كانوا أكثر الناس عملاً في

---

(١) **نزهة المشتاق** (ط.د) ٦٦؛ ومن المفيد أن نشير الى أن اشارة الادريسي جاءت عن أغمات، ولما فتح عبد المؤمن أغمات ومراكش قتل ثلاثة آلاف في كل مدينة أكثرهم سودان (**نظم الجمان** ١١٦-١١٧، **البيان المغرب** ٨٤:٤). وعن استخدام الموالي انظر **التكملة** ٤٢٩:١، **الذيل والتكملة** ١٢٠:١:٥، ٥٣١:٢:٥).

(٢) انظر أمثلة في **نظم الجمان** ١٣٧-١٣٨، **بيان موحد** ٥٧، **نوازل ابن رشد** (مخ) ٩و، **المعيار**٩:٢٩٤، ١٦٧:١٠، **التكملة** ١١٠:١، ٦١١:٢، ٩٠٢، **الذيل والتكملة** ٢٦٠:١، ٢٩٠، ٣٤٨، ١٢٠:١:٥، ٤١٩، ابن سعيد، **المغرب** ٢٤٩:١، **جذوة الاقتباس** ٦٩، **سلوة الأنفاس** ٢١١:١.

(٣) انظر عنهن **نوازل ابن رشد** (مخ) ٧٦ق، **المعيار**٢:٤١٩، ٣٥٦:٦، ٢٥٧:٨.

(٤) انظر **المعيار**٢:٢٤٢، ٢٤٤، ٢٧٤، ٢٩٣:١٠.

(٥) **عنوان الدراية** ١٢١.

(٦) **الاحاطة** ٣٣١:١، **المعيار**١:٣٠٠.

(٧) **التكملة** ٥٣٢:٢؛ وتجدر الاشارة أن الدين القليل لا يكون الا في أطراف الأسواق (**أمثال العوام** (مطبوع) ١١٩).

(٨) **المعيار**٦:٢١٢.

الذهب والفضة والصيرفة[١]، وقد اشتهروا بتسليف المال للتجار[٢]. ويبدو أن الفائدة كانت كبيرة، وقد بلغت في حالة ١٠٠٪ وفي أخرى ٦٠٪[٣]. وهذا غير مستغرب لأن أجل السلف قد يكون طويلاً، وقد يبلغ أحد عشر عاماً أو خمسة عشر عاماً، كما أن الدفع قد يكون منجماً[٤]، وقد يكون الدفع في بلد آخر[٥].

ولما كان بعض التجار يحترفون مهنة أخرى ولا يرغبون في التنقل، خاصة الفقهاء من أرباب الخطط الرسمية، فقد استأجروا وكلاء للقيام بأعمالهم[٦]. ويسافر الوكيل بالبضائع[٧] أو يشتريها ويرسلها الى موكله[٨] أو يشرف على نقلها خاصة في المراسي[٩]. ومن الوكلاء من يختص بخدمة تاجر واحد ومنهم من يفتح حانوتاً ويخدم كل من يطلبه[١٠]. وعادة ما تطلق يد الوكيل في استيفاء الديون، لأن عرف المغاربة كان يقوم على دفع الدين في موضع حصوله إلاّ إذا اقتضى ما يمنع السفر أو اشترط غير ذلك[١١]. وكان الوكيل يعمل بمقتضى اتفاق مكتوب في عقد لا يتعداه[١٢]. وفي حدود هذا الاتفاق يقوم التعامل بين التاجر والوكيل على الثقة، ولهذا كان الفقهاء يرون عدم تضمين الوكلاء[١٣].

---

(١) انظر ما سبق ص ١٠٨ وما بعدها، بالاضافة الى **نوازل البرزلي** (مخ) ١٤٦و **المعيار**٦:٥١.

(٢) **المعيار**٥:٢١٤ وما بعدها، ١٢٧:٦، ٣٠٤.

(٣) انظر **نوازل ابن عياض** (مخ) ٥٦و، **التشوف** ٧٧.

(٤) **نوازل ابن رشد** (مخ) ١٦٦ق، **رسالة السقطي** ٦١، **المعيار**١:٣٠٠، ٢١٤:٥ وما بعدها، ١١٦:٦ وما بعدها، ١٣٤، ١٦٣، ٣٤٠.

(٥) **المعيار**٢:٢٥٢.

(٦) راجع **نوازل ابن عياض** (مخ) ٣٩و، **المعيار**٢:٤١٩، ٤٢:١٠، ٢٢٣ وما بعدها، **الذيل والتكملة** ١٧٩:٤-١٨٠، **نفح الطيب** ٦٢٨:٢.

(٧) **المعيار**٨:٢٠٧ وما بعدها، ٥٢:٩.

(٨) **المصدر ذاته** ٢٣١:١٠.

(٩) **المعيار**٨:٢٣٠.

(١٠) **نوازل ابن عياض** ٣٩و.

(١١) **المعيار**٦:٧٧، ١١٩، ٤٤٢:٩.

(١٢) **المعيار**١٠:٢٣٧.

(١٣) لا يخالف هذا الا عياض وابنه اذ يريان تضمين الوكيل استحساناً لقلة المؤتمن في وقتهما (راجع عن هذه القضية **نوازل ابن عياض** (مخ) ٣٩و، **المعيار**٨:١٩٧-١٩٨، ٢٢٤). وربما كان رأي عياض هذا يمثل فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين و يوضح ما أصاب العلاقات بين التجار من هزات في التعامل نتيجة انعدام الأمن وفقدان الثقة في التعامل.

أما الشراكة في التجارة فقد استدعى قيامها في فترة الدراسة هذه العوامل ذاتها التي استوجبت اتخاذ بعض التجار للوكلاء. وهناك ثلاثة أنواع من المشاركة في هذه الفترة: الأول وهو الذي يتساوى فيه الشركاء في رأس المال والعمل، فيقوم بالسفر طرف ويقيم الآخر متصرفاً في الأعمال وكل مفوض من الآخر[1]. ومن النوع الثاني أن يشترك بعض التجار في إرسال أحدهم لجلب البضائع ثم يتقاسمونها على حسب رؤوس أموالهم وكل يبيع كيفما يشاء[2]. والصنف الثالث أن يقرض أحدهم لآخر مالا يتجر به مسافراً على أن يكون الربح مناصفة. ويبدو أن الفقهاء كانوا يستثمرون أموالهم في هذا النوع من أنواع المشاركة فتجدهم ـ تشجيعاً للمقارضين ـ يرون تضمينهم[3]، لا سيّما وأن هذا النوع من الشراكة فيه فوائد السلف دون الوقوع في الربا. وكان عائد مثل هذه التجارة كبيراً نتيجة معرفة الشركاء السفار بمناطق البضائع الرخيصة وأسواق تصريفها، وقد بلغ ربح أحدهم ٣٠٪ وآخر ١٠٠٪[4].

وهناك نوع آخر من التجار وهو التاجر الجوال أو السفار[5]. ولأنه كان مستقلاً بعمله فقد يتبضع للآخرين[6]. ويلاحظ أن الفقهاء يقولون بتضمينه[7]، فكأن

---

(١) انظر أمثلة في **نوازل ابن رشد** (مخ) ٩و، ١٠٢ق، **نوازل ابن عياض** (مخ) ٦١و، **المعيار**٨:١١٣ وما بعدها، ١٢٠، ٩:٦٩، ١٠:٢٠، **نفح الطيب** ٢:٢٠٥.

(٢) **المعيار**٦:٢١٢-٢١٣.

(٣) انظر **المعيار** ٢:٢٤٢، ٨:١٢٩، ١٤٥ وما بعدها، ٩:٥٢، ٧٨، ٨٨، ٣٩٦-٣٩٧، ١٠:٣٨-٣٩، **التشوف** ١٦٩-١٧٠.

(٤) **المعيار**٩:٨٨، **التشوف** ١٦٩ والجدير بالذكر أن جنوة شهدت في الفترة ذاتها تطورات مشابهة في عقود الشراكة قريبة من قوانين عقود المغاربة هذه (انظر عن عقود جنوة Byrne, "**Commercial Contracts of the Genoese**.." pp. 128-170.

(٥) انظر عنهم **رسالة السقطي** ١٧، ٥٨، **الذيل والتكملة** ١:٢٩٠، ٥:١١١، ٣٢١، ٤٠٢، **التشوف** ٢٠٧.

(٦) **نوازل ابن رشد** (مخ) ٢٣و، ١٦٦و، ١٦٨و، **نوازل البرزلي** (مخ) ٢١٠و، **المعيار**٣:٢٣٦، ٨:١٢٠، ٩:٦٩.

(٧) انظر **نوازل ابن رشد** ٢٣و، ٦٦و، ١٦٨و.

أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة أرادوا أن يضيقوا الخناق على مثل هؤلاء المتوسطة أحوالهم. هذا فضلاً عما كان يلقاه هؤلاء التجار السفار من صعاب نتيجة طبيعة عملهم. والغالب أن يتاجر المتجول بماله كله، ويدخل بلاداً كثيرة في سفرته، فتطول غيبته[1]، وقد ينكب في الطريق فيضطر للاستدانة[2]. ونتيجة لطول غيبته كان كثيراً ما يواجه قضايا طلاق أو نفقة[3]، ويقوم أصحاب الديون المترتبة عليه في موطنه فيبيعون أملاكه[4]. وعلى الرغم من هذا يبدو أن عمل هؤلاء التجار المتجولين كان مغرياً لهم بالربح إن صدقت التجارة، فهم أقدر على التجارة بين البادية والحاضرة[5]، وهم أقدر على المخاطرة بالسفر الى مناطق الفتن حيث ترتفع الأسعار[6]، ويصحبون الحملات العسكرية منتهزين الفرصة في أوقات الشدة[7].

الوسطاء

كان الوسيط أحد الأطراف الأساسية العاملة في التجارة المغربية. والوسطاء صنفان: الأول فقير الحال والثاني متنفذ في الأسواق. ومن الصنف الأول

---

(١) راجع أمثلة في **فهرسة عياض** (مخ) ١٠٩، **ملأ العيبة** (مخ) ٩١ق، **سبك المقال** (مخ) ٤٣ق.

(٢) **المعيار** ١:٣١١، ١٠:٢٤٠.

(٣) راجع **نوازل عياض** (مخ) ٦٨ق، **المعيار**٣:٢١٧، ٢٣١، ٢٣٦، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٥، ٩:١٥٥.

(٤) راجع عدة نوازل عن بيع الغائب في **المعيار** ١:٣١١، ٥:٤٢-٤٣، ٢٤٣، ٦:١١٤، ١١٥، ١٢٧، ١٠:٣٠٤، ٣٠٧.

(٥) انظر ما يذكره ابن خلدون عن أسعار البادية والحاضرة (**العبر** ١:٣٦٤).

(٦) انظر أمثلة في **نظم الجمان** ١٩٧، **بغية الملتمس** ١٥٧، **البيان الموحد** ١١٨، ١٥٢-١٥٣. وانظر تعليقات الأهواني وابن شريفة عن « الغلا جلاب » **أمثال العامة في الأندلس** ٢٩١، **أمثال العوام** (مطبوع) ٦٨.

(٧) مع المرابطين راجع **أخبار المهدي** ٩١، **البيان المغرب** ٤:٣٥، ٣٨-٣٩، ٩٩، **المعجب** ٢٣١، **بيان موحد** ١٢. ويبدو أن الموحدين عملوا على توفير الأقوات في محلاتهم (انظر **المن بالامامة** ٤٤١-٤٤٢، ٢٩٨)، ولكن انعدام الأقوات أحياناً قد يتسبب في ارتفاع الأسعار خلال حلاتهم الأندلسية فيضطرون لوقفها والرجوع عنها. (انظر **المن بالامامة** ٥٠٩، **بيان موحد** ١٣٤، ١٨٠، ١٩٢، **نفح الطيب** ٤:٣٧٨).

البراحون الذين ينادون عن السلع في الأسواق[١]، والدلالات اللائي يحملن بضائع التجار الى المنازل و يتقاضين أجوراً عن البيع والقبض إن كان الى أجل وإن اشترط ذلك في تعاملهن مع التجار[٢]. ومثلهن المتصرفات اللائي يقضين حاجات النساء من الأسواق[٣]. أما الصنف الثاني فيتكون من الدلالين أو السماسرة. والسمسار أو الدلال هو الوسيط بين التجار فيما يتبايعونه أو يبيعونه الى المشتري، وقد يتخذ حانوتاً لتصريف أعماله[٤]، وكان ينزل عنده التجار الغرباء والسفار، وعن طريقه يصرفون تجارتهم[٥]. وغالباً ما تقوم الصلة بين الدلالين والتجار على الثقة[٦]. و يبدو أن المرابطين في امارة علي بن يوسف كانوا يعرفون دخل التجار بواسطة الدلالين، ومن ثمّ تقدر الدولة المغارم الواجبة على التاجر، ولهذا تجد بعض التجار يتفقون مع الدلالين لكي يتجنبوا دفع المغارم[٧]. ولعل هذا هو السبب الذي حدا بالموحدين الى اتخاذ دار الاشراف مركزاً لمبيعات التجار الغرباء. و يبدو أن دخل الدلال كان كبيراً، فهو يتقاضى نصف الربح من التاجر[٨]. وأحياناً قد يبيع السلعة بأكثر من السعر الذي حدده التاجر[٩]. ولا ريب

(١) انظر **أمثال العوام** (مطبوع) ١٣٢ والمصادر المذكورة هنالك.
(٢) **نزهة الألباب** (مخ) ٢٩، **المعيار** ٥:٢٠٩-٢١٠.
(٣) **نزهة الألباب** (مخ) ٢٨-٢٩.
(٤) **نوازل ابن عياض** (مخ) ٣٩و، وعمله يمتد الى بيع الدور وشرائها (**التشوف** ١٣١-١٣٢، **المقصد الشريف** (مخ) ٥٧ق).
(٥) **رسالة السقطي** ٦٠.
(٦) يدل على ذلك أن الفقهاء لا يرون تضمين السماسرة الا من لم يشتهر بالامانة؛ غير أن عياض ذهب الى تضمينهم استحساناً لقلة المؤتمن. ولعل رأي عياض هذا يصور انعدام الثقة الذي أصاب التجارة في فترة الانتقال حسبما ذكر من قبل (انظر ما سبق ص ٢٨١ الحاشية ١٣؛ و بالاضافة للمصادر المذكورة هنالك انظر **نوازل ابن رشد** (مخ) ١٤٠و، ١٤٨ق، **نوازل البرزلي** ٢٢٦و، ٢٢٦ق). والجدير بالذكر أن من كان يريد ابتزاز التجار الغرباء ينتحل الدلالة صنعةً تغطيةً لأساليب مبتذلة (راجع **نزهة الألباب** (مخ) ٢٦-٢٧).
(٧) انظر **المعيار** ٥:٢٥، ١١:٧٧.
(٨) **نوازل ابن رشد** (مخ) ١٠٢ق، **المعيار** ٨:١٤٦.
(٩) **المعيار** ٥:١٩٢.

أن وجود الدلال وسيطاً بين البائع والمشتري كان ضاراً بمصلحة المستهلك[٥]، ولكن بعض التجار ـــ ونتيجةً لأرباح الدلالين ـــ أصبحوا يخشون من نفوذ الدلالين فتشكوا من وجودهم في أسواقهم، لما رأوا أرباحهم مماثلة لأرباحهم، ولا مال للدلالين يخشون الخسارة فيه[٢]. ولعل هذا ما دفع ببعض التجار للاشتغال بالدلالة مع التجارة وتقاضي ثمن البيع أجراً عن دلالته[٣]، أو أن يشتغل التاجر الذي ينكب في ماله بالسمسرة[٤]. وبالإضافة الى ذلك، فقد ظهر صنف جديد من الوسطاء بين الدلال والتاجر في العصر المرابطي وهم الجلاسون الذين يفتحون محلاتهم و يتخذون دلالين فيها، و ينزلون التجار الغرباء عندهم، وكلما جاء أحد ليشتري السلعة الواردة زاد الجلاس عليه حتى يبلغ السعر الى أكثر مما حدده الدلال، فيتقاسم الجلاس والدلال الزيادة، أو يشتري الجلاس ما وجده رخيصاً من السلع الواردة الى أجل، فيربح فيها و يرد السلف الى التاجر الغريب. و يبدو أن بعضهم قد حاول التعامل في النقد بالنسيئة[٥]. و يرى السقطي منع هؤلاء الجلاسين من الأسواق[٦]. وأغلب الظن أن الموحدين أوقفوا هؤلاء الجلاس عن العمل في التجارة إذ لا يرد لهم ذكر في العصر الموحدي ثم ظهروا مجدداً في العصر المريني[٧].

العاملون في النقل

إن طبيعة المغرب الجغرافية جعلت الاتصال البري بين مدنه أمراً عسيراً لكثرة المرتفعات وتعرج الطرق أو لصعوبة المياه، أضف الى هذا اضطراب الأمن في النصف الأول من القرن السادس أيام صنهاجة الشرق وفي الدور المرابطي

(١) **نوازل ابن رشد** (مخ) ١٠٢ق.
(٢) **المعيار** ٥:١٧٢.
(٣) **المعيار** ٦:١١٧.
(٤) **التشوف** ٤٠٣.
(٥) **رسالة ابن عيد الرؤوف** ٨٥.
(٦) **رسالة السقطي** ٥٩-٦١.
(٧) **المعيار** ١٢:٤٤.

الثاني. والراجح أن أرباب الأموال الكبيرة كانوا يملكون الوسائل لنقل بضائعهم في البر، فيسيرون قوافلهم منفردين أو مشتركين. والقافلة المشتركة قد تتكون من ألف دابة. ويدفع أحدهم ما يتوجب على القافلة من مغارم في الطريق ويتحصل فيما بعد من الآخرين[١]. ويغلب على التجار المتجولين استئجار الحمالين أو الميارين الذين كانوا في فترة صنهاجة والدور المرابطي الثاني يسببون مشكلات للسفار، مثل ادعاء ملكية السلع التي يحملونها[٢]. ولهذا أصبح توثيق ما يحمله هؤلاء الميارين هو القاعدة المتبعة في القرن السادس[٣]. ويبدو أن الميارين عرفوا كيف يستغلون فترة الاضطراب السياسي وانعدام الأقوات في النصف الأول من القرن السادس، فاصبح بعضهم يطحن القمح ويحمله الى الأماكن التي يرتفع فيها سعره[٤]، أو يدخل مع التجار شريكاً لقاء عملية النقل ونتيجة لمخاطر الطريق، خاصة في البلاد الشرقية[٥]. ولا ترد إشارة عن هاتين الظاهرتين في الفترة الموحدية.

أما بالنسبة للنقل البحري فان مشاركة بني باديس وبني حماد فيه لم تحل دون ملكية الافراد لوسائله، وعادة ما تكون السفينة ملكاً لغير شخص وهم يشتركون في العمل فيها[٦]. وقد وردت إشارة واحدة عن ملكية شخص واحد لسفينة وقد استأجر عمالاً للعمل فيها[٧]. ويبدو أنه كان للنقل البحري أعراف بها يتعامل التجار مع أرباب السفن؛ فالدفع يكتب في رقاع[٨]، وصاحب السفينة عليه أن ينزل السلع في المكان المتفق عليه، وإذا ما اضطر لإنزالها في غيره،

(١) عن المنفرد انظر **نفح الطيب** ٥:٢٠٥، وعن المشترك راجع البكري، **المغرب** ٤٨، ١٤٦، **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٦٦، **المعيار** ٩:٤٢٨.
(٢) **نوازل ابن سهل** (مخ) ٦٩.
(٣) **التقييد الأبي** (مخ) ٣٩و.
(٤) **رسالة السقطي** ٢٤.
(٥) راجع **المعيار** ٦:٢١٢-٢١٣، ٨:١١٥، ١٣٠-١٣١، ١٣٢.
(٦) **الجواهر المختارة** (مخ) ١:١٧٤، **نوازل ابن عياض** (مخ) ٥٩ق.
(٧) **المعيار** ٨:٤٥.
(٨) **المصدر ذاته** ١٠:٢٩١.

وأغرم السلطان التاجر مالاً على السلع، فصاحب المركب ضامن للغرامة؛ غير أن التفريغ والتخزين كثيراً ما يسببان النزاع بين الطرفين المتعاقدين[١]. والظاهر أن سعي أرباب السفن وراء الربح كان يدفعهم الى الشحن دون اعتبار لما قد تلاقيه السفن من متاعب في البحر، فيضطر بعض التجار لطرح بعض بضائعهم طلباً لسلامة النفس، ومن هنا تنشأ المشكلات بين التجار المسافرين في ما بينهم ومع أرباب السفن[٢]. ولعل هذه المشكلات ــ بالإضافة للخطر المترتب عن أعمال القرصنة ــ ألجأت التجار لمشاركة أرباب السفن في أعمالهم التجارية خاصة في البلاد الشرقية[٣].

التجار الأجانب (أي من غير المغاربة)

تأثرت أوضاع العاملين في التجارة من المغاربة خلال القرن السادس بتزايد التجار الأجانب في التجارة المغربية خارجية وداخلية، ولئن بدات هذه الظاهرة مع صنهاجة الشرق والمرابطين بالنسبة للتجارة المشرقية والأوربية، فقد تكاملت سيطرة التجار الأجانب في العصر الموحدي، ولم تعد تقتصر على التجارة المشرقية والأوربية فحسب، بل امتد ذلك الى التجارة مع السودان.

لقد كانت زناتة تسيطر على التجارة مع السودان في القرن الخامس متخذة من أودغست مركزاً[٤]، بيد أن المرابطين الذين قضوا على زناتة في البلاد الغربية انهوا كذلك سيطرتها على أودغست[٥]، وأصبح أهل البلاد الغربية ووركلان هم

(١) **المصدر نفسه** ٨:١٨٧، ١٩٠-١٩١.
(٢) **نوازل ابن عياض** (مخ) ٦١و، **رسالة ابن عبدون** ٢٩، **المعيار** ٨:١٨٦، ١٩٤.
(٣) **المعيار** ٦:٢١٢-٢١٣، ٨:١١٥، ١٣٠ وما بعدها. وشبيه بهذا التطور ما حدث في جنوة في الوقت نفسه (راجع عنه Hoover, C.B., “The Sea Loan in Genoa...,” pp. 495-529; “Economic Forces in the Evolution of Civil and Canon law”, pp. 1-14.)
(٤) البكري، **المغرب** ١٥٨-١٥٩.
(٥) **المصدر ذاته** ١٦٨.

تجار عبر الصحراء مع السودان في العصر المرابطي[١]. وفي بداية العصر الموحدي بدأت كفت وركلان ترجح إذ كان تجار وركلان مع أهل الواحات يتاجرون بين السودان ومصر وحدود المغرب الشرقية، بل إن تجارهم كانوا يصلون الى درعة وسجلماسة ونول لمطة[٢]. و يبدو أن وركلان أصبحت أهم مركز للتجارة مع السودان في نهاية القرن السادس نتيجة لموقف الموحدين من صنهاجة الصحراء وتبدل خطوط التجارة نحو الشرق، وغدا الدينار الوركلاني ذا شهرة واسعة بفضل ذهب السودان[٣]. يضاف الى ذلك الى أن أهل غانة لم يكونوا يعملون في تجارة عبر الصحراء، ولا تجد منهم في البلاد الغربية في العصر المرابطي غير عدد يسير[٤]، بينما دخلوا في هذه التجارة في العصر الموحدي. وما أن جاء ختام القرن السادس حتى أصبحت لهم جالية كبيرة من التجار في سجلماسة[٥]. وأغلب الظن ان ازدياد دور أهل وركلان وغانة في تجارة عبر الصحراء قد أثر على طبقة الأثرياء من التجار المغاربة الذين كانوا يعملون في هذه التجارة[٦].

و يلاحظ الدارس للتجارة المغربية الخارجية أنه على الرغم من توتر علاقات دول المغرب في القرن السادس مع الدول المعاصرة لها في حوض البحر المتوسط، كان التجار المغاربة يدخلون صقلية وإسبانيا، كما كان يدخل تجار هاتين المنطقتين الى المغرب في أوقات الهدنة والصلح[٧]. ومما شجع على هذه التجارة

(١) **نزهة المشتاق** (ط.د)، المنوني: **العلوم والآداب** ٧٦ نقلاً عن شرح المقامات للشريشي. والجدير بالذكر أن صاحب الاستبصار ينقل مادة البكري عن اودغست غير أنه لا يذكر الجاليات فيها (انظر **الاستبصار** ٢١٥).

(٢) **نزهة المشتاق** (ط.د) ٢٩، ٤٠: هذا بالاضافة الى بداية ازدهار زويلة في هذه الفترة (**المصدر ذاته** ١٣٣، **رحلة بنيامين** ١٧٠-١٧٧).

(٣) انظر عن شهرته **الاستبصار** ٢٢٤.

(٤) لهم بعض الذكر في **أخبار المهدي** ٦١، ٧٣، ٩٩.

(٥) **نفح الطيب** ٣:١٠٥.

(٦) يقول الادريسي أن المياسير من أهل المغرب الأقصى يتاجرون مع غانة (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٦).

(٧) أنظر عنهم **نوازل ابن رشد** (مخ) ١٦٢و، **الاحاطة** (مخ) ٢١٣، ٣١٣، **المعيار** ٩:٤٥٢، **رحلة بنيامين** ٥٣. وقد أثبتت النقوش المكتشفة في شرق الأندلس تعامل نصارى اسبانيا مع هذه المنطقة في خلافة الناصر الموحدي (أنظر Mateu, "Hallazgos numismàticos musulmanes", **Al-Andalus**, XII 1947, p. 484

وجود أقليات مسلمة في صقلية وإسبانيا كان الحكام المسيحيون يشجعونها على البقاء لضرورات منها الضرورات الاقتصادية[١]. والراجح أن مصالح هذه الأقليات استوجبت بقاءها[٢]، وربما كانت تقوم بدور الوسيط في التجارة بين داري الحرب والإسلام[٣]. وكان التجار المغاربة في هذه الفترة يصلون الى إيطاليا وجنوب فرنسا[٤]، و يدخلون الى المشرق[٥]، كما كان التجار المشارقة يدخلون الى المغرب[٦]. بيد أن الأوضاع السياسية والعسكرية التي كانت تعيق التجارة بين هذه المناطق جميعاً شجعت مجموعتين من العاملين في التجارة على السيطرة على التجارة المغربية الخارجية بدرجة متفاوتة. والمجموعتان هما اليهود وتجار المدن الإيطالية.

تكثر الإشارات في القرن السادس الى عمل اليهود المغاربة في التجارة خاصة الصيرفة[٧] على الرغم من المحنة التي عاشوها. وقد مهد انتشار الجاليات اليهودية في

(١) انظر عن الأقليات المسلمة في صقلية **الكامل** ١٠:١٩٨، **رحلة بنيامين** ١٨١، **رحلة ابن جبير** ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٥، مورينو: **المسلمون في صقلية** ١٩، ٢٢؛ ولم يتم جلاءهم عن الجزيرة نهائياً الا في القرن الثالث عشر مع فردريك الثاني. وراجع عن اسبانيا مؤنس: « الثغر الأعلى الأندلسي » ١٣٢ وما بعدها، **نظم الجمان** ٩، ٢٢٣، **بغية الملتمس** ١٧٧، **الاكتفاء** ٨٥، **المعجب** ٢٦، **الصلة** ١:٧٠، ٢:٥٦٢، **الروض المعطار** ١٦٦.

(٢) لقد ظلت هذه الأقليات مقيمة في مناطقها على الرغم من أن المالكية المغاربة يؤكدون على الهجرة من دار الحرب الى دار الاسلام (انظر **المعيار** ٢:٩٥ وما بعدها).

(٣) راجع ما يذكره ابن جبير عن المسلمين في صقلية (**رحلة ابن جبير** ٣٠٥). وقد كثرت النوازل عن تجارة المسلمين المقيمين في دار الحرب مع دار الاسلام (انظر **نوازل ابن رشد** ١٦٢و وما بعدها، عباس: « **نوازل ابن رشد** » **١٩**، **فهرسة ابن عطية** (مخ) ٥٦و.

(٤) **رحلة بنيامين** ٥٠، ٥٨، Krueger, H.C., "The Wares of Exchange...", p. 70

(٥) من المغاربة من يجمع بين الحج والتجارة (مثاله في **الذيل والتكملة** (مخ) باريس) ٦:١٩٨، **نفح الطيب** ٢:٥٨، ٢٣٩-٢٤٠)، ومنهم من يدخل المشرق تاجراً عدة مرات (انظر **التكملة** ١:١٦٩-١٧٠، **أخبار وتراجم أندلسية** ٢١، **رحلة ابن جبير** ٢٧٦)، وقد يبلغ أحدهم الى اليمن (**المعيار** ٣:٢١٧)، أو يصل الى الصين (**عيون التواريخ** (مخ) ١٧:٣و).

(٦) راجع عنهم **نظم الجمان** ١٤٨، **كتاب الجغرافية** ٦١، ٦٤، **الصلة** ٢:٤٣٣، ٦٣٤، **فهرسة عياض** (مخ) ١٠٧-١٠٨، **التكملة** ١:١٩٠، **التشوف** ١٧٨، **الاستبصار** ١٣٠، **نزهة المشتاق** (ط.د) ٦٣، **تاريخ الاسلام** (مخ) ١٣:٢٥١ق، Amari, **Diplomi arabi**, pp. 43, 84.

(٧) انظر ما سبق ص ١٠٦ وما بعدها، بالاضافة الى **رحلة بنيامين** ٥٨، **نفح الطيب** ٧:٢٧٠-٢٧١، **عنوان الدراية** ١٤٨، **أنس الفقير** ٨.

أوربا والمشرق[١] السبيل الى عمل اليهود المغاربة في التجارة الخارجية، لا سيّما التجارة مع إسبانيا ومصر وعن طريق مصر الى الهند، خاصة أن العلاقات العائلية قد ربطت بين تجار اليهود المشارقة والمغاربة[٢]. إلا أن أوراق « جنيزة » القاهرة تصور تضاؤل عدد المراكب التجارية التي يملكها أو يعمل فيها المسلمون أو اليهود في البحر المتوسط في القرن السادس، الأمر الذي يوحي بأنهم أقصوا عن هذه المهنة في هذه الفترة[٣]، في الوقت الذي فرضت المدن الإيطالية سيطرتها على النقل البحري مما جعل دورها في التجارة الخارجية المغربية أكبر من دور اليهود.

وكانت المدن الإيطالية أكثر تجارة مع المشرق عنها مع المغرب في النصف الأول من القرن السادس نتيجةً للإمتيازات التي حصلوا عليها في المشرق في بداية الحروب الصليبية، والمخاطر التي كانوا يواجهونها في التجارة المغربية[٤]. فبينما كان النورمان أكثر تجارة مع البلاد الشرقية[٥]، يبدو أن احتلالهم لبلاد بني باديس الساحلية، أفقدهم الكثير، وذلك لجلاء سكان المدن التي احتلت ولتوتر علاقات النورمان مع السكان الأصليين. فشرع تجار بيزا في تثبيت أقدامهم في تونس وبجاية وسواحل المرابطين المتوسطية ونقل السلع من صقلية الى البلاد الشرقية وربطوا البلاد الشرقية[٦] ببيزا والمشرق تجارياً[٧]. وفي هذا الوقت كان قلة من تجار

(١) يورد بنيامين في رحلته احصاءات عن اليهود في اوربا والمشرق؛ ومن المفيد أن نشير الى أن اليهود حسب احصاءاته هذه في مصر والمناطق الداخلية من البلاد الشامية كانوا من يهود سواحل الشام.

(٢) الشرقاوي: **الملاحة البحرية** ٥٩. Goitein, **Jews and Arabs**, pp. 107 111-112, 116-117.

(٣) تبين أوراق جنيزة القاهرة أن المراكب في القرن الحادي عشر كثيراً ما تكون لمسلمين أو يهود أو مسيحيين وتكثر بينهم الأسماء العربية (Goitein, **A Med. Society**, p. 40) بينما تقل الاشارة الى الملاحين اليهود والمسلمين في القرن الثاني عشر (Goitein, **Jews and Arabs**, p. 108)

(٤) انظر عن أعمال القرصنة Heyd, W.: **Histoire du Commerce.**, (1923) V.I., 121 Krueger; H.C.; "Genoese Trade.." p. 378.

(٥) انظر **المعيار** ١: ٣٤٢ وما بعدها.

(٦) راجع Mas-Latrie; **Traité de Paix**, pp. 35, 37 وعن نقل بيزا لسلع صقلية انظر Amari; **Diplomi Arabi**, pp. 8.26 وهناك اشارة الى مركب من امالفي (انظر Ibid; p. 34).

(٧) انظر أمثلة في Amari, **Diplomi Arabi**, pp. 3, 48, 50-52, 58, 60, 60, 63, 76.

جنوة يتاجرون مع البلاد الشرقية وحدها، وكان أغلبهم من الدرجة الثانية في الحياة الاجتماعية والسياسية في بلادهم[١]. ويبدو أن الجنويين تركوا التجارة المغربية في هذه الفترة لتجار سواحل الشام الذين يمرون بتلك التجارة عبر جنوة وفي المراكب الجنوية[٢].

بيد أن الأمن الذي فرضه الموحدون والامتيازات التي أعطوها الى الجنويين والتقلص الموقت لتجارة جنوة مع المشرق في سنة ١١٦٣ بسبب الحرب مع بيزا[٣]، كلها عوامل جعلت جنوة تتجه نحو التجارة المغربية، جاعلة لها جزءاً من تجارتها المشرقية الأوربية، فدخل فيها كبار المستثمرين من أهل جنوة[٤]. وفي هذه الفترة سيطر الجنويون على تجارة المغرب الخارجية البحرية. ويتضح ذلك من اتساع حجم التبادل التجاري مع المغرب وامتداد مناطقه وشبه احتكار الجنويين للنقل البحري. فبينما كان استثمار جنوة في المغرب في بداية الأمر محصوراً في بجاية وتونس وطرابلس وقابس، مع التركيز على بجاية بشكل واضح، غدت استثمارات جنوة شاملة لجميع مراسي المغرب الى سلا. وكان حظ الغربية ٥/٧ من الاستثمار الجنوي في التجارة المغربية، بينما كان في البلاد الشرقية ٢/٧. وكانت حصة سبتة وحدها ٤/٧ وحصة بجاية ١/٧ (أي انه يعادل نصف ما استثمر في البلاد الشرقية)[٥]. وفي هذه الفترة كادت جنوة أن تحتكر النقل البحري من

(١) Krueger, H.C.; "Genoese Trade..." pp. 388-390

(٢) Byrne E.H.; "Easterners in Genoa" pp. 176-187

(٣) انظر عنه Byrne E.H. "The Genoese Trade with Syria..." p. 202. N. 37.

(٤) راجع Reynolds, "Merchants of Arras...", p. 501; "Genoese Trade...", pp. 369 sqq.; Byrne, E.H., "Commercial Contracts of the Genoese...", p. 133; "The Genoese Trade with Syria...", p. 202; Krueger, H.C., "Genoese Trade...", p. 382.

(٥) راجع جدولاً باحصاء هذه التجارة عن الوثائق الجنوية وغيرها في Krueger, H. C., "Genoese Trade", p. 380 sqq.

المغرب وإليه، سواء في نقل الحجاج أو السلع[1]. وقلما يرد ذكر لسفن المسلمين في تجارة عبر البحر المتوسط[2]. ولما كان البحر المتوسط يربط بين بيئات المغرب الثلاث فقد قام الجنويون بدور في التجارة الداخلية البحرية بنقل السلع من مرسى الى آخر[3].

لقد ترك تزايد أعداد الأجانب في التجارة المغربية، خاصة في النصف الثاني من القرن السادس، تأثيراً كبيراً على أوضاع التجار المغاربة. وبسبب نفوذ تجار المدن الإيطالية في تجارة المتوسط والوركلانيين وأهل الواحات ثم الغانيين في تجارة السودان، تأثر وضع أرباب الأموال الكبيرة والسفار من التجار المغاربة. وخير ما يوضح هذا التأثير أن عدداً منهم ترك التجارة وتزهد وتصوف[4]. ومن هنا يجوز القول بأن الفترة الموحدية التي شهدت تطويراً للزراعة والصناعة وعناية بالتجارة الداخلية، واجه فيها المغاربة العاملون في التجارة الخارجية صعوبات لم تزدها اجراءات الموحدين إلا اشتداداً. وبالاضافة الى هذا، فإن كثرة التجار الأجانب في التجارة المغربية استوجبت الإكثار من اتخاذ المترجمين. وكان كل جماعة تختار ترجمانها وعن طريقه يتم البيع والشراء في الديوان فيتردد اسمه في الرسائل الرسمية والشخصية[5]. ويحرص الترجمان على اطلاع جماعته على حالة الأمن وعلى الأسعار[6]. ولا ريب أن الترجمان هذا قد أثر على وضع السمسار أو الدلال وبصفة خاصة في مراكز التجارة الساحلية.

---

(١) أمثلة في رحلة ابن جبير ٨، ٩، ٨٣، ٣٠٩، **الذيل والتكملة** ٥:٢:٦٨٩، **معجم الصدفي** ١٦٧.

(٢) مثاله في Amari, **Diplomi arabi,** pp. 5, 24, 32, 34, 39, 43

(٣) انظر Krueger, H.C., "Genoese Trade...", p. 388; "The Wares of Exchange..." pp. 60, 61, 67, 70.

(٤) هناك أمثلة من قرطبة والمهدية وسجلماسة وتجار الصحراء وبجاية (راجع **التكملة** ١:٣١٣، ٢:٨٧٨، **التشوف** ٨٩، ٣٣٢، ٣٤٦، ٤٤٩، **سلوة الأنفاس** ٣:١٢٦، **الأعلام عمن بمراكش من الأعلام** ٣:٨٠، **السعادة الأبدية** ١:١٣٤، **سبك المقال** (مخ) ٤٣ق).

(٥) Amari, **Diplomi arabi,** pp. 31-32, 40, 42, 44, 55, 57, 58, 60, 63, 76.

(٦) **Ibid**, pp. 53, 61

الأسواق

أنواعها

هناك ثلاثة أنواع من الأسواق؛ أولاً: الأسواق التي تصحب الجيوش في غزواتها، وفي هذه الحالة يقيم التجار أسواقهم قرب المحلات العسكرية[1]؛ ثانياً: الأسواق الأسبوعية التي كانت منتشرة في بيئات المغرب الثلاث، ويبدو أن بعضها كان مجتمعاً كبيراً للتجار المتجولين، فقد ورد أنه قد يذبح في يوم السوق أكثر من مائة ثور وألف شاة في سوق أغمات وريكة، وينفذ ذلك في يومه[2]؛ ثالثاً: أسواق المدن، وهي ثابتة دائمة.

تنظيمها

معرفتنا عن تنظيم الأسواق الأسبوعيه[3] وأسواق المحلات العسكرية ضئيلة إن لم تكن معدومة. لكن الموحدين، الذين كانوا شديدي العناية بتوفير الأقوات للجيوش وضبط أسعارها، سواء في ذلك سير الجيش وأيام المعارك[4]، ربما سعوا الى تنظيم أسواق المحلات العسكرية، لكن المصادر لا تسعف في معرفة شيء عن ذلك. أما أسواق المدن فلا يختلف تنظيمها عن تنظيم أسواق المدينة الإسلامية عامة، من اختصاص كل جانب من السوق بنوع معين من السلع. ويبدو أن

---

(١) انظر ما سبق ص ٢٨٣ الحاشية (٧).

(٢) انظر عنها البكري، **المغرب** ١٠٧، ١٠٨، ١١١، ١٥٢، ١٥٣، **نزهة المشتاق** (ط.ب) ٥٢-٥٣، ٥٨، ٥٩، ٦٤، ٦٥، ٦٩، **التشوف** ٨٧، **الروض المعطار** ١١٧، ١٤٩، ١٥٩.

(٣) جرت محاولات لدراسة الأسواق القبلية في البلاد العربية في العصر الحديث من ذلك Fogg. W., "the Importance of Tribal Markets in the Commercial Life of the Countryside of North-West Morocco" **Africa,** 12 (1939) pp. 445-449. "The Organization of a Moroccan Tribal Market", **Amercian Anthropologist** 44 (1942) pp. 47-61; Mikesell, M.W., "The Role of Tribal Markets in Morocco", **Geographical Review,** 48 (1958) pp. 494-511.

(٤) انظر عن اهتمام الموحدين موسى: **تنظيمات الموحدين** ٢٩٢ وما بعدها.

حركة السلع داخل المغرب وخارجه استوجبت اتخاذ فنادق لكل سلعة يتعامل فيها المختصون بها مثل فندق الزيت وفندق السكر[1]. كما أن ازدياد التجار الأجانب في التجارة المغربية استدعى ترغيبهم بالامتيازات، فسمح لهم بإنشاء الفنادق والحمامات[2]، غير أنه اشترط عليهم البيع والشراء في الحلقة باشراف ديوان المشرف[3].

ادارتها

أما أسواق المدن فقد كانت ادارتها تعرف أحياناً بالحسبة[4]، و يسمى المشرف عليها المحتسب، غير أنه في الاستعمال الأندلسي كان يطلق على متولي السوق اما صاحب خطة السوق أو صاحب حسبة السوق. وقد استمر هذا الاستعمال في القرن السادس[5] وربما شجع عليه أن المرابطين والموحدين كانوا يستعملون كلمة الحسبة بمعناها العام من أمر بمعروف ونهي عن منكر وجهاد في سبيل الله[6].

وكان القاضي في العصر المرابطي يولي محتسب السوق. و يشرف محتسب السوق على التعامل في الأسواق وسلامة السلع وتوفرها وصحة المكاييل والموازين حمايةً للمستهلك[7]، وكان عليه أن يمنع الاحتكار[8]، و يشرف على تأمين حراسة

(١) انظر **التشوف** ١٨٦، **بيان موحد** ٣١٦.

(٢) Mas-Latrie; **Traité de paix,** pp. 39, 49

(٣) Amari **Diplomi arabi,** pp. 76, 93

(٤) انظر عن استعمالها **بغية الملتمس** ٣٧٠، **الحلة السيراء** ٢:٧٦، **التكملة** ١:٣٤٤، ابن سعيد، **المغرب** ٢:٣١٣.

(٥) راجع **التكملة** ١:٨٢، ٢:٦٦٦، **الذيل والتكملة** ١:٣٠٦، ٤:١٧٨، ٥:٢:٤٦٠، **روض القرطاس** ١٠٩.

(٦) انظر **نظم الجمان** ١٢١، **كتاب الانساب** ٤٦-٤٧، **بيان موحد** ٣١، موسى: **تنظيمات الموحدين** ٢٣٩ وما بعدها.

(٧) تدور رسائل ابن عبدون وابن عبد الرؤوف والسقطي والجرسيفي ـــ وكلها مرابطية ـــ حول هذه الموضوعات. وعن مناقشة لهذه الرسائل وواجبات المحتسب فيها انظر زيادة: **الحسبة والمحتسب** خاصة ٣١ وما بعدها.

(٨) **رسالة السقطي** ١١، ٣١، ٣٤، **رسالة ابن عبدون** ٤٢.

الأسواق ونظافتها[1]. والراجح أن محتسبي الأسواق في العصر المرابطي لم يقوموا بواجبهم كما ينبغي، اذ تكشف نوازل الفترة ذاتها وكتب الحسبة التي كتبت فيها عن انتشار الغش في الأسواق[2]؛ و يبدو أن محتسبي الأسواق تركوا العمل لأعوانهم ولم يراقبوهم[3]. ومن هنا يستطيع المرء أن يفهم تشديد الموحدين في أمر تعيين أمناء الأسواق، حتى ان المنصور كان يجتمع بهم مرتين كل شهر. وأغلب الظن أن الموحدين قد استطاعوا ضبط الأسواق وأمنائها، فأوكلوا للأمناء جمع ضرائب أسواقهم[4]، وهذا هو الفرق الوحيد في واجبات صاحب السوق المرابطي والموحدي.

طرق التعامل في التجارة الداخلية

عرفت أسواق المغرب في القرن السادس أربعة أنواع من التعامل التجاري، سواء أكان التعامل بين تاجر وآخر أم تاجر ومستهلك إلاّ في حالة الحوالة. أولاً: البيع نقداً، ثانياً: الحوالة على الصرافين، على الرغم من أن الفقهاء كانوا يرون أن الحوالة ربا، وقد نهوا التجار عن التعامل بها[5]؛ ثالثاً: المقايضة[6]، رابعاً: السلف، وقد كان أكثر أنواع البيوع انتشاراً. وربما كان السلف نقداً بنقد أو نقداً بسلعة[7] أو سلعة بأخرى[8]. والفائدة قد تكون رباً صريحاً خاصة عند

(١) **التيسير في أحكام التسعير** (مخ) ١٩٠.

(٢) انظر **نوازل ابن رشد** (مخ) ١٠١ق، ١٥١و، **نوازل البرزلي** (مخ) ١٣٨و-١٣٩و، **المعيار** ٦:١١٨، **رسالة ابن عبدون** ٤١، ٤٢، **رسالة السقطي** ١، ١٢-١٣، ١٤-١٥، ١٦، ٢١، ٤١ وما بعدها.

(٣) يشدد السقطي على وجوب قيام المحتسب على عمله بنفسه وعدم ترك ذلك لأعوانه (انظر **رسالة السقطي** ٩-١٠).

(٤) انظر ما سبق ص ٢١١.

(٥) **المعيار** ٦:٢١٢-٢١٩.

(٦) **المصدر ذاته** ٥:٢٠٩، ٢١١ وما بعدها.

(٧) **المصدر نفسه** ٦:٧٥، ١٨٨.

(٨) **نوازل ابن رشد** (مخ) ٩٥ق.

الصرافين[1]، أو قد تتخذ شكل بيع السلم[2] أو النسيئة[3]. وجرت العادة على توثيق بيع السلف[4]، فازدهرت صناعة التوثيق في القرن السادس[5]، وربما أخذ المسلف رهناً من المستلف[6]. والظاهر أن بيع السلف ساعد التجار على استغلال الزراع والاحتكار، لا سيّما للطعام، فيسلفون الزراع مستفيدين من اختلاف السعر في أول الموسم وآخره، فيخزنون المحاصيل وقت رخصها ويبيعونها عندما يرتفع السعر[7]. ومن هذا النوع من الاستغلال المرتبط بالاحتكار شراء التجار براءات الجند المرابطي للطعام قبل خروجه مستغلين حاجة أولئك الجند للمال[8]. ويظهر أن الاحتكار كان ظاهرة منتشرة أيام المرابطين[9] وصنهاجة الشرق حتى ان بعض « المرابطين » المتصوفة في الساحل التونسي كانوا يأخذون الطعام وقت رخصه ويتاجرون به أيام غلائه[10].

وهناك عاملان ساعد الأول منها على انتشار الغش في التجارة ويَسّر الآخر سيطرة الصرافين على الأسواق وعقد إجراءات التجارة. والعاملان هما اختلاف الموازين والمكاييل، وتعدد العملة واختلافها.

(١) بسبب تعامل الصرافين بالربا تحرز بعضهم في شأن تعليم أولاده مع أبناء الصرافين (**المعيار** ١٢:٤٤)؛ وانظر كيف يرى ابن عبدون وجوب منع الصرافين عن التعامل بالربا في **رسالة ابن عبدون** ٥٨.

(٢) **نوازل ابن رشد** (مخ) ٩٥ق، **المعيار** ٦:٧٥، ١٨٨.

(٣) كأن يبيع أحدهم داراً بمائة دينار ثم يشتريها البائع من المشتري بمائتي دينار الى عام (انظر **نوازل ابن رشد** (مخ) ١٠١و، **المعيار** ٦:١٣٧).

(٤) **التشوف** ٣٣٣.

(٥) المنوني: **العلوم والآداب** ٦٥.

(٦) **المعيار** ٦:٧٥.

(٧) **نوازل البرزلي** (مخ) ١٠٨ق، **المعيار** ٦:٢١٤ وما بعدها؛ وفي حالة واحدة تورع زاهدان عن استغلال بعضهما اذ اسلف أحدهم آخر سلعة قيمت بـ٦٠ ديناراً وردها له وقت تدني السعر وكانت تساوي ٤٠ ديناراً (**بغية الملتمس** ١٥٧).

(٨) انظر عباس: « نوازل ابن رشد » ٢١.

(٩) تشير كتب الحسبة الى الاحتكار وأثره في ارتفاع الأسعار ولهذا تقترح منعه (**رسالة ابن عبدون** ٤٢، **رسالة السقطي** ١١، ٣١، ٣٤).

(١٠) **المعيار** ٧:١٥٩.

أ ـ الموازين والمكاييل

أكثر ما يستعمل في المغرب من الموازين الأوقية والرطل والقنطار والربع والعدل، ومن المكاييل المد والوسقة والقلة والقفيز والصحفة والقفة، لكنها تقوم على العرف، وهي مقادير اصطلاحية تختلف من بلد لآخر[1]، كما أن بعض الموازين والمكاييل يقتصر استعمالها على منطقة واحدة لا يتعداها مثل القرصة الإشبيلية[2] والملت المراكشي[3] وسطل البلاد الغربية[4]. ولم تبذل دول المغرب في القرن السادس جهداً لتوحيد هذه الموازين والمكاييل[5]، ولهذا ترى التجار في معاملاتهم ينصون في وثائق البيع والشراء على نوع الكيل أو الوزن[6]. ولكن ما كان يثير النزاع بين التجار أن بعض السلع تباع كيلاً ووزناً[7] وبعضها تقديراً بلا وزن[8]. كما استغل التجار فوضى المكاييل والموازين في العصر المرابطي استغلالاً أضر بمصلحة المستهلك، فكانوا يغشون في مقاديرها أو يستعملون الحجارة بدلاً عن صنج الحديد، حتى ان كتب الحسبة في هذه الفترة لتزخر بالأمثال عن أساليب

(١) **الدوحة المشتبكة** ٨١. وانظر كيف يختلف الرطل في جيان واشبيلية ومالقة والخضراء والقيروان وساحل تلمسان وفاس (راجع عنه **نوازل ابن رشد** ٢٣و، **طبقات الأطباء** ٢:٦٨، **رسالة السقطي** ٢٧، ٣٧، البكري، **المغرب** ٢٧، ٨٩، ٩١، **الاستبصار** ١٨٤-١٨٥). وعن اختلاف الاخر انظر البكري، **المغرب** ٢٠، ٢٦، ٢٧-، ٦٢، ٦٩، ٨٩، ٩٩، ١١٢، ١٢٣، ١٣٤، ١٤٥، ١٥١، ١٦٢، **رسالة السقطي** ١٣، ٢٨، **المن بالامامة** ٤٥١، ٥٠٩، ٥١٢، **التشوف** ٣٨٣، **بيان موحد** ١٣٥، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٢٩ق، ٤٦ق، **صبح الأعشى** ٥:١١٤، ١٧٧، **نوازل ابن رشد** (مخ) ٢٣ق.

(٢) **الذيل والتكملة** ٥:٦٦٩.

(٣) **المصدر ذاته** ٥:١:٤٠٢.

(٤) أخبار المهدي ٩١، **البيان المغرب** ٤:٩٩.

(٥) حاول المعز بن باديس في القرن الخامس قطع مكاييل الفاطميين وموازينهم (انظر عنها **كتاب الجغرافية** ١٠٩)، ووحد المرينيون في القرن السابع المكاييل والموازين في بلادهم (**الدوحة المشتبكة** ٨٦-٨٧).

(٦) مثاله في **نوازل ابن رشد** (مخ) ٢٣و، ١٣٦و، عباس: « نوازل ابن رشد » ٤٣.

(٧) انظر عن القمح والشعير (البيان المغرب ٤:٣٨-٣٩)، وعن الزيت (**روض القرطاس** ٣٨)، وعن بعض مشكلات ذلك **المعيار** ٦:٧٦ وما بعدها.

(٨) يباع الصوف بالجزة، وهي مختلفة الأوزان (**التقييد الأبي** (مخ) ٣٤ق-٣٥.

التجار هذه، وتقترح قطع كل ذلك[٩] وتقترح على الخشب أن يسم الأكيال والموازين بيسم معلوم عنده[١]. ولا ترد مثل هذه الشكوى عن العصر الموحدي مما يدل على أن ضبط الموحدين للتجارة الداخلية وأسواقها قد أثمر في هذا المجال.

ب ـ العملة

كانت العملة المغربية في القرن السادس تقوم على أساس المعدنين: الدينار أو المثقال الذهبي، والدرهم الفضي. ومن الدرهم قد يضربون أنصافاً وأرباعاً وأثماناً، أو تضرب منه وحدات تعرف بالقراريط والخراريب[٢]. ولكن المتعاملين بهذه العملة يواجهون ثلاث مشكلات كانت تعقد العملية التجارية وتطلق أيدي الصرافين ليتحكموا في الأسواق؛

أولاً: تختلف أسعار العملة باختلاف أسعار الذهب والفضة من وقت لآخر حسب العرض والطلب. فالدينار المرابطي قد يصرف باثنين وسبعين حبة من الذهب، وفي وقت آخر قد يصرف بستة وسبعين حبة[٣]. وتتفاوت نسبة الدرهم الى الدينار المرابطيين باختلاف سعر الذهب والفضة، فقد يصرف الدينار بـ ٢/١ ١٢ درهماً أو أربعة عشر أو ستة عشر أو عشرين درهماً[٤].

ثانياً: لم يقدم الصنهاجيون الشرقيون ولا المرابطون على توحيد العملة، فعلى الرغم من أن المعزّ بن باديس قد قطع عملة الفاطميين لما انفصل عنهم[٥]، وفعل

(١) راجع **رسالة ابن عبدون** ٣٧-٤٢، ٥٩، **رسالة السقطي** ١٠، ١٢، ١٣، ١٦، ١٨، **رسالة ابن عبد الرؤوف** ٨٨، ١٠٦.

(٢) راجع عن استعمال هذه الأجزاء **نوازل ابن رشد** (مخ) ٥٦و، **المعجب** ٢٠٧، **الحلة السيراء** ٢:٢٤٨-٢٤٩، **البيان المغرب** ٤:٤٣، **أعمال الأعلام** (ط. ليفي) ١٧٤. وقد يطلق على الدراهم مطلقاً القطاع (**أمثال العوام** (مطبوع) ٧٩، ١٠٤).

(٣) **نوازل ابن رشد** (مخ) ١٢٣ق، **نوازل البرزلي** (مخ) ١٧٧ق، **المعيار** ٨:١٩٧.

(٤) **نوازل ابن رشد** (مخ) ١٠١ق، ١٠٢و، ١٣٣و، **نوازل البرزلي** (مخ) ١٨٧ق، **المعيار** ٦:١٣٦.

(٥) **كتاب الجغرافية** ١٠٩.

الشيء ذاته يحيى بن العزيز الحمادي[١]، فقد تعددت العملات المتداولة في البلاد الشرقية من صفاقسية وطرابلسية وأفريقية وبلية ولواتية[٢]. ولم يختلف الوضع عند المرابطين عن معاصريهم الصنهاجيين، فقد ضرب ابن تاشفين الدنانير في سنة ١٠٧٢/٤٦٤[٣]، ودخل الدينار المرابطي في تعامل أهل الأندلس وديارُهم لم تخلص للمرابطين بعد[٤]؛ غير أن المرابطين لما وحدوا البلاد الغربية والأندلسية تركوا عملة دول الطوائف متداولة طوال العصر المرابطي، فتجد الدنانير العبادية والشرقية (نسبة الى شرق الأندلس) والثلثية في التعامل التجاري جنباً الى جنب مع المرابطية، مع أن العبادية أقل من المرابطية، والثلثية أقل من العبادية، والشرقية أقل من الثلثية وزناً وعياراً، وقد كانت الشرقية مشوبة بالنحاس[٥]. هذا بالإضافة الى أن المرابطين قد ضربوا الدراهم من الفضة في جميع دولتهم، وكانت متفاوتة في الوزن[٦]، كما ضربوا دراهم نحاسية[٧]. ولما استقل ابن مردنيش بشرق الأندلس في سنة ١١٤٧/٥٤٢ أضاف دنانير جديدة هي المردنيشية[٨]. والراجح أن الموحدين

(١) **زبدة التاريخ** (مخ) ٣:١٧، **العبر** ٦:١٧٧، وروايته عن ابن حمادة؛ غير أن ابن خلدون يورد رواية أخرى لابن حمادة نفسه تقول بأن ذلك كان في امارة المنصور الحمادي (**العبر** ١:٢٦٢).

(٢) **نوازل البرزلي** (مخ) ١٧٣و، **المعيار** ٦:٢١٢.

(٣) ضربها باسم أبي بكر بن عمر (**البيان المغرب** ٤:٢٢)، وبعد الزلاقة ضرب يوسف بن تاشفين العملة باسمه وحده (**المصدر ذاته** ٤:٤٦، **روض القرطاس** ٨٨).

(٤) **التبيان** ١١٥.

(٥) انظر **نوازل ابن رشد** (مخ) ١٧٢و، ٢٣و، ٥٦و، ٧٦ق، ١٠٢و، ١١٣و، **نوازل البرزلي** (مخ) ١٧٢و، **المعيار** ١:٣١٢، ٦:٥٨. وعن عملة دول الطوائف انظر Rivero, C. M., "Resena historico numismática del reino de Murcia..." pp. 566 sqq.

(٦) Lavoix, H., **Catalogue de monnaies musulmanes,** pp. 536 sqq.

وعلى سبيل التمثيل من المفيد أن نشير أن الدراهم المرابطية من ضرب مراكش تكون من حساب عشرين درهماً في الاوقية، وهو المسمى بالجوهري (**البيان المغرب** ٤:٢٢)، بينما ضرب غرناطة يكون من حساب سبعين درهماً في الاوقية (**المعيار** ٦:٣١٠، ٣١٧).

(٧) انظر الاشارة الى ذلك في **المعيار** ٦:١١٧، **رحلة بنيامين** ١٥٤.

(٨) راجعها عند Lavoix, H., **Catalogue de monnaies musulmanes,** pp. 276-286.

قطعوا التعامل بهذه العملات جميعاً، إذ لا ترد غير إشارة واحدة عن استعمال الدنانير المرابطية في البلاد الأندلسية في وقت لم تكن فيه السيطرة عليها قد تمت للموحدين بعد، وقد جاءت الإشارة في قضية فداء مع نصارى إسبانيا[1]. غير أن هذا القول لا يعني أن المغرب في العصر الموحدي لم يعد يعرف مشكلة اختلاف العملة وتعددها، فمنذ البداية كانت الدراهم الموحدية تضرب في جميع عواصم الولايات مختلفة الأوزان[2]، ويبدو أن الموحدين قد أكثروا من ضرب الدراهم وأجزائها خاصة بعد استثمار معادن الفضة في خلافة يوسف، ولم تعد هناك شكوى من قلة الصرف كما كان الحال أيام أبيه عبد المؤمن[3]. وفي خلافة المنصور لم يعد اختلاف العملة وقفاً على الدرهم وتعداه الى الدينار، إذ ان المنصور ضاعف وزن الدينار الموحدي[4] الذي كان وزنه واحداً في كل المغرب ولا يضرب إلا في فاس. وهناك إشارتان الى دينار أو مثقال يزن عشرة دنانير أو عدداً من

(١) انظر الاشارة الى ذلك في **المن بالامامة** ٣٩٣؛ وقد قرأ المحقق الكلمة « جشمية » بمعنى الزائفة، لأنها كانت حالة فداء وكان الموحدون يغشون العملة في بعض حالات الفداء؛ غير أنني أميل الى قراءتها « حشمية » بمعنى مرابطية، لأن الأندلس لم يكن قد خلص للموحدين بعد حتى يقطعوا العملات الأخرى، هذا بالاضافة الى أن نصارى اسبانيا في الوقت ذاته كانوا يتعاملون مع ابن مردنيش على أساس العملة الحشمية أي المرابطية (انظر **أعمال الاعلام** (ط. ليفي) ٢٦٠).

(٢) انظر .Bel, A, "Contribution..." pp. 19-20. وكان درهم المهدي في مراكش من حساب عشرين درهماً في الاوقية (**الدوحة المشتبكة** ٤٩)، بينما كان في غرناطة من حساب سبعين درهماً في الأوقية (**الاحاطة** ١٤٣:١). وهذه المقادير هي المقادير المرابطية نفسها في المدينتين، فكأن الموحدين ترسموا خطى المرابطين في بداية الأمر ثم اختلفوا عن ذلك، اذ يروى أن درهم عبد المؤمن نصف درهم النصاب (**المعجب** ٢٣٠). ويذكر أن المنصور ضرب درهمين جديدين (**المصدر ذاته** ٢٨٧)، ويبدو أن وزن أحدهما كان ٢٨ حبة من الشعير الوسط، وهو ثلث دينار المنصور الجديد (انظر رواية ابن القطان عند ابن الحكيم في **الدوحة المشتبكة** ٢٨، وأيضاً راجع **ذكر مقدار النصاب** (مخ) ٤١و-٤١ق). ويشير ابن الخطيب الى الدنانير العشرية (**الاحاطة** ١٨٥:١)، ويرجح ماسينيون أن هذا الدينار يساوي عشرة دراهم (Massignon, **Le Maroc**, p. 102) وهو ترجيح معقول لاختلاف أوزان الدراهم.

(٣) **المعجب** ٢٠٧.

(٤) **بيان موحد** ١٥٤؛ ويرى مؤنس أن الدينار الموحدي كان يساوي ٢,٣٥ غراماً، ولما ضاعفه المنصور أصبح يساوي ٤,٧٠ غراماً (**الدوحة المشتبكة** ٤٩، الحاشية ١). وفي تقدير ماسينيون أنه يساوي ٤,٧٢٩ غراماً، أي بزيادة ٠٠٤ غراماً عن الشرعي Massignon, **Le Maroc**, pp. 102-103

الدنانير[1]. ونتيجة لاختلاف الدنانير والدراهم تختلف نسبة الدرهم الى الدينار حسب مكان ضرب الدرهم ونوع الدينار.

ثالثاً: كانت الدراهم، في أيام المرابطين وصنهاجة الشرق، تقرط حتى ان الدرهم ليصير نصف درهم في القيمة[2] وفي العصر الموحدي قبض على عدد ممن يزوّرون الدراهم الموحدية[3]. وقد اثبتت دراسة الدراهم المكتشفة قرب تلمسان أن التزوير لا يكون تقليداً للعملة الموحدية فحسب، بل عادة ما يكون بإضافة معادن رخيصة الى فضتها[4]، كما لم يكن التزوير وقفاً على رعايا الموحدين وحدهم إذ ان نصارى إسبانيا كانوا يزورون العملة الموحدية أيضاً[5]. ويبدو أن الدولة الموحدية أسهمت بشكل من الأشكال في الارتباك الناتج عن تزوير العملة، إذ ضرب يوسف ٣٦ ألف دينار من الصفر مموهة لما طالبه العرب في البلاد الشرقية بفداء واليها[6]، ويبدو أن تدليس العملة كانت عادة عند خلفاء الموحدين كلما طولبوا بفداء[7].

لقد عقّدت هذه العوامل الثلاث إجراءات التعامل التجاري، ولئن وجد بعض التجار حلاً لعدد من المسائل التي تنشب بسبب هذه العوامل وذلك بتحديد صرف يوم البيع ونوع العملة ومكان ضربها في وثائق بيوعاتهم[8]، فان هذا لم يحل دون تحكم الصرافين في الأسواق، لأن الصرافين كانوا يعملون في الذهب والفضة وبذلك يتحكمون في نسبة الدرهم الى الدينار. أضف الى هذا أن تفاضل العملات وقضايا تزويرها كانت تتطلب معرفة العيار والوزن، وهذا من

(١) انظر عن الأولى **الاستبصار** ١٦١ وعن الثانية **العبر** ٦٤:٦.

(٢) انظر **المعيار** ٣١٠:٦، ٣١٧.

(٣) راجع عنهم **العطاء الجزيل** (مخ) ١٣٩، **التشوف** ٢٢٩-٢٣٠.

(٤) Bel, A., "Contribution...", p. 5.

(٥) Bel, A, "Contribution...", p. 7; Mateu, "Hallazgos numismáticos musulmanes," **Al-Andalus**, XV (1950) p. 219

(٦) **المعجب** ٢٧١.

(٧) انظر كيف شرط على الموحدين في موضوع فداء أن يكون الدفع بدنانير ذهب عتيقة (**العبر** ١٩٥:٦).

(٨) انظر أمثلة في **نوازل ابن رشد** (مخ) ١٣٤و، **المعيار**: ١١٦:٦، ١٣٦-١٣٧، ١٨٨.

اختصاص العاملين في الذهب والفضة. والراجح أن الصرافين في النصف الأول من القرن السادس كانوا يستغلون جهل كثير من الناس، ولما كانت العملات قد تباع عدداً[1] أو وزناً[2]، تجد الصرافين يبيعون العملات المتفاضلة وزناً وعياراً مراطلة[3]. والظاهر أن هذا قد انتشر في العصر المرابطي حتى ان ابن عبدون ليقترح منع الصرافين عن التعامل بغير سكة البلد التي يعملون فيها، لأن اختلاف السكك داعية لفساد النقد وزيادة الصرف واختلاف الأحوال عن عادتها[4]. ولا يظهر استغلال الصرافين وغشهم في العصر الموحدي إلاّ في أيام الفتن[5]. ولكن بسبب حاجة الناس اليومية الى التعامل بأجزاء الدراهم، فإن الصرافين كانوا في كل سوق، سواء في العصر المرابطي أو الصنهاجي أو الموحدي[6].

طرق التعامل في التجارة الخارجية

كانت التجارة مع السودان تقوم على المقايضة[7] بين التجار المغاربة والسودانيين في منطقة « الساحل » الصحراوي و يدخل السودانيون الى مناطق

(١) انظر أمثلة في **المعيار** ٦:٣١٠، ٣١٧، ١٠:١٦.

(٢) راجع **المعيار** ٥:١٠، ٦:٣١٠، ٣١٧.

(٣) انظر أمثلة في **نوازل ابن رشد** (مخ) ١٠٢و، ١١٣و، **نوازل البرزلي** (مخ) ١٧٢و، ١٧٣و، ١٧٥ق، **أحكام فساد الدراهم** (مخ) ١٤، **الجواهر المختارة** (مخ) ٢:٧٥، **المعيار** ٦:٢١٢.

(٤) **رسالة ابن عبدون** ٥٨. ومن وصف ابن عبدون لميزان العملة والتأكيد على مراقبته من قبل المحتسب يبدو أن الصرّافين كانوا يغشون في الميزان في زمن ابن عبدون (**رسالة ابن عبدون** ٤٠).

(٥) مثاله في **بيان موحد** ٣١٥-٣١٦.

(٦) انظر عنهم **نوازل ابن رشد** (مخ) ١٠٢و، ١١٣و، ١١٨و، **نوازل البرزلي** (مخ) ١٧٢و، ١٧٣و، ١٧٥ق، **رسالة ابن عبدون** ٥٨، **المعيار** ٦:٢١٢-٢١٩، **التشوف** ٢٢٥، **نفح الطيب** ٣:٢٦٦.

(٧) راجع البكري، **المغرب** ١٧٣، **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١١، **الاستبصار** ٢١٧، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٢٥و.

الإنتاج الاستوائية[1]؛ ولما كان السودان مصدر الذهب الأساسي بالنسبة للمغرب فقد كانت أكثر المقايضة تقوم على الذهب[2].

وأما التجارة مع المشرق والبلاد الأوربية فقد كانت قائمة على العملة الذهبية. وعندما يدخل التجار المغاربة الى هذه الأقطار يحملون العملة المغربية الى دور الضرب فيها و يسكونها لتعادل سكة البلد الذي يتاجرون فيه[3]. ولا يعرف أن التجار الأجانب كانوا يفعلون الشيء ذاته عندما يدخلون الى المغرب، باستثناء إشارة واحدة تعود الى العصر المريني[4]. و يبدو أن المغاربة لم يكونوا يطلبون ذلك، لأن عملتهم كانت نازلة عن سكك معاصريهم باستثناء صقلية، حيث يعاد سبك الدنانير المغربية بإضافة فضة إليها لتعادل سكة صقلية[5]. وقد كان الدينار المرابطي أقل من الفاطمي[6]، و يساوي الدينار « الأميري العراقي » ديناراً وثلثاً مرابطياً[7]؛ وضرب نصارى إسبانيا ديناراً يساوي دينارين مرابطين[8].

(١) انظر عن هؤلاء الوسطاء السودانيين بين المغاربة ومراكز الانتاج الاستوائية Levtzion, H., **Ancient Ghana and Mali,** pp. 133, 134-5, 150 154-6, 164; Wilks, I, "A Medieval Trade Route from the Niger to the Gulf of Guinea", pp. 337-41; Goody, J.,"The Mande and the Akan Hinterland", pp. 193-218.

والجدير بالذكر أن الدراسات الحديثة تنفي التجارة الصامتة بين السودانيين فضلاً عن المغاربة (راجع Hopkins, A.G., **An Economic History of West Africa,** p. 67; Sundstrom,L., **The Trade of Guinea,** pp. 22-31, 68).

(٢) انظر ما يذكره البكري وصاحب الاستبصار عن التعامل بالذهب وقلة الفضة في السودان (**المغرب** ١٥٩، **الاستبصار** ٥٩، ٢١٥).

(٣) راجع **المعيار** ٦:٢١٢، وما يذكره ابن بعرة الذهبي عن مصر نقله مؤنس (**الدوحة المشتبكة** ٤٩ ج ١).

(٤) **الدوحة المشتبكة** ٥٥-٥٦، ٧٦.

(٥) **المعيار** ٦:٢١٢.

(٦) **الدوحة المشتبكة** ٤٩ ح ١ نقلاً عن **كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية** للمنصور بن بعرة.

(٧) **رحلة بنيامين** ١٥٤.

(٨) راجع مادة "Blanco" في Mateu, F.Y. LIopis, **Glosario hispànico de numismàtica.** وانظر عن الدينار المرابطي Hazard, **The Numismatic of Late Medieval North Africa,** pp. 48, 61, 96 sqq.

وكان الدينار المؤمني الموحدي يعادل نصف دينار مصري من ضرب صلاح الدين[١]. وإذا تذكر المرء أن المرابطين قد توفر لهم من ذهب السودان ما لم يتوفر للموحدين، حسبما سبق شرحه، ومع هذا كان الدينار المرابطي نازلاً عن كثير من العملات المعاصرة له، فحرّي أن يكون الدينار الموحدي في التعامل الخارجي أضعف من المرابطي، لا سيّما أن الموحدين قد أخفقوا في استخراج الذهب من باطن الأرض المغربية. ولعل ضعف الدينار الموحدي هذا في التجارة الخارجية يفسر لِمَ ضاعف المنصور في سنة ٥٨١/١١٨٥ وزن الدينار الموحدي[٢]، حتى أصبح معادلاً للدينار الأيوبي المضروب في مصر وقتذاك[٣]. كما أن ضعف العملة المغربية الذهبية في التجارة الخارجية يؤكد ما سبق شرحه من أزمة التجارة المغربية الخارجية، وربما كان إجراء المنصور محاولة من الموحدين لحل تلك الأزمة. ومن هنا يصعب الموافقة على الرأي القائل بأن الدينار المرابطي ثم الموحدي سيطرا على الأسواق الإسلامية والمسيحية في القرن السادس[٤] أو أن المرابطي منها كاد أن يصبح عملة دولية[٥].

والراجح أن التجار اليهود، مغاربة وغير مغاربة، كانوا يتعاملون فيما بينهم متخذين من الوكالة نظاماً؛ فالوكيل يوزع البضائع على الشركاء حال وصولهم، ويبيع لهم بضائعهم، ويقوم لهم مقام المصرف، إذ يودعون أموالهم عنده، وعن طريقه يتم الدفع المتوجب على أحدهم[٦]. بينما كان تجار المدن الإيطالية يودعون أموالهم في ديوان المشرف ومنها يدفع المشرف للتجار المغاربة. ولكن العلاقة بين

(١) رحلة ابن جبير ٢٤، ٣٠.

(٢) بيان موحد ١٥٤. والرواية تحاول أن تصور أن المنصور رأى أن الدينار الموحدي « يصغر عن مرأى ما ظهر بالمملكة من المنازع العالية ».

(٣) الدوحة المشتبكة ٤٩ ج ١ نقلاً عن كشف الأسرار العلمية لابن بعرة؛ وانظر أيضاً تعليقات مؤنس على ذلك.

(٤) عنه انظر Bel, A., "Contribution...", p. 6.

(٥) Lavoix, H., **Catalogue de monnaies musulmanes,** pp. xxx, xxxv.

(٦) هذه ظاهرة في التجارة اليهودية في القرن السادس، وقد درسها غويتين عن أوراق « جنيزة » القاهرة مع اشارات ذلك الى التجارة المغربية؛ راجع خلاصة لها في Goitein, **Jews and Arabs,** pp. 118-119

التاجر الأجنبي والمغربي كانت تقوم على الثقة المتبادلة، فلا تجد التاجر المغربي يتقيد بما يحتفظ التاجر الأجنبي من أموال في الديوان، فيبيعه بالسلف. وقد يتبع التاجر المغربي الطريقة ذاتها مع عميل أجنبي حديث، بضمانة آخر قديم موثوق به[١]. كما أن التاجر المغربي قد يشتري في جنوه ويدفع في وهران أو سبتة أو أي مرسى آخر ترسو فيه السفن[٢]. وفي حالة قيام الثقة أساساً للتعامل في التجارة الخارجية كثيراً ما تجد أن العلاقات الشخصية وتبادل الهدايا بين التجار مظهر من مظاهرها[٣].

الطرق التجارية

لقد تأثرت الطرق التجارية في المغرب خلال القرن السادس تأثيراً كبيراً بالتغييرات التي طرأت على مراكز الإنتاج الزراعي والصناعي والمناطق التي كثر سكانها نتيجة الهجرات إليها. وقد وجدت من المفيد استخلاص ثلاث خرائط، تمثل الأولى منها الطرق قبل الغزو الهلالي وقيام دولة المرابطين، والثانية توضح الطرق بعد أن ظهرت آثار هذين الحدثين بالاضافة لما ترتب عن الاحتلال النورماني لسواحل بني باديس من انعكاس على الطرق؛ أما الثالثة فتصور أوضاع الطرق بعد أن اتحدت بيئات المغرب الثلاث مع الموحدين. وكانت المادة التي أوردها كل من البكري والادريسي وصاحب الاستبصار خير أساس لهذه الخرائط، ذلك لأن البكري قد صنف مؤلفه في حدود عام ٤٦٠/١٠٦٧-١٠٦٨، أي قبل أن تتبلور الآثار التي نتجت عن الغزو الهلالي والفتح المرابطي، وكتب الادريسي في منتصف القرن السادس بعد أن وضحت تلك الآثار بالإضافة الى ما نتج عن الاحتلال النورماني، وصنّف صاحب الاستبصار كتابه في ختام القرن السادس بعد أن استتب الأمر للموحدين في المغرب لعقود خلت. وعلى

(١) انظر عن مثاله عند Amari, **Diplomi arabi,** pp. 48-49.

(٢) Krueger, H.C., "The Wares of Exchange..", p. 70.

(٣) Goitein, **Jews and Arabs,** p. 112; Amari, **Diplomi arabi,** pp. 48-49, 51-52, 55, 57-58.

الرغم من أن الجغرافيين يأخذون عن المصادر التي سبقتهم وقد لا يعبر ما يذكرونه عن فترتهم تماماً، فإن هذا التخوف ليس له ما يسوّغه بالنسبة لطرق المغرب في القرن السادس. ذلك لأن البكري يمثل لنا فترة ما قبل الغزو الهلالي، ويحرص على ذكر ما جدّ في زمانه، ومثله في هذا كل من الادريسي وصاحب الاستبصار، وسنبين ذلك في مواضعه. وعلى الرغم من ذلك فقد اعتمدت على المصادر الأخرى، إتماماً للبحث، لا سيّما بالنسبة للبلاد الأندلسية، حيث لم يصل إلينا ذلك الجزء من مسالك البكري الذي يختص بها، كما أن صاحب الاستبصار لا يشملها في كتابه، ومن هنا كان الاعتماد على نفح الطيب والروض المعطار واستخلاص ما ينقلانه عن الرازي والزهري لمعرفة الطرق قبل العصر المرابطي، والاعتماد عليها بالإضافة الى كتاب الجغرافية وكتاب جغرافية ابن سعيد لدرس حال الطرق في العصر الموحدي.

الطرق البرية

لما كانت مراكز الإنتاج في البلاد الشرقية قبل الغزو الهلالي قد تركزت في المناطق الداخلية فقد كانت الطرق الرئيسية داخلية وليست بساحلية. وكانت كثيفة عند القيروان وقلعة حماد والمسيلة، إذ كانت المدينتان الأولى والثانية قاعدتي البلاد الشرقية، بينما تمثل المسيلة مركز التقاء الطرق الصحراوية والجبلية والسهلية عبر وادي شلف الى الساحل. ويلاحظ بوضوح أن الطريق الداخلي يبدأ ساحلياً من طرابلس الى صفاقس ثم يتجه الى الداخل في اتجاهه نحو القيروان ومنها يتفرع الى ثلاث شعب لا تلتقي إلاّ عند المسيلة: طريقان عبر هضاب تل أطلس والثالث عبر البلاد الجريدية والزاب. وهذه كانت مناطق الإنتاج الزراعي والصناعي قبل الغزو الهلالي. ومن المسيلة يتابع الطريق سيره الى تنس عبر وادي شلف أو قد يسلك طريقاً عبر هضبة تاهرت الى تلمسان. ولا يظهر طريق ساحلي يربط بين مدن الساحل التي لم تكن لها أهمية إلا بمقدار اتصالها بالمدن الداخلية حتى ان قلعة حماد لا تتصل بالساحل إلا عن طريق المسيلة[1]. وهكذا لم

(١) مع أن البكري يذكر بداية بجاية الا أنه يحدد عمرانها بخراب القيروان (**المغرب** ٤٩، ٨٢).

طريق الساحل من تنس الى طرابلس[1] وازدهرت مدنه تجارياً خاصة بجاية وتونس وطرابلس[2].

وبما أن الطريق البري مع المشرق كان يعبر البلاد الشرقية التي لم تعرف الأمن في مناطقها الداخلية طوال القرن السادس، فمن البديهي أن يكون هذا الطريق غير آمن، وأن لا يستعمل كثيراً، خاصة أن المنطقة الى الشرق من طرابلس لم تدخل ضمن حدود دولة الموحدين، وتفردت القبائل الهلالية بالسيطرة عليها، فقطعت الطريق على التجار، وسلبت أموالهم وهددت حياتهم[3]. فلا عجب بعد هذا أن يؤثر أهل جبل نفوسة التوجه الى المشرق بحراً من الساحل التونسي، مع أن البحر نفسه لم يكن آمناً تماماً[4].

إن قلة الإنتاج في البلاد الغربية قبل قيام المرابطين وإخفاق زناتة في حفظ الأمن في السهول الغربية أديا الى أن تكون البلاد الغربية منطقة مرور لتجارة عبر الصحراء، إما الى البحر المتوسط أو إلى المشرق. وكانت الطرق جبلية بصفة عامة وتتركز في ثلاثة مراكز تجارية هي فاس وأغمات وتلمسان، ومنها تنطلق الطرق جبليةً الى مراكز الخروج الى السودان مثل سجلماسة ودرعة وتامدلت ونول. كما تدل كثافة الطرق الجبلية بين سجلماسة وتلمسان على أنها كانتا المركزين الرئيسيين في تجارة السودان في الفترة التي سبقت قيام المرابطين[3]. ويلاحظ قلة الطرق في السهول ما عدا في المنطقة الواقعة شمال وادي سبو، وتنتهي طرقها عند

(١) كان الجيش الموحدي يسلك هذا الطريق اذا ما عدم ضبط المناطق الداخلية (انظر مثاله في **بيان موحد** ٢١٤).

(٢) انظر عن ازدحام أسواق تونس **الاستبصار** ١٢١، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤و، ٣١و. ويقول صاحب الاستبصار أن طرابلس ازدهرت تجارياً الا فترة فتنة اليورقي وحلفائه فيها (راجع **الاستبصار** ١١٠، ١١٢)؛ وانظر أيضاً عن تجارتها **التذكار** (مخ) ٤٠ق.

(٣) **نزهة المشتاق** (ط. د.) ١٨١، ١٨٣، ١٨٦، **كتاب الجغرافية** ١٢٨، **المعجب** ٣٤٧-٣٤٨، **العبر** ٦:٧٢.

(٤) راجع **المعيار** ٩:١٥١، ٣٤٣-٣٤٤.

(٥) انظر البكري، **المغرب** ٧٧، **نفح الطيب** ٥:٢٠٥.

فاس فتصبح جبلية أيضاً. وليس من اتصال بين الساحل والمناطق الداخلية في سوى هذه المنطقة إلاّ طريق أغمات ورباط فوز.

ولما كثر الإنتاج الزراعي والصناعي في سهول البلاد الغربية ومنطقة السوس في أواخر العصر المرابطي وعصر الموحدين خلال القرن السادس، تغيرت أوضاع الطرق أيضاً، إذ ربطت بين مراكز الإنتاج والاستهلاك الجديدة وجاءت طرقاً سهلية متجهة نحو الساحل بصورة غالبة. فظهر طريق ساحلي يربط بين نول وتنس في العصر المرابطي[1] مع ظهور سلا كملتقى للطرق السهلية والجبلية (من تادلا) والساحلية فأصبحت أهم مركز للتجارة في الساحل الغربي حينذاك[2]. وتأكد دور هذا الطريق في العصر الموحدي في التجارة المغربية مع بروز دور أزمور[3] وأسفي[4] وسلا[5] وقصر عبد الكريم[6] وسبتة[7]. وهكذا أصبح طريق الساحل الموحدي يمتد من نول في البلاد الغربية عبر سبتة وبادس ووهران وتنس الى طرابلس[8]، فكثر استعماله الى جانب الطريق الجبلي بين فاس وتلمسان، وهو ما سنوضحه بعد قليل.

وقد تحولت التجارة نحو السهول الغربية بظهور طرق جديدة تربط بين

(١) يسميه البيذق « الطريق الكبير » (**أخبار المهدي** ١١٣).

(٢) عن تجارتها في هذه الفترة انظر **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٧٣.

(٣) **كتاب الجغرافية** ١١٥.

(٤) **باكورة الزبدة** (مخ) ٤-٥.

(٥) عن سلا ملتقى انظر Célérier, "l'Atlas et la circulation au Maroc" p. 442.
وقد كانت الحملات العسكرية الموحدية سواء الى البلاد الشرقية أو الأندلسية لا تمر الا بها (انظر موسى: **تنظيمات الموحدين** ٢٩٤).

(٦) انظر أسواقها في **الاستبصار** ١٨٩، وقارن ذلك بما كانت عليه أيام المرابطين (**نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٦٩).

(٧) لقد أصبحت مركز توريد وتصدير كبير (**تكميل زهر الرياض** (مخ) ٢٧و، ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٣٩)، حتى ان الذي انتزى بها في طور الانحلال الموحدي كان من أكابر تجارها (**بيان موحد** ٢٧٦).

(٨) والجدير باذكر أن المراكشي لا يشير الى الطرق الداخلية الا في البلاد الغربية، بينما يحرص على ذكر الطريق الساحلي من طرابلس الى سواحل المحيط (انظر **المعجب** ٣٤٩-٣٥٤).

الأسواق التي جدت في الفترة المرابطية مثل مراكش ومكناسة[1] ومكول[2]. وتكرس هذا التغير في العصر الموحدي بازدهار مكناسة[3]، واختفاء دور أغمات التجاري، وتفرُّد مراكش بذلك الدور[4] بعد أن كان المرابطون قد احتفظوا بها مركزاً تجارياً على الرغم من تأسيسهم لمراكش عاصمة سياسية بالقرب منها[5].

وتجدر الإشارة الى أن تحول التجارة الى السهول الغربية في القرن السادس لم يؤثر على وضع تلمسان وفاس التجاري في الوقت الذي أثر ذلك التحول تأثيراً كبيراً على مراكز الدخول الى السودان، وذلك لأن المرابطين ثم الموحدين حافظوا على تلمسان مركزاً للإنتاج الرعوي، خاصة الخيول. كما أن تلمسان ظلت طوال القرن السادس منفذاً أساسياً لتجارة البلاد الغربية مع البلاد الشرقية براً وتجارة البحر المتوسط[6]، لا سيّما أن موانىء الساحل الأطلسي لم تدخل مجال التجارة العالمية إلاّ في أواخر العصر الموحدي حسبما سيتضح فيما بعد. ولهذا ظل الطريق الذي يصل بين تلمسان وفاس عبر تازا طريقاً تجارياً هاماً طوال القرن السادس، وقد أسس المرابطون حصن تازا حياطة عليه[7]. ومما يدل على أهمية هذا الطريق أن آجر سيف قد أصبحت مدينة في العصر المرابطي[8]، كما تحولت تازا من حصن الى مدينة كبيرة في الفترة الموحدية[9]. أما فاس فلم تحافظ على مركزها كملتقى

(١) **نزهة المشتاق** (ط.د) ٧٧.

(٢) **المصدر ذاته** ٧٢.

(٣) لقد اتسعت تجارتها وزاد سكانها حتى أصبحت فيها تسع خطب (**الاستبصار** ١٨٧-١٨٨).

(٤) **الاستبصار** ٢٠٧، وربما تمّ ذلك في خلافة المنصور الذي وسّع مراكش وبنى أسواقاً جديدة (انظر المصادر المذكورة فيما سبق ص ٣٣٠، الحاشية ٤)؛ وعن كثرة سكان مراكش وتجارتها انظر **بيان موحد** ١٢٦.

(٥) سبقت الاشارة الى أن المرابطين لم يسمحوا لليهود بالاقامة في مراكش فظلوا مقيمين في أغمات. وعن أغمات المرابطية وتجارتها انظر **نزهة المشتاق** (ط.د.) **كتاب الجغرافية** ١١٧، الفاسي: « ابن الياسمين ــ أبو حفص عمر » ١٤.

(٦) انظر **نزهة المشتاق** ٨٠-٨١، ٨٢، **الحلل الموشية** ١١١، **نفح الطيب** ٥:٢٠٥.

(٧) **كتاب الجغرافية** ١١٤.

(٨) **الروض المعطار** (نور عثمانية) ٨و.

(٩) **الاستبصار** ١٨٦.

طرق كبرى فحسب، بل ان تجارتها قد ازدهرت أيام المرابطين[١]، واستمر ذلك مع الموحدين[٢].

ويبدو أن تحول التجارة في القرن السادس الى السهول الغربية، وخاصة الجزء الساحلي منها، أثر تأثيراً كبيراً على أوضاع مراكز الدخول الى السودان، فتقلصت الطرق الجبلية التي كانت تربط سجلماسة وتلمسان مع العلم أن تلمسان قد ظلت مزدهرة تجارياً في القرن السادس. ولم تعد درعة مدينة بل أصبحت قرى متصلة ولكنها عامرة[٣]، وشاركت نول وايجلي واركي في التجارة الى السودان بدور كبير خلال العصر المرابطي، ورجحت كفة هذه المدن على سجلماسة في العصر الموحدي[٤]، ذلك لأن نول واركي وايجلي قد كانت قريبة من مناطق الإنتاج الزراعي والصناعي في السوس. ولم تظهر أهمية سجلماسة في القرن السادس إلا أثناء معارك الثورة الموحدية التي احتلت جبل درن وفصلت مراكز الدخول الى السودان عن السهول الغربية، فربط الملثمون سجلماسة بالبهنسا في مصر سنة ٥٣٠/١١٣٥-١١٣٦ بطريق صحراوي قليل ماؤه ولا يسلك إلا بدليل[٥]. ونتيجة لتحول تجارة عبر الصحراء نحو الشرق ظهرت طرق كثيرة تتجه الى وركلان.

أما الناظر في الطرق البرية في البلاد الأندلسية خلال القرن السادس فلا يلمح تغييراً على أوضاع الطرق قبل فترة الدراسة هذه وأثناءها، وذلك لأن مدن

(١) لم تؤثر مقتلة المرابطين حين فتحوها ولا الحرائق التي تلتهم أسواقها في تجارتها (انظر **البيان المغرب** ٤:٢٨، **نظم الجمان** ٢٤٦؛ وقارن ذلك بما في **نزهة المشتاق** (ط.د) ٧٥-٧٦ **كتاب الجغرافية** ١١٢).

(٢) يدل عل ازدهارها التجاري هجرة التجار اليها (انظر أمثلة في **التكملة** ١:١١٠، ٢:٩٠٢، **الذيل والتكملة** ١:٣٤٧، **جذوة الاقتباس** ٦٩)، وكثرة سكانها وما يتطلبونه من أشياء (انظر عنهم **الاستبصار** ١٨١، وعن تجارتها **المعجب** ٣٥٨). وقد أورد ابن أبي زرع احصاء من العصر الموحدي عن فاس، ويظهر أنه كان في فاس سبعمائة مسجد و٩٣ حماماً و٤٦٧ فندقاً و٩٠٨٢ حانوتاً (روض القرطاس ٢٥-٢٦).

(٣) **نزهة المشتاق** (ط.د) ٦١.

(٤) قارن المصدر ذاته ٥٩-٦١ **بكتاب الجغرافية** ١١٧-١١٨.

(٥) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٦٢-١٦٣.

البلاد الأندلسية قد كانت متقاربة وطرقها ممهدة منذ أمد طويل والمسافر فيها لا يحتاج الى زاد لتوفره في جميع المنازل المعروفة[١]؛ وقد روي أن ضفتي الوادي الكبير كانت مسرجة على امتداد عشرة فراسخ[٢]. وبالرغم من كثرة المرتفعات والأودية فقد كانت الطرق تربط جميع أرجاء البلاد الأندلسية، كما أن طريقاً برياً قد ربط بين مدن الساحل الأندلسي، وقد كان مطروقاً خلال القرن السادس. والتغيير الأساسي في طرق البلاد الأندلسية خلال القرن السادس إنما هو درجة استعمال طريق دون آخر اعتماداً على حالة الأمن ودرجة الإنتاج والاستهلاك. وقد كانت مراكز التجارة الأساسية في العصر المرابطي هي المرية[٣] وقرطبة[٤]

(١) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٢٠٨، **كتاب الجغرافية** ٨٠، **ابن الشباط** ١٠٠.

(٢) **كتاب الجغرافية** ٨٨.

(٣) منذ الزلاقة كانت المرية مركز التجارة الأساسي في الأندلس، وبلغت فنادقها أيام المرابطين ٩٧٠ فندقاً. وقد ساعد على ازدهارها التجاري أنها كانت مركز الأسطول المرابطي ومركزاً للاستشفاء له مواسم في الحَمّة قربها. ومنذ أن خرب الروم أسطولها وصناعتها وأسواقها في فترة الانتقال لم تقل بعدها العثرة في العصر الموحدي (انظر عن تجارتها **نزهة المشتاق** (ط.د) ١٩٨، **الروض المعطار** ١٨٤، **نفح الطيب** ١:١٦٣، ٣:٢٢٠، ٥٧١؛ وعن الأسطول حركات: **النظام السياسي** ٢٠٥؛ وعن الاستشفاء **فهرسة ابن عطية** (مخ) ١٣ق، **معجم الصدفي** ٢٤، ٢٥٩، **نفح الطيب** ١:٢٠٠-٢٠١، **نزهة المشتاق** (ط.د) ٢٠٠. وتخريب الروم لها **الكامل** ١١:٢٢٣، **المعجب** ٢١٠-٢١١ **وفيات الأعيان** ٣:١٠٧، **نفح الطيب** ٤:٤٦١، **بيان موحد** ٣٣، **نزهة المشتاق** ١٩٨، وعن حالتها في العصر الموحدي **العطاء الجزيل** (مخ) ٦١و).

(٤) كانت قرطبة مركزاً أساسياً للتجارة في العصر المرابطي (**نزهة المشتاق** (ط.د.) ٢٠٨)، وكانت مركز القيادة السياسية والعسكرية للمرابطين (انظر **روض القرطاس** ١٠١، ١٠٥، ١٠٦)، غير أنها خربت في فترة الانتقال وأخفقت جهود الموحدين في إحيائها (انظر **البيان المغرب** ٤:٩٣، **نظم الجمان** ٢١٧، **المن بالامامة** ٢٠٣-٢٠٦، ٣٥٦، **بيان موحد** ٥٣، ١٤٠، **الحلة السيراء** ٢:٢٥٩). فقد كانت في أيام المنصور ابن أبي عامر تضم ٢١ ربضاً، وحماماتها ٣,٧١١، ومساجدها ١٣,٨٧٠، فتدنى ذلك في القرن السادس الى ٧١١ حماماً، و٣,٨٧٧ مسجداً، وانتهت أرباضها (انظر مؤنس: « وصف جديد لقرطبة الاسلامية » ١٦٨-١٧١).

وغرناطة[١]، وأصبحت في العصر الموحدي إشبيلية[٢] ومالقة[٣] ومرسية[٤].

لقد كان المغرب يتصل بمراكز التجارة في إسبانيا ـ وعبرها الى أوربا ـ[٥] من مراكز تنطلق من ثغور وادي يانة ونهر شقر وهي قصر أبي دانس وبطليوس وماردة وقلعة رباح[٦] وكونكة الى قلمرية واشبونة وطليطلة وبرشلونة ومن بلنسية براً مع الساحل الى برشلونة. ولكن وعورة الطرق[٦] وحالة الحرب جعلا التجارة البحرية أمراً أيسر، خاصة مع وجود الوسطاء مثل تجار المدن الإيطالية.

الطرق النهرية

يغلب على طبيعة أنهار المغرب عدم الصلاح للملاحة. فلا تجد نهراً في البلاد الشرقية يستخدم في النقل، بينما لا يُرد استعمال نهر في البلاد الغربية غير لاو ومجكسة ولكس، ولمسافات قصيرة[٧]. والراجح أن الموحدين استفادوا من نهر سبو في النقل التجاري لما أنشأوا دار صناعة الحبالات[٨]. والغالب على أنهار شرق الأندلس عدم صلاحها للملاحة، ولكن نهر شقر كان يستخدم في نقل الأخشاب من منطقة كونكة الى ساحل البحر المتوسط[٩]. أما أنهار غرب الأندلس فقد

(١) لقد أخلت حملة ابن رذمير باديتها وعطلت تجارتها (**الحلل الموشية** ٧٩).

(٢) أصبحت مركز القيادة الموحدية في الأندلس وازدهرت تجارتها (انظر **روض القرطاس** ١٣٨، ١٥١، **المعجب** ٢٤٨، ٢٥٧، ٢٨٢-٢٨٣، ٣١٩، **المن بالامامة** ٤٧٥)، ولكن بداية ازدهارها التجاري بدأت في الفترة المرابطية إذ بدأ سكانها يكثرون والتجارة اليها ترد كما يفهم من رسالة ابن عبدون (راجع **رسالة ابن عبدون** ١٣، ٣٠).

(٣) انظر **نفح الطيب** ٣:٢١٩ رسالة الشقندي.

(٤) انظر عنها ابن سعيد، **المغرب** ٢:٢٤٥-٢٤٦، **نفح الطيب** ٣:٢٢١.

(٥) وقد يلتقون هناك بتجار الشام والقسطنطينية وأوربا، اذ يذكر صاحب الجغرافية أن جميع هذه الأجناس تلتقي في شنت ياقب التي اليها يحج النصارى كما يحجون الى بيت المقدس (انظر **كتاب الجغرافية** ١٠٥).

(٦) انظر ما يذكره ابن أبي زرع عن طريق بلنسية (**روض القرطاس** ١٠٤).

(٧) البكري، **المغرب** ١٠٧، ١٠٨، **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٦٩.

(٨) انظر ما سبق ص ٢١٩.

(٩) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٩٥.

كانت أصلح للملاحة، فيربط الوادي الكبير إشبيلية بالساحل وقرطبة[١]، ويستخدم وادي يانة في بعض أجزائه[٢]. وربطت الأنهار الصغيرة بعض الموانىء الداخلية بالساحل مثل شلب وقصر أبي دانس[٣]. ولا تشكل أنهار البلاد الأندلسية عائقاً للنقل البري لوجود قناطر كثيرة قبل القرن السادس[٤]، بينما تظهر أودية الأنهار مشكلة في النقل البري في البلاد الغربية، إذ تعبر أحياناً على الزقاق أو الزنبيل الذي لا يسع أكثر من ثلاثة أشخاص[٥]. ومن هنا تظهر أهمية الجسور التي بدأ تشييدها المرابطون وأكثر منها الموحدون، كما تظهر قيمة المراكب التي استخدمت في وادي سبو في العصر الموحدي.

الطرق البحرية

إن طبيعة المغرب الجغرافية جعلت من الطرق البحرية الرابط التجاري بين بيئات المغرب الثلاث، بيد أن الشواطئ المغربية لا توفر موانىء طبيعية كثيرة مناسبة إلا في شرق الأندلس[٦]؛ غير أن استخدام الشواطىء المتوسطية للبلاد الشرقية والغربية والشواطىء الأندلسية بشكل مستمر قبل القرن السادس ساعد على تطوير موانىء تلك السواحل باتخاذ الخلجان والجبال والجزر وأودية الأنهار ستاراً من الرياح[٧]، أو اتخاذ مرسيين: واحد للسفن الكبار والآخر للسفن الصغار[٨]، أو حفر الموانئ[٩]. ولم يتيسر لسواحل البلاد الغربية الأطلسية مثل هذا

(١) **المصدر ذاته** ١٧٧ و ٢٠٧-٢٠٨، **كتاب الجغرافية** ٨٨، **المعجب** ١٢٥، ٣٧٣-٣٧٤، **مسالك الأبصار** (أحمد الثالث) ٣:١:١١٧.

(٢) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٨١.

(٣) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٧٩، ١٨١.

(٤) انظر أمثلة في **المصدر ذاته** ١٧٨، ١٨٢، ١٨٣، ١٩٣، ١٩٤، **مخطوط الرباط** ٥٣، **نفح الطيب** ١:١٤٨.

(٥) البكري، **المغرب** ١٥٤، **الاستبصار** ١٨٥.

(٦) راجع عنها **نزهة المشتاق** (ط. د.) ١٩١، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٨، ١٩٩.

(٧) انظر البكري، **المغرب** ٧، ٦٥، ٦٦، ٧٠، ٧٧، ٨٠، ٨٢، ٨٦، ٨٩، ١٠٢-١٠٣، ١٠٥.

(٨) راجع **نزهة المشتاق** (ط.د) ٨٤، **الاستبصار** ١٣٤.

(٩) انظر البكري، **المغرب** ٣٠، ٣٩، ٥٥، **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١١١-١١٢، **الاستبصار** ١١٨، **المعجب** ٢٢٩.

الجهد قبل القرن السادس، لا سيّما أن الملاحة في البحر المتوسط قد كانت أيسر أمراً من المحيط الأطلسي، لأن حركة الرياح الشرقية والغربية تساعد السفن، ولا تتحرك السفن في المحيط إلا مع الرياح الغربية في موسم العواصف والأمطار[١]، فلا تبتعد السفن عن مرأى العين في السواحل الغربية[٢]. وبالرغم من هذا فقد طرأ تغيير كبير على الملاحة في السواحل الغربية في القرن السادس إذ ان التغييرات في الطرق البحرية كانت مماثلة لتلك التي جرت في الطرق البرية.

إن صعوبة النقل البري في البلاد الشرقية، نتيجة للغزو الهلالي، جعلت النقل البحري أيسر أمراً، فارتبطت المدن الساحلية فيها في النصف الأول من القرن السادس بطريق بحري؛ بيد أن احتلال النورمان لسواحل بني باديس قد أخلّ بانتظام استخدام البحر فيها[٣]، ولم يعد إليها الأمن إلاّ مع مجيء الموحدين، فارتبطت المدن الساحلية بحراً من طرابلس الى تنس.

وكان لهذه التغييرات تأثيران بارزان على الطرق التجارية البحرية في البلاد الشرقية.

أولاً: غلبت على الطرق صفة الإقليمية في أيام صنهاجة، وصار اتصال مراسيها بالبلاد الغربية والأندلسية ضئيلاً، والأغلب كان اتصال المراسي الشرقية بما يقابلها في البلاد الأندلسية[٤]، بينما كان الاتصال أكبر مع صقلية ثم المدن الإيطالية[٥]. وتغيرت هذه الصبغة الاقليمية مع الموحدين حتى ان السفن المتجهة

(١) البكري، **المغرب** ١٠٩، ١١٣، ١٤٥، **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٦٥
(٢) **العبر** ٩٨:٦، **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٦٥.
(٣) انظر عن ضعف المراسي في هذه المنطقة من بونة الى طرابلس **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٨٥-٨٦، ٩٩، ١٠٨، ١١٦، ١٢١-١٢٢.
(٤) من الواضح أن البكري والادريسي يركّزان على ذكر المراسي الشرقية وما يقابلها من المراسي الأندلسية؛ راجع **المغرب** ٨١، ٨٢، **نزهة المشتاق** (ط.د.).
(٥) انظر أمثلة عند البكري، **المغرب** ٢٠، ٣٠، ٣٦، **المعيار** ١١٥:٨، ١٣١، ١٣٢، ١٨٦، ١٨٧، ١٩٠، **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٠٧، ١١١؛ وقد سبقت الاشارة الى تجارة المدن الإيطالية.

الى المشرق من البلاد الأندلسية والغربية كثيراً ما كانت تمر على سواحل البلاد الشرقية[١].

ثانياً: لقد ساعد التحول نحو الساحل على ظهور مراكز التجارة فيه وأصبحت ملتقى للطرق البحرية مثل صفاقس والمهدية في بلاد بني باديس وبجاية في بلاد بني حماد؛ غير أن الغزو النورماني قضى على وضعي صفاقس والمهدية واحتلت مكانتيها سوسة وتونس. وظلت هاتان المدينتان ــ بالإضافة الى بجاية ــ مراكز للطرق الداخلية والخارجية في العصر الموحدي[٢].

إن ازدهار السهول الغربية من البلاد الغربية وظهور مدن تجارية في ساحلها في العصرين المرابطي والموحدي بدّل وضع الطرق البحرية في البلاد الغربية تبديلاً كبيراً؛ فبينما كانت الطرق البحرية تربط البلاد الغربية والأندلسية قبل العصر المرابطي من مراسي المتوسط ومن طنجة الى أصيلا فقط[٣]، أصبحت السفن تجاوز أسفي بأربعة مجار في أيام المرابطين وتصل الى نول لمطة في العصر الموحدي[٤]. وهكذا اتصلت سواحل البلاد الشرقية والغربية في العصر الموحدي بطريق بحري من نول الى طرابلس، وهو طريق مماثل للطريق البري الساحلي. وكانت موانىء البلاد الغربية خلال القرن السادس تتصل بموانئ البلاد الأندلسية بمتابعة السفن

(١) لقد أصبحت هذه ظاهرة في النصف الثاني حتى أن عدداً ممن رحلوا الى المشرق مرّوا على سواحل البلاد الشرقية (انظر أمثلة في **التكملة** ٤٦٤:٢، ٦٢٦، ٦٣٢، ٧١١، ٧١٢، ٨٩٢)، بينما كان أهل البلاد الغربية في النصف الأول اذا أرادوا التوجه الى الشرق بحراً أو قدموا منه بحراً كانوا ينزلون في البلاد الشرقية ويسيرون براً في طريق الساحل (انظر أمثلة في **أخبار المهدي** ٥٧، **التشوف** ١٧٩، **جذوة الاقتباس** ٢٨٩، **سلوة الأنفاس** ١٨٣:٢).
(٢) انظر المادة المذكورة عن هذه الموانىء في البكري، **المغرب** ٣٠، ٤٩، **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٠٧-١٠٨، ١١١-١١٢، ١٢٥، **الاستبصار** ١٣٠، **عنوان الدراية** ١٢١؛ والوحيد الذي يربط بين ظهور تونس وخراب القيروان دون الإشارة الى اضمحلال المهدية هو المراكشي (راجع **المعجب** ٣٥١).
(٣) انظر عنها البكري، **المغرب** ٨٦-٨٧، ١١٣، ١٥٣-١٥٤.
(٤) انظر **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٧٤-٧٥، **كتاب الجغرافية** ١١٥، **الاستبصار** ١٤١ وما بعدها، **العبر** ٩٨:٦.

لهذا الطريق[1]، أو ربما رأساً من مرسى مغربي الى ما يقابله من المراسي الأندلسية[2]، وظهرت سلا في العصر المرابطي مركزاً هاماً للتجارة البحرية[3] كما هي مركز للتجارة الداخلية. وقد تضاعفت أهمية هذا الطريق البحري في الساحل الغربي في العصر الموحدي، يدل على ذلك ظهور أسفي بدلاً من رباط فوز وتطورها الى ميناء كبير لمدينة مراكش[4]، وتحول سبتة من مدينة مجاز إلى الأندلس في العصر المرابطي إلى أكبر ميناء تجاري في العصر الموحدي بعد أن أصبحت قاعدة للأسطول الموحدي[5]، وأضحى من يريد المشرق من الأندلسيين يهرع الى سبتة لركوب السفن منها[6]. كما أن سلا دخلت مجال التجارة المتوسطية مع قدوم الجنويين بسفنهم إليها في سنة ١١٦٣[7].

أما البلاد الأندلسية فقد اقتضت صعوبة الاتصال بين مدن الساحل براً[8] أن يكون طريق البحر أهم وسيلة في تجارتها، كما أن مراسيها كانت تتصل بما يقابلها من مراسي البلاد الشرقية والغربية حسب ما سبق ذكره. غير أن التغيير الكبير الذي حدث في الطرق البحرية هو انتقال مراكز الثقل من دانية[9] والمرية[10] في

(١) راجع **كتاب الجغرافية** ١١٥، **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٧٣ وما بعدها، **التشوف** ١٨٩، ٣٦١.

(٢) انظر أمثلة في **الاستبصار** ١٤١، **المن بالامامة** ١٧٣، **التشوف** ١٦٩، ٣٦١.

(٣) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٧٣، **كتاب الجغرافية** ١١٥.

(٤) انظر عنها **باكورة الزبدة** (مخ) ٤-٥، وأيضاً **صبح الأعشى** ١٦٨:٥-١٦٩.

(٥) انظر وضعها في العصر المرابطي عند الادريسي (**نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٦٨)، وعن العصر الموحدي راجع **بيان موحد** ٣٠، ٣٢، **المعجب** ٣١١، موسى: **تنظيمات الموحدين** ٣٠٩). و يدلّك على مركز سبتة أن الجنوبيين لما أرادوا التجارة مع سواحل البلاد الغربية كانت رحلاتهم في بداية الأمر من سبتة براً (Krueger, H.C., "Genoese Trade...", p. 381). ومما أهّل سبتة لتبوّء هذا المركز متفردةً به عن طنجة أن الأخيرة مكشوفة للرياح وتضرب السيول واديها (انظر البكري، **المغرب** ١٠٩، **الاستبصار** ١٣٩).

(٦) انظر أمثلة **التكملة** ٦٣٨:٢، **الذيل والتكملة** ٥٢٨:٢:٥ ح ٢ من التراجم المزيدة، ٥٩٥:٢:٥-٦٠٧، ٦٨٩-٦٩٠، **رحلة ابن جبير** ٧-٨ **ارشاد الأريب** ١٠٦:٢.

(٧) Krueger, H.C., "Genoese Trade...", p. 381
وعن تجارتها البحرية راجع **اتحاف أشراف الملا** (مخ) ١.

(٨) مثلاً جبل شليرلا يسلك الا من ثلاثة مواضع في زمن الصيف وحده (**كتاب الجغرافية** ٩٤).

(٩) انظر **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٩٢، **الروض المعطار** ٧٦، مكي: « وثائق جديدة » ١٨٥.

(١٠) انظر ما سبق ص ٣١٥، الحاشية ٣.

العصر المرابطي، الى مالقة[1] وإشبيلية[2] ومرسية في العصر الموحدي[3]. غير أن دور المرية القيادي في العصر المرابطي أصبحت تقوم به سبتة.

وإذا كانت دراسة الطرق البحرية التي سلكتها التجارة المغربية الخارجية قد تخرج البحث عن إطاره المكاني لأن المدن الإيطالية في هذا القرن السادس كانت تقوم بدور رئيسي فيها جاعلةً لها جزءاً من تجارتها المشرقية والأوربية، فإن إبداء بعض الملاحظات عنها أمر ضروري لتكامل دراسة الطرق التجارية البحرية في المغرب خلال فترة الدراسة هذه. ويمكن أن يجمل ذلك في ثلاث نقاط، هي:

أولاً: يبدو أن الطرق البحرية مع السواحل الأوربية في شرق البحر المتوسط كانت تتصل بتجارة المدن الإيطالية إذ لا ترد عنها إشارات كثيرة في القرن السادس[4]، بينما هناك طرق مباشرة تربط المغرب بميورقة وبرشلونة وجنوب فرنسا[5] فضلاً عن صقلية وإيطاليا. والراجح أنه عن طريق إشبونة كانوا يتصلون بغربي أوربا[6]. ولا يستبعد أن يكون المغاربة في هذه الفترة قد وصلوا الى إيسلندة والدنمارك[7].

ثانياً: مع أن الطريق البحري من طرابلس الى الاسكندرية كان كثير الاستعمال لا سيّما وأن الطريق البري قد كان محفوفاً بالمخاطر[8]، تجدر الإشارة الى أنه في النصف الثاني من القرن السادس كثر استعمال الطريق الذي يمر بالمدن

(١) **نفح الطيب** ٢١٩:٣؛ و يدل على دورها التجاري وصلاتها بالمشرق المكاتبات بين أهلها وأهل مصر (انظر **الذيل والتكملة** ٢١:٤-٢١١).

(٢) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٧٨.

(٣) انظر المصادر المذكورة فيما سبق ص ٣١٦، حاشية (٤).

(٤) مثاله **كتاب الجغرافية** ٨٩، ٩٣، ١١٧، ١١٩.

(٥) انظر **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٩١، ٢١٤، **عنوان الدراية** ٢٤.

(٦) **كتاب الجغرافية** ٦١.

(٧) تظهر المنطقتان في مخطوط مغربي كتب قبل سنة ١١٩٨ (انظر بيرنيط، خوان: « هل هنالك أصل عربي اسباني لفن الخرائط البحرية » ٨٥ نقلاً عن مخطوط الاسكوريال رقم ١٦٣٦).

(٨) عن الطريقين راجع **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٢٩ وما بعدها.

الإيطالية وصقلية، ومن صقلية يتفرع الطريق إما الى الاسكندرية أو إلى عكا[1]. وربما كان سبب ذلك أن تجار المدن الإيطالية دخلوا في التجارة المغربية بصورة واسعة، أو أن المغاربة أصبحوا يفضلون طريق عكا على مصر التي كانوا يلقون فيها ضيقاً وعنتاً[2].

ثالثاً: يظهر في مخطوط يرجع الى ما قبل سنة ١١٩٨ المنطقة الشمالية من خليج غينيا؛[3] فهل اتخذ المغاربة في القرن السادس طريقاً بحرياً الى السودان؟ يبدو أنه من الصعوبة بمكان القبول بمثل هذا الرأي بالرغم من الصعوبات التي واجهت التجار المغاربة في صحراء صنهاجة، ومحاولات المغاربة من قبل لاستكشاف المحيط الأطلسي[4]، وذلك لأن الكنباص لم تستخدم في المحيط الأطلسي حتى ذلك الحين[5]. وربما عرف المغاربة خليج غينيا بالواسطة، ولعلهم كانوا يركبون المراكب من أوليل قرب نهر السنغال الى سلى التي تقع في الداخل[6]، فربما عرفوا شيئاً عن ذلك الخليج من التجار السودانيين الذين يمثلون حلقة الوصل بين المغاربة والمناطق الاستوائية.

إن أوضاع الطرق التجارية، البرية منها والبحرية، داخلية كان أم خارجية، قد انعكست على حركة السلع في بيئات المغرب الثلاث وحركتها بين المغرب والمناطق التي اتصل بها تجارياً. فما هي حركة السلع بين بيئات المغرب الثلاث؟ وما هي صادرات المغرب ووراداته؟

(١) انظر أمثلة في **رحلة ابن جبير** ٩، ٣١٠، ٣٢٩، **الذيل والتكملة** ٥:٢:٥٩٥-٦٠٧، ٦٨٩-٦٩٠، **رحلة بنيامين** ٦٩، **ارشاد الأريب** ٢:١٠٦، **نفح الطيب** ٢:٣٨٥، ٤٨٨. وعلى هذا لم تعد مصر باب المغرب ومنها تجلب طرائف الهند والسند والعراق الى المغرب كما كانت في منتصف القرن السادس (انظر **كتاب الجغرافية** ٥٠) بل شاركتها سواحل الشام.

(٢) سبق شرح الضيق الذي يلقاه المغاربة في مصر، ولما وصل ابن جبير الى عيذاب اقتنع بان طريق عكا أفضل؛ انظر **رحلة ابن جبير** ٤٨.

(٣) بيرنيط: « هل هناك أصل عربي اسباني لفن الخرائط البحرية » ٨٥ نقلاً عن مخطوط الاسكوريال رقم ١٦٣٩.

(٤) انظر قصتي الفتية المغرورين أو المغررين وخشاش القرطبي في **الروض المعطار** ١٦-١٨، ٢٨-٢٩.

(٥) **العبر** ١:٥٤.

(٦) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٢.

الصادرات والواردات

إذا كانت الصادرات والواردات تمثل محاولة المجتمع المغربي لسد حاجات المجتمع بتصدير الفائض عن حاجته واستيراد الناقص من متطلباته، فإن النظرة في حركة التصدير والاستيراد، لأنه من خلال دراسة هذه الحركة يستطيع المرء أن يتبين في أي فترة كان الاتجاه نحو التكامل الداخلي بين بيئات المغرب قبل التوجه نحو الخارج، وفي أي فترة قصر المجتمع عن تحقيق هذا التكامل.

انتقال السلع بين بيئات المغرب في القرن السادس

لقد كانت البلاد الشرقية تجلب من الأندلس المصنوعات الجلدية والفخارية والزجاجية[1] والأواني الخشبية[2] وأدوات الموسيق[3] والمصنوعات المعدنية خاصة المذهبة منها[4] والوشي المذهب[5] والبسط[6] والورق[7] والزيت[8]. كما كانت تستورد المدن الساحلية الشرقية من البلاد الأندلسية بعض المواد الخام مثل الكتان والحرير[9] وأدوات الصباغ مثل الزعفران والقرمز[10] والزئبق[11] والكبريت الأحمر[12].

(١) **كتاب الجغرافية** ٩٣؛ وانظر ما سبق ص٣٥٣ وما بعدها.

(٢) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٠٣، **الروض المعطار** ١٦٥.

(٣) **نفح الطيب** ٣:٢١٣.

(٤) **المصدر ذاته** ١:٢٠١، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٦١و، **صبح الأعشى** ٥:٢١٩.

(٥) **نفح الطيب** ١:٢٠١.

(٦) **المصدر ذاته** ١:٢٠١؛ وانظر ما سبق ص ٢٨٠، Krueger; H. C., "The Wares of Exchange...", pp. 61, 67.

(٧) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٩٢.

(٨) **كتاب الجغرافية** ٨٩.

(٩) **المصدر نفسه** ٩٦:٢٤٩ ج ٢ عن نسختين، Krueger, H. C., "The Wares of Exchange...", p. 60 sqq; "Genoese Trade...", p. 388.

(١٠) **نفح الطيب** ١:١٤١، **مسالك الأبصار** (أحمد الثالث) ٣:١:٣٠٠.

(١١) **كتاب الجغرافية** ٨٧.

(١٢) المصدر ذاته ٩٩.

وقد يستورد التين واللوز[١]. وكانت البلاد الشرقية تصدر الى الأندلس منسوجات الكتان والصوف الغالية الأثمان[٢] وجلود الفنك[٣] والخيول[٤] والمرجان[٥].

وتستورد البلاد الشرقية من الغربية السكر[٦] والنيلة والشب والنحاس[٧]. وفي العصر الموحدي أصبحت البلاد الشرقية تستورد من الغربية القمح خاصة من وهران وسبتة[٨]. وكانت البلاد الشرقية تصدر الى الغربية المنسوجات القطنية والكتانية والصوفية الغالية الثمن[٩] والفستق القفصي[١٠] وجلود الفنك[١١] والمرجان[١٢].

وتستورد البلاد الغربية من الاندلسية الأشياء ذاتها التي كانت تستوردها البلاد الشرقية من الرقعة الأندلسية، بالاضافة الى طين أندلسي خاص يستعمل في صبغ الأكسية الصوفية[١٣]. كما أن سبتة كانت تستورد منها الصوف في آخر القرن السادس[١٤]. وتجدر الإشارة الى كثرة استيراد الزيت الاشبيلي خاصة في العصر المرابطي وأول الفترة الموحدية[١٥]. وكانت البلاد الغربية تصدر الى الأندلسية القمح

(١) المصدر نفسه ٩٣.
(٢) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٢٥، **كتاب الجغرافية** ١٠٨، ١٠٩.
(٣) **كتالب الجغرافية** ١٠٨.
(٤) انظر ما سبق ص ١٩٩ وما بعدها.
(٥) **كتاب الجغرافية** ١٠٨.
(٦) **كتاب الجغرافية** ١١٧، **الاستبصار** ١١٧، **مسالك الأبصار** (أحمد الثالث) ٣:١:١٠٠.
(٧) **كتاب الجغرافية** ١١٧.
(٨) Krueger, H.C., **"The Wares of Exchange..."**, p. 70
(٩) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٢٥، **كتاب الجغرافية** ١٠٨-١٠٩.
(١٠) **كتاب الجغرافية** ١٠٨.
(١١) **الاستبصار** ١٥٣.
(١٢) **كتاب الجغرافية** ١٠٨.
(١٣) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٦٢.
(١٤) Krueger, H.C., **"The Wartes of Exchange..."**, p. 67
(١٥) انظر **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٧٣، **كتاب الجغرافية** ٨٩، **مخطوط الرباط** ٥٣، **نفح الطيب** ١:١٥٨.

والشعير والحنطة بكميات كبيرة من سواحل تلمسان والسهول الغربية[١] والسكر[٢] والتمر[٣] والنيلة والشب والنحاس[٤] واكسية الصوف وادوات سروج الخيل والخيول[٥] والأغنام[٦].

من كل هذا يستفاد أن البلاد الأندلسية كانت المصدّر الرئيسي في المغرب خلال القرن السادس لأغلب ما يصنّع من السلع، وعلى الرغم من أن البلاد الغربية قد شهدت عملية تصنيع كبيرة فقد كانت تستورد من البلاد الأندلسية مصنوعات كثيرة لأن عدد السكان في البلاد الغربية كان في ازدياد مستمر. وتظهر البلاد الشرقية بمظهر المستهلك لأنتاج البيئة الأندلسية خاصة، بيد أن استيراد مواد خام في العصر الموحدي يشير الى أن بعض السلع قد أصبح ينتج محلياً لا سيما في مدن الساحل. وكان الطعام أهم ما تصدره البلاد الغربية الى الأندلسية بالاضافة الى المواد الخام من معدنية وغير معدنية. وقد غلب على ما تصدره البلاد الشرقية انتاج الحياة الرعوية باستثناء الثياب التي كان يصدر منها الغالي الثمن ولا يطلبها غير أهل الطبقة العليا من المجتمع[٧]. ويلاحظ الناظر في السلع وحركتها أن صلة البلاد الشرقية مع الأندلسية كانت أوسع من صلتها بالبلاد الغربية، وما بدأت الصلات تتوثق بين الغربية والشرقية الا في أيام الموحدين حين أصبح الطعام يصدر من الأولى الى الثانية، بينما كانت الشرقية تستورد الطعام قبل ذلك من صقلية، حسبما سيرد شرحه فيما بعد. وهذه الملاحظات تنطبق على ما يمكن استنتاجه أيضاً من حركة الصادرات والواردات في التجارة الخارجية.

(١) **نزهة المشتاق** (ط.د.) ٧١، ٧٣-٧٤، ٨٠، ٨٣، ١٠٠، **كتاب الجغرافية** ١١٣، **الاستبصار** ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦، ١٧١، ١٧٣، ١٨٩، **التشوف** ١٦٩.
(٢) **الاستبصار** ١١٧، **كتاب الجغرافية** ١١٧، **مسالك الأبصار** (أحمد الثالث) ٣:١:١٠٠.
(٣) **كتاب الجغرافية** ١١٨-١١٩، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٢٥ق، **صبح الأعشى** ٥:١٦٤.
(٤) **كتاب الجغرافية** ١١٧.
(٥) انظر ما سبق ص ١٩٩وما بعدها، **كتاب الجغرافية** ١١٣-١١٤، ابن سعيد، **المغرب** ٢:٢٤٦.
(٦) **الاستبصار** ١٧٩.
(٧) انظر ما سبق ص ٢٨١.

الصادرات

كان المغرب في القرن السادس يصدر القمح من البلاد الغربية الى السودان[١]، وفي ختام فترة الدراسة هذه الى سوريا أيضاً[٢]. ويصدر التين واللوز من مالقة الى أوربا، وربما بلغ التين المالقي الى مصر[٣]، كما كان الزبيب والتمر يبعثان الى السودان[٤]. وكان التمر السوسي يصل الى أوربا ووركلان[٥]. ويصدر الفستق القفصي الى مصر[٦] والزيت الإشبيلي الى المشرق -وربما بلغ الى اليمن- وأوربا وكريت[٧] والزيت الصفاقسي الى بلاد الروم وصقلية وايطاليا (وسواحل أوربا) ومصر[٨]. ويرسل الزيتون الأندلسي الى يابسة وكريت، والى الأخيرة كان يصل من البلاد الشرقية أيضاً[٩]. وكان السكر السوسي يصدر الى أوربا[١٠] والثياب النفزاوية الى مصر[١١] والأقمشة الكتانية التونسية الى أقطار شتى[١٢]. وترسل الثياب الحريرية والكتانية الملونة والزعفران من المغرب الى السودان[١٣]. ويصدر الوشي المذهب من الأندلس الى المشرق[١٤]، وترسل ثياب السندس الغالية الى الهند[١٥]. وكان الحرير يرسل الى ميورقة[١٦]. ولعل الجلود كانت أكثر السلع تصديراً من

---

(١) كتاب الجغرافية ١١٧.

(٢) انظر Krueger, H.C., "**The Wares of Exchange**...", p. 70

(٣) كتاب الجغرافية ٩٣

(٤) كتاب الجغرافية ١١٧، ١٢٤.

(٥) نزهة المشتاق (ط.د.) ٤، كتاب الجغرافية ١١٩ (عن بلاد الروم).

(٦) الاستبصار ١٥٤.

(٧) كتاب الجغرافية ٨٩، ٩٣، ١٣٢، نفح الطيب ٣:٢١٣، الروض المعطار ١٩.

(٨) البكري، المغرب ٢٠، نزهة المشتاق (ط.د.) ١٠٧، الاستبصار ١١٦-١١٧.

(٩) كتاب الجغرافية ١٢٩، ١٣٢.

(١٠) كتاب الجغرافية ١١٧ وفيه بلاد الروم والافرنج.

(١١) انظر ما سبق ص ٢٢٠.

(١٢) كتاب الجغرافية ١٠٩.

(١٣) كتاب الجغرافية ١١٨، ١٢٤، ١٢٧.

(١٤) نفح الطيب ١:٢٠١.

(١٥) كتاب الجغرافية ٣١.

(١٦) المصدر نفسه ١٢٩.

البلاد الشرقية خاصة إلى جنوة وبيشة ولمباردي وفرنسا[١]. وترسل جلود الثعالب الى بلاد الديلم[٢] والأصواف تحمل من البلاد الشرقية الى جنوة وبيشة[٣]. وقد تحمل الماشية من البلاد الشرقية الى جنوة[٤]. ويلاحظ أن الأواني الفخارية كانت تصدر من الأندلس الى أوربا وانجلترا[٥]. ولم يتحرز المغاربة في إرسال النحاس إلى أوربا أو السودان[٦]. وكان الزئبق القرطبي يصدر إلى عدة أقطار منها الهند والسودان[٧]، والكبريت الأحمر المرسي الى الهند والشام والعراق وأقطار أخرى[٨]، والمرجان الطبرقي الى الهند والصين، والمرجان السبتي الى السودان خاصة[٩]. ويصدر الشب السوسي والنيلة الدرعية الى أوربا[١٠] والودع والخرز الى السودان[١١].

الواردات

كان القمح يرد من صقلية الى البلاد الشرقية[١٢] بصفة خاصة قبل العصر الموحدي، ومن كريت الى البلاد الشرقية والأندلسية[١٣]. ويجلب الملح من يابسة الى البلاد الشرقية[١٤]. ويستورد القسطل والجوز والبندق والفستق من صقلية[١٥]؛ غير

---

(١) Amari, **Diplomi arabi,** p. 76; Krueger, H. C.,"The wares of Exchange ...," pp. 68, 71; "Genoese Trade..", p. 385.

(٢) كتاب الجغرافية ٦٦.

(٣) Amari, **Diplomi arabi;** 48; Krueger, H. C., "The wares of Exchange...,"p. 70 .

(٤) Krueger, H. C. "Genoese Trade...," p. 385

(٥) Dunning, G. C. ," A Group of English and Imported Medieval Pottery...," pp. 1-12.

(٦) كتاب الجغرافية ١١٧-١١٨، Krueger, H.C., "**The Wares of Exchange**...", p. 70

(٧) كتاب الجغرافية ٣١، ٨٧، ١٢٤.

(٨) كتاب الجغرافية ٣١، ٩٦، ٩٩.

(٩) نزهة المشتاق (ط.د.) ١٦٨ (عن السبتي)، الاستبصار ١٢٦ (عن الطبرقي).

(١٠) كتاب الجغرافية ١١٧.

(١١) المصدر ذاته ١٢٧، مسالك الأبصار (آيا صوفيا) ٤:٣٥و، صبح الأعشى ٥:٢٨٦.

(١٢) المعيار ٨:١٣٠ وما بعدها، نزهة المشتاق (ط. روما) ٢٤، الكامل ١١:٩٠.

(١٣) كتاب الجغرافية ١٧٢.

(١٤) كتاب الجغرافية ١٢٨.

(١٥) المصدر نفسه ١٣١.

أن فستق الشام ربما كان يصل الى المغرب كله وكذلك ماء الورد من مصر[1]. وكانت الماشية تجلب من طليطلة الى البلاد الأندلسية[2]. وكانت الأقشة خاصة المذهبة المنقوشة، ترد الى المغرب من مصر[3] والعراق[4] وخراسان[5] واليمن والشام[6]. وفي النصف الثاني من القرن السادس كثر استيراد الأقشة من جنوة[7] وفرنسا[8] وميلان ولماردي[9] وكانت ثياب الملف الصوفية تصل من فلندا[10] ومناديل السمندل من الصين و يتهاداها «الملوك»[11] (وكان المغرب في هذه الفترة يستورد الفراء من جلد السمور البحرية من سرقسطة[12]) والبسط الشرقية وتقليداً أوربياً لها[13]، والأقلام من قلمرية[14] والعطور والتوابل من الهند[15] والسيوف من بيشة[16].

---

(١) الاستبصار ١٥٤.

(٢) نزهة المشتاق (ط.د.) ١٨٨.

(٣) خاصة من تنس ودمياط (نزهة المشتاق (ط.د.) ١٥٦، كتاب الجغرافية ٥٠، مسالك الأبصار (آيا صوفيا) ٤:٣٥ق.

(٤) كتاب الجغرافية ١١٤، مسالك الأبصار (آيا صوفيا) ٤:٣٥ق؛ وانظر اشارة في وفيات الأعيان ٥:٣٤.

(٥) كتاب الجغرافية ٦٠.

(٦) المصدر ذاته ١٤٤.

(٧) Krueger, H.C., "**The Wares of Exchange...**", p. 60 sqq.

(٨) **Ibid,** 70

(٩) Krueger, H.C., "The Wares of Exchange...", p. 59 sqq.

(١٠) كتاب الجغرافية ٧٦-٧٧.

(١١) المصدر ذاته ٥١.

(١٢) نفح الطيب ١:١٩٧.

(١٣) Krueger, H.C., "The Wares of Exchange...", p. 62

(١٤) قلائد العقيان (آيا صوفيا) ٤١ق.

(١٥) كتاب الجغرافية ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٦، ٣٦، المعجب ٣٥٨، ٣٥٩، Krueger, H.C., "Genoese Trade...", pp. 385, 388.
وهناك بعض العطر من اسبانيا (انظر كتاب الجغرافية ٨٠).

(١٦) كتاب الجغرافية ٧٨.

وتجدر الإشارة إلى أن المغرب في هذه الفترة لم يكن يستورد السلع الجاهزة فحسب، بل كثيراً ما استورد المواد الخام، خاصة في النصف الثاني من القرن السادس. لقد كان القطن والكتان والحرير تستورد الى بجاية وسبتة من جنوة وبيشة أو عن طريقها من المشرق[1] مع مادة الصباغ من إسبانيا أو أوربا أو الهند[2]. كما أن الخشب كان يجلب من يابسة الى البلاد الشرقية[3]، وجلود الفنك واللمط والعاج والأبنوس والشب من السودان إلى البلاد الغربية والشرقية[4]. وكان الكحل[5] والطفل[6] والحديد[7] والنحاس[8] ترد من طليطلة كما يرد النحاس كثيراً من جنوة وبيشة أيضاً[9]. و يستورد الذهب من السودان[10] والزمرد من بلاد البجة[11] والجواهر والياقوت من الهند والخليج الفارسي[12]. وكان الرقيق يجلب أساساً من السودان[13] وأوربا وبصفة خاصة عن طريق ميورقة، و يبدو أن الرقيق الأبيض كان في البلاد الشرقية لا سيّما بجاية أكثر من مجلوب السودان[14].

---

(١) كتاب الجغرافية ٧٨، تكملة زهر الرياض ٢٧و، Krueger, H. C., "The Wares of Exchange...", 60 sqq.; "Genoese Trade...", pp. 386, 388.

(٢) نزهة المشتاق (ط. د.) ١٨٨، كتاب الجغرافية ٧٨، Heyd, W., **Histoire du commerce...,** II., p. 624, sqq.; Krueger, H. C., "The Wares of

(٣) كتاب الجغرافية ١٢٨.

(٤) كتاب الجغرافية ١١٨، الاستبصار ٢١٤-٢١٥، نفح الطيب ٥:٢٠٥. و يظهر أن الجلود قد تجلب من أوربا لتشميسها في البلاد الشرقية (راجع Krueger, H.C., "The Wares of Exchange...", p. 68.

(٥) كتاب الجغرافية ٨٠.

(٦) نفح الطيب ١:٢٠٠.

(٧) كتاب الجغرافية ١٠٤.

(٨) نفح الطيب ١:٢٠٠.

(٩) كتاب الجغرافية ٧٨، Mas-Latrie, **Traité de paix,** p. 48; Krueger, H.C., "The Wares of Exchange...", pp. 66-67.

(١٠) كتاب الجغرافية ١١٨، ١٢٢، نزهة المشتاق (ط.د.) الاستبصار ٢١٥-٢١٦.

(١١) الاستبصار ٨٦.

(١٢) Krueger, H.C., "**The Wares of Exchange...**", p. 66

(١٣) انظر الاستبصار ٢١٥-٢١٦، نزهة المشتاق (ط.د.) ٦.

(١٤) راجع ما سبق ص ١١٩.

ويستطيع الناظر في هذه الصادرات والواردات أن يصل الى عدة استنتاجات.

أولاً: كانت البلاد الشرقية تستورد الطعام بكميات كبيرة قبل العصر الموحدي، ويبدو أن ذلك قد تقلص لأن البلاد الغربية لم تعد تصدر الطعام الى البلاد الشرقية وحدها، حسبما سبقت الإشارة إليه، بل ان تصدير القمح تجاوز البلاد الشرقية الى الشام أيضاً، وهذا مظهر للتكامل بين بيئات المغرب الثلاث توفر في العصر الموحدي ولم يكن ميسوراً من قبل. بيد أن هناك فرقاً أساسياً بين بيئات المغرب الثلاث قد ساعد على هذا التكامل؛ فبينما يلاحظ أن الشرقية تصدر بعض سلع الترف من الثياب الغالية الثمن أو سلع هي نتاج الحياة الرعوية التي عاشتها، مثل الجلود، كانت تستورد ضرورات الحياة مثل الطعام الذي توفر في البلاد الغربية. وشبيه بوضع البلاد الشرقية وضع البلاد الأندلسية التي كانت تصدر فائض صناعاتها، لا سيّما ما يتعلق بترف الحياة، وتستورد ضرورات الحياة مثل الطعام. وعلى نقيضهما كان وضع البلاد الغربية التي كانت تصدر الطعام وتستورد أشياء الترف ومتطلباته. وهكذا كانت البيئات الثلاث مكمل بعضها لبعض من الوجهة الاقتصادية.

ثانياً: يلمح الناظر أن بعض السلع المستوردة من الخارج وبصفة خاصة المواد الخام كان متوفراً في بعض بيئات المغرب الثلاث مثل القطن والنحاس. وربما يرجع استيراد ذلك الى ازدياد سكان البلاد الغربية، على الرغم من ازدهار صناعتها، الأمر الذي كان يتطلب أشياء كثيرة أكثر مما تنتجه المنطقة، أو لعل السبب يعود الى الازدهار الذي شهدته مدن ساحل تل أطلس خاصة في العصر الموحدي ولم تتوفر المواد للتصنيع فطلبوها بالتجارة، أو ربما يعود السبب الى أن بعض السلع مثل النحاس كان يستخدم في تجارة أخرى أكثر ربحاً مثل تجارة السودان. وقد تكون هذه الأسباب مجتمعة هي ما يفسّر تلك الظاهرة.

ثالثاً: يظهر واضحاً جلياً سيطرة المدن الإيطالية على التجارة المغربية الخارجية، إذ ان كثيراً من السلع الواردة في النصف الثاني كانت تستورد عن

طريق تلك المدن. كما يلمح الناظر تعاوناً تجارياً واسعاً مع أوربا. وعلى الرغم من أن القرن السادس كان زمن صراع بين المسلمين والمسيحيين في شرقي البحر المتوسط وغربيه، فإن ذلك لم يقف عثرة دون التعامل التجاري حتى في سلع ممنوعة في ظروف الحرب مثل آلات القتال والمواد التي تصنع منها مثل الحديد والنحاس.

رابعاً: واضح أن الذهب لا يستورد إلا من السودان؛ وإذا تذكر المرء مشكلة التجارة مع السودان في العصر الموحدي وإخفاق الموحدين في استكشاف معادن للذهب في المغرب يستطيع أن يفهم أزمة الدينار الموحدي التي حاول المنصور معالجتها.

من كل ما سبق شرحه في هذا الفصل يتضح أن التجارة في المغرب خلال القرن السادس سارت في اتجاهات مماثلة لوضعي الزراعة والصناعة غير أن أزمة التجارة الخارجية أثرت على أوضاع التجارة الداخلية، وكان التجار المغاربة أكثر تأثراً بسيطرة العناصر الأجنبية، وبخاصة تجار المدن الإيطالية. وبلا ريب أن لهذه التطورات التي جدت في الزراعة والصناعة والتجارة قد تركت آثاراً على الحياة الاجتماعية والسياسية، وهذا ما تطمح خاتمة هذه الرسالة الى الإشارة إليه ومحاولة ربطه بالتطورات الاقتصادية التي جدّت.

خـاتـمة

يتضح مما سبق بحثه وتفصيله أن المشكلة الأولى التي كانت تواجه المغاربة في المجال الاقتصادي في القرن السادس/الثاني عشر هي مشكلة الأمن. ففي الداخل نجد الغزو الهلالي وما ترتب عليه من اضطراب حبل الأمن في البلاد الشرقية، كما تبدو المشكلة في مواقف دول الطوائف الأندلسية ودويلات زناتة (في البلاد الغربية). صحيح أن المرابطين قضوا على هذه الدويلات وتلك الدول، في محاولة لوضع حد لآثارها على الاقتصاد المغربي، إلا أن المرابطين أنفسهم لم يلبثوا أن أصبحوا، في الدور الثاني من فترتهم، خطراً جديداً على النشاط الاقتصادي بما فرضوا من ضرائب باهظة على الزراعة والصناعة والتجارة، الأمر الذي شل هذا النشاط الى درجة كبيرة.

ولئن أتيح للمرابطين أن يضعوا حداً للفوضى الناشئة عن وجود دول الطوائف الأندلسية ودويلات زناتة، فإنهم عجزوا عن رد أذى الأخطار الخارجية عن المنطقة المغربية، هذه الأخطار التي كانت تتمثل في زحف نصارى إسبانيا جنوباً، وسيطرة القوى الأوربية على البحر المتوسط.

كان التحدي ــ الداخلي والخارجي ــ الذي تعرضت له بيئات المغرب الثلاث كبيراً، وكانت الاستجابة لذلك التحدي، على النحو الذي فصل من قبل، تدخل فيها منافسة بين باديس ومصانعة بني حماد ومواجهة المرابطين والموحدين بعدهم للقوى البحرية الأوربية ثم مصانعتهم لها فيمابعد ــ وبخاصة بالنسبة لتجار المدن الإيطالية ــ كل ذلك أدى الى ازدياد في نفوذ هؤلاء التجار في التجارة المغربية البحرية. كما أن صمود الزراع في البلاد الشرقية في وجه الموجة الهلالية، والعمل على استثمار الأراضي الزراعية أحياناً، وانتقالهم الى البستنة في أغلب الحالات، ومصالحة بني حماد للعرب الهلالية، وتصدي الموحدين لهؤلاء العرب أحياناً، أو مصانعتهم لهم في أحيان أخرى، كل ذلك لم يجد في أحياء البلاد الشرقية[1].

(١) لعل هذا الإخفاق هو مبعث أحكام ابن خلدون المتشددة بشأن العرب، وأنهم متى تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب، ذلك لأنهم أمة وحشية، ووجد خير شاهد على رأيه ذلك في نتائج الغزو الهلالي (راجع العبر ١:١٤٩-١٥٠).

ومع أن المرابطين والموحدين، تلبية لدعوة الأندلسيين، حاولوا وقف تقدم نصارى إسبانيا (وقد نجحوا في ذلك بعض الشيء)، ومع أن الموحدين بذلوا جهوداً مضنية لتعمير المدن التي هجرها أهلها مثل قرطبة وباجة وشلب، فإن كل هذه الجهود قد ذهبت أدراج الرياح. ومن ثم فاننا نجد أن النشاط الاقتصادي في القرن السادس قد تركز في سواحل البلاد الشرقية والمدن الداخلية الحصينة وفي شرق الأندلس وجنوبها وفي الغالب من أنحاء البلاد الغربية (باستثناء درعه وسجلماسة). وهذا الاتجاه كان قد بدأ في أيام صنهاجة الشرق والمرابطين وأتمّه الموحدون فيما بعد.

ويبدو أن الإخفاق في إحياء المناطق الشرقية الداخلية والأندلسية لا يعود الى قضية الأمن وحدها، وإنما كانت له أسباب نفسية عميقة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بموقف أرباب الأموال أي الطبقة العليا، وأصحاب المهارات الفنية ــ صناعية وكتابية ــ أي الطبقة الوسطى. ذلك أن أرباب الأموال جاروا الفرص التي مكنت لهم من تنمية أموالهم واغتنموها، فتحالفوا مع السلطة السياسية وهاجروا إليها وتقربوا منها. وشبيه بهذا وضع أرباب المهارات الفنية (الطبقة الوسطى) الذين يهاجرون الى مراكز السلطة السياسية طمعاً في تولي الخطط الإدارية أو يتبعون رأس المال لأنه يوفر لهم مجالاً أكبر لصنائعهم وخبراتهم الفنية ومن ثمّ كسبهم المادي. فلا عجب بعد هذا أن هاجر أهل المجموعتين الى مراكز الإنتاج آنفة الذكر التي كانت مراكز السياسة، لا سيّما البلاد الغربية ــ مركز الثقل السياسي طوال القرن السادس[1]. ولعل عبد المؤمن وحفيده المنصور كانا يعيان عامل الاغراء هذا عندما أراد الأول تعمير قرطبة فجعلها عاصمة للأندلس، وشرع الآخر في تعمير باجة فشيد الدور والأسواق وجعل لأهلها رواتب شهرية تشجيعاً لهم[2]. ولكن فات عبد المؤمن والمنصور عامل الجبن عند هاتين المجموعتين، وقد

(١) كأن ابن خلدون كان ينظر الى هذا عندما كتب فصله عن أن السعادة والكسب انما يحصلان غالباً لأهل الخضوع والتملق (راجع الفصل في **العبر** ١:٣٩٠-٣٩٣)؛ وقارن هذا برأيه عن حوالة الأسواق (**المصدر ذاته** ١:٣٦٧) والتحول في وضع القضاة (**المصدر نفسه** ١:٣١-٣٢).

(٢) انظر عن قرطبة **المن بالامامة** ٢٠٣ وما بعدها، ٤٥٣، وعن باجة **بيان موحد** ١٠٠، ١٨٥.

كانت قرطبة وباجة من أقرب المدن الأندلسية الى مناطق الثغور في العصر الموحدي حول وادي يانة. وروح « الانتهازية » هذه كانت من أهم العوامل في انهيار اقتصاد المناطق الداخلية من البلاد الشرقية وفي وسط الأندلس وغربها[1].

وبسبب هذه الروح الانتهازية وذلك الإخفاق في حفظ الأمن تناقص عدد سكان البلاد الشرقية والأندلسية بالهجرة منها، وتدنى الإنتاج الزراعي والصناعي عما كان عليه من قبل، واندثرت مدن كبيرة في البلاد الشرقية مثل القيروان وقلعة حماد، وضعفت مدن أخرى كثيرة في البلاد الجريدية والزاب وتل أطلس والساحل التونسي، واضمحلت مدن أندلسية مثل قرطبة وجيان وغرناطة والمرية وشلب وباجة.

ولما كانت البلاد الغربية بعيدة عن الخطر الداخلي الأكبر، وهو الغزو الهلالي، والخطر الخارجي الأكثر ضراوة، وهو الزحف النصراني الإسباني، فقد وجدت استقراراً أكبر، ولا يستثنى من ذلك إلا فترة الحروب بين المرابطين والموحدين، حينما هاجر أهل البلاد الغربية إلى الرقعة الأندلسية ثم عادوا ثانية لما استتب حكم الموحدين. وتغير النشاط الاقتصادي فيها تغيراً كبيراً، ولم تعد تلك المنطقة التي عرفت في القرن الخامس بقلة سكانها وإنتاجها الزراعي والصناعي، ولا تتميز إلا بكونها منطقة للتجارة المارة الى السودان، وإنما أصبحت في القرن السادس كثيرة السكان، وفيرة الإنتاج الزراعي والصناعي، مزدهرة التجارة.

(١) كانت روح « الانتهازية » هذه تسود طبقة كبار الملاك من الفقهاء، فخدموا الدول المتعاقبة حفاظاً على أموالهم (انظر ما سبق ١٥١ وما بعدها، وراجع أمثلة عمن خدموا الدول المتعاقبة في **معجم الصدفي** ١٣٣-١٣٤، **المعجب** ٢١٤، **وفيات الأعيان** ٣:١٣٤، **التكملة** ٢:٥٤٢، ٨٥٤، ابن سعيد، **المغرب** ١:٩٦، ١٦١ وما بعدها، ٢٤٠، ٣٠٧، ٣٥٠، ٢:٢٠٤، ٢٢٤، **طبقات الأطباء** ٢:٦٤). ويبدو أن الفقهاء كانوا قد تشاوروا في فترة الانتقال في خلع المرابطين والدخول في طاعة الفونسو السابع لقاء جزية يدفعونها له (انظر Codera, **Decadencia,** pp. 71-77 نقلاً عن مدونة الأمبراطور ألفونسو السابع)، ولكن لما استتبّ الأمر للموحدين تسابق أولئك الفقهاء للدخول في طاعة الموحدين (**المعجب** ٢١٢-٢١٣)، مع أن ثورة الموحدين قد جاءت في بداية أمرها ثورة على الفقهاء وما يمثّلون. وأراد أولئك الفقهاء أن يستأثروا بخدمة الموحدين حتى لا تكون تلك الخدمة إلا لأولي الحَسَب القديم (انظر **المعجب** ٢٤٦، وقارن ذلك بما في صفحة ١٩١).

لقد زاد عدد سكان البلاد الغربية نتيجة هجرات أهل البلاد الشرقية إليها، بسبب الغزو الهلالي ثم الاحتلال النورماني، ونزوح صنهاجة الصحراء مع الفتح المرابطي، واستقدام كومية والعرب الهلالية ودخول متطوعة من السودان في العصر الموحدي، فضلاً عن هجرات الأندلسيين المستمرة غالب عقود القرن السادس. ومع هذه الهجرات توفرت الأيدي العاملة والخبرات الفنية، فاستغلت الموارد الطبيعية بصورة لم تعرفها البلاد الغربية من قبل. لقد شملت الزراعة سهولها وجبالها، وزادت كثافة الإنتاج الزراعي، بالذات من القمح والشعير والحنطة وقصب السكر والزيتون والقطن، ولم يكف ذلك الإنتاج للحاجة المحلية فحسب، بل كان يميز الرقعتين الأندلسية والشرقية، هذه في النصف الثاني من القرن السادس وتلك طوال ذلك القرن. ويصور تطوير الصناعة في البلاد الغربية ظهور كثير من الصناعات الزراعية والمعدنية وغير المعدنية واكتشاف مناطق جديدة للتعدين خاصة النحاس والفضة. فلا غرو بعد هذا، أن تفردت البلاد الغربية بين بيئات المغرب الثلاث بظهور مدن جديدة مثل مراكش والرباط وتادلا وتازا ــ فضلاً عن المراسي الكثيرة في الساحل الأطلسي ــ وتوسيع مدن قديمة مثل فاس وسبتة وتارودنت وايجلي، وأحياء أخرى قديمة ــ كانت قد اندثرت ــ مثل سلا وقصر عبد الكريم التي احتلت مكانة بصرة الكتان، وتطوير قرى صغيرة الى مدن كبرى مثل آجر سيف ومكناسة وأسفي وآزمور. ولعلنا لا نستثني من هذه النهضة العمرانية غير سجلماسة ودرعة، وقد اضمحلتا مع تحول التجارة الى الساحل.

وكان لهذا الازدهار الاقتصادي للبلاد الغربية أثر كبير على دور أهلها في القرن السادس في حياة المغرب الاقتصادية والسياسية وتبدل النظرة الاجتماعية نحوهم. لقد كانت البلاد الغربية المصدر الرئيسي في المغرب لضرورات الحياة من الإنتاج الزراعي وبالذات القمح والشعير. واعتمدت عليها البيئتان الأخريان في تسويق إنتاجهما من الكماليات التي كانوا يبادلونها بتلك الضروريات. وهيأت القدرة الاقتصادية ــ بشرية ومادية ــ الفرصة للبلاد الغربية كي تتسنم مركز القيادة السياسية في المغرب، لأن القوة العسكرية رهن بالقدرة الاقتصادية،

وتكمل احدهما الأخرى، ولكن لما انهارت الأولى في معركة العقاب سنة ٦٠٩/١٢٠٢ لحقت بها الثانية. ومن بعدها أخفق أهل البلاد الغربية في بناء اقتصادهم[١]، ففقدوا معها الزعامة السياسية على المغرب.

ورافق هذا الازدهار الاقتصادي في البلاد الغربية تحول كبير في حياة سكانها الاجتماعية، ودخلوا حياة المدينة على نطاق واسع بعد أن غلبت عليهم البداوة بمفهومها المغربي (أي شاملة للزراعة والرعي)، واكتسبوا المعارف والخبرات الفنية وأصبح كثير منهم جزءاً من تلك « الطبقة الوسطى »، بالإضافة إلى أن بعضهم قد كان طبقة حاكمة مسيطره. ولم يعد البربري، ذلك الذي عرفه الأندلسي، محترفاً للمهن اليدوية الدنيا أو جندياً مرتزقا تجلبه أسرة أندلسية حاكمة. بل أصبح يخشاه أرباب المال وأصحاب المهارات الفنية من الأندلسيين على أوضاعهم نتيجة لهذا التحول. ومن ثم ظهرت المنافرة بين العدوتين[٢]، بيد أن « روح الانتهازية » عند الأندلسين اضطرتهم للتعامل مع الطبقة الجديدة وتشوفوا لخدمتها وهاجروا إليها حفاظاً على أموالهم أو طلباً لرفدها.

وتجدر الإشارة الى أن ازدهار البلاد الغربية الاقتصادي وتفوقها السياسي أمران بدأها المرابطون وأتمها الموحدون، والفصول السابقة توضح توضيحاً لا لبس فيه ولا غموض أن المرابطين قد بدأوا مشروعات الري وزيادة الأراضي المزروعة وإدخال المحاصيل وتكثيفها وتصنيع الإنتاج الزراعي وازدهار الصناعات المعدنية وغير المعدنية والبحث عن المعادن وبناء المدن وتأمين طرقها واستجلاب الخبرات الفنية، وبدأ أهل البلاد الغربية في العصر المرابطي يكتسبون تلك الخبرات على درجة أعم عن ذي قبل. ولهذا من الصعب القبول بالرأي القائل بأن بداوة

---

(١) أنظر ما سبق ٣٦ وراجع المصادر المذكورة.

(٢) راجع ما سبق ص ٧٨-٧٩، ٨١-٨٣؛ ويبدو أن ابن خلدون قد اشتط في حكمه على البربر عندما وصفهم بأنهم بعيدون عن الصنائع (انظر العبر ١:٣٥٨) اللهم الا إذا كان يستعمل كلمة البربر استعمالاً خاصاً يعني به أهل الرعي منهم.

المرابطين وخشونتهم كانت سبباً في انهيار الحضارة الأندلسية، أو أنهم أخذوا أسوأ ما فيها، ذلك لأن مثل هذه الأحكام قد قامت على دراسة جانب حضاري واحد هو الفكر أو الشعر أو استندت على ما آلت اليه أحوال الأندلس بالمقارنة لما كانت عليه في القرن الرابع/العاشر[١]. ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا بأن الأندلسيين أنفسهم كانوا سبباً رئيسياً في انهيار الحضارة الأندلسية لما هاجروا من بلادهم الى منطقة أخرى هي البلاد الغربية فأغنوها حضارياً فازدهرت اقتصادياً.

وإذا كان العصر الموحدي امتداداً للفترة المرابطية يحقّ للمرء أن يتساءل عن أسباب قيام الثورة الموحدية وكيف ساعدت دراسة النشاط الاقتصادي في توضيح بعض تلك الأسباب.

لقد تبيّن لنا أن المرابطين لم يصادروا أملاك المصامدة لقاء تحالفهم مع المرابطين في أيام الفتح الأولى[٢]، والراجح أن المصامدة لم يتأثروا بمحاولة المرابطين لمراجعة الملكيات العامة التي آلت الى خاصة قبل قيام الدولة المرابطية؛ ذلك لأن المصامدة لم يكونوا من ذوي النفوذ أو السلطان وقتذاك[٣]، ولم تكشف هذه الدراسة غير باعث اقتصادي واحد كان قد أثار المصامدة، وهو الضرائب الباهظة التي فرضها المرابطون في الدور الثاني من فترتهم، والطريقة التي كانت تجبى بها تلك الضرائب[٤]. ويتأكد هذا الرأي إذا علمنا أن أصحاب ابن تومرت الأول، الذين أشارت المصادر الى مهنهم وشايعوه قبل استقراره بين المصامدة، كانوا

(١) راجع عن هذه الآراء Dozy, **Hist. des Mus. d'Esp.**, IV, pp. 248-252, 262; Lévi-Provençal, "Reflexions sur l'empire almoravide..." p. 314 sqq.,; Garcia Gómez, **Un Eclipse de la poesia en Sevilla**, pp. 22-27.

وانظر أيضاً أشباخ: تاريخ الأندلس ٢:٢٣٣، ٢٥١. وقد حلل كوديرا آراء دوزي وانتقدها (راجع (Codera, **Decadencia**, pp. 190-191.)

(٢) انظر ما سبق ص ١٣١.

(٣) راجع ما سبق ص ١٣٣ وما بعدها عن قضية محاولة مراجعة الملكيات.

(٤) انظر عنها ما سبق ص ١٦٣ وما بعدها، ٢١٠، ٢٥٩ وما بعدها.

صناعاً وربما كان بعضهم من صغار التجار[١]، وقد انخرطت قبائل المصامدة في دعوته من دون رؤسائها لما علمت ما عليه ابن تومرت من رفع المظالم والمناكر والمغارم[٢]. ومما يشير الى هذه الناحية «الطبقية» أن الموحدين تجاوزوا القبلية من بداية أمرهم، واعتبروا صنهاجة الجبل منهم[٣]، وصنهاجة هذه كانت تسكن في منطقة تادلا الزراعية. وقد كان ابن تومرت نفسه فقيراً، وكان أصحابه فقراء مثله، ولم يكن لهم من سلاح في بداية أمرهم غير الذي كانوا يغنمون من المرابطين، وكان ابن تومرت يشدد على هذا الفقر في خطبه[٤]، متخذاً من مفاسد الطبقة العليا من حاكمين وفقهاء متعاونين معهم مادة لوعظه معتبراً جهادهم أعظم من جهاد الروم[٥]. وعلى هذا فقد كانت ثورة الموحدين في جانبها الاقتصادي والاجتماعي ثورة طبقة فقيرة أرهقتها الضرائب وطريقة جبايتها. غير أن هذا الظلم الضرائبي لا يكفي لتفسير ذلك العنف الذي طبع ثورة الموحدين في بداية أمرها. ويبدو لي أن سبب العنف يرجع الى أمرين؛ أولاً: لقد اشتهر المصامدة بسفك الدماء قبل ثورتهم وبعد قيام دولتهم، وكان المرابطون يعرفون طبيعة المصامدة تلك، وقد شيد يوسف بن تاشفين عاصمته قربهم حتى يتمكن من ضبطهم[٦]؛ ثانياً: لقد خلق ابن تومرت، بالأفكار التي زرعها في نفوس المصامدة، عزلة «شعورية» بين «الموحد» ومجتمعه، فأحل دم كل مخالف له، وهكذا وجد العنف المصمودي تسويغاً دينياً فانطلق من عقاله[٧]. وعندما تحولت الثورة

(١) انظر عنهم **المعجب** ٣١٠، ٣٣٨، ٣٣٩، **وفيات الأعيان** ٣:٢٣٧، **تكميل زهر الرياض** (مخ) ٢١٤ق، **عيون التواريخ** (مخ) ١٧:٧٠ق، **تاريخ الاسلام** ١٣:٢٤٩ق، **روض القرطاس** ١١٩. ويحاول صاحب كتاب الأنساب أن يجعل عبد المؤمن قاضياً قبل الثورة (راجع **كتاب الأنساب** ٢٧). ويذكر البيذق مسلم الجناوي وابن البقال (**أخبار المهدي** ٥٧-٥٨، ٧٣)، ومن نسبتيهما ربما كانا تاجرين، وقد يكون الأول عبداً.

(٢) **نظم الجمان** ٨٧-٨٨.

(٣) انظر **أخبار المهدي** ٨٩.

(٤) عن فقر ابن تومرت انظر **المعجب** ٢٣١-٢٣٢، **وفيات الأعيان** ٥:٤٦، ٥٤؛ وعن الموحدين راجع **نظم الجمان** ٨٤.

(٥) راجع **أخبار المهدي** ٩، **المعجب** ١٨٥، **أعز ما يطلب** ٢٥٨-٢٦٢، ٢٩٠، ٢٩٦.

(٦) راجع **المعجب** ١٨٥، ١٩٢، **العبر** ٦:١٨٤.

(٧) راجع عن هذه «العزلة الشعورية» موسى: «التنظيمات الحزبية» ٦٥ وما بعدها.

الى دولة لم يجد عبد المؤمن غير العنف وسيلة لضبط الموحدين ولجم عنفهم، وقد صورت « رسالة العدل » هذا الموقف خير تصوير.

ولئن كانت ثورة الموحدين في بدايتها ثورة طبقة فقيرة من صناع وزراع فقد تغير وضعها بعد قيام الدولة وتبدل مفهوم « التوحيد » من ديني الى سياسي. وظل التباين الاجتماعي كما كان أيام المرابطين. والناظر في فصول هذه الدراسة يظهر له واضحاً جلياً أن المجتمع المغربي كان ينقسم في ثلاث « طبقات » على أساس الدخل والمستوى المعيشي والوضع الاجتماعي. لقد كانت هناك مجموعة تملك أراضي كبيرة، ولها أموال تقدر بعشرات الألوف، وكان يتولى بعض أفراد هذه المجموعة خططاً رسمية و يستثمر أمواله في الصناعة والتجارة[1]. وخير ما يصور الوضع المعيشي لهذه « الطبقة » وصف ابن سعيد لقصور مراكش الموحدية التي يستقل كل قصر منها بالديار والبساتين والحمامات والاصطبلات، حتى ان صاحب القصر ليغلق بابه على جميع خوله وأقاربه، ولا يحتاج الى شيء من خارج داره، ولا يشتري شيئاً من السوق لمأكله، ولا يقرئ أولاده في مكتب خارج بيته، ولايخرج من بابه إلا راكباً[2].

وهناك مجموعة تملك بعض الأرض والمال و يتراوح مالها بين المائة دينار والألف، وكان أفرادها يتولون خططاً إدارية: وقد تستثمر هذه المجموعة ما تملك بنفسها أو تستأجر عليه أو تشارك فيه آخرين[3]. والظاهر أن هذه المجموعة كانت

(١) انظر ما سبق ص ١٤٨وما بعدها، ٢١٤ وما بعدها،٢٧٩ وما بعدها. وعن ملكية ما يزيد على عشرة ألف دينار من الأموال انظر أيضاً **نوازل ابن رشد** (مخ) ١٦٦و، **التعريف بعياض** (مخ) ١٢٨، **الذيل والتكملة** ٥:١:٢٠٩، **الاحاطة** ١:٤١٥. وكان راتب ابن الموصلي قاضي اشبيلية خمسة آلاف دينار (**تاريخ الاسلام** (مخ) ١٣:٢١٧و). وكان ما يستفيده ابن الشلوبين من التدريس أربعة آلاف درهم في الشهر (**الذيل والتكملة** ٥:٢:٤٦٣).

(٢) **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٤٨ق، **صبح الأعشى** ٥:١٦١. وعن القصور في المغرب راجع ما سبق ص ١١٠.

(٣) انظر ما سبق ص ١٥٠، ٢١٦، ٢٧٩-٢٨٠. ويحدد ابن الخطيب غلة البستان في غرناطة بألف دينار (**الاحاطة** ١:١٢١-١٢٢)، وأجر طبيب على علاج امرأة من لمع بدا عليها ولم ينجح فيه مائة دينار (التشوف ٢٥٩-٢٦٠)، وتقدير ما يملكه زاهد من جليل وحقير بلغ سبعمائة دينار (**الذيل والتكملة** ٥:٢:٦٤٥).

تملك الدور التي تسكن فيها[1]. وكانت نفقة « معلم حديث »، ليس من أرباب الأملاك، تقدر في السنة خارجاً عن الطعام والكسوة بـ٣٦٠ ديناراً[2]، فلا غرو ان اشترى بعض رجال هذه الطبقة كرماً بأربعة دنانير ليتفكه به أولاده[3].

ولم يحدّ العصر الموحدي من نمو هاتين الطبقتين بل ساعد على رفع مستواهما وزيادة اعداد أفرادهما. لقد كانت المجموعة الأولى تتكون في العصر المرابطي من الأمراء المرابطين والفقهاء المالكيين، وبخاصة الذين تولوا خططاً كبرى، وأصبحت هذه المجموعة في العصر الموحدي تشمل السادة بني عبد المؤمن وأشياخ الموحدين[4] وأبناء الأسر السابقين[5] ثم الفقهاء المالكيين الذين لم يحافظوا على مراكزهم المتميزة السابقة فحسب، بل إن منهم من تولوا خططاً كبرى زادت في ثرائهم[6]. وكان الموحدون يحبون هذه الجماعات بالإقطاعات والعطايا الكبيرة فضلاً عن الرواتب الشهرية والكسوة والمواساة (الطعام)[7].

(١) انظر كيف أن يوسف بن عبد المؤمن لما صادر أموال عمال الادارة المالية في فاس ترك لكل منهم داراً واحدة لسكناه (**بيان موحد** ١٣١).

(٢) **الذيل والتكملة** ١:٢٤٠.

(٣) **التشوف** ١٩٤.

(٤) انظر عنهم **المعجب** ٢٣٤.

(٥) لقد عاملهم الموحدون بطريقة أفضل من المرابطين (راجع ما سبق ص ١٤٥ والمصادر المذكورة هنالك).

(٦) راجع عمن نال ثروة عريضة واعتقل أموالاً كثيرة من تولّيه القضاء **التكملة** ١:٢٢١، ٢٧٩، ٢:٥٩٨، ٨٥٢، ٩١٧، **الذيل والتكملة** ٥:١:٢٧٠، ابن سعيد، **المغرب** ١:٧١، **سلوة الأنفاس** ١:٢٢٤. ومن المفيد أن نشير الى أن ابن الخطيب قاضي بجاية سعى في عزل سيد عن ولايتها فأنفق في ذلك ١٢ ألف دينار (**الغصون اليانعة** ١٥٠-١٥١). وكان دخل الفهمي من رباعه في مراكش وحدها خمسمائة درهم في اليوم الواحد (انظر عنه وعن ثروته **الذيل والتكملة** ٥:١:٤٠٠-٤٠٢). وكان ما طولب به صاحب أشغال اشبيلية لما حاسبه المنصور على عمله مائة وخمسين ألفاً، وما دفعه أحد مساعدي ذلك العامل لما حاسبوه أيضاً بلغ خمسة عشر ألف دينار (**بيان موحد** ١٠٠-١٠١).

(٧) عن الرواتب انظر ما سبق ص ١٤٤. و يبدو أن بعضهم كان يتقاضى أكثر من مرتب، اذ كان ابن طفيل يأخذ راتبه مع المهندسين والأطباء والشعراء والرماة والجند (**المعجب** ٢٤٠). وأعطى يوسف بن عبد المؤمن في مرة واحدة للسيد أبي زيد عشرة آلاف دينار (**بيان موحد** ١٤٢)، ولهلال بن مردنيس ١٢ ألفاً (**المعجب** ٢٥٣)، وما وصل لقاضي بجاية من السيد أبي الحسن واليها كان أربعين ألفاً (**الغصون اليانعة** ١٥٣). وانظر أمثلة أخرى في **روض القرطاس** ٤٤، ١٣٣.

وقد أسهم عاملان على إنعاش حال « الطبقة الوسطى » في العصر الموحدي: تشجيع الموحدين للعاملين في الزراعة والصناعة والتجارة، وكثرة الرواتب وانتظام خروجها. لقد كانت رواتب المرابطين لا تشمل أرباب الخطط الصغرى، وفيها تمييز للجند المرابطي على الأندلسي، ولا يزيد راتب الفارس المرابطي في الأندلس عن خمسة دنانير بالإضافة الى نفقته وعلف فرسه، ولم تكن منتظمة الخروج في أواخر إمارة علي بن يوسف[1]. أما رواتب الموحدين فقد كانت تشمل جميع الجند وأرباب الخطط الإدارية التي تضاعف عددها، كما كانت الرواتب تعطى لجماعات لا تتولى أعمالاً إدارية، مثل المتصوفة والشعراء والمعلمين والمحتاجين. وكانت الرواتب تعطى في أوقات ثابتة مع مواساة وإحسان[2]. وقد تعطى رواتب إضافية استعداداً لغزو أو خروجاً الى معركة أو رجوعاً منها أو في حال تجديد بيعة أو عقد ولاية عهد[3]. ولا نعرف مقدار بركات الجند الثابتة، ولكن من المعلومات المتوفرة عن البركات الإضافية يمكن القول بأن وضع الجند الموحدي كان أفضل مما كان عليه الجند المرابطي، ذلك لأن الفارس الموحدي كان يعطى في هذه البركات الإضافية بين خمسة دنانير وعشرين ديناراً على حسب وقت العطاء ومناسبته[4]. وكان الموحدون يفضلون غير المصامدة في العطاء، إذ كان للمصامدة إقطاعات متأصلة[5]. ومما يوضح رواتب أرباب الخطط الرسمية من الطبقة المتوسطة إن راتب فقيه مشاور بالديوان كان ألف دينار في السنة[6]. وبالإضافة

(١) قارن بما سبق ص ١٦٦، ورسالة ابن عبدون ١٢، نوازل ابن رشد ١٦٦و، الحلل الموشية ٦٦.

(٢) انظر ما سبق ص ١٤٤، المن بالامامة ١٩٥، ٢٠٢، ٢٠٦، ٢١٤، ٢٥٣، ٢٨٦، ٤٣٨، بيان موحد ١٠٠، مناقب أبي العباس (مخ) ٥و، عنوان الدراية ١٧٢-١٧٣، روض القرطاس ٤٣، صلة الصلة ١٠٩، وفيات الأعيان ٣:١٤٤، بهجة الناظرين (مخ) ٥٣، ٦٠، نفح الطيبب ٣:٤١٩.

(٣) أخبار المهدي ١٢٠، نظم الجمان ٢٢٦، المن بالامامة ١٧٠، ١٩٥، ٢١٨، ٢٣١، ٢٥٣، ٢٨٦، ٢٩٢، ٤٠٨، ٤٣٦، ٥١٠، ٥١٤، بيان موحد ٢١٢، ٢٣٢، مؤنس: « عقد بيعة بولاية العهد » ١٧٢.

(٤) قارن نظم الجمان ٢٢٦، المن بالامامة ٤٣٧، ٥١٠، ٥١٤-٥١٥.

(٥) انظر ما سبق ص ١٤٤؛ وراجع أمثلة في المن بالامامة ٤٣٧، ٥١٠، ٥١٤-٥١٥.

(٦) عنوان الدراية ٣٨-٣٩.

الى هذه الرواتب كان الخلفاء والسادة كثيري العطاء لهذه الطبقة من الناس[1]. ولا ريب أن هذه الرواتب المستمرة ساعدت على ازدهار أحوال هذه المجموعة من طبقات المجتمع، كما ساعدت على إنعاش الحياة الاقتصادية ومما يدل على ذلك أن الطبقة المتوسطة اقتنت القصور في العصر الموحدي[2].

وتأتي بعد هاتين المجموعتين مجموعة ثالثة قوامها صغار الزراع والعمال الزراعيين والعامة في المدن سواء كانوا من العاملين في التجارة أو الصناعة أو في الخطط الإدارية الصغرى مثل سمار البروج[3]. ومع أن الموحدين قد عملوا على مساعدة الزراع وحماية الصناع[4]، وعمل المنصور بالذات على مساعدة الفقراء والمحتاجين بالعطايا الكثيرة والمساعدات الطبية والاجتماعية مثل أعمال الختان[5]، فإن هذه الجهود لم تؤثر على أجور هؤلاء الزراع والعاملين كثيراً. فقد ظلت وارداتهم في القرن السادس في بيئات المغرب الثلاث متقاربة، وكانت أجورهم تصل الى أربعة دراهم في اليوم لمن له رأس مال يسير يديره في تجارة أو صناعة، وكانت أجرة الصناع ذوي المهارة درهمين، ويتدنى ذلك الأجر الى نصف درهم لغير ذوي المهارة من الصناع والعمال الزراعيين ومن يخدمون التجار[6]. وربما كان الأجر، في بعض الأحيان، قيراطاً أو كسرة خبز[7]. والغالب على هذه المجموعة أن

(١) راجع أمثلة في المن بالامامة ١٥٩، ٥٢٥، المعجب ٢٧٩، ٣٠٨، لمح السحر (مخ) ٣١ق، وفيات الأعيان ٣:٢٣٩، نفح الطيب ٤:١٧٢.

(٢) انظر استنتاجات بل من العملات المكتشفة قرب تلمسان Bel, A., "Contribution...", p. 3.

(٣) راجع ما سبق ص ١٨٦ وما بعدها، ٢١٧، ٢٧٨، بيان موحد ١٠٠.

(٤) انظر ما سبق ص ١٨٤، ٢١٠، ٢٧٨.

(٥) راجع عن ذلك المعجب ٢٨٧-٢٨٨، بيان موحد ٢٠٤-٢٠٥، روض القرطاس ١٤٣، نفح الطيب ٣:١٠٤.

(٦) قارن ما سبق ص ١٨٧، ٢٠٠، ورسالة السقطي ٣٤، ٣٦، ٧٢ والتشوف ١٠٢، ١٧٧ والمعيار: ١٧ والتقييد الأبي (مخ) ٢٧و ونوازل البرزلي (مخ) ١٠٦و وابن سعيد، المغرب ١:٣٣٦-٣٣٧. وقد حلل صلاح خالص المادة التي أوردها السقطي انظر اشبيلية في القرن الخامس ٥٤ وما بعدها.

(٧) انظر عن الحالة الأولى بيان موحد ١٠٠؛ وعن فقر حراس القلاع أمثال العوام (مط.) ١٠٩، ١١٥. وراجع أمثلة عن الحالة الثانية فيما سبق ص ٢٠٠، والمعجب ١٨٢-١٨٣، والذيل والتكملة ١:٣١٩-٣٢٠.

تستأجر المسكن وتشتري حاجياتها الضرورية[١]، ولهذا تجد أفرادها أكثر «طبقات» المجتمع تأثراً بتقلب الأسعار، و يبدو أن دخلهم لم يكن يكفي لشراء الضروري من الأشياء. وكان من أمثال العوام «الأجر درهمين والبقل (الخضر) من أين»[٢]. ومن الصعب معرفة المستوى المعيشي لهؤلاء الناس معرفة تفصيلية بمقارنة دخلهم مع أسعار الأشياء، ذلك لأننا لا نملك قائمة متكاملة بأسعار الأشياء في منطقة واحدة، كما لا نعرف عدد أفراد الأسرة لأي من أفراد هذه المجموعة. ولكن يمكن القول، بصورة مجملة من أسعار بعض الأشياء التي ذكرتها المصادر[٣]، إن الفرد من هذه المجموعة لا يستطيع أن يمتلك مسكناً ولا ركوبة، ولا يقوى على كلفة السفر الى مسافات بعيدة، ولا يتمكن من اقتناء الكتب، وهي وسائل الثقافة، ولا يستطيع فداء نفسه ان وقع في أسر، وقد كانت الفترة فترة حروب، لا سيّما في البلاد الشرقية والأندلسية. وكان دخل الفرد الذي يسكن في المدينة من هذه المجموعة، على النقيض من «الطبقتين» الأخريين، ينصرف الى تأمين كراء الدار وشراء الطعام. وإذا افترض المرء أن أسرة شخص من هذا الصنف قد كانت تتكون من خمسة أفراد، وأخذ المرء بأدنى الأسعار الواردة في الملحق السادس من هذه الدراسة، يجد أن تقدير ما تحتاجه مثل هذه الاسرة هو الآتي:

كراء دار — ١٠ دراهم، إذا كان الصرف ١٢ درهماً للدينار

خبز أو شعير — ١٥ درهماً، على افتراض ثلاث خبزات أو مد مراكشي من القمح أو الشعير في اليوم الواحد للشخص الواحد[٤].

لحم — ١٥ درهماً هذا إذا استهلكت الأسرة ثلاث أوقيات مراكشية

(١) راجع أقوال أبي العباس السبتي في **مناقب أبي العباس** (مخ. الرباط) ٩٨ق-٩٩و.

(٢) **أمثال العوام** (مط.) ٤٦-٤٧، **أمثال العوام** (الاطروحة) ٢٠٦:١.

(٣) انظر الملحق رقم ٦ من هذه الدراسة.

(٤) هذا التقدير أقل مما تحتاجه أسرة رجل متوسط الحال كان يملك رحىً، وأقل مما قدر في نفقة امرأة من الطبقة المتوسطة (انظر **نوازل ابن رشد** (مخ) ١٣٦و، **التقييد الأبي** (مخ) ٢٦ق).

كسوة — ½ درهماً، على افتراض كسوتين مستعملتين للشخص الواحد من سعر عشرة دراهم للكسوة.

المجموع — ½ ٤٨ درهماً.

هذا ما عدا الزيت والسمن والحطب والبقول وما يحتاجه المنزل من أثاث. و يتضح من هذا أن من كان دخله اليومي درهمين لا يستطيع أن يقيم أود أسرته ناهيك بمن كان دخله أقل من درهمين.

ولا يستغرب بعد هذا إذا ما تذمر العامة وتبرموا بالأوضاع الاجتماعية أو نقموا على المجموعة المسيطرة التي يمثلها الحاكم، ومن أمثال العوام ما يشير الى ذلك مثل قولهم «إذا تسمع الأمير بيضحك اعرف أن قلبي بيبكي!»[١].

و يلاحظ الناظر في المصادر عن القرن السادس أن العامة كانوا يلتفون حول رجال التصوف، تعبيراً عن تذمرهم، وذلك لأن رجال التصوف كانوا يهتمون بمشكلات الفقراء والمساكين، ويخرجون عن أموالهم لأولئك الفقراء[٢]، ويحثون الأغنياء على الاحسان إليهم، و يذهب بعض المتصوفة الى أن «التوفيق» هو إطعام الطعام[٣]. و يرى أبو العباس السبتي أن آيات الصدقة تعني المشاركة، أي مشاركة الفقير للغني في ماله[٤].

(١) انظر خالص: **اشبيلية في القرن الخامس** ٤٦، نقلاً عن مخطوط **ري الأوام** للزجالي.

(٢) انظر أمثلة في **التشوف** ٨٤، ١٢٤، ١٢٩، ١٤٤، ١٦٢، ١٦٧، ٢٠٦، ٢١١، ٢٢٧، ٢٣٢، ٢٦٣، ٢٨٢، ٢٩٣، ٢٤٧، ٣٠٩، ٣٣٢، ٣٤٩، ٣٥٨، ٣٧٤، ٣٨٤، ٣٨٥، ٤٣٧، **بغية الملتمس** ١٥٦، **التكملة** ٤٢٩:٢، ٨٧١، **الذيل والتكملة** ٤٨:١، ٢٠٣:١:٥، ٢٠٩، ٣٧٢، ٦٤٥:٢:٥، **صلة الصلة** ١١٩، **الاحاطة** ٣٧٦:١، **صلحاء شلف** (مخ) ١٣٤و، **النجم الثاقب** (مخ) ١٠، ٢٨، **معالم الايمان** (مخ) ١٨١و، **السعادة الأبدية** ٥٢:٢، ١٥٣:٣.

(٣) انظر **التشوف** ٢٠٦، **سلوة الأنفاس** ١٧٤:١.

(٤) **مناقب أبي العباس** (مخ الرباط) ١٠٥و-١٠٥ق؛ وانظر كيف يرد أصول الشرع الى الصدقة (**نفح الطيب** ٢٦٨:٧، ٢٧٣).

وهناك أمران قد يدلان على أن انتشار التصوف في هذا القرن كان يعبر عن تذمر العامة:

أولاً: التلازم بين انتشار التصوف وازدياد الرفاه المادي والتباين الاقتصادي. ففي النصف الأول من القرن السادس كانت المرية وأغمات مركزي المتصوفة[1]، ثم انحسرت موجة التصوف فيهما مع اضمحلالها الاقتصادي في النصف الثاني، في الوقت الذي كان انتشار التصوف يتصاعد في البلاد الغربية بادية وحاضرة (باستثناء أغمات)[2]، وقد كانت البلاد الغربية بيئة الازدهار الاقتصادي في المغرب في القرن السادس.

ثانياً: محاولات الطامعين في السلطة في القرن السادس انتحال النهج الصوفي أسلوباً لحياتهم، وإدعاء الهداية قناعاً لعملهم السياسي، مثل الذي فعله ثائر سبتة ٥٢٠/١١٢٦[3] أو ابن قسي زعيم ثورة المريدين في غرب الأندلس، وقد حاول أن يربط حركته بابن العريف زعيم متصوفة الأندلس وقتذاك[4]. والراجح أن المرابطين كانوا يخشون الحركة الصوفية واستقطابها للعامة، فضيقوا على زعماء المتصوفة من أمثال ابن العريف وابن برجان والميورقي[5]. ولا يستبعد أن يكون

(١) راجع مقدمة اسين بلاثيوس في **محاسن المجالس** لابن العريف؛ وعن أغمات راجع **التشوف** ٨٠.

(٢) اذا اعتبرنا **كتاب التشوف** الذي صنفه ابن الزيات التادلي من رجال القرن السادس مقياساً، وأحصينا من ترجم لهم، نجد عدد تراجمه ٢٧٧ ترجمة، و يبدو أن واحدة منها دخيلة على الكتاب، لأن وفاة صاحبها كانت سنة ٦٤٠هـ، وهي ليست من شرط الكتاب الذي صُنف سنة ٦١٧/١٢٢٠ اذ اشترط التادلي ألا يترجم للأحياء (انظر **التشوف** ١٣، ٢٧٨، ٤٥٧). ولم أستطع معرفة مواطن استقرار ١٦ شخصاً، أما البقية فكان منها ٩٩ في النصف الأول من القرن السادس و ١٦١ في النصف الثاني منه و يلاحظ المرء تقلّص عدد المتصوفة في أغمات في النصف الثاني (١٩ الى ٣) وزيادتهم في مراكش (٨ الى ٤٨) وفاس (٥ الى ١٧) وأزمور (٧ الى ١٢). وعن انتشار التصوف في البلاد الغربية راجع أيضاً **التشوف** ٢٦، ٣١٣، **الذيل والتكملة** ٤:١٢٨، **نفح الطيب** ٧:١٣٦.

(٣) انظر عنه **البيان المغرب** ٤:٧٤-٧٥.

(٤) راجع **المعجب** ٢١٢، **الحلة السيراء** ٢:١٩٧ وما بعدها، **أعمال الأعمال** (ط. ليفي) ٢٤٨ وما بعدها، **العبر ١:٣٢٣.**

(٥) **التشوف** ٩٦ وما بعدها،.١٤٨-١٤٩، **معجم الصدفي** وما بعدها، **الذيل والتكملة** (مخ باريس) ٦٣.

إحراق المرابطين لكتاب إحياء علوم الدين للغزالي ذا صلة بحرب المرابطين على المتصوفة[1]، وهؤلاء (أعني المتصوفة) خشيهم الفقهاء أيضاً، فغذّوا الحملة على كتاب الاحياء[2]، إذ كان ذلك الكتاب لمتصوفة العصرين المرابطي والموحدي مرشداً ومنهاجاً[3].

و يبدو أن الموحدين أرادوا استثمار هذا التيار الصوفي الذي استقطب العامة، فربطوا حركتهم بالغزالي، مدعين تتلمذ ابن تومرت عليه من جهة[4]، وادعاء ابن تومرت المهدية من جهة أخرى، فزواج الموحدون بين الفكر الصوفي والمهدي وآمال العامة، وجاءت مهديتهم أول مهدية سنية في الغرب الإسلامي[5]. ولقد حاول ابن قسي في الأندلس ما حاوله ابن تومرت في البلاد الغربية. ولئن أخفق ابن قسي فقد نجح ابن تومرت لأنه تحصن بقبيلته، ولم ينازعه ثوار آخرون في منطقته، ولم يتعرض لخطر خارجي مثل الذي واجه ابن قسي.

وإذا كان الموحدون قد نجحوا في القضاء على المرابطين فقد أخفقوا في تحقيق آمال العامة، إذ استمر التباين الاجتماعي، وقد سبقت الإشارة الى ذلك، ولهذا تعاظم نفوذ المتصوفة، وحاول الطامحون الى الحكم استثمار الموجة الصوفية، خاصة في خلافة المنصور والناصر، فادعوا الهداية وهاجموا التباين المادي والحرمان الاجتماعي وانحراف الدولة الموحدية عن تعاليم ابن تومرت. ولئن أخفقت محاولات هؤلاء الثوار الطامعين، مثل الاشل والجزيري وابن الفرس وغيرهم[6]،

(١) راجع عن احراق الأحياء **نظم الجمان** ١٤-١٥، **معجم الصدفي** ٢٧١، **البيان المغرب** ٤:٥٩، **الحلل الموشية** ٨٥، مؤنس: « **نصوص سياسية** » ١١٣.

(٢) **فهرسة عياض** ١٦و، ٣٧ق، **التعريف بعياض** ١٢١، **التشوف** ٧٢، ١٢٤.

(٣) انظر **التشوف** ٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٩٥، **نفح الطيب** ٧:١٣٧.

(٤) انظر عن هذا الادعاء موسى: **تنظيمات الموحدين** ٣٥-٣٦؛ وقد حاول الموحدون تسويغ خلافتهم على أساس هذا اللقاء (المصدر ذاته ١٤٢).

(٥) راجع **العبر** ١:٣٢٢-٣٢٣ حيث يذكر ابن خلدون أن المتصوفة المتأخرين ابتداء من ابن قسي بدأوا يتكلمون عن ظهور المهدي.

(٦) انظر عنهم **المعجب** ٣١٦، ٣٢٧-٣٢٨، **المغرب** ١:٣٢٣، **بيان موحد** ١٢٨، ١٨١-١٨٢، ١٨٩، **نفح الطيب** ٤:٦٦، **العبر** ٦:١٦٦، ٢٥٠، ٢٥١. وابن عذاري وحده يحاول أن يربط بين حركة الجزيري والفكر الخارجي، ولكن ابن عذاري يؤكد على اهتمام الجزيري بالعامة.

فقد تركت أثراً في سياسة المنصور تجاه العامة. ويبدو أن المنصور شعر بتذمر العامة وخطورة التباين الاجتماعي، فحاول التقرب من العامة بمشروعاته الاجتماعية وعطاياه المالية واستقطب المتصوفة حوله متقرباً إليهم، مكرماً لهم، طالباً منهم الدعاء، معتبراً اياهم جنده[1]. وربما أراد المنصور ضرب المتنفذين من أشياخ الموحدين والفقهاء غير أن ظروفه لم تسعفه في ذلك[2]. ولكن على الرغم من استمرار التباين الاجتماعي يبدو أن المنصور قد نجح في جذب العامة نحوه، ولما توفي أنكر العامة موته ونسجوا حول ذلك الأساطير[3].

بيد أنه بالرغم من هذا التباين الاجتماعي والاقتصادي والاخفاق في احياء المناطق الداخلية من البلاد الشرقية، أو وقف تقلص النشاط الاقتصادي في البلاد الأندلسية، فقد ظل هذا القرن السادس يمثل التجربة العملية الأخيرة لاتحاد بيئات المغرب الثلاث اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً، وسعيها متحدة لمواجهة الخطر الخارجي. ولما لاحت بارقة أمل في بعث مشابه، مع المرينيين في القرن الثامن/الرابع عشر، تعلقت بها قلوب المغاربة في البيئات الثلاث. ولكنْ لما أخفقت المحاولة هز إخفاقها ضمائر المفكرين منهم، ولجأ المفكرون الى دراسة السياسة في محاولة لإنقاذ مجتمعهم المريض، فكتب ابن الخطيب **مقامة** في السياسة وصنف ابن رضوان **كتاب الشهب اللامعة** وجمع أبو حمو الزياني **كتاب واسطة السلوك** وخلص ابن خلدون الى كتابة مقدمته. ولئن غلب على منهج

(١) انظر في ذلك **المعجب** ٢٧٨، ٢٨٦، **مناقب أبي العباس** (مخ الرباط) ١٠٠ق، **بيان موحد** ١٤١، **روض القرطاس** ١٤٢، ١٤٣، ١٤٦، **بهجة الناظرين** (مخ) ٥١، ٦٠، ٦٣، **النجم الثاقب** (مخ) ٦٥.

(٢) انظر تشككه في مهدية ابن تومرت وتشدده مع فقهاء المالكية واعجابه بابن حزم، ورأي ابن حزم في الفقهاء الأندلسيين قد سبقت الإشارة اليه (راجع موسى: « التنظيمات الحزبية » ٨٤، **تنظيمات الموحدين** ٢٢٣ وما بعدها). ويظهر تراجعه عن ضرب المتنفذين من كونه قد أبطل جلوسه لمظالم العامة بعد أن ارتاع الأعيان (**بيان موحد** ١٤٥).

(٣) راجع في ذلك **وفيات الأعيان** ٧:١٠، **رقم الحلل** (مخ) ٤٨ق، **بيان موحد** ٢١٠، **رفع الحجب المستورة** ٢:١٥٥، **نفح الطيب** ٣:١٠٤.

الثلاثة الأول الجانب النظري، فقد تميز ابن خلدون بالمنهج العملي[1]. ويقول ابن خلدون أنه اعتمد في استنباط طبائع العمران على تحليل تاريخ المغرب لعدم اطلاعه على أحوال المشرق[2]. ويبدو لي أن تاريخ القرن السادس من تاريخ المغرب كان مرتكز بحثه، وشفيعي في هذا الاستنتاج ذلك المناخ الذي كتب فيه والشواهد الكثيرة التي أوردها من تاريخ المرابطين والموحدين تدليلاً علىٰ نظريته، وقد أشرت الى هذه الشواهد في غير موضع من هذه الفصول، وهذا الأمر يدعو الى دراسة ابن خلدون دراسة جديدة من خلال الخلفية الاقتصادية للمغرب خلال القرن السادس. كما أن هذه الخلفية الاقتصادية بذاتها تحثنا على دراسة الجذور الاقتصادية للتصوف في المغرب خلال القرن السادس لفهم طبيعة الحياة الاجتماعية والتطورات السياسية في ذلك القرن. وهذه أمور ندعو الباحثين الى التفرغ لها والتعمق في ملابساتها.

(١) انظر عن هذه الفقرة عباس: « ابن رضوان وكتابه في السياسة » في **كتاب العيد**، بيروت، الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٦٧، ص ١٤٠ وما بعدها، خاصة ص ١٤٦.

(٢) العبر ١:٣٣.

المَـلاحِـق

الملحق رقم (١)

بعض أسر الفقهاء التي لها ذكر في امتلاك أراض واسعة*

الأسرة	موطنها	المصادر
بنو طاهر	مرسية	الحلة السيراء ٢ :١١٨، الذيل والتكملة ٥ :٦٤٧
بنو العتيق	،،	الذيل والتكملة ٤ :١٧١
بنو المرخي	،،	المصدر ذاته ٥ :١، ٣١٢ المعجم ١٣٣-١٣٤، المقرب ١ :٣٧
بنو عات	شاطبة	بغية الملتمس ٤٦٩
بنو مفوز	،،	الذيل والتكملة ١ :١٤٧
بنو جحاف	بلنسية	التكملة ٢ :٨٠٦
بنو سفيان	،،	التكملة ١ :٧٦، الذيل والتكملة ١ :٤٠٦
بنو عبد العزيز	،،	التكملة ٢ :٦٩٥، ٨٠٣، ٨١٣
بنو العقيلي	،،	المصدر ذاته ١ :٤٢١
بنو عيشون	،،	المصدر نفسه ٢ :٩٣٦
بنو واجب	،،	بغية الملتمس ١٢٩، الصلة ٢ :٥٧٥
بنو عاصم	أريوله	أعمال الاعلام (ط. ليفي) ٢٥٨-٢٥٩
ابن ارساليه	غرناطة	التكملة ٢ :٥٧٧ أعمال الاعلام (ط. ليفي) ٢٥٥
بنو حسون	مالقة	التكملة ١ :٤٢١
بنو الحسن	،،	المرقبة العليا ١١٤
بنو زهر	إشبيلية	الذيل والتكملة ٥ :١ :١٨ طبقات ابن أبي أصيبعة ٢ :٦٤ وفيات الأعيان

* راجع مما سبق الفصل الرابع. وهذا جدول بمن لهم ذكر خلال القرن السادس/الثاني عشر من الفقهاء فقط. ولم يقصد به إحصاء الملاّك عامةً من مرابطين وموحدين ومَن اتصل بهم من غير الفقهاء. والمصادر هنا لم يقصد بها الاستقصاء بقدر ما أريد منها الإشارة الى أصالتهم ونباهتهم حسب التعريف في الفصل المذكور.

الأسرة	موطنها	المصادر
بنو مغيث	قرطبة	**التكملة** ١ : ١١٥، ٢ : ٨٥٤
بنو بقي	،،	**المصدر ذاته** ١ : ١١٥
بنو جرج	،،	**الذيل والتكملة** ١ : ٨١
بنو حمدين	،،	**بغية الملتمس** ٢٦١، ٤٠١
بنو رشد	،،	**بنو البلازن المغرب** ١ : ٢٤٠
بنو الضباط	،،	**المغرب** ١ : ٩٦
بنو عمر البكريون	لبلة	**التكملة** ٢ : ٨٦٠
بنو الجد	لبلة وإشبيلية	انظر الفصل الرابع **التكملة** ٢ : ٥٤٢
بنو ابن أبي حبيب	شلب	**التكملة** ٢ : ٨٣٤–٨٣٥
بنو عياض	سبتة	**التعريف بعياض** (مخ) ٤–٥
بنو حسين التميمون	،،	**التكملة** ٢ : ٩١٥
بنو سداف	حول فاس	**روض القرطاس** ٤٠
بنو الخطيب	بجاية	**التكملة** ٢ : ٩٢٣
بنو المغيلى	تلمسان	**التشوف** ٤٣٣
بنو بهلول	قسطيلة	**الاستبصار** ١٥٧

الملحق الثاني

المشرفون الماليون*

أ ــ المرابطون

الاسم	المكان	المصادر
عيسى بن الوكيل	غرناطة	**الروض المعطار** ١٩٧
محمد بن سعيد الغرناطي	،،	ابن سعيد: **المغرب** ٢ : ١٦٣ **نفح الطيب** ٣ : ٦١
عبد الملك بن سعيد الغرناطي	،،	**نفح الطيب** ٢ : ٣٣٧
محمد بن عائشة	بلنسية	**الذخيرة** (مخ بغداد) ٣ : ١٤٠، **المغرب** ٢ : ٣١٤
ابن قسى	شلب	**الحلة السيراء** ٢ : ١٩٧
عبدالله بن خيار الجياني	فاس	**أخبار المهدي** ٦٥، **الحلة السيراء** ٢ : ٢٣٥، **بيان موحد** ١٩، **الحلل الموشية** ١١١. **نفح الطيب** ٣ : ٣٢٤، **بدائع البدائه** ٢ : ١٥٧

* إن المصادر لا تذكر في أغلب الأحيان تاريخ تعيين العامل أو عزله، وعلى هذا فان ذكر العمال في مكان واحد من هذا الجدول لا يفيد تتابعهم على الخطة، كما لا يعني أنهم قد عملوا في وقت واحد، وحيثما أسعفت المصادر بينت من خلف الآخر، والمصادر التي بين أيدينا لا تسمح بأكثر من هذه الصورة المبينة في الجدول.

ب ــ الموحدون

الخليفة	الاسم	المكان	المصادر
عبد المؤمن	عبدالله بن خيار الجياني	فاس	**بيان موحد** ٢٠
	أبو إسحاق براز بن محمد المسوفي	قرطبة	**المن بالإمامة** ٢٠٧
	أبوعبدالله محمد بن المعلم	قرطبة	**المن بالإمامة** ٢٠٧
	أبوعبدالله محمد بن المعلم	إشبيلية	**المصدر ذاته** ٢٠٧-٢٠٨، ٢٥٣
يوسف بن عبد المؤمن	ابن عبد العزيز البلنسي	مراكش	**أعمال الاعلام** ٢٥٦، توفي ١١٨٢/٥٧٨
	أبوبكر يوسف الكومي	مراكش	**مناقب أبي العباس السبتي** (مخ باريس) ١٩ و.
	أبوالحسن بن هردوش	مراكش	يفهم من سياق رواية ابن عذاري انه تولى هذه الخطة ولكن الرواية لا توضح متى كان ذلك (راجع **بيان موحد** ١٠٨)
	علي بن الزند	سلا	**العبر** ٦: ١٦٦
	محمد بن عبد الملك	سلا	**المغرب** ٢: ١٦٢
	أبو الربيع عبد النور	تلمسان	**المن بالإمامة** ٤١٩
	أبوزكريا بن حيون	تلمسان	نكب في ١١٨٤/٥٧٩ (أنظر **بيان موحد** ١٢٧-١٢٨)
	إبراهيم بن اسماعيل	فاس	الى ١١٨٤/٥٨٠ (**بيان موحد** ١٤٣)
	ابن مفاخر	سجلماسة	عزل ١١٧٧/٥٧٣ **بيان موحد** ١١٢
	أبو محمد عبد الواحد اقوسقور	أفريقية	**المن بالإمامة** ٤١٨
	ابن مثنى	أفريقية	كان في هذه الخطة سنة ١١٧٤/٥٦٩ (**بيان موحد** ١٢٨) وتوفي في ١١٨٤/٥٧٩ وهو متوليها (**بيان موحد** ١٠٣)

الخليفة	الاسم	المكان	المصادر
يوسف بن عبد المؤمن	أبو الحسن علي بن حنون	؟	عز من الجباية في ١١٧٧/٥٧٣؛ ولم يبيّن ابن عذاري مكان عمله، ولكن من السياق كان يعمل في البلاد الغربية (أنظر **بيان موحد** ١١٢)
	ابن المعلم	إشبيلية	عزل في شوال ١١٦٦/٥٦١ (**المن بالإمامة** ٢٠٨، **بيان موحد** ٩٤)
	يلول بن جلداسن	إشبيلية	**المصدران ذاتها** والصفحتان نفسهما
	ابن المعلم ثانية	إشبيلية	**بيان موحد** ١١٢
	ثم ابن غمر	إشبيلية	ابن سعيد، **المغرب** ١: ٣٨٢
	أبوعمر بن أفلح	غرناطة	**بيان موحد** ١١٠
	محمد بن عبد الملك بن سعيد	غرناطة	ابن سعيد، **المغرب** ٢: ١٦٢، **الإحاطة** (مخ) ٦٩، **نفح الطيب** ٢: ٣٣٦
المنصور	أبوالحسن الهوزني	مراكش	**بيان موحد** ١٤١
	فأبو محمد الكاتب	مراكش	**بيان موحد** ١٤١
	ثم أبو محمد الكباشي	مراكش	**بيان موحد** ١٤١
	أبوموسى بن ومازير	فاس	كان على عملها سنة ٥٨٢/ ١١٨٦ (**بيان موحد** ١٥٨)
	محمد بن عبد الملك بن سعيد	غرناطة	ابن سعيد، **المغرب** ٢: ١٦٢، **نفح الطيب** ٢: ٣٣٥
	محمد بن أبي مروان بن سعيد	إشبيلية	**المن بالإمامة** ٤٨١-٤٨٢
	فأبوبكر بن زهر	إشبيلية	**المن بالإمامة** ٤٨١-٤٨٢
	ثم أبو القاسم بن نصير	إشبيلية	**بيان موحد** ١٣١؛ وقد ظل على عملها الى سنة ١١٩٦/٥٩٣

الخليفة	الاسم	المكان	المصادر
المنصور	ابن الحجاف	مرسية	كان على عملها في سنة ٥٨٣/ ١١٨٧ (**بيان موحد** ١٧١)
	فابن رجا	مرسية	**المصدر ذاته** والصفحة نفسها
	ثم ابن سليمان	مرسية	**بيان موحد** ١٧٢
	يزيد بن طبقلاب	المرية	**المغرب** ٢: ٢٠٥
الناصر	محمد بن عبد الرحمن الغرناطي	مراكش	تولاها بعد غرناطة ؛ أنظر **الاحاطة** (مخ) ٦٥
	موسى بن عيسى بن المناصف	مراكش	ابن سعيد، **المغرب** ١: ١٠٧
	ابن عبد الصمد	سبتة	ابن سعيد، **المغرب** ٢: ٣١٨، **الرايات** ٨٦
	ناصح مملوك الناصر	سبتة	**التذكار** (مخ) ٣٩ و٤ وقد كان على عملها في ٦٠٢/١٢٠٦
	محمد بن يحيى بن تاكفت	سبتة	كان عليها في آخر ٦٠٧/١٢١١ (**بيان موحد** ٢٣٧)
	ابن يوجان	فاس	كان عليها في سنة ٦٠١/١٢٠٤ (**بيان موحد** ٢١٤)
	أبو الحسن بن أبي بكر	فاس	نكب في محرم ٦٠٤/١٢٠٧ (**بيان موحد** ٢٢٦)
	داود بن أبي داود	فاس	كان عليها حتى آخر ٦٠٧/١٢١١ (**بيان موحد** ٢٣٧)
	أبو الربيع بن أبي عمران	مكناسة	نكب في محرم ٦٠٤/١٢٠٧ (**بيان موحد** ٢٢٦)
	ابن يوجان	أفريقة	قبل فاس ؛ أنظر **بيان موحد** ٢١٤
	داود بن أبي داود	أفريقية	كان عليها في ٦٠٢/١٢٠٦ (**بيان موحد** ٢١٩)

الخليفة	الاسم	المكان	المصدر
الناصر	داوا بن أبي داود	توزر	آخر ٦٠٧/١٢١١ (**بيان موحد**)
	أخو ابن أبي داود	قابس	آخر ٦٠٧/١٢١١ (بيان موحد ٢٣٤)
	داود بن أبي داود يوسف بن عمر الحسن بن واجاج	إشبيلية	عزل في عام ٥٩٣/١١٩٧ (**بيان موحد** ٢٠٠) و يبدو أنه خلف بابن عمر الذي نكب في ٦٠٤/ ١٢٠٧ فحل محله الحسن (**بيان موحد** ٢٢٧)
	محمد بن عبد الرحمن الغرناطي	غرناطة	**الاحاطة** (مخ) ٦٥
	أبو عامر محمد بن حسون	مالقة	**الذيل والتكملة** ٤: ٢١٤
	أبو علي بن يبق	مالقة	ابن سعيد، **المغرب** ١: ٢٤٩

الملحق الثالث

التقويم الزراعي

الشهر / نوع العمل	الزراعة	الغرس	أشياء أخرى
يناير	ـ زريعة البصل (١) ـ حرث أرض القطن (٢) ـ الكمون (٣) ـ الكزبر (٤)	ـ زبر الكروم وتكريبها وغرس الزيتون والرمان. (٥) ـ زرع فسيل النخل ونقله بعد عامين ـ غرس التفاح ونقل نوامي اللوز والسفرجل والإجاص (٧)	ـ قطع الخشب (٨) ـ رعي الخيل وتواضع البقر (٩)
فبراير	ـ زريعة الفستق (٢٠) ـ زراعة بقول الصيف (٢١) ـ زراعة الحمص البكير (٢٢) ـ عدى أرض السقي (٢٣)	ـ زريعة الصنوبر ثم نقله بعد عامين (١٣) ـ غرس وتد الرومان (١٤) ـ استمرار غرس التفاح (١٥) ـ غرس بصل الزعفران (١٦) ـ زريعة الأترج (١٧) ـ تركيب الإجاص والتفاح (١٨) ـ نقل تكابيس الزيتون (١٩)	ـ تحضين بيض الحرير (١٠) ـ نتاج الا بل ـ استمرار رعي الخيل (١١).
مارس	ـ زراعة الحمص المتأخر (٢٤) ـ زراعة القطن والعصفر (٢٥) ـ غرس قصب السكر (٢٦) ـ زراعة الانسيون (٢٧) ـ ربما زرع القمح والشعير (٢٨) ـ يظهر الورد المبكر والسوسن (٢٩) ـ يبدأ عقد الفول (٣٠)	ـ زراعة التين من التكابيس (٣١) ـ يركب الشجر تركيباً (٣٢) ـ غراسة الزيتون المتأخر (٣٣)	ـ يتولد دود الحرير (٣٤) ـ يبين نتاج الخيل وهوجوقت شرائها (٣٥)

الشهر / نوع العمل	الزراعة	الغرس	أشياء أخرى
أبريل	ـ جمع نوار البنفسج (٣٦) ـ غرس قضبان الياسمين (٣٧) ـ زراعة الحنا والأرز واللوبيا بستانياً (٣٨) ـ زراعة السمسم (الجلجلان) (٣٩)	ـ يذكر النخل و يقلم سعفه (٤٠) ـ تضرب أوتاد الأترج (٤١) ـ تركيب ألوان من العنب (٤٢)	ـ تطلق فحول الخيل على الرّمك في البوا فتعلقها، وحملها أحد عشر شهراً ووضعها في منتصف أبريل (٤٣)
مايو	ـ ٥ منه حصاد شعير السواحل و ٢٥ منه حصاد الداخل (٤٤) ـ زراعة الدخن والذرة والأرز (٤٥) ـ زراعة الزعفران بستانياً (٤٦)	ـ باكور التفاح وعيون البقر (٤٧)	ـ يعمل النحل العسل (٤٨) ـ جمع الحرير (٤٩) ـ تصاد الأفاعي لعمل الترياقات (٥٠)
يونيو	ـ ٢٠ منه حصاد القمح (٥١) ـ جمع ضرائب القمح (٥٢) ـ جمع الأعشاب للترياقات (٥٣)	ـ يبدأ تين السواحل (٥٤) ـ يبدأ باكور العنب (٥٥)	ـ عزل فحول الخيل عن الرمك (٥٦) ـ صيد الا بل والتيو البرية للقسي(٥٧)
يوليو	ـ يستمر حصاد القمح وجمع ضرائبه (٥٨)	ـ نضح العنب وتخريصه (٥٩) ـ تزبيب التين في السهل (٦٠) ـ جمع التفاح والكمثرى السكري (٦١)	
أغسطس	ـ زراعة الفول الخريفي البستاني (٦٢) ـ يحصد الأرز (٦٣) ـ حرث أرض الزيتون والكروم (٦٤) ـ حصاد الأنسيون (٦٥)	ـ جمع التمر باكورة (٦٦) ـ يطيب الرمان والخوخ ومتأخر الكمثرى السكري (٦٧)	ـ يبدأ قطع الخشب و يستمر الى يناير (٦٨) ـ جمع ضرائب الحرب ـ تفصل الفصلان عن أمهاتها و يكثر اللبن (٧٠)

نوع العمل / الشهر	الزراعة	الغرس	أشياء أخرى
سبتمبر	ــ يبدأ قصب السكر (٧١) ــ حصاد السمسم (٧٢) ــ حصاد القطن (٧٣) ــ حرث المناطق الجبلية وربما زراعتها (٧٤)	ــ قطف الخوخ والرمان والسفرجل وجمع الجوز والصنوبر والبلوط والقسطل وقطع الحناء (٧٥) ــ زريعة اللوز والجوز وغرس التين (٧٦)	ــ جمع بيض النعام (٧٧)
أكتوبر	ــ تخريص الزيتون وجمعه (٧٨) ــ تستمر الحراثة في المناطق الجبلية وتبدأ في السهول كما تبدأ الزراعة (٧٩) ــ زراعة الفول البكير (٨٠)	ــ تركيب ألوان من العنب (٨١) ــ غرس الزيتون البكير والجوز والخوخ واللوز والتين والإجاص (٨٢)	ــ يستمر قطع الخشب (٨٣) ــ تتواضع الغنم وتكثر و يوجد اللبن بكميات كثيرة (٨٤)
نوفمبر	ــ قلب أرض الزرع (٨٥) ــ جمع القصب (٨٦) ــ جمع الزعفران (٨٧)	ــ جمع الزيتون في المناطق الداخلية (٨٨) ــ غرس الكروم صحراو ياً و بعلياً (٨٩) ــ غرس التين من النقل (٩٠) ــ نهاية موسم جمع البلوط والقسطل (٩١)	
ديسمبر	يبدأ النرجس في الجبال والبساتين (٩٢)	ــ يطيب أول الأترج (٩٣)	

التعليقات

١ - تقويم قرطبة 29 .p.
٢ - كتاب الفلاحة ١١٤.
٣ - المصدر ذاته ١٢١-١٢٢.
٤ - المصدر نفسه ١٢٤ وقد تستمر الى مارس.
٥ - تقويم قرطبة pp. 29, 37، رسالة ابن البناء ٢،٣، كتاب الفلاحة ٦٢.
٦ - تقويم قرطبة p. 23، كتاب الفلاحة ٥٩، ٦٠.
٧ - المصدر الأخير ٦٤، ٦٧، ٧١.
٨ ــ رسالة ابن البناء ٣.
٩ ــ تقويم قرطبة 37 .p.
١٠ - تقويم قرطبة 49، رسالة ابن البناء ٥.
١١ - تقويم قرطبة 43 .p.
١٢ - المصدر ذاته 49 .p.
١٣ - كتاب الفلاحة ٨٤.
١٤ - المصدر ذاته ٦٤.
١٥ - المصدر نفسه ٦١.
١٦ - تقويم قرطبة 49 .p، رسالة ابن البناء ٥.
١٧ - كتاب الفلاحة ٨٠.
١٨ - تقويم قرطبة 49 .p، رسالة ابن البناء ٥.
١٩ - كتاب الفلاحة ٨٧.
٢٠ - المصدر ذاته ٨٣.
٢١ - تقويم قرطبة 49 .p، رسالة ابن البناء ٥.
٢٢ - كتاب الفلاحة ١٠٩.

٢٣ – كتاب الفلاحة ٦٣، ١١٢.
٢٤ – المصدر نفسه ١٠٩.
٢٥ – تقويم قرطبة p. 63، رسالة ابن البناء ٧، ابن العوام ٢:٤٣٩.
٢٦ – المصادر ذاتها والصفحات نفسها، كتاب الفلاحة ١١٤.
٢٧ – كتاب الفلاحة ١٢٤.
٢٨ – رسالة ابن البناء ٧.
٢٩ – تقويم قرطبة p. 62، رسالة ابن البناء ٧، ابن العوام ٢:٤٣٩.
٣٠ – المصادر نفسها والصفحات ذاتها.
٣١ – كتاب الفلاحة ٦٥، ٨٧.
٣٢ – تقويم قرطبة p. 62، رسالة ابن البناء ٦، ابن العوام ٢:٤٣٩.
٣٣ – كتاب الفلاحة ٦٠.
٣٤ – تقويم قرطبة p. 63، رسالة ابن البناء ٧، ابن العوام ٢:٤٣٩.
٣٥ – تقويم قرطبة، pp. 57, 63.
٣٦ – المصدر نفسه p. 76، رسالة ابن البناء ٨، ابن العوام ٢:٤٤٠.
٣٧ – تقويم قرطبة p. 77، رسالة ابن البناء ٨.
٣٨ – المصدران ذاتهما والصفحات نفسهما.
٣٩ – كتاب الفلاحة ١١٤.
٤٠ – تقويم قرطبة p. 76، رسالة ابن البناء ٨.
٤١ – المصدران ذاتهما p. 77 ص ٨ على التوالي، كتاب الفلاحة ٧٩، ٨٠.
٤٢ – كتاب الفلاحة ٧٩.
٤٣ – تقويم قرطبة pp. 70-71، رسالة ابن البناء ٨، العوام ٢:٤٩٢.
٤٤ – تقويم قرطبة pp. 83, 87، ابن العوام ٢:٤٤٠.
٤٥ – رسالة ابن البناء ١٠.
٤٦ – كتاب الفلاحة ١١٧.
٤٧ – تقويم قرطبة p. 90.
٤٨ – تقويم قرطبة p. 90 رسالة ابن البناء ١٠.

٤٩ – تقويم قرطبة p. 91،
٥٠ – رسالة ابن البناء ١٠.
٥١ – تقويم قرطبة p. 99.
٥٢ – المصدر ذاته p. 103.
٥٣ – المصدر نفسه p. 101.
٥٤ – المصدر ذاته p. 104.
٥٥ – المصدر نفسه p. 104.
٥٦ – المصدر ذاته p. 97، ابن العوام ٢:٤٩٢.
٥٧ – تقويم قرطبة 105، كتاب الفلاحة ١١٢.
٥٨ – تقويم قرطبة pp. 118, 103، رسالة ابن البناء ١٣.
٥٩ – المصدران ذاتهما pp. 119, 118، ص ١٢ على التوالي.
٦٠ – تقويم قرطبة p. 119.
٦١ – المصدر نفسه p. 119، رسالة ابن البناء ١٢.
٦٢ – تقويم قرطبة p. 133.
٦٣ – رسالة ابن البناء ١٣.
٦٤ – كتاب الفلاحة ٥٩، رسالة ابن البناء ١٣–١٤.
٦٥ – كتاب الفلاحة ١٢٤.
٦٦ – تقويم قرطبة p. 123.
٦٧ – المصدر ذاته pp. 132-133، رسالة ابن البناء ١٣.
٦٨ – المصدران ذاتهما p. 123، ص ١٢ على التوالي.
٦٩ – تقويم قرطبة p. 133.
٧٠ – المصدر نفسه p. 123.
٧١ – المصدر ذاته p. 145.
٧٢ – كتاب الفلاحة ١١٤.
٧٣ – كتاب الفلاحة ١١٥.
٧٤ – تقويم قرطبة p. 145.

٧٥ - المصدر ذاته p. 145، كتاب الفلاحة ١١٨-١١٩.
٧٦ - كتاب الفلاحة ٧١-٧٢، رسالة ابن البناء ١٥.
٧٧ - تقويم قرطبة p.143.
٧٨ - المصدر نفسه p. 159.
٧٩ - المصدر ذاته pp. 149, 153، رسالة ابن البناء ١٦، كتاب الفلاحة ٧٩، ١١٠، ١٢١.
٨٠ - تقويم قرطبة p. 153.
٨١ - كتاب الفلاحة ٧٩.
٨٢ - المصدر نفسه ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٧، ٧٠، رسالة ابن البناء ١٦.
٨٣ - رسالة ابن البناء ١٥.
٨٤ - تقويم قرطبة p. 159.
٨٥ - المصدر ذاته p. 173.
٨٦ - المصدر نفسه p. 173.
٨٧ - تقويم قرطبة p. 173، رسالة ابن البناء ١٧.
٨٨ - رسالة ابن البناء ١٨.
٨٩ - كتاب الفلاحة ٧٥، رسالة ابن البناء ١٧.
٩٠ - كتاب الفلاحة ٦٤.
٩١ - تقويم قرطبة p. 173.
٩٢ - المصدر ذاته p. 186، رسالة ابن البناء ١٩.
٩٣ - تقويم قرطبة p. 186.

الملحق الرابع

الحاصلات ومناطقها*

أ ــ البلاد الشرقية

المحصول	قمح	شعير وحنطة		حبوب أخرى			فواكه وأزهار			حرير			قصب سكر			زيتون		
المنطقة	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو
طرابلس	١	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
قابس	–	–	–	–	–	–	٢	٢	٢	٣	٣	٣	٤	–	–	–	٥	–
ساحل تونس الشرقي	–	٦	–	–	–	٧	٧	–	٧	–	–	–	٨	–	–	٩	٩	٩
قفصة	–	–	–	١٠	–	١٠	–	–	١١	–	–	–	–	–	–	–	–	–
قسطيلية	–	–	–	–	–	–	–	١٣	١٣	–	–	–	–	–	–	–	–	–
نفزاوة	–	–	–	–	–	–	–	١٥	١٥	–	–	–	–	–	–	–	–	–
الزاب	١٦	١٦	١٦	–	١٦	١٦	–	١٧	١٧	–	–	–	–	–	–	١٨	–	١٨
هضاب تل أطلس الشرقي	١٩	١٩	–	١٩	١٩	١٩	–	–	٢٠	–	–	–	–	–	–	–	–	–
ساحل تل أطلس الشرقي	–	٢١	–	–	–	–	–	٢٢	٢٢	–	–	–	–	–	٢٣	–	–	–

المحصول	الزعفران			التمر			القطن والكتان			الخشب			الأعشاب الطبية			أشياء أخرى		
المنطقة	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو
طرابلس	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
قابس	–	–	–	–	٢٤	٢٤	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
ساحل تونس الشرقي	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	٢٦	–	–	–	–	–	–
قفصة	–	–	–	٢٧	٢٧	٢٧	–	٢٨	–	–	–	–	–	–	–	–	٢٨	–
قسطيلية	–	–	–	٢٩	٢٩	٢٩	–	–	٣٠	–	–	–	–	–	–	–	٣٠	–
نفزاوة	–	–	–	–	–	٣١	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
الزاب	–	–	–	٣٢	٣٢	٣٢	٣٣	٣٣	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
هضاب تل أطلس الشرقي	٣٤	٣٤	–	–	–	–	٣٥	–	–	–	–	–	–	–	–	–	٣٦	–
ساحل تل أطلس الشرقي	–	–	–	–	–	–	–	٣٧	٣٧	٣٨	٣٨	٣٨	–	٣٩	–	–	–	–

التعليقات

يقوم بناء هذه الجداول على ما يذكره البكري والادريسي وصاحب الاستبصار وابن سعيد المغربي. فالأول يمثّل ما كان عليه الوضع قبل القرن السادس، والثاني يذكر الحال الذي طرأ نتيجة للغزو الهلالي وقيام الدولة المرابطية ثم ما جدّ في البلاد الغربية من جراء الثورة الموحدية؛ والثالث والرابع يعطيان صورة لما استقر عليه الحال مع قيام الموحدين. ولما كان الجغرافيون العرب يأخذ بعضهم من بعض من غير أن يذكروا ذلك في كثير من الأحيان، كان لا بدّ من مقابلة هذه المصادر بعضها مع البعض حتى يستخرج ما يمثل فترة الكاتب منهم، مع محاولة التأكد من النتائج أو نضيبها بما تورده المصادر التاريخية والكتب الفقهية، خاصة منها كتب النوازل. والرموز المستعملة في هذه الجداول هي الآتية:

ق ـــ قبل القرن السادس/الثاني عشر.

مص ـــ في ظل حكم المرابطين وصنهاجة الشرق.

مو ـــ على أيام الموحدين في القرن السادس/الثاني عشر.

والجدير بالذكر أن ما يذكر هنا يمثل ما يكفي الحاجة المحلية ويصدر فائضه. وإذا ذكر اسم المدينة يُعنى به المنطقة الإدارية حسب الاصطلاح الموحدي (راجع عن تنظيمات الموحدين الإدارية موسى: **تنظيمات الموحدين ونظم دولتهم** ٢٠٤ وما بعدها). والأرقام تشير الى أرقام التعليقات مع الإشارة الى وجود المحصول المبين في الفترة المعينة. والعلامة الاعتراضية (ـــ) تعني أن المصادر لا تذكر شيئاً.

١ ـــ كان فحص سوجين ينتج القمح والحنطة (البكري، **المغرب** ٩).

٢ ــ البكري، **المغرب** ١٧، **نزهة المشتاق** (ط. د) ١٠٦، ١٠٧، **الاستبصار** ١١٣، **المعجب** ٣٤٩، ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٤٤؛ والموز لا يوجد بأفريقية إلا بها.

٣ ــ يقول البكري أنه ليس بأفريقية حرير إلاّ في قابس (**المغرب** ١٧)؛ و يستنتج من الادريسي أن إنتاج الحرير قد قلّ كثيراً (راجع **نزهة المشتاق** (ط.د.) ١٠٦، ١٠٧)، و يبدو أنه قد كثر مرة أخرى (أنظر **الاستبصار** ١١٣)، ولا يذكر ابن سعيد عنه شيئاً (**كتاب الجغرافية** ١٤٤).

٤ ــ الكبري، **المغرب** ١٧.

٥ ــ **نزهة المشتاق** (ط. د.) ١٠٦.

٦ ــ أنظر مثلاً حول تونس وداخل ربضها نزهة المشتاق (ط. د.) ١١١.

٧ ــ اللوز من جلولا وتونس (**الاستبصار** ١١٩، ١٢١)، وأما الفواكه فقد ذكر البكري أن جلولا كانت تمير القيروان وسوسة وتونس (**المغرب** ٣٢، ٣٤، ٤١)، ثم يذكر صاحب الاستبصار أنها على أيامه كانت تمير تونس خاصة بالتين (**الاستبصار** ١١٩، ١٢١).

٨ ــ في جلولا قرب المهدية (أنظر البكري، **المغرب** ٣٢).

٩ ــ أنظر مادة صفاقص في كل مصادر الجدول الأساسية.

١٠ ــ فستق كثير يصدر الى مصر والمغرب والأندلس، وهو أكبر جرماً من الشامي (أنظر البكري، **المغرب** ٤٧، **الاستبصار** ١٥٣، ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٢٦، **صبح الأعشى** ٥:١٠٧).

١١ ــ عن فواكه قفصة ومطماطة راجع **الاستبصار** ١٥٠، ١٥٣ وابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٢٦، **زوائد العطاء الجزيل** (مخ) ٦. وعن ورودها التي يصنع منها ماء الورد أنظر **الاستبصار** ١٥٤.

١٢ ــ في قفصة وحامة مطماطة (أنظر الاستبصار ١٥٠، ١٥٣، **زوائد العطاء الجزيل** (مخ) ٦).

١٣ ــ عن فواكه توزر وتقيوس ونفطة وحامة بني بهلول راجع **نزهة المشتاق** (ط. د.) ١٠٤، **الاستبصار** ١٥٦، ١٥٧، **كتاب الجغرافية** ١٢٧.

١٤ ــ في المناطق المذكورة في الحاشية السابقة أنظر **الاستبصار** ١٥٦، ١٥٧، **صبح الأعشى** ٥:١٠٦ - ١٠٧ (رواية ابن سعيد).

١٥ ــ في طرة وبشرى (**الاستبصار** ١٥٧-١٥٨).

١٦ - تؤكد رواية البكري على كثرة الشعير لا سيّما في تهوذا وباديس (**المغرب** ٧٣، ٧٤)؛ ولكن الادريسي يصف انعدام الحنطة والشعير خاصة في توزر (**نزهة المشتاق**) (ط. د.) ١٠٤) إلا في المناطق الحصينة مثل طبنة ومقرة والمسيلة، وقد كانت أرباضها داخل أسوارها (راجع **المصدر ذاته** ٨٦، ٩٣، ٩٤). و يبدو أن الوضع عاد الى سيرته الأولى مع الموحدين (أنظر **الاستبصار** ١٧٣ عن شعير باديس). أما عن الحبوب الأخرى فقد ذكر الادريسي الجوز في تقاوس (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٩٤)، و يبدو أن زراعته اتسعت في الفترة الموحدية إذ يقول صاحب الاستبصار انه يحمل الى القلعة وبجاية (**الاستبصار** ١٧٢).

١٧ ــ في المسيلة وطبنة وباديس (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٩٣، **الاستبصار** ١٧٣)، و يضيف ابن سعيد أنها تحمل الى تونس وبجاية (**كتاب الجغرافية** ١٢٦).

١٨ ــ في بسكرة (البكري، **المغرب** ٥٢، **الاستبصار** ١٧٣).

١٩ ــ يقول البكري ان هذه المنطقة كانت مصدر القمح والشعير والحمص والفول مثلها مثل الأنصارين وتامديت وباجة التي كانت تسمى هرى أفريقية، وتردها الألف والأكثر من الدواب كل يوم لحمل الميرة (راجع **المغرب** ٤٧، ٥٣، ٥٦)، ولكن الادريسي لا يذكرها كمصدر لهذه الحبوب، بل لا يشير الى زراعتها إلا في المناطق الحصينة مثل باجة وتامديت ومرماجنة والأربس وأبه وباغاية وطامجنة وتيفاش وقسطنطينة، و يعزو انحسار الزراعة الى سيطرة العرب الهلالية (أنظر **نزهة المشتاق** ٨٦، ٩٥، ٩٦، ١٠٤، ١١٥، ١١٧، ١١٨، ١٢٠). و يبدو أن السيطرة الموحدية لم تفد كثيراً لأن مناطق الزراعة ظلت هذه المناطق المسورة ولا ترد إشارات الى خارج الأسوار إلاّ قليلاً (أنظر أمثلة في **الاستبصار** ١٦٠، ١٦٦، ١٦٧).

٢٠ ــ في قسطنطينة وميلة وسطيف والغدير وتبسة. ويحمل الجوز من سطيف الى سائر الأقطار (**نزهة المشتاق** ٩٨، **الاستبصار** ١٣٠، ١٦٣، ١٦٦، ١٦٧).

٢١ ــ يقول الادريسي ان القمح والشعير في بادية المدن الساحلية يزيدان عن الحاجة، وربما يتجر بها مثل بونة وبرشل وشرشال والجزائر ومرسى الدجاج وتدلس وبجاية (**نزهة المشتاق** ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩٨، ١١٧).

٢٢ ــ خاصة السفرجل وتين مرسى الدجاج الذي يحمل شرائح الى سائر الأقطار وعنب جيجل (راجع **نزهة المشتاق** ٨٨، ٨٩، ٩٠، **الاستبصار** ١٢٧، ١٢٨، ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٤٢).

٢٣ ــ في الجزائر (**مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٤٧ق، **صبح الأعشى** ٥:١٧٦ رواية ابن سعيد).

٢٤ ــ **نزهة المشتاق** ١٠٦، ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٤٤.

٢٥ ــ يذكر ابن سعيد الحناء (أنظر **كتاب الجغرافية** ١٤٤).

٢٦ ــ يورد ابن سعيد أن الخشب والقصب لعمل الأقلام يحمل من طبرقة أفريقية الى الحضرة التونسية (**كتاب الجغرافية** ١٤٣). ولا ندري هل هذا مما استحدث في الدولة الحفصية أم هو أمر بدأ منذ أيام الموحدين.

٢٧ ــ البكري، **المغرب** ٤٧، **نزهة المشتاق** ١٠٤، **كتاب الجغرافية** ١٠٧، **الاستبصار** ١٥٣، ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٢٦، **زوائد العطاء الجزيل** (مخ) ٦).

٢٨ ــ يذكر الادريسي القطن والحناء والكمون (**نزهة المشتاق** ١٠٤).

٢٩ ــ يقول البكري بأن ألف بعير موقورة ثمراً وازيد تخرج كل يوم من توزر والحمة ونفطة وبني بهلول (**المغرب** ٤٨)، ويذكر الأدريسي تمرها ولا يشير الى التجارة فيه (أنظر **نزهة المشتاق** ١٠٤)؛ ونفس معلومات الادريسي ترد في **كتاب الجغرافية** ١٠٧، غير أن الاستبصار يردد ما ذكره البكري ويحدد الأسواق بأنها أفريقية والصحراء (راجع **الاستبصار** ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧)، فكأن الوضع قد عاد مع الموحدين لما كان عليه قبل الغزو الهلالي.

٣٠ ــ ذكر ابن سعيد كتان توزر والنيلة والحلفا (**كتاب الجغرافية** ١٢٧) وأورد الادريسي الحناء والكمون والكروياء في تقيوس (**نزهة المشتاق** ١٠٤).

٣١ ــ **الاستبصار** ١٥٧، ١٥٨.

٣٢ ــ التمر الكسبا ــ وهو الصيحاني ــ والليارى ــ وهو أبيض أملس ــ في بسكرة (البكري، **المغرب** ٥٢، **نزهة المشتاق** (ط. د.) ٩٤، **الاستبصار** ١٧٣، هذا بالإضافة الى تمر تهودا وطبنة ومقرة والمسيلة وباديس (البكري، **المغرب** ٧٣، **نزهة المشتاق** (ط. د.) ٩٣، **الاستبصار** ١٧٢، ١٧٣، ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٢٦).

٣٣ ــ قطن في المسيلة (البكري، **المغرب** ٥٩، **نزهة المشتاق** (ط. د.) ٨٦) وطبنة (**المصدر الأخير** ٩٣).

٣٤ ــ الزعفران في الأربس وابة وسبيبة فيما يرويه البكري (**المغرب**، ٤٦، ٥٣، ١٤٦)، بينما يقول الادريسي بوجود الزعفران في أبة ولكنه يذكر أنه يجود في سبيبة، وقد كان يزرع في مجانة (**راجع نزهة المشتاق** (ط. د.) ١١٧، ١١٨).

٣٥ ــ يقول البكري ان فحص متيجة أكثر تلك الجهات كتانا. ومنها يحمل الى الجهات (**المغرب** ٦٥).

٣٦ ــ يذكر الادريسي الكمون والكروياء في سبيبة (**نزهة المشتاق** (ط.د.) ١١٩).

٣٧ ــ يورد الادريسي كتان بونة (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ١١٧)، ويذكر ابن سعيد إنتاج القطن شرقي بجاية (**كتاب الجغرافية** ١٤٢).

٣٨ ــ يقول البكري ان الزان كان موجوداً قرب زانة، ويحمل منها الى القيروان، ولكن الادريسي يقول كان فيها مما يدل على أنه انتهى في أيامه أو توقف إنتاجه (راجع **المغرب** ٥٤، **نزهة المشتاق** (ط. د.) ١١٦-١١٧). ويؤكّد الادريسي أن الخشب كان يحمل من جبل بجاية الى المدينة لصناعة الأساطيل (**المصدر ذاته** ٩٠).

٣٩ ــ جمع الأعشاب الطبية من جبل بجاية (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٩٠).

ب ــ البلاد الغربية

المحاصيل	قمح شعير وحنطة			حبوب أخرى			فواكه وأزهار			حرير			قصب سكر			زيتون		
المنطقة	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو
تلمسان	–	١	١	٢	–	٢	–	٣	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
جبال غمارة وسهولها	–	٤	٤	–	٥	–	–	٦	٦	–	–	–	–	٧	٧	–	–	–
فاس	–	٨	٨	–	–	٩	١٠	١٠	١٠	–	–	–	–	–	–	–	–	–
تادلا	–	١٢	١٢	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
سلا والسهول الغربية	–	١٣	١٣	–	١٤	–	–	–	–	–	–	–	–	–	١٥	–	–	–
مراكش	–	١٦	١٦	–	١٧	١٧	–	١٨	١٨	–	–	–	–	–	١٩	–	–	–
السوس	–	٢١	٢١	–	٢١	٢١	–	٢٢	٢٢	–	–	–	–	٢٣	٢٣	–	–	–
درعة وسجلماسة	٢٤	٢٤	٢٤	–	–	٢٥	٢٦	–	٢٦	–	–	–	–	–	–	–	–	–

المحصولات	الزعفران			التمر			القطن والكتان			الخشب			الأعشاب الطبية			أشياء أخرى		
المنطقة	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو
تلمسان	–	–	–	–	–	٢٨	٢٩	–	–	–	–	–	–	–	–	–	٣٠	–
جبال غمارة وسهولها	–	–	–	–	–	–	–	٣١	–	–	–	٣٢	–	–	–	–	–	–
فاس	–	–	–	–	–	–	٣٣	–	–	٣٤	–	٣٤	–	–	٣٥	–	–	–
تادلا	–	–	–	–	–	–	–	٣٦	٣٦	–	–	–	–	–	–	–	–	–
سلا والسهول الغربية	–	–	–	–	–	–	–	٣٧	٣٧	–	–	–	–	–	–	–	٣٨	–
مراكش	–	–	–	–	–	٣٩	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	٤٠	–
السوس	–	–	–	–	٤١	٤١	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
سجلماسة ودرعة	–	–	–	٤٣	٤٣	٤٣	–	٤٤	–	٤٥	–	–	–	–	–	–	٤٦	–

التعليقات

١ ــ في سهول تلمسان الساحلية وهضاب تاهرت، وتحمل الحنطة والقمح والشعير في المراكب الى الأندلس وغيرها (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٨٠، ٨٣، ١٠٠). ويذكر صاحب الاستبصار بالإضافة الى ذلك فحص زيدور للقمح وكذلك مليانة على وادي شلف ووادي ملوية، ويقول ان الطعام يحمل من تنس الى أفريقية والمغرب والأندلس (**الاستبصار** ١٣٣، ١٣٤، ١٧١، ١٧٣)؛ والى هذا الشيء تشير روايتا صاحب كتاب الجغرافية وابن سعيد (أنظر **كتاب الجغرافية** ١١٣، ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٤٢).

٢ ــ ينص البكري وصاحب الاستبصار على الجوز (**المغرب** ٧٦، **الاستبصار** ١٧٦).

٣ ــ خاصة تين باجة وتنس اللذان يحملان شرائح الى الأقطار (**نزهة المشتاق** ٨٠، ٨٣)؛ وعن مليانة أيضاً أنظر **الاستبصار** ١٧١.

٤ ــ يقول الادريسي إن القمح والشعير في المنطقة من البصرة الى طنجة (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ١٦٩-١٧٠)، وعند صاحب الاستبصار تمد من وادي سبو الى طنجة وسبتة بما في ذلك جبال غمارة (**الاستبصار** ١٨٨-١٩١)؛ وعن جبال غمارة أنظر أيضاً **العبر** ٦:٢١٠.

٥ ــ يقول الادريسي ان سائر الحبوب في المنطقة بين قصر صنهاجة وطنجة ــ أي منطقة البصرة ــ (أنظر **نزهة المشتاق** (ط. د.) ١٦٩-١٧٠.

٦ ــ عن فواكه سبتة انظر **نزهة المشتاق** (ط. د.) ١٦٧، وعن جبال غمارة راجع **الاستبصار** ١٩٠.

٧ ــ يذكر الادريسي أن قصب السكر من بليونش يتجهز به الى ما جاور سبتة (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٦٧)؛ غير أن رواية ابن سعيد عند ابن فضل الله العمري تنص على أنه ليس بكثير (**مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٥١ ق). فهل قلّ الإنتاج في القرن السابع/الثالث عشر؟

٨ ــ حنطة وشعير في منطقة فاس ومكناسة وتازا (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٧٦، ٧٩-٨٠) ويقول صاحب الاستبصار ان الموحدين زادوا مناطق الزراعة هذه وبنوا رباط تازا في سنة ٥٦٨/١١٧٢-١١٧٣ حياطةً على هذه المزارع الواسعة (**الاستبصار** ١٨٦). وانظر قمح فحص المصارات قرب فاس في **روض القرطاس** ٢٣.

٩ ــ جوز في تازا وصفروا (**كتاب الجغرافية** ١١٥، **الاستبصار** ١٨٦، ١٩٣).

١٠ ــ بينا لا يذكر البكري أي فواكه سوى تين القاط التي على مرحلتين من فاس، ويحمل الى فاس زبيباً (**المغرب** ١١٦، ١٤٧)، تشير المصادر المرابطية والموحدية الى كثافة إنتاج الفواكه لا سيّما في فاس ومكناسة وتازا، خاصة العنب والتين (راجع **نزهة المشتاق** (ط. د.) ٧٦، ٧٨، **كتاب الجغرافية** ١١٤-١١٥، **أخبار المهدي** ٦٤، **الاستبصار** ١٨١، ١٨٦، **روض القرطاس** ٢٣). وعن أزهار فاس وتصنيعها أنظر **المصدر الأخير** ٢٣.

١١ ــ راجع عن زيتون مكناسة وفاس وكثافة الإنتاج في الفترة الموحدية خاصة **نزهة المشتاق** (ط. د.) ٧٨، **كتاب الجغرافية** ١١٥، **الاستبصار** ١٨٧، ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٤١، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٥٣ ق، **بيان موحد** ١٣١.

١٢ ــ أنظر كيف يصف الادريسي المنطقة بين تطن وقرى من تادلا نزولاً الى سلا وكأنها كلها مزارع حنطة وشعير (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٧٥). وقد استمر هذا في الفترة الموحدية (راجع **التشوف** ٢٢٥).

١٣ ــ ذكر الادريسي أن المنطقة الساحلية من سلا مروراً بأسفي ورجراجة وأنفا

ومرسى الغيط من أرض دكالة مركز زراعة حنطة وشعير، ومنها تصدر الى الأندلس (راجع **نزهة المشتاق** (ط. د.) ٧١، ٧٣-٧٤). ويبدو أن ذلك امتد جنوباً حتى وصل الى مازغان التي كان يحمل منها القمح الى سبتة في عصر ابن فاطمة (راجع ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٣٧).

١٤ ــ يذكر الادريسي الفول والحمص حول مرسى فضالة (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٧٣)، ويذكر ابن فضل الله العمري سمسماً قليلاً لا يعتصر (**مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٤٧ و، **صبح الأعشى** ٥:١٧٥).

١٥ ــ قال ابن فضل الله أن قصب السكر كان يزرع في سلا (**مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٤٧ ق، **صبح الأعشى** ٥:١٧٦).

١٦ ــ راجع عن الحنطة والقمح في سفوح درن وسهول مراكش **نزهة المشتاق** (ط. د.) ٦٣، ٦٤-٦٥، **التشوف** ٢٤٨، **العبر** ٦:٢٢٣.

١٧ ــ أنظر كثرة شجر الأرقان في جبل درن واستخراج الزيت منه (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٦٥)، حتى إن الزيت كان أكثر ما غنمه عبد المؤمن في بلاد حاحة لما فتحها (أنظر **نظم الجمان** ٢٤١).

١٨ ــ درن كله فواكه، خاصة العنب الذي يحمل زبيباً، وقد اتسعت زراعته خاصة أيام الموحدين (أنظر **نزهة المشتاق** ٦٣، ٦٤، **كتاب الجغرافية** ١١٦، **الاستبصار** ٢١١، ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٢٥، **المعجب** ٢٠١، ٢٨٧، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٤٨ و-٤٩ و).

١٩ ــ قصب سكر كثير في وادي نفيس ويصنع ويحمل سكراً خاصة الى فاس (أنظر **كتاب الجغرافية** ١١٦، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٤٧ ق، **صبح الأعشى** ٥:١٧٦).

٢٠ ــ أحدث عبد المؤمن زيتوناً كثيراً في مراكش ودرن (**كتاب الجغرافية** ١١٦، **أخبار المهدي** ١٢٠) حتى أصبح أكثر الزيت منه بعد أن كان من الأرقان (المرجان) وغدا يمير بلاداً كثيرة (**الاستبصار** ٢١٠)، وأصبح أهل البلاد الغربية يفضلون زيت الزيتون على الأرقان (ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٢٥).

٢١- في وادي السوس حنطة وشعير وقليل من الأرز وفيه الأرقان لعصر الزيت (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٦٢، **كتاب الجغرافية** ١١٨).

٢٢ - أنظر **نزهة المشتاق** (ط. د.) ٦١-٦٢، **الاستبصار** ٢١١، ٢١٢.

٢٣ - كثير، وهو للتصنيع والتصدير (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٦٢، **كتاب الجغرافية** ١١٧، **الاستبصار** ٢١١)، وكان من العقبات التي حالت دون الموحدين وفتح تارودنت فأحرقوه (**نظم الجمان** ٢١٢). ويقول ابن فاطمة انه يمتد جنوباً في المواطن الساحلية حيث وجد الماء مجاوراً لصحراء دكالة (ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١١٢، ١١٣، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٤٧ق، **صبح الأعشى** ٥:١٧٤، ١٧٦).

٢٤ - قمح رقيق هو السلت، بين الحنطة والشعير، يجود في سجلماسة (راجع البكري، **المغرب** ١٥١، **نزهة المشتاق** (ط. د.) ٦٠، **الاستبصار** ٢٠١، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٥٣٤و، **صبح الأعشى** ٥:١٦٤).

٢٥ - التاكوت في درعة لدباغة الجلد الغدامسي (**الاستبصار** ٢٠٧).

٢٦ - زبيب سجلماسة (، **المغرب** ١٤٨، **الاستبصار** ٢٠١، **صبح الاعشى** ٥: ١٦٤)، وفواكه درعة (**الاستبصار** ٢٠٦).

٢٧ - عن زيتون درعة أنظر **الاستبصار** ٢٠٦.

٢٨ - تمر فجيج جنوب تلمسان في طرف الصحراء (**الاستبصار** ١٧٩).

٢٩ - هناك قطن في مستغانم عند مصب نهر شلف (البكري، **المغرب** ٦٩).

٣٠ - هناك كمون وحناء في جبال وازلفن على مرحلة من تنس (**نزهة المشتاق** (ط.د.) ٨٤)

٣١ - ذكر الادريسي القطن في منطقة البصرة (**نزهة المشتاق** (ط.د) ١٦٩)

٣٢ - يقول ابن سعيد ان خشب الأرز يحمل من جبل غمارة الى الآفاق وتنشأ منه الأساطيل (**كتاب الجغرافية** ١٣٩).

٣٣ - هناك قطن في ماسينة على مرحلة من فاس في الطريق الى أغمات (البكري، **المغرب** ١٥٥).

٣٤ – يذكر البكري كثرة خشب الأرز والبلوط والصنوبر في فازاز ولكن لا يشير الى الاستفادة منها (راجع **المغرب** ١٤٧)، بينما يقول صاحب الاستبصار وصاحب روض القرطاس بأن الأرز المعتيق العالي يجلب منه كل يوم الى فاس ما لا يحصى كثرة (**الاستبصار** ١٨٧، روض القرطاس ١٧).

٣٥ – حشائش تجمع عقاقير طبية في جبل فازاز (**الاستبصار** ١٨٧).

٣٦ – يقول الادريسي ان قطن داي وتادلا يخرج أكثره الى جميع جهات المغرب الأقصى ولا يحتاجون معه لغيره (**نزهة المشتاق** (ط.د.) ٧٥). ويبدو أن الموحدين قد وسعوا في زراعته وشجعوها أذ يقول صاحب الاستبصار ان القبائل عمرت المنطقة بزراعته والدولة ملتفتة له محافظة عليه (**الاستبصار** ٢٠٠).

٣٧ – بعض قطن في وادي أم ربيع (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٧١، **الاتحاف الوجيز** (مخ) ٢٧ و).

٣٨ – الكمون في وادي أم ربيع (**المصدر ذاته** والصفحة نفسها).

٣٩ – أحدث عبد المؤمن نخلاً كثيراً في مراكش (**كتاب الجغرافية** ١١٦).

٤٠ – الحناء في بلاد حاحة، وقد كانت من أهم ما غنم الموحدون حين فتحوها (**نظم الجمان** ٢٤١).

٤١ – كثرة التمر في إيجلي من السوس (**كتاب الجغرافية** ١١٨، **الاستبصار** ٢١٢).

٤٢ – يؤكد ابن سعيد على كثرة الحناء على ضفتي وادي السوس (أنظر **صبح الأعشى** ٥:١٧٤).

٤٣ – عن كثرة التمر في سجلماسة راجع البكري، **المغرب** ١٤٨، **الاستبصار** ٢٠١، **نزهة المشتاق** (ط. د.) ٦٠، ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٢٤، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٥٢ ق، **صبح الأعشى** ٥:١٦٤.

٤٤ – الادريسي وحده يذكر قطن سجلماسة الذي يتجهز به الى سائر المغرب (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٦١).

٤٥ – خشب شجر التامجانت، ويستفاد منه في بناء بيوت سجلماسة ودرعة (أنظر البكري، **المغرب** ١٥٦).

٤٦ – تذكر المصادر المرابطية والموحدية الكمون والكروياء والحناء في سجلماسة ودرعة، ويتجهز بها الى سائر المغرب، هذا بالإضافة الى النيلج في درعة (أنظر **نزهة المشتاق** (ط. د.) ٦١، **كتاب الجغرافية** ١١٧، **الاستبصار** ٢٠٦). ولا يذكر ابن سعيد من هذه الاشياء سوى الحناء التي في درعة (ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٢٤).

جـ ـ البلاد الأندلسية

المحصولات	قمح شعير حنطة			حبوب أخرى			فواكه وأزهار			حرير			قصب سكر			زيتون		
المنطقة	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو
قرطبة	–	١	١	٢	٢	–	٣	–	–	–	–	–	–	–	–	٤	٤	–
بلنسية	–	–	–	–	–	–	٥	٥	٥	–	–	–	–	–	–	–	–	–
مرسية	٦	٦	٦	–	–	–	٧	٧	٧	–	–	–	–	–	–	٨	٨	٨
المرية	–	–	–	–	–	–	٩	٩	٩	–	–	–	–	–	–	١٠	١٠	١٠
مالقة	–	–	–	–	–	–	١١	١١	١١	–	١٢	١٢	–	–	–	–	–	–
غرناطة	١٣	١٣	١٣	–	–	–	١٤	١٤	١٤	١٥	١٥	١٥	١٦	١٦	١٦	١٧	١٧	١٧
جيان	١٨	١٨	١٨	–	١٩	١٩	٢٠	٢٠	٢٠	٢١	٢١	٢١	–	–	–	٢٢	٢٢	٢٢
اشبيلية	٢٣	٢٣	٢٣	–	–	–	٢٤	٢٤	٢٤	–	–	–	٢٥	٢٥	٢٥	٢٦	٢٦	٢٦
الغرب (شلب)	–	٢٧	٢٧	–	–	–	٢٨	٢٨	٢٨	–	–	–	–	–	–	–	–	–

المحصولات	الزعفران			التمر			القطن والكتان			الخشب			الأعشاب الطبية			أشياء أخرى		
المنطقة	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو
قرطبة	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	٢٩	–	–	–	–	–
بلنسية	٣٠	٣٠	٣٠	–	–	–	–	–	–	٣١	٣١	٣١	–	–	–	٣١	٣١	٣١
مرسية	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	٣٢	٣٢	–	–	–	٣٣	٣٣	٣٣
المرية	–	–	–	–	–	–	٣٤	٣٤	٣٤	–	–	–	–	–	–	٣٥	٣٥	٣٥
مالقة	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
غرناطة	٣٦	٣٦	٣٦	–	–	–	٣٧	٣٧	٣٧	–	–	–	٣٨	٣٨	٣٨	–	–	–
جيان	٣٩	٣٩	٣٩	–	–	–	–	–	–	٤٠	٤٠	٤٠	–	–	–	–	–	–
اشبيلية	–	–	–	–	–	–	٤١	٤١	٤١	٤٢	–	–	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣	٤٣
الغرب (شلب)	–	–	–	–	–	–	–	–	–	٤٤	٤٤	٤٤	–	–	–	٤٥	٤٥	٤٥

التعليقات

١ – قمح وشعير في بيانة (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٢٠٥، قمح كنبانية قرطبة (رسالة الشقندي في **نفح الطيب** ٣:٢١٧).

٢ – البلوط الذي يحفظ ويخدم فهو غياث خاصة في سني المجاعات (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٢١٣).

٣ – عنب بيانة وأزهار قبرة (**الروض المعطار** ٥٩،١٤٩).

٤ – في قبرة وفحص البلوط (**الروض المعطار** ١٤٢،١٤٩) وبيانة (**الروض المعطار** ٥٩، **نزهة المشتاق** (ط. د.) ٢٠٥).

٥ – أنظر عن تين دانية **الروض المعطار** ٧٦. ويقول ابن سعيد ان بلنسية تسمى « بستان الأندلس » لكثرة فواكهها (**كتاب الجغرافية** ١٦٧؛ وأنظر أيضاً بكاء ابن الأبار عليها لما سقطت في يد النصارى في **الروض المعطار** ٤٩،٥٣). واشتهرت منطقة بلنسية بأزهارها خاصة النرجس والآس حتى سميت « مطيّب الأندلس » (أنظر رسالة الشقندي في **نفح الطيب** ٣:٢٢١، **المعجب** ٣٧٥).

٦ – أنظر كثرة الحنطة والشعير في فحص فندون (**الروض المعطار** ١٥١، **نزهة المشتاق** (ط. د.) ١٩٤، **كتاب الجغرافية** ١٠٠).

٧ – مرسية تسمى « البستان » لكثرة فواكهها (**نفح الطيب** ١:١٦٤)، واشتهرت جميع مناطقها بالزبيب والتين (**الروض المعطار** ٣٤، ١٧٠، ١٧٢، ١٨٤، **نزهة المشتاق** (ط. د.) ١٩٥، ابن سعيد، **المغرب** ٢:٢٧٣-٢٧٤).

٨ – مساحات كبيرة قرب أوريولة (**الروض المعطار** ١٥١).

٩ – عن فواكه منطقة المرية كلها أنظر **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٦٠ ق، **صبح الأعشى** ٥:٢١٧؛ وعن وادي بجانة خاصة أنظر **الروض المعطار** ٣٩.

١٠ – عن زيتونها مصادر الفواكه في الحاشية السابقة والصفحات ذاتها.

١١ – الجوز في مالقة (**مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٦٠ ق، **صبح الأعشى** ٥:٢١٩)، واللوز يحمل منها الى الأقطار (ابن سعيد، **المغرب** ١:٤٣٢، **كتاب الجغرافية** ١٤٠). وتشتهر منطقتها بالعنب والتين، والأخير خاصة يحمل الى مصر والشام والعراق وربما وصل الى الهند (راجع **نزهة المشتاق** (ط. د.) ٢٠٠، ٢٠٤، **كتاب الجغرافية** ٩٣، ابن سعيد، **المغرب** ١:٤٢٢، ٤٣٢، **كتاب الجغرافية** ١٤٠، **نفح الطيب** ٣:٢١٩).

١٢ – عن حريرها أنظر كتاب **الجغرافية** ٩٣ حاشية ٢٤٥ حيث ورد في نسختين من مخطوطات الكتاب.

١٣ – يقول ابن الخطيب ان فحص غرناطة « بحر من بحور الحنطة » (**الاحاطة** ١:١٠٣). ومما رغب به معاهدتها ابن رذمير كثرة قمحها وشعيرها (راجع **الحلل الموشية** ٧٦، **الاحاطة** ١:١١٥).

١٤ – فواكه في السهول والجبال خاصة جبل شلير مثل تفاح جليانة (ابن سعيد، **المغرب** ٢:١٤٨، **نفح الطيب** ١:١٤٩) وكروم فنيانة (**الروض المعطار** ١٤٣) وزبيب شاط الذي يتجهز به الى كل الأندلس (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ١٩٩) وموز المنكب وتينها وعنبها (**مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٦٠ ق، **صبح الأعشى** ٥:٢١٨، **الروض المعطار** ١١١). وعن فواكه غرناطة جملةً أنظر عن جبل شلير (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٢٠١) وعن السهول أنظر عن فحص البيرة **الروض المعطار** ٢٤ وعن وادي آش **المصدر ذاته** ١٩٢.

١٥ – في فحص البيرة ووادي آش وفنيانة (أنظر **كتاب الجغرافية** ٩٦، **الروض المعطار** ٢٤، ١٤٣، ١٩٢). وهو مما ذكره معاهدتها ترغيباً لابن رذمير في احتلالها (أنظر **الحلل الموشية** ٧٦، **الاحاطة** ١:١١٥).

١٦ – في فحص غرناطة وشلوبين والمنكب (أنظر **المعيار** ١٠:٢١٤، **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٦٠ق، **صبح الأعشى** ٥:٢١٨، **الروض المعطار** ٢٤،١١١).

١٧ – في وادي آش (**الروض المعطار** ١٩٢) وغرناطة (**الحلل الموشية** ٧٦).

١٨ – قمح وشعير جيان وأبذة (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٢٠٢، ٢٠٣، **الروض المعطار** ١١، ٧٠).

١٩ – يقول ابن سعيد ان سائر الحبوب بها رخيصة (**المغرب** ٢:٥١).

٢٠ – فواكه بسطة (**الروض المعطار** ٤٥) وأزهار جبل شقورة (**المصدر ذاته** ١٠٥).

٢١ – كل القرى حول جيان حتى انها لتعرف « بجيان الحرير » (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ١٧٤، ٢٠٢، ابن سعيد، **المغرب** ٢:٥١، **صبح الأعشى** ٥:٢٢٩، **الروض المعطار** ٤٥، ٧٠، **نفح الطيب** ٢:٢٢٨، ٣:٢١٧، **نوازل ابن رشد** (مخ) ٢٣ و.

٢٢ – في بسطة وشوذر، حتى ان الأخيرة تعرف بغدير الزيت لكثرة زيوتها (**الروض المعطار** ٤٥، ١١٧).

٢٣ – قمح وشعير في قرمونة وشريش وقاديس وشذونة (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٢٠٦، **كتاب الجغرافية** (مخطوط الرباط) ٥٣، ابن سعيد، **المغرب** ١:٢٩٩، ٣٠١، **الروض المعطار** ١٤٥).

٢٤ – فواكه لبلة (ابن الشباط ١١٧) وتين شريش (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٢٠٦، **الروض المعطار** ١٠٢) وتين شرف إشبيلية وعنبه (**وفيات الأعيان** ٧:١١٩، رسالة الشقندي في **نفح الطيب** ٣:٢١٢، **كتاب الجغرافية** (مخطوط الرباط) ٥٣، **الروض المعطار** ١٩، ٢٠) ويصف الشقندي كروم العنب وامتدادها على ضفتي الوادي الكبير من إشبيلية، ويقول ابن خلكان ان تين شرفها وعنبه يمير المغرب. وعما غرسه الموحدون أنظر **المن بالإمامة** ٤٦٥–٤٦٨.

٢٥ – بعض قصب السكر في جنات المصلى قرب إشبيلية (**الروض المعطار** ١٩).

٢٦ – زيتون شرف إشبيلية يمتد طولاً من إشبيلية الى لبلة أربعين ميلاً وعرضاً اثني عشر ميلاً (**الروض المعطار** ١٩، ٢٠، ١٠١–١٠٢)، وهو يمير المغرب (**وفيات الأعيان** ٧:١١٩)؛ هذا بالإضافة الى زيتون بلشانة وشريش (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٢٠٦) ولبلة (ابن الشباط ١١٧، **الروض المعطار** ١٦٩).

٢٧ – حنطة خاصة في يابورة (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ١٨١، ابن الشباط ١١٨).

٢٨ – تين وأعناب وتفاح في قسطلة وشنتمرية الغرب وشلب (**نزهة المشتاق** ١٧٩، ١٨٠، **الروض المعطار** ١٠٦، ١١٥).

٢٩ – في قبرة (**الروض المعطار** ١٤٩).

٣٠ – في بلنسية (ابن سعيد، **المغرب** ٢:٢٩٧–٢٩٨، **نفح الطيب** ١:١٧٩).

٣١ – يقطع خشب صنوبر كثير في قلعة قلصة ويلقى في النهر الى جزيرة شقر ومنها بحراً الى دانية وبلنسية (**نزهة المشتاق** ١٩٥). وقرمز بلنسية يحمل الى الآفاق (**نفح الطيب** ١:١٤١).

٣٢ – خشب قرب مرسية (**كتاب الجغرافية** ١٠٠).

٣٣ – يتجهز بالحلفا من لقنت الى جميع بلاد البحر (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ١٩٣.

٣٤ – كتان في أندرش (**الروض المعطار** ٣٢)؛ ويذكر ابن بصال أنه يزرع في السواحل ويسقى طوال الصيف كل جمعة (**كتاب الفلاحة** ١١٤).

٣٥ – عود المعطر في دلاية (رواية ابن سعيد في **نفح الطيب** ١:١٤٠–١٤١، **الاحاطة** ١:١٠٤–١٠٥).

٣٦ – في باغة (**نفح الطيب** ١:١٤٩).

٣٧ – في رواية ابن سعيد أن كتان فحص البيرة يربو على كتان النيل (**المغرب** ٢:٩١؛ وأيضاً أنظر عنه **كتاب الجغرافية** ٩٦ وخاصة الحاشية ٢٤٩، **الحلل الموشية** ٧٦، **الروض المعطار** ٢٤). وعن كتان وادي آش أنظر **المصدر ذاته** ١٩٢.

٣٨ - جبل شلير حسب رواية ابن الخطيب « أحد خزائن الأدوية » (**الاحاطة** ١:١٠٥، ٢٢١)؛ وفي رواية ابن سعيد: به عقاقير لا توجد في الهند (أنظر **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٥٩ و، **صبح الأعشى** ٥:٢١٦).

٣٩ - في بياسة (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٢٠٣، ابن سعيد، **المغرب** ٢:٧١، **صبح الأعشى** ٥:٢٢٩، **نفح الطيب** ٣:٢١٧ وأبذة (ابن سعيد، **المغرب** ٢:٧٥، **صبح الأعشى** ٥:٢٢٩) وبسطة التي اختصت به (**مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤:٦٢و، **صبح الأعشى** ٥:٢٢١).

٤٠ - خشب جبل فيشاطة كبير الكمية ويستخدم في التصنيع (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٢٠٣، **الروض المعطار** ١٦٥).

٤١ - كان القطن كثيراً يتجهز به الى أفريقية وسجلماسة (**الروض المعطار** ٢١)، ولكن في العصرين المرابطي والموحدي كان في رندة وحدها، وكانت مزارعه بها كثيرة (أنظر ابن سعيد، **المغرب** ١:٣٢٩).

٤٢ - يذكر الحميري وجود خشب الصنوبر الكثير في قادس (**الروض المعطار** ١٤٥)، وربما كان هذا قديماً لأن قادس لم تعرف دار إنشاء في القرن السادس.

٤٣ - نيله قرب إشبيلية (**كتاب الجغرافية** ٨٩) وعصفرها (**الروض المعطار** ٢١) وقرنفل لبلة وعصفرها (**المصدر ذاته** ١٦٩) وقرمز ــ وهو صباغ أحمر يصبغ به الجلد خاصة ــ إشبيلية وشذونة ولبلة الذي يحمل الى الآفاق (**نفح الطيب** ١:١٤١). وكهرباء الأرض في شذونة، وهي مادة صمغية من أصول الكروم تستخدم في العقاقير (**نفح الطيب** ١:١٤١ وأيضاً الحاشية ٩).

٤٤ - خشب الصنوبر من شلب وقصر أبي دانس وشنتمرية الغرب، ويحمل الى الأقطار (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ١٨٠، ١٨١، **الروض المعطار** ١٠٦، ١١٥، ١٦١).

٤٥ - عود للعطر في شلب (**نفح الطيب** ١:١٤١ رواية ابن سعيد).

الملحق الخامس

متعلّقات الزراعة: الرعي والدواجن وغيرها

أ ــ البلاد الشرقية

النوع	غنم وبقر			ابل			خيل وبغال			نحل			طيور وجراد			أشياء أخرى		
المنطقة	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو
طرابلس	-	-	-	-	١٠	١٠	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
قابس	-	-	-	-	١٠	١٠	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
ساحل تونس الشرقي	-	١	١	-	١٠	١٠	-	١	١	٢	-	٢	٣	-	٣	٤	٤	-
قفصة	-	-	-	-	١٠	١٠	-	-	-	-	-	-	-	-	-	٥	٥	-
قسطيلية	-	-	-	-	١٠	١٠	-	-	-	-	-	-	-	-	-	٥	٥	-
نفزاوة	-	-	-	-	١٠	١٠	-	-	-	-	-	-	-	-	-	٥	٥	-
الزاب	-	٦	-	-	١٠	١٠	-	٧	-	-	-	-	-	-	-	-	٨	-
هضاب تل أطلس الشرقي	-	٩	-	١٠	١٠	١٠	١١	-	-	-	١٢	-	-	-	-	-	-	-
ساحل تل أطلس الشرقي	١٣	١٣	١٣	-	-	-	-	-	-	١٤	١٤	١٤	-	-	-	١٥	-	-

التعليقات

١ – أبقار وأغنام وبغال وخيول فوق جبل زغوان قرب تونس (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ١١٩)، ويضيف صاحب الاستبصار سوسة (**الاستبصار** ١٢٠).

٢ – في جلولا (البكري، **المغرب** ٣٢، **الاستبصار** ١١٩).

٣ – صيد الخواص في بحيرة بنزرت، ويصنع من جلوده الفراء الذي يباع بأثمان غالية (البكري، **المغرب** ٥٨، **الاستبصار** ١١٥ وقد جعله قرب بونة).

٤ – صيد السمك في تونس (البكري، **المغرب** ٥٨، **الاستبصار** ١٢١) وبنزرت (**كتاب الجغرافية** ١٠٧ **الاستبصار** ١٢١).

٥ – تربية الكلاب وتسمينها للأكل (البكري، **المغرب** ٤٩، ١٤٨، **الاستبصار** ١٦٠، ٢٠١) وصيد الفنك في صحراء البلاد الجريدية (**كتاب الجغرافية** ١٠٨، **الاستبصار** ١٦٠).

٦ – بقر وأغنام في المسيلة (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٨٦).

٧ – خيول في المسيلة (**المصدر ذاته** والصفحة نفسها).

٨ – صيد الأسماك من نهر المسيلة ويحمل الى القلعة (**المصدر نفسه** ٨٦).

٩ – ماشية حول قسنطينة (**المصدر ذاته** ٩٥).

١٠ – الابل في بسائط باغاية لمزاتة ومديسة من البربر (البكري، **المغرب** ١٤٤). والجدير بالذكر أن هذه المناطق من البلاد الشرقية سيطر عليها العرب الهلالية وانتشرت فيها تربية الابل في السهول والمناطق الصحراوية (راجع الفصل الثالث مما سبق: العرب، مناطقهم، والمصادر المذكورة هنالك، خاصة ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٤٤).

١١ – يذكر البكري خيل أوراس الصلبة السريعة (**المغرب** ١٤٥).

١٢ – عسل قسنطينة يتجهز به الى سائر البلاد (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٩٥).

١٣ – الأبقار في بونة (البكري، **المغرب** ٥٥، **نزهة المشتاق** (ط. د.) ١١٧، **الاستبصار** ١٢٧)؛ ويضيف الادريسي أغنام شرشال والجزائر وجيجل وأبقارها التي يتّجر بسمنها (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٨٩، ٩٨). فكأن مناطق الرعي قد انتقلت الى المناطق الساحلية بسبب سيطرة العرب الهلالية على المناطق الداخلية.

١٤ – أنظر مصادر بونة في الحاشية السابقة.

١٥ – يذكر البكري حوت درنة الذي يستخرج من الواحدة عشرة أرطال شحم، ويحمل في العسل الى القيروان ويحفظ طرياً (**المغرب** ٥٧)، ويضيف صاحب الاستبصار الى ذلك سمك بونة (راجع **الاستبصار** ١٢٧). واستخراج المرجان في سواحل أفريقية (أنظر عه **كتاب الجغرافية** ١٠٨).

ب ـــ البلاد الغربية

النوع	أغنام وأبقار			ابل			خيل وبغال			نحل			طيور وجراد			أشياء أخرى		
المنطقة	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو
تلمسان	١	١	١	٢	٢	٢	٢	٢	٢	-	٣	٣	-	-	-	-	-	-
غمارة وسهولها الغربية	٤	٤	٤	-	-	-	٥	-	-	-	٦	-	-	٧	-	-	٨	-
فاس	-	٩	٩	-	-	-	-	-	١٠	-	-	-	-	-	-	-	١١	-
تادلا	-	١٢	١٢	-	-	-	-	-	-	-	-	١٣	-	-	-	-	-	-
سلا والسهول الغربية	-	١٥	١٥	-	١٦	١٦	-	-	-	-	-	١٦	-	١٧	-	-		- -
مراكش	-	١٩	١٩	-	٢٠	٢٠	-	-	-	-	٢١	٢١	-	٢٢	٢٢	-	٢٣	-
السوس	-	٢٤	٢٤	-	٢٥	٢٥	-	-	-	-	٢٦	٢٦	-	-	-	-	٢٤	-
سجلماسة ودرعة	٢٨	٢٨	٢٨	٢٩	٢٩	٢٩	-	-	-	-	-	-	-	-	-	٣٠	٣٠	-

التعليقات

١ - غنم وبقر كثيرة حول تلمسان ووهران وتاهرت ووجدة، وتجلب الى المغرب والأندلس، وكذلك يصدر سمنها وزبدها، حتى ان شياه وجدة ليستخرج منها مائتي أوقية شحماً، كما اشتهرت وجدة بصناعة الأكسية الوجدية (راجع البكري، **المغرب** ٧١-٧٨، ١٤٧، **نزهة المشتاق** (ط. د.) ٨٠، ٨٤، ٨٧، **الاستبصار** ١٧٠-١٧١، ١٧٩، ١٩٣). ويدل على كثرة الماشية في هذه المنطقة أن عبد المؤمن لما فتح تلمسان غنم من بني يلومي الذين وقفوا مع المرابطين ٣٠ ألف من الغنم و ١٢ ألفاً من البقر (**بيان موحد** ١٥).

٢ - كان جلّ أموال بني مرين في صحرائهم الابل والخيل (**روض القرطاس** ١٨٧). ويقول ابن سعيد ان لبني راشد في جبال ونشريس نتاجاً من الخيل معروفة (**كتاب الجغرافية** ١٤٥). وعن خيل وجدة وتاهرت راجع البكري، **المغرب** ٧٨، **نزهة المشتاق** ٨٧، **الاستبصار** ١٧٧).

٣ -. وهو كثير في تاهرت ووهران (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٨٤، ٨٧) وفي منطقة كومية من ساحل تلمسان (أنظر **أخبار المهدي** ٥٤).

٤ - عند البكري في منطقة البصرة وجبال غمارة (**المغرب** ١٠٧، ١٠٩، ١١٠)، وعند الادريسي تمتد منطقتها الساحلية الى حصن تاودا (أنظر **نزهة المشتاق** ٨١)، بينما في الاستبصار في المنطقة الجبلية لغمارة والمناطق الساحلية الغربية لتلك الجبال (**الاستبصار** ١٨٨-١٩٠ وأيضاً أنظر **العبر** ٦:٢١).

٥ - خيل غمارة قرب وادي لاو تعرف بالحميدية (البكري، **المغرب** ١٠٨).

٦ – في حصن تاودا (**نزهة المشتاق** ٨١).

٧ – قصر عبد الكريم منطقة صيد بري (**المصدر ذاته** ٧٨).

٨ – صيد السمك في قصر عبد الكريم وسبتة (**المصدر نفسه** ٧٨، ١٦٨). ويقول ابن سعيد ان الشابل يصاد في المعمورة عند مصب نهر سبو ويحمل الى الأقطار (**كتاب الجغرافية** ١٣٨).

٩ – في منطقة تازا وجبل فازاز – وحينما تطردهم ثلوجه يلجأ الرعاة الى السهول الغربية – ومنطقتي صفرو وقلعة مهدي (راجع **نزهة المشتاق** (ط. د.) ٧٦، ٧٩–٨٠، **الاستبصار** ١٨٦–١٨٧).

١٠ – خيول فازاز « من أعتق الخيول لصبرها وخدمتها » (**الاستبصار** ١٨٧).

١١ – صيد السمك في فاس ومكناسة (**الاستبصار** ١٨٤–١٨٥). والجدير بالذكر أن السمك يحمل من وادي سبو أحمالاً فيصل فاساً طرياً (**روض القرطاس** ١٧، ١٨).

١٢ – بقر وأغنام في المنطقة الممتدة من تطن وقرى في تادلا الى تخوم سلا (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٧٥، **التشوف** ١١٤).

١٣ – في تادلا أجباح النحل وبيع العسل (أنظر **التشوف** ٤١٥).

١٤ – صيد السمك في وادي وانسيغن وأيضاً في تادلا (**المصدر الأخير** ٤١٥).

١٥ – على طول الساحل الغربي من سلا الى الجنوب تكثر الأغنام والمعز والبقر وتحمل الى الأندلس خاصة من مرسى فضالة (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٧٤، **التشوف** ٤٢٣). وكان عبد المؤمن قد سبى الشيء الكثير منها من قبيلة دكالة خاصة (**الكامل** ١٠:١٥٦).

١٦ – عند قبائل دكالة (أنظر **نزهة المشتاق** (ط. د.) ٧١، **الكامل** ١٠:١٥٦)؛ وانظر عن نحل أزمور وعسلها **التشوف** ٤٢٣.

١٧ – في البسيط بين مراكش وسلا يصاد النعام لبيضه الذي يحمل الى البلاد ويستعمل شحمه في العقاقير (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٧١–٧٢).

١٨ – صيد الأسماك في سلا (**الاستبصار** ١٤١).

١٩ – بقر وغنم في رجراجة (**التشوف** ١٠٦) وحاحة (**نظم الجمان** ٢٤١، ابن سعيد **كتاب الجغرافية** ١٢٥، **العبر** ٦:٢٢٣) ودرن (**كتاب الجغرافية** ١١٦)؛ وعن كيك حيث تكثر الحمير بالإضافة الى ذلك أنظر **أخبار المهدي** ١٢٩.

٢٠ – أنظر **نزهة المشتاق** (ط. د.) ٧١. وتقول رواية الاشيري ان عبد المؤمن لما فتح مراكش غنم من لمطة في أحواز مراكش ثمانين ألفاً من الا بل (**بيان موحد** ٢٢).

٢١ – بلاد حاحة مخصوصة بالعسل الأبيض (ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١٢٥)، وكان العسل بعض ما غنم عبد المؤمن منهم لما فتح ديارهم (أنظر **نظم الجمان** ٢٤١).

٢٢ – يقول الادريسي ان الجراد يباع في مراكش كل يوم ثلاثون حملاً (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٦٩).

٢٣ – عن الصيد البري في جبل درن أنظر **العبر** ٦:٢٢٣.

٢٤ – بقر وأغنام من السوس الى وادي نول (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٥٩، **الاستبصار** ٢١٣). وقد كانت الغنائم في الحروب أكثرها من البقر والأغنام (أنظر غنائم عبد المؤمن لما فتح المنطقة في **نظم الجمان** ٢١١، وغنائم حروب الصحراوي مع لمطة وكزولة في **أخبار المهدي** ١١٨).

٢٥ – ابل من جنوب السوس الى صحراء صنهاجة (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٥٨، **وفيات الأعيان** ٣:٤٩٠).

٢٦ – عسل السوس يفوق عسل كل الأمصار كثرة (**الاستبصار** ٢١٢)، وهو كثير في بلاد لمطة وصنهاجة الصحراء لأنه من الحنطة يشكّل طعامهم الرئيسي (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٥٩). وعن عسل لمطة وكزولة أنظر **أخبار المهدي** ١١٨.

٢٧ – اصطياد اللمط الذي تصنع من جلوده الدروق اللمطية (ابن سعيد، **كتاب الجغرافية** ١١٢).

٢٨ - في سفوح درن الشرقية وهي من أحواز سجلماسة أغنام يقال ان أصولها فارسية ومن صوفها تعمل الثياب في سجلماسة (البكري، **المغرب** ١٤٧). وعن أغنام درعة وبقرها قبل قيام المرابطين أنظر **البيان المغرب** ٤:١٥.

٢٩ - الابل في سجلماسة ودرعة قبل المرابطين (أنظر **روض القرطاس** ٨١، **البيان المغرب** ٤:١٥)، وازدادت عدداً مع قدوم المرابطين واستقرار مسّوفة حول سجلماسة خاصة (أنظر **الاستبصار** ٢٠١).

٣٠ - أنظر كيف تسمّن الكلاب في سجلماسة واستخراج السمن من الحرذون بعد تسمينها (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٦١، **الاستبصار** ٢٠١).

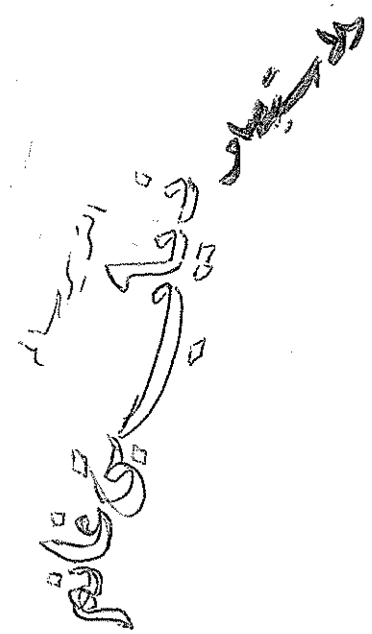

جـ ـــ البلاد الأندلسية

النوع	أغنام وأبقار			ابل			خيل وبغال			نحل			طيور وجراد			أشياء أخرى		
المنطقة	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو	ق	مص	مو
قرطبة	-	١	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	١٢	١٢	١٢
بلنسية	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	١٢	١٢	١٢
مرسية	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	١٢	١٢	١٢
المرية	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	١٢	١٢	١٢
مالقة	-	٢	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	١٢	١٢	١٢
غرناطة	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	٤	٤	١٢	١٢	١٢
جيان	٦	٦	٦	-	-	-	-	-	-	٧	٧	٧	-	-	-	١٢	١٢	١٢
اشبيلية	٨	٨	٨	-	-	-	-	-	-	٩	٩	٩	-	-	-	١٢	١٢	١٢
الغرب (شلب)	١٠	١٠	١٠	-	-	-	-	-	-	١١	١١	١١	-	-	-	١٢	١٢	١٢

التعليقات

١ - كثير من الأغنام والأبقار في جبل الشارات و يتجهز بها الجلابون الى سائر البلاد (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ١٨٨)، ومثلها في رندة (**بيان موحد** ٦٧) واستجة (**المصدر نفسه** ٩٨).

٢ - الماشية في الجزيرة الخضراء (**مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤: ٦١ ق، **صبح الأعشى** ٥: ٢٢.

٣ - صيد الحوت في بزليانة وحمله الى الجهات المجاورة (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٢٠٠، **الروض المعطار** ٤٤).

٤ - على امتداد أربعين ميلاً في فحص غرناطة تنتشر أبراج الحمام (راجع رواية ابن سعيد في **مسالك الأبصار** (آيا صوفيا) ٤: ٥٩ و).

٥ - صيد الأسماك في المنكب (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ١٩٩) وقرب قادس في مايو وقرب الجزيرة الخضراء من مايو الى يونيو ومن يونيو قرب جبل الفتح. وهو يؤكل طرياً في الأندلس وقد ييبس ويجلب الى الأقطار (**كتاب الجغرافية** ٩٢، ١٢٠).

٦ - ماشية كثيرة في منطقة جيان (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ٢٠٢، ابن سعيد، **المغرب** ٢: ٥٢، **الروض المعطار** ٧٠).

٧ - أنظر عن كثرة العسل في جيان **نزهة المشتاق** (ط. د.) ٢٠٢، **الروض المعطار** ٧٠.

٨ - أنظر عن الرعاة في شرف إشبيلية **بيان موحد** ١٧٥-١٧٦، **البيان المغرب** ٤: ٧٧؛ وعن كثرة الماشية في قادس (**الروض المعطار** ١٤٥) وشذونة والجزيرة الخضراء (ابن سعيد، **المغرب** ١: ٣٠٢، ٣٢٠) وشريش وأركش (**بيان موحد** ١١١).

٩ - اشتار العسل في قرمونة (**الروض المعطار** ٥٩).

١٠ - الماشية في قصر أبي دانس و يابورة والاستفادة من سمنها وألبانها (**نزهة المشتاق** (ط. د.) ١٨١، **الروض المعطار** ١٦١).

١١ - أنظر عن عسل القصر و يابورة و باجة **نزهة المشتاق** (ط. د.) ١٨١، ابن سعيد، **المغرب** ١: ٤٠٣.

١٢ - تربية الخنازير منتشرة في جميع بوادي الأندلس (راجع **المعيار** ٨: ١٢٧، ١٦٨).

الملحق السادس

أسعار بعض السلع في القرن السادس

السلع	المكان	السعر في أوقات الرخص	السعر في أيام الغلاء والفتن	المصادر
القمح	البلاد	الوسق ١/٨ مثقال		**روض القرطاس** ١٠٨ (قبل الثورة الموحدية)
أو الشعير	الغربية	٢٥ مداً بدراهم		**المن بالامامة** ٤٤٢ (٥٥٦-١١٧١)
			سطل بثلاث دنانير	**البيان المغرب** ٤:٩٩ (أيام الثورة الموحدية)
			قفيز ١٥ ديناراً	**روض القرطاس** ١٨٢ (غلاء ٦٢٤هـ)
			قفيز ٨٠ ديناراً	**روض القرطاس** ١٨٣ (غلاء ٦٣٠هـ)
			مد ٧ دراهم كبار	**بيان موحد** ٣١٥ (غلاء ٣٦١هـ)
	قرطبة		مد ١٥ ديناراً	**نظم الجمان** ١٩٧ (غلاء ٥٢٦هـ)
	شنترين	١٢ مداً بدرهم		**بيان موحد** ١٣٤
		١٥ مداً بدرهم		**المصدر ذاته** والصفحة ذاتها
	شرق الأندلس	١/٢ مداً بدرهم		**المن بالامامة** ٤٩٨ (٥٦٧هـ)
		٥ أمداد بدرهم		**المصدر ذاته** ٤٩٨ (٥٦٧هـ)
			المد بثلاث دراهم	**المن بالامامة** ٥٠٩
			المد بأربعة دراهم	**المن بالامامة** ٥١٠
	بلنسية		رطل بمثقال ونصف	**البيان المغرب** ٤:٣٨، ٣٩ (فتنة القنبيطور)
			قفيز ٦ دنانير ثم أربعة دنانير	**بغية الملتمس** ١٥٧ (غلاء بلنسية)
	تونس		مد بخمس دنانير	**طبقات الأطباء** ٢:٧٨ (حملة الناصر)
الدقيق	البلاد الغربية		ربع بمثقال	**بيان موحد** ١٢ (حملة عبد المؤمن)
		ربع بدرهمين		**المن بالامامة** ٤٤٢
	مالقة	١/٢ ربع ٦ دراهم		**رسالة السقطي** ٣١
	بلنسية		رطل ثلاثة دراهم	**المن بالامامة** ٥١٠ (٥٦٧هـ)

السلع	المكان	السعر في أوقات الرخص	السعر في أيام الغلاء والفتن	المصادر
الخبز	مراكش	رغيف وسمن بقيراط		**التشوف** ٤١٨
	فاس	٣٠ خبزة بدرهم		**التشوف** ١٧٧
	مالقة	١٥ أوقية بـ١/٤ درهم		**رسالة السقطي** ٢٨
الجبن	مالقة	ربع بـ١٦ درهماً		**المصدر ذاته** ٣١
	بلنسية		أوقية بـ٣ دراهم	**البيان المغرب** ٤:٣٨ (حصار السيد القنبيطور)
ثوب مستعمل	مراكش	عشرة دراهم		**بيان موحد** ٣١٦
كفن	مراكش	٣ دراهم		**التشوف** ٣٩٢
ثوب مستعمل	فاس	عشرة دراهم		**المصدر ذاته** ٣٢٠
جبة	أغمات	عشرة دنانير		**المصدر نفسه** ١٢٨
جلابية تحت الجبة	الهبط	٣ الى ٤ دراهم		**المصدر ذاته** ٣٧٣
الحرير	جيان	الرطل ٥ دنانير ثلثية		عباس: «نوازل ابن رشد» ٤٣
اللحم	البلاد الغربية	٦ أوقيات بدرهم		**المن بالامامة** ٤٤٢
الثور	شنترين	٣ دراهم		**بيان موحد** ١٣٤ (حالة خاصة)
فرس	بلنسية		٢٠٠ مثقال بيع رطله بـ١٢ ديناراً	**البيان المغرب** ٤:٣٨-٣٩ (حصار السيد القنبيطور)
رمكة	قرمونة	٣٥ مثقالاً		نوازل ابن سهل ٩٥
	قرطبة	٤٠ مثقالاً		نوازل ابن سهل ٩٥
دابة	قرطبة	٣٠ مثقالاً		**المعيار** ٩:٤٤٩-٤٥٠
	جيان	٤٠ مثقالاً		**المعيار** ٩:٤٤٩-٤٥٠
	غرناطة	٥٠ مثقالاً		**المصدر نفسه والصفحات ذاتها**
بقل	البلاد الشرقية	بين سبعة وستة دنانير		**المعيار** ٨:١١٥
البقول	مراكش		٧ باقلات بدرهم	**المعجب** ٢٣٠ (حصار عبد المؤمن للمدينة)

السلع	المكان	السعر في أوقات الرخص	السعر في أيام الغلاء والفتن	المصادر
	بلنسية		رطل بـ٥ دراهم	**البيان المغرب** ٣٨:٤ (حصار السيد القنبيطور)
	بلنسية		اوقية بصل بدراهم	**المصدر نفسه** والصفحة ذاتها
الفواكه	بلنسية	ستين نوعاً من التين ربع درهم		**كتاب الجغرافية** ١٠٢
	بلنسية		حبة تين بدرهم	**المن بالامامة** ٥١٢
الصابون	الأندلس	القنطار بين ١١ و١٤ ديناراً		**نوازل البرزلي** (مخ) ١٠٨ (على حسب أول الموسم وآخره)
سرير مستعمل	مراكش	١٦١/٢ درهماً		**التشوف** ٢٢٢
سفر من كتاب	البلاد الغربية	٤ دراهم		**التشوف** ١٥٩
الحطب	البلاد الغربية		رطل بدينار	**أخبار المهدي** ٩١ (أيام الثورة الموحدية)
ثمن دار	مرسية	٢٥ مثقالاً		**نوازل ابن رشد** (مخ) ١٣٤و، **المعيار** ٣:٤
	أغمات	٥٠٠ دينار		**التشوف** ١٣١
	البلاد الشرقية	٢٠٠ دينار		**نوازل البرزلي** (مخ) ١٠٠و
كراء دار	البلاد الأندلسية	٨ حبات من مثقال		**نوازل البرزلي** (مخ) ١٢٣و، **المعيار** ١٩٧:٨
	البلاد الأندلسية	عشرة دنانير في السنة		**المعيار** ٢٨٢:١٠
	حمة المرية	٣ دنانير شهرياً		**نفح الطيب** ١:٢٠٠-٢٠١
	أغمات	عشرة دنانير في العام		**التشوف** ١٢٥
عبد	البلاد الشرقية	٥٠ ديناراً		**المعيار** ٤٢١:٩
عبد	درعة	٢٠ ديناراً		**التشوف** ٢٠٧
	الأندلس	٣٤ مثقالاً		**نوازل البرزلي** (مخ) ١٤٤ق
	الأندلس	٢٠ ديناراً		**ابن سعيد، المغرب** ١٦٤:٢ (استنتاجاً)
فداء أسير عادي	الأندلس	٢٠٠-٣٠٠ دينار		**المن بالامامة** ٣٩٣، ٤٥١
كلفة الطريق	من فاس الى مكة	١٨ ديناراً		**التشوف** ٢٣٤ (يدخل فيها الدابة والسفينة والطعام)

ثبت المصادر والدراسات

I المخطوطات

١ - **اتحاف أشراف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا**، لمحمد بن علي الدكالي السلاوي، الخزانة العامة، (الرباط) رقم ١١ د.

٢ - **الاتحاف الوجيز بأخبار العدوتين لمولانا عبد العزيز**، لمحمد بن علي الدكالي السلاوي، الخزانة العامة، (الرباط) رقم ٤٢ د.

٣ - **أجوبة نفيسة في الفقه لفقهاء غرناطة**، مجهول جامعها، الخزانة العامة (الرباط) رقم ١٤٤٧ د.

٤ - **الاحاطة في أخبار غرناطة**، للسان الدين ابن الخطيب، الخزانة العامة (الرباط) رقم ٢٧٠٤ ك.

٥ - **أحكام فساد الدراهم**، لأبي العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي، الخزانة العامة (الرباط) مجموع رقم ١٠٨١ د ص ١١ ق-١٧ و.

٦ - **الأمتاع والانتفاع في مسألة سماع السماع**، لمؤلف مجهول، الخزانة العامة (الرباط) ميكروفلم، رقم ٣٦٦٣ د.

٧ - **باكورة الزبدة من تاريخ أسفي وعبدة:** لأبي العباس أحمد بن محمد الصبيحي، الخزانة العامة (الرباط) رقم ١٥٠٣ د.

٨ - **بهجة الناظرين وأنس العارفين**، لأبي عبدالله محمد بن عبدالله الأزموري، الخزانة العامة (الرباط) رقم ١٣٤٣ د.

٩ - **تاريخ الإسلام**، للذهبي، جـ ١٢-١٣، مكتبة أحمد الثالث، (استانبول) رقم ٢٩١٧.

١٠ - **تحفة القضاة ببعض مسائل الرعاة**، لأحمد بن محمد البويعقوبي، الخزانة العامة (الرباط) ضمن مجموع رقمه ١٠٧٩ د ص ١ و-٢٠ .

١١ - **التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار**، لأبي عبدالله محمد بن خليل بن غلبون، المكتبة الوطنية (باريس) رقم ١٨٨٩ عربي.

١٢ - **التعريف بعياض**، لمحمد بن عياض اليحصبي، الخزانة العامة (الرباط) رقم ٥٥٣ د.

١٣ - **التقييد الأبي (كذا) في علم الوثائق**، لمراكشي مجهول، الخزانة العامة (الرباط) رقم ٧٥٦ د.

١٤ - **تكميل زهر الرياض في رد ما شنعه القاضي عياض**، لأبي عبدالله محمد بن جابر الوادي آشي، الخزانة العامة (الرباط) رقم ٢٨ د.

١٥ - **التيسير في أحكام التسعير**، لأبي العباس أحمد بن سعيد المكيلدي، الخزانة العامة (الرباط) رقم ٢٥٩١ د.

١٦ - **جامع مسائل الأحكام مما نزل بالمفتين والحكام**، لأبي القاسم بن أحمد البلوي البرزلي، الخزانة الملكية (الرباط) رقم ٤٨٨٤.

١٧ - **الجواهر المختارة مما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة**، لعبد العزيز ابن الحسن الزياتي، ٢ ج، الخزانة العامة (الرباط) رقم ١٦٩٨ د.

١٨ - **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، لابن بسام الشنتريني، القسم الثاني والثالث، مخطوط بغداد، مصورة خاصة بمكتبة إحسان عباس.

١٩ - **ذكر مقدار النصاب الذي تجب فيه الزكاة من الذهب والفضة**، لأبي محمد عبد الواحد بن محمد الباهلي الغافقي، الخزانة العامة (الرباط) ضمن مجموع رقمه ١٥٨٦ د ص ٤٠ ق-٤٣ ق.

٢٠ - **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، لابن عبد الملك المراكشي، جـ ٦، المكتبة الوطنية (باريس) رقم ٣١٥٦.

٢١ - **رسائل مرابطية**، في مجموعين: الأسكوريال رقم ٤٨٨ ورقم ٥٣٨.

٢٢ - **رسائل موحدية**، الخزانة الملكية (الرباط) رقم ٤٧٥٢.

٢٣ - **رقم الحلل في نظم الدول**، للسان الدين ابن الخطيب، الاسكوريال رقم . 1777,pt.I

٢٤ - **الرماح في بيان تملك الحوانيت التي للحبس بالبيع والشراء**، لأحمد ابن الحاج الشرايبي، الخزانة العامة (الرباط) رقم ١١٣ د.

٢٥ - **الروض المعطار في خبر الأقطار** لابن عبد المؤمن الحميري، نور عثمانية (استنبول) رقم ٤٤.

٢٦ - **ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب**، لمحمد بن ابراهيم المواعيني، الخزانة الملكية (الرباط) ٢٦٤٧.

٢٧ - **زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ**، لمحمد بن محمد بن الأعرج السليماني، جـ ٣، الخزانة الملكية (الرباط) ١٧٠.

٢٨ - **زهر البستان ونزهة الأذهان**، لأبي محمد عبدالله بن مالك الطفنري، الخزانة العامة (الرباط) رقم ١٢٦٠ د.

٢٩ - **سبك المقال لفك العقال**، لعبد الواحد بن محمد بن الطوح، الخزانة الملكية (الرباط) رقم ١٠٥ ح.

٣٠ - **سراج الملوك**، لأبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي، مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت، رقم. 172:T19sA.

٣١ - **صلحاء وادي شلف بالقطر الجزائري**، لأبي عمران موسى المازوني، الخزانة العامة (الرباط) رقم ٢٣٤٣ ك.

٣٢ - **العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل**، لمحمد بن أحمد البلوي، الخزانة الملكية (الرباط) رقم ١٤٨ وله زوائد في المجموع نفسه.

٣٣ - **عقد الجمان في تاريخ الزمان**، لبدر الدين العيني، ج ١٢، مكتبة أحمد الثالث (استنبول) رقم ٢٩١١.

٣٤ - **العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام**، لأبي القاسم سلمون بن علي بن سلمون الكناني، الخزانة العامة (الرباط) ضمن مجموع رقم ٦٧٠ د، ص ٧ ق-١٧ ق.

٣٥ - **عيون التواريخ**، لابن شاكر الكتبي، جـ ١٦-١٧، مكتبة أحمد الثالث (استنبول) رقم ٢٩٢٢.

٣٦ - **فقهاء مالقة** لابن عسكر، مصورة خاصة بمكتبة محمد المنوني.

٣٧ - **فهرسة أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي**، الاسكوريال رقم ١٧٣٣.

٣٨ - **فهرسة القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي**، الخزانة العامة (الرباط) رقم ١٨٠٧ د.

٣٩ - **قصة المهاجرين المسمين اليوم بالبلديين**، منسوب لأحد الفهريين الفاسيين، الخزانة العامة (الرباط) رقم ١١١٥ د.

٤٠ - **قلائد العقيان في محاسن الأعيان** للفتح بن خاقان، آيا صوفيا (استنبول) رقم ٨٤٤.

٤١ - **كتاب الجغرافية**، لمجهول، الخزانة الملكية (الرباط) رقم ٥٤٢ ورقم ٥٩٣٥ (وسمي بكتاب السفرة) والخزانة العامة (الرباط) رقم ٨٥ ج.

٤٢ - **كشف القناع عن مسائل الصناع**، لأبي الحسن علي بن رحال، الخزانة العامة (الرباط) مجموع رقم ١٠٧٩ د، ص ٣٩ و-٤٩ ق.

٤٣ - لمح السحر من روح الشعر، لأبي عثمان سعيد بن ليون التجيبي، الخزانة العامة (الرباط) ضمن مجموع، رقم ١٠٣٣ د، ص ٢٦ ق-٨٢و.

٤٤ - **مختصر في الأغذية**، لمؤلف مجهول، الخزانة الملكية (الرباط) رقم ٢٤٣٠.

٤٥ - **مذاهب الحكام في نوازل الأحكام**، لمحمد بن عياض بن موسى اليحصبي، الخزانة الملكية (الرباطية) رقم ١٧٠.

٤٦ - **مرآة الزمان**، جـ ١٣، لأبي المظفر يوسف سبط ابن الجوزي، أحمد الثالث (استنبول)، ٢٩٠٧.

٤٧ - مسالك الأبصار، لابن فضل الله العمري، مصورتان عن مخطوطتي أحمد الثالث وآيا صوفيا (استنبول) في مكتبة الجامعة الاميركية في بيروت، رقمهما 915: 13mA و 915: 13miA على التوالي.

٤٨ - **مسائل سئل عنها أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد** (الجد)، المكتبة الوطنية (باريس) ١٠٧٢ عربي.

٤٩ - **معالم الإيمان في مناقب المشهورين من صلحاء القيروان**، لأبي عبد الرحمن بن أبي عبدالله الأنصاري، الخزانة الملكية (الرباط) رقم ٩٢٦.

٥٠ - **مفاخر البربر**، لمؤلف مجهول، الخزانة العامة (الرباط) رقم ١٠٢٠ د.

٥١ - **المفيد للحكام فيما يعرض لهم في نوازل الأحكام**، لأبي الوليد هشام ابن عبدالله بن هشام، الخزانة العامة (الرباط) رقم ٨٧٧ د.

٥٢ - **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في ذكر صلحاء الريف**، لأبي محمد عبد الحق بن اسماعيل البادسي، الخزانة العامة (الرباط) ضمن مجموع رقه ١٤١٩ د، ص ٥٥ و-١١٥ ق.

٥٣ - **ملء العيبة في ما جمع في الرحلة بطول الغيبة**، لابن رشيد الفهري، الاسكوريال، رقم ١٧٣٣.

٥٤ - **مناقب أبي العباس أحمد بن جعفر السبتي** لابن الزيات التادلي (؟) الخزانة العامة (الرباط) ضمن مجموع رقه ٨٩٦ د، ص ٩٨ ق-١٠٦ ق، المكتبة الوطنية (باريس) رقم ٢٠٣٧ عربي.

٥٥ - **المنتظم**، لابن الجوزي، جـ ٧، آيا صوفيا (استنبول) رقم ٢٠٩٧.

٥٦ - **النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب**، لمحمد بن أحمد بن صعد التلمساني، ٨ ج، الخزانة الملكية (الرباط) رقم ٢٤٩١.

٥٧ - **نوازل ابن سهل**، لأبي الأصبغ عيسى بن سهل الاسدي الأندلس، الخزانة العامة (الرباط) رقم ٣٣٩٨ د.

٥٨ - **نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب**، منسوب الى أبي العباس أحمد التيفاشي، الخزانة العامة (الرباط) رقم ١٥٣٣ ك.

٥٩ - **الوافي بالوفيات**، للصلاح الصفدي، جـ ٧، ٨، ١١، مكتبة أحمد الثالث (استنبول) مصورة معهد المخطوطات (القاهرة، جامعة الدول العربية).

II المصادر المطبوعة

٦٠ - **الاحاطة في أخبار غرناطة**، للسان الدين ابن الخطيب، ج ١، تحقيق محمد عبدالله عنان، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٥.

٦١ - **أحكام القرآن**، ج ٢، لأبي بكر بن العربي، تحقيق علي البجاوي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٥٧.

٦٢ - **أخبار المهدي وابتداء دولة الموحدين** للبيذق، تحقيق ليفي بروفنسال، باريس، ١٩٢٨.

٦٣ - **أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر السلفي**، أعدها وحققها إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٣.

٦٤ - **أزهار الرياض في أخبار عياض**، ٣ ج، لأحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق السقا والابياري وشلبي، القاهرة، ١٩٣٩-١٩٤٢.

٦٥ - **الاستبصار في عجائب الأمصار** لمجهول، نشره وعلق عليه سعد زغلول عبد الحميد، الاسكندرية، ١٩٥٨.

٦٦ - **أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، للسان الدين ابن الخطيب، تحقيق ليفي بروفنسال، على رأس العنوان: تاريخ إسبانيا الإسلامية، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦.

٦٧ - **الاكتفاء في أخبار الخلفاء: الجزء المتعلق بالأندلس**، لأبي مروان عبد الملك بن الكردبوس، تحقيق أحمد مختار العبادي، **صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد**، ١٩٦٥-١٩٦٦، مجلد ١٣، ص ٨-١٥، ٤١-١٢٦.

٦٨ - **أمثال العوام في الأندلس**، ق: ٢، لأبي يحيى الزجالي، استخرجها وحققها وشرحها محمد بن شريفة، فاس، ١٩٧١.

٦٩ - **أنس الفقير وعز الحقير**، لأبي العباس ابن قنفذ القسنطيني، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، الرباط، ١٩٦٥.

٧٠ - **بدائع البدائة**، لعلي بن ظافر الأزدي، على هامش **معاهد التنصيص**، ٢ ج، القاهرة، ١٣١٦ هـ.

٧١ - **برنامج شيوخ الرعيني**، لأبي الحسن علي الرعيني الإشبيلي، تحقيق ابراهيم شبوح، دمشق، ١٩٦٢.

٧٢ - **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، لابن عميرة الضبي، مجريط، روخس، ١٨٨٤.

٧٣ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، لجلال الدين السيوطي، القاهرة الطبعة الأولى، ١٣٢٦ هـ.

٧٤ - **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ٤ ج، لابن عذاري المراكشي، الجزء الرابع بتحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٧.

٧٥ - **البيان المغرب (القسم الموحدي)** ج ٣، لابن عذاري المراكشي، تحقيق هويثي ميرندا ومشاركة محمد بن تاويت ومحمد ابراهيم الكتاني، تطوان، سلسلة معهد مولاي الحسن، ١٩٦٠.

٧٦ - **تاج العروس من جواهر القاموس**، ١٠ ج، لمحمد مرتضى الزبيدي، القاهرة، المطبعة الخيرية، ١٣٠٦-١٣٠٧ هـ.

٧٧ - **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، لأبي عبدالله محمد الزركشي، تحقيق محمد ماضور، تونس، المكتبة العتيقة، ١٩٦٦.

٧٨ - **التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة** (مذكرات الأمير عبدالله)، للأمير عبدالله بن بلقين بن باديس بن زيري، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٥.

٧٩ - **التشوف الى رجال التصوف** لأبي يعقوب يوسف ابن الزيات التادلي، تحقيق أدولف فور، الرباط، ١٩٥٨.

٨٠ - **تعاليق ابن تومرت**، لأبي عبدالله محمد بن تومرت، تحقيق غولدتسهير، الجزائر، ١٩٠٣.

٨١ - **تقويم البلدان**، لأبي الفداء عماد الدين إسماعيل، باعتناء رينود وماك كوكين دي سلان، باريس، دار الطباعة السلطانية، ١٨٨٠.

٨٢ - **تقويم قرطبة**، لعريب بن سعد القرطبي، نشره مع ترجمة فرنسية ر. دوزي، ليدن، بريل، الطبعة الجديدة، ١٩٦١.

٨٢ب - **التكملة لكتاب الصلة**، ٢ ج، لابن الأبار القضاعي، تحقيق كوديرا، مدريد، ١٨٨٨-١٨٨٩.

٨٣ - **التيسير في صناعة التسفير**، لبكر بن ابراهيم الإشبيلي، تحقيق عبدالله كنون، فصلة من **صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد**، المجلدان السابع والثامن، ١٩٥٩-١٩٦٠، ص ١-٤٢.

٨٤ - **جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس**، لابن القاضي، أحمد بن محمد بن أحمد، فاس، دون تاريخ.

٨٥ - **الحلة السيراء**، ٢ ج، لابن الأبار القضاعي، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦٣.

٨٦ - **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، لمؤلف مجهول، تحقيق علوش، الرباط، ١٩٣٦.

٨٧ - **الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة**، لابن يوسف الحكيم، تحقيق حسين مؤنس، مدريد، معهد الدراسات الإسلامية، ١٣٧٩/١٩٦٠.

٨٨ - **الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب**، لبرهان الدين ابن فرحون، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٥١ هـ.

٨٩ - **ديوان أبي إسحاق الالبيري**، تحقيق أميليو غرسية غومس، مدريد — غرناطة، ١٩٤٤.

٩٠ - **ديوان ابن قزمان**، نشر جنزبرج، برلين، ١٨٩٦.

٩١ - **ديوان المعتمد بن عباد**، تحقيق أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، القاهرة، ١٩٥١.

٩٢ - **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، لمؤلف مجهول، الجزائر، ١٩٢٠.

٩٣ - **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، لابن بسام الشنتريني، القسمان الأول والرابع، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٩-١٩٤٥.

٩٤ - **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، لابن عبد الملك المراكشي، ٣ أسفار، السفر الأول تحقيق محمد بن شريفة، السفران الرابع والخامس، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٤-١٩٦٥، السفر الأول دون تاريخ.

٩٥ - **رايات المبرزين وغايات المميزين**، لابن سعيد المغربي، تحقيق أميليو غرسية غومس، مدريد، دون تاريخ.

٩٦ - **رحلة ابن بطوطة**، لأبي عبدالله محمد بن عبدالله، بيروت، دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٠.

٩٧ - **رحلة بنيامين التطيلي**، لبنيامين بن يونة التطيلي، ترجمها عن الأصل العبري عزرا حداد، بغداد، المطبعة الشرقية، ١٩٤٥.

٩٨ - **رحلة التيجاني**، لأبي عبدالله محمد بن محمد، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، تونس، المطبعة الرسمية، ١٩٥٨.

٩٩ - **رحلة ابن جبير**، لأبي الحسين محمد بن أحمد، بيروت، دار بيروت، ١٩٥٩.

١٠٠ - **الرد على ابن النغريلة**، لابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، القاهرة، دار العروبة، ١٩٦٠.

١٠١ - **رسالة آداب الحسبة**، لأبي عبدالله محمد المالقي، تحقيق وتقديم ج. س. كولان وليفي بروفنسال، باريس، لورو، ١٩٣١.

١٠٢ - **رسالة في آداب الحسبة والمحتسب**، لأحمد بن عبد الرؤوف، نشرها ليفي بروفنسال ضمن **ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب**، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي، ١٩٥٥.

١٠٣ - **رسالة في الأنواء**، لأبي العباس ابن البناء المراكشي، باعتناء ب. ج. رنو، باريز، لاروز، ١٩٤٨.

١٠٤ - **رسالة في الحسبة**، لعمر بن عثمان الجرسيفي، نشرها ليفي بروفنسال **ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب**، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي، ١٩٥٥.

١٠٥ - **رسالة في القضاء والحسبة** لابن عبدون، نشرها ليفي بروفنسال ضمن **ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب**، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي، ١٩٥٥.

١٠٦ - **رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية**، جامعها مجهول، تحقيق ليفي بروفنسال، الرباط، المطبعة الاقتصادية، ١٩٤١.

١٠٧ - **رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة**، للشريف أبي القاسم محمد الغرناطي، ٢ ج، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٤٤ هـ.

١٠٨ - **روض القرطاس (الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس)**، باعتناء كارل يوحن تورنبرغ، أو بسالة، ١٨٤٣-١٨٤٦.

١٠٩ - **الروض المعطار في خبر الأقطار: صفة جزيرة الأندلس**، لابن عبد المنعم الحميري، انتخبه ليفي بروفنسال، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧.

١١٠ - **الروضتين في أخبار الدولتين**، لأبي شامة عبد الرحمن بن إسماعيل، ٢ ج، القاهرة، مطبعة وادي النيل، ١٢٨٧ - ١٢٨٨ هـ.

١١١ - **رياض النفوس** لأبي بكر عبدالله المالكي، ج ١، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥١.

١١٢ - **زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر**، لأبي بحر صفوان بن إدريس المرسي، تحقيق عبد القادر محداد، بيروت ١٩٣٩.

١١٣ - **زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، لأبي الحسن على الجزنائي، باعتناء بيل، تلمسان، مطبعة كابونيل، ١٩٢٢.

١١٤ - **سراج الملوك**، لأبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي، الاسكندرية، المطبعة الوطنية، ١٢٨٩ هـ.

١١٥ - **السلوك لمعرفة دول الملوك**، لأبي العباس المقريزي، ج ١ تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٤.

١١٦ - **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** للعماد الحنبلي، ٨ ج، نشر القدسي، القاهرة، ١٣٥٠-١٣٥١هـ.

١١٧ - **شرح مقامات الحريري**، لأحمد بن عبد المؤمن الشريشي، القاهرة، بولاق، الطبعة الثانية، ١٣٠٠ هـ.

١١٨ - **صبح الأعشى في كتابة الانشا**، لأبي العباس أحمد القلقشندي، ١٤ ج، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩١٣-١٩١٩.

١١٩ - **صلة السمط**، لمحمد بن علي الشباط المصري، إستخرج قسمه الأندلسي أحمد مختار العبادي، **صفحية معهد الدراسات الإسلامية في مدريد**، ١٩٦٥-١٩٦٦، مجلد ١٣، ص ١٥-٤٠، ١٩٦٧-١٩٦٨، مجلد ١٤، ص ٩٩-١٦٣.

١٢٠ - **صلة الصلة: القسم الأخير**، لأبي جعفر ابن الزبير، تحقيق ليفي بروفنسال، الرباط، المطبعة الاقتصادية، ١٩٣٧.

١٢١ - **الصلة في تاريخ أئمة الأندلس** ، لأبي القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال، ٢ ج، باعتناء عزت العطار، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٥٠.

١٢٢ - **صورة الأرض**، لأبي القاسم محمد بن حوقل، بيروت، منشورات مكتبة الحياة، دون تاريخ.

١٢٣ - **طبقات الأمم**، لصاعد الأندلسي، نشر الأب لويس شيخو، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩١٢.

١٢٤ - **طوق الحمامة في الألفة والالاف**، لأبي محمد ابن حزم الأندلسي، تحقيق حسن كامل الصيرفي، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٦٤.

١٢٥ - **العبر وديوان المبتدأ والخبر...**، لأبي زيد ابن خلدون، ٧ ج، القاهرة، بولاق، ١٢٨٤ هـ؛ وطبعة بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٦-١٩٥٩.

١٢٦ - **عقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، لأبي الطيب محمد بن أحمد الفاسي، ٨ج، تحقيق فؤاد سيد ورفيقه، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٨-١٩٦٩.

١٢٧ - **عنوان الدراية فيمن عرف من علماء المائة السابعة في بجاية**، لأبي العباس أحمد الغبريني، الجزائر، المطبعة الثعالبية، ١٣٢٨هـ.

١٢٨ - **العواصم من القواسم**، لأبي بكر ابن العربي، حققه محب الدين الخطيب، القاهرة، لجنة الشباب المسلم، ١٣٧١ﻫ.

١٢٩ - **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** لأبي العباس ابن أبي أصيبعة، ٢ج، صححه امرؤ القيس بن الطحان، القاهرة، المطبعة الوهبية، ١٣٠٠هـ.

١٣٠ - **الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة**، لأبي الحسن ابن سعيد المغربي، تحقيق ابراهيم الابياري، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٤.

١٣١ - **فتوح مصر وأخبارها**، لأبي القاسم ابن عبد الحكم، تحقيق ش.ك توري، ليدن، بريل، ١٩٢٠.

١٣٢ - **فرحة الأنفس**، لابن غالب، قطعة نشرها لطفي عبد البديع بعنوان «المنتقى من فرحة الأنفس»، **مجلة المخطوطات العربية**، ١: ١، ١٩٥٥ص ٢٧٢—٣١٠.

١٣٣ - **فوات الوفيات**، لابن شاكر الكتبي، ٢ج، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥١.

١٣٤ - **قلائد العقيان في محاسن الأعيان**، للفتح بن خاقان، تقديم محمد العناني، تونس، المطبعة العتيقة، ١٩٦٦.

١٣٥ - **كتاب البلدان**، لليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، مجلداً مع **الأعلاق النفيسة** لابن رستة، تحرير دى خويه، ليدن، بريل، ١٨٩١.

١٣٦ - **كتاب ذكر بعض مشاهير أعيان فاس في القديم**، لمؤلف مجهول، حققه وقدم له عبد القادر زمامة، **مجلة البحث العلمي**، الرباط، ١٩٦٤، العدد الثالث ص ٦٤—٦٦، ١٩٦٥، العدد الرابع والخامس، ص ٧٨—١٠٤.

١٣٧ - **كتاب الجغرافية**، المنسوب لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر الزهري، تحقيق محمد الحاج صادق، دمشق، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، ١٩٥٨.

١٣٨ - **كتاب الجغرافية**، لأبي الحسن ابن سعيد المغربي، تحقيق اسماعيل العربي، بيروت، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٠.

١٣٩ - **كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين**، لمؤلف مجهول، نشر هويثي ميرندا، فصلة من صحيفة **معهد الدراسات الاسلامية في مدريد**، المجلدان التاسع والعاشر، ١٩٦١-١٩٦٢.

١٤٠ - **الكامل في التاريخ**، لأبي الحسن ابن الأثير، ١٢ج، بيروت، دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٧.

١٤١ - **كتاب الفلاحة**، لابن العوام الاشبيلي، باعتناء بانكوري، مدريد، ١٨٠٢.

١٤٢ - **كتاب الفلاحة**، لأبي عبدالله محمد بن ابراهيم بن بصال، تحقيق بييكروسا ومحمد عزيمان، تطوان، منشورات محمد مولاي الحسن، ١٩٥٥.

١٤٣ - **كتاب الأنساب**، لمؤلف مجهول، نشره ليفي بروفنسال، ضمن **كتاب أخبار المهدي** للبيذق، باريز، ١٩٢٨.

١٤٤ - **لسان العرب**، لأبي الفضل ابن منظور، ١٥ج، بيروت، دار صادر، ١٩٥٥.

١٤٥ - **محاسن المجالس**، لأبي العباس أحمد ابن العريف، تحقيق آسين بلاثيوس، باريس، كتنر، ١٩٣٣

١٤٦ - **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، لأبي الحسن المسعودي، ٩ج، تحقيق وترجمة. باربيه دومينار وبافيه دو كورتيي، باريس، المطبعة الأمبراطورية، ١٨٦١—١٨٧٦.

١٤٧ - **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا**، لأبي الحسن النباهي، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، دار الكاتب المصري، ١٩٤٨.

١٤٨ - **المسالك والممالك**، لأبي أسحاق الأصطخري، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، القاهرة، وزارة الثقافة والارشاد القومي، ١٩٦١.

١٤٩ - **المطرب من أشعار أهل المغرب** لأبي الخطاب ابن دحية، تحقيق ابراهيم الا بياري ورفيقيه، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٥٤.

١٥٠ - **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، لعبد الواحد المراكشي، ضبطه محمد سعيد العريان ومحمد العلمي، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ١٩٤٩.

١٥١ - **معجم الأدباء**، لشهاب الدين ياقوت الحموي، ٢٠ج، تحقيق أحمد فريد الرفاعي، القاهرة، دار المأمون، ١٩٣٦—١٩٣٨.

١٥٢ - **معجم البلدان**، لشهاب الدين ياقوت الرومي، ٦ج تحقيق ف. وستنفلد، ليبزيغ، بروكهاس، ١٨٦٦—١٨٧٣.

١٥٣ - **المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي**، لأبي عبدالله ابن الأبار القضامي، تحقيق كوديرا وزيدين، مجريط، روخس، ١٨٨٥.

١٥٤ - **المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقية والأندلس والمغرب**، لأبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، ١٢ج، فاس، مطبعة الشافعة، دون تاريخ.

١٥٥ - **المغرب في حلى المغرب**، لابن سعيد المغربي، ٢ج، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٣—١٩٥٥.

١٥٦ - **المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب** (وهو جزء من كتاب المسالك والممالك)، لأبي عبيد البكري، تحقيق البارون دي سلان، الجزئر، ١٨٥٧.

١٥٧ - **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، لجمال الدين ابن واصل، ٣ج، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، المطبعة الاميرية، ١٩٥٣—١٩٥٧.

١٥٨ - **المقتضب من تحفة القادم**، لابن الأبار القضاعي، تحقيق ابراهيم الابيارى، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٥٧.

١٥٩ - **المكتبة العربية الصقلية**، لمخائيل أماري، ليبسك، بروكهاوس، ١٨٥٧.

١٦٠ - **المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم الله ائمة وجعلهم

الوارثين**، لأبي مروان ابن صاحب الصلاة، السفر الثاني، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت، دار الأندلس، ١٩٦٤.

١٦١ - **المؤنس في أخبار أفريقية وتونس**، لأبي عبدالله ابن أبي دينار الرعيني، تونس، مطبعة الدولة التونسية، ١٢٨٦هـ.

١٦٢ - **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، للشريف أبي عبدالله الادريسي.

- **وصف أفريقية الشمالية والصحراوية**، نشره هـ. بيريس، الجزائر، معهد الدروس العليا الاسلامية، ١٩٥٧.

- **صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس**، حققه دوزي ودي خويه، ليدن، ١٨٦٦.

- **المقدمة وصفة البلاد التي هي الآن مملكة ايطاليا**: تحقيق م. اماري ورفيقه، روما، ١٨٧٨.

١٦٣ - **نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار**، لأبي العباس أحمد العذري، تحقيق عبد العزيز الأهواني، مدريد، مطبعة معهد الدراسات الأسلامية، ١٩٦٥.

١٦٤ - **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، لابن القطان الكتامي، تحقيق محمود علي مكي، تطوان، المطبعة المهدية، دون تاريخ.

١٦٥ - **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، لأبي العباس أحمد المقري التلمساني، ٨ج، تحقيق احسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨.

١٦٦ - **نكت الهميان في نكت العميان** للصلاح الصفدي، باعتناء أحمد زكي، القاهرة، المكتبة التجارية، ١٩١١.

١٦٧ - **نهاية الأرب (القسم التاريخي المتعلق بشمال أفريقية)**، لأبي العباس أحمد النويري، تحقيق جسبار ريميرو، غرانادا، ١٩١٩.

١٦٨ - **الوافي بالوفيات** للصلاح الصفدي، باعتناء هلموت ريتر وس. ديدرينغ ٥ج، سلسلة النشرات الاسلامية لجمعية المستشرقين الالمانية.

١٦٩ - **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، لأبي العباس أحمد ابن خلكان، ٨ج، تحقيق احسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٠—١٩٧٢.
* عن الحسن الوزان أنظر الدراسات الأجنبية رقم ٢٦٤.

III الدراسات العربية

أ ـ الكتب

١٧٠ - ابن ابراهيم المراكشي، العباس، **الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، ٥ج، فاس، المطبعة الجديدة، ١٩٣٦—١٩٣٩.

١٧١ - أشباح، يوسف، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، ٢ج، ترجمة محمد عبدالله عنان، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٠—١٩٤١.

١٧٢ - الأهواني، عبد العزيز، **أمثال العامة في الأندلس**، نشر في **كتاب الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين**، القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٩٦٢.

١٧٣ - ــــــــ، **الزجل في الأندلس**، القاهرة، منشورات معهد الدراسات العربية العليا، ١٩٥٧.

١٧٤ - بوجندار الرباطي، محمد بن مصطفى، **مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح**، الرباط، مطبعة الجريدة الرسمية ١٣٤٥/١٩٢٦.

١٧٥ - الجنحاني، الحبيب، **القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الاسلامية في المغرب العربي**، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٦٨.

١٧٦ - حركات، ابراهيم، **النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين**، الدار البيضاء، منشورات مكتبة الوحدة العربية، دون تاريخ.

١٧٧ - خالص، صلاح، **أشبيلية في القرن الخامس الهجري: دراسة أدبية تاريخية لنشوء دولة بني عباد في أشبيلية وتطور الحياة الأدبية فيها**، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٥.

١٧٨ - زيادة، نقولا، **الحسبة والمحتسب في الاسلام**، بيروت، المطبعة الكاثولكية، ١٩٦٣.

١٧٩ - ابن زيدان، عبد الرحمن، **اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، الرباط، الطبعة الأولى، ١٩٢٩.

١٨٠ - سالم، السيد عبد العزيز، **المغرب الكبير**، ج ٢، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦١.

١٨١ - سعد، سامي سلطان، **أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى والجمهورية الايطالية من ١١٠٠ـ١٤٠٠**، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية الآداب، ١٩٥٨.

١٨٢ - ابن سودة المري، عبد السلام بن عبد القادر، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، ٢ج، دار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٦٠—١٩٦٥.

١٨٣ - الشرقاوي، عبد الحميد محمود، **الملاحة البحرية الأندلسية في القرنين الثالث والرابع الهجريين**، رسالة ماجستير، الجامعة المصرية، كلية الآداب، ١٩٣٥.

١٨٤ - ابن شريفة، محمد، **أمثال أبي يحيى الزجالي القرطبي: تحقيق ودراسة**، ٢ج، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، كلية الآداب، ١٩٦٨.

١٨٥ - صادق، دولت أحمد، ومحمد السيد غلاب وجمال الدين الناصورى، **جغرافية العالم: دراسة اقليمية**، ٣ج، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٩.

١٨٦ - العبادي، أحمد مختار، **الصقالبة في أسبانيا: لمحة عن أصلهم ونشأتهم وعلاقتهم بحركة الشعوبية**، مدريد، المعهد المصري للدراسات الاسلامية، ١٩٥٣.

١٨٧ - عباس، احسان، **تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري**، بيروت، ١٩٦٧.

١٨٨ - ــــــــ، **عصر سيادة قرطبة** (وهو الجزء الأول من تاريخ الأدب الأندلسي)، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٠.

١٨٩ - ــــــــ، **عصر الطوائف والمرابطين** (وهو الجزء الثاني من تاريخ الأدب الأندلسي)، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٢.

١٩٠ - عبد الحميد، سعد زغلول، **تاريخ المغرب العربي... من الفتح العربي حتى قيام دولة الأغالبة والرستميين والأدراسة**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٥.

١٩١ - عبد الوهاب، حسن حسني، **ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية**، ٣ج، تونس، مكتبة المنار، ١٩٦٤—١٩٧٢.

١٩٢ - علام، عبدالله علي، **الدعوة الموحدية بالمغرب**، القاهرة، دار المعرفة، ١٩٦٤.

١٩٣ - ———، **الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧١.

١٩٤ - عنان، محمد عبدالله، **دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي**، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٢.

١٩٥ - ———، **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**، ٢ق، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤.

١٩٦ - الغناي، مراجع عقيلة، **قيام دولة الموحدين**، بنغازي، المكتبة الوطنية، ١٩٧٠.

١٩٧ - الكتاني، محمد بن جعفر، **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس ممن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**، ٣ج، فاس، ١٩١٦.

١٩٨ - الكتاني، محمد عبد الحي بن عبد الكبير، **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، ٢ج، فاس، المطبعة الجديدة، ١٣٤٧هـ.

١٩٩ - ليفي بروفنسال، **الاسلام في المغرب والأندلس**، ترجمة عبد العزيز سالم ومحمد حلمي، القاهرة، مطبعة النهضة، دون تاريخ.

٢٠٠ - محمود، حسن أحمد، **قيام دولة المرابطين**، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧.

٢٠١ - مرزوق، محمد عبد العزيز، **الفنون الزخرافية الاسلامية في المغرب والأندلس**، بيروت، دار الثقافة، دون التاريخ.

بعض الرموز المستعملة في المصادر

مخ	=	مخطوط
ارشاد الأريب	=	معجم الأدباء (المصادر المطبوعة)
أعز ما يطلب	=	تعاليق ابن تومرت (المصادر المطبوعة)
أمثال العوام (الاطروحة)	=	ابن شريفة (الدراسات)
أمثال الزجالي	=	أمثال العوام (المصادر المطبوعة)
بيان موحد	=	البيان المغرب تحقيق هو يثي ورفيقيه
ابن البناء	=	رسالة في الأنواء
تحفة القادم	=	المقتضب من تحفة القادم (المصادر المطبوعة)
التسفير	=	التيسير في صناعة التسفير (المصادر المطبوعة)
ابن الشباط	=	صلة السمط (المصادر المطبوعة)
شرح المقصورة	=	رفع الحجب المستورة (المصادر المطبوعة)
طبقات الأطباء	=	عيون الأنباء (المصادر المطبوعة)
ابن العوام	=	كتاب الفلاحة لابن العوام (المصادر المطبوعة)
ابن الكردبوس	=	الاكتفاء (المصادر المطبوعة)
مخطوط الرباط	=	انظر كتاب الجغرافية (المخطوطات)
مشاهير فاس	=	كتاب ذكر بعض مشاهير فاس (المصادر المطبوعة)
نزهة المشتاق (ط.ب)	=	طبعة بيريس
نزهة المشتاق (ط.د)	=	طبعة دوزي
نوازل البرزلي	=	جامع مسائل الأحكام (المخطوطات)
نوازل ابن رشد	=	مسائل سئل عنها ابن رشد (المخطوطات)
نوازل ابن عياض	=	مذاهب الحكام في نوازل الأحكام (المخطوطات)

فهرس المحتويات

١ ــ مقدمة: ٧
(١) تمهيد ٧
(٢) نظرة في مصادر البحث والدراسات عنه ٩

أ ــ المصادر ١٢

(١) الرسائل الرسمية والوثائق ١٥
(٢) كتب التاريخ ١٧
(٣) تراجم الرجال ٢٠
(٤) كتب الأدب ٢٤
(٥) الجغرافية والموسوعات والرحلات ٢٥
(٦) كتب الفقه ٢٧
(٧) كتب في الصناعات العملية ٢٩

ب ــ الدراسات ٣٠

٢ ــ الفصل الأول: العوامل الجغرافية ٣٣
أ - مدلول القرن السادس ٣٥
ب - مدلول المغرب ٣٦
جـ - الحدود السياسية لمغرب القرن السادس: ٣٩
(١) الحدود الشرقية ٤١
(٢) الحدود الجنوبية ٤١
(٣) الحدود الشمالية ٤٥

د - المغرب بيئات ثلاث: ٤٧
(١) البلاد الأندلسية ٤٧
(٢) البلاد الشرقية والغربية ٤٨
(أ) الاختلاف بينهما ٤٨
(ب) حدودهما ٤٨
هـ - طبيعة أرض المغرب (التضاريس) ٤٩
و - مناخ المغرب ٥٢
ز - توزيع المياه ٥٤
(١) الأمطار ٥٤
(٢) الأنهار ٥٥
(٣) العيون ٥٩
(٤) المياه مشكلة المغرب الاقتصادية ٦٠
(٥) وسائل الري ٦١
(٦) الأمطار أساس الزراعة ٦٣
(٧) مظاهر مشكلة المياه ٦٥
جـ - أثر الواقع الجغرافي ٦٦

٣ ــ الفصل الثاني: التركيب السكاني ٦٩
أ - البربر: ٧١
(١) بربر البلاد الشرقية ٧٢
(٢) بربر البلاد الغربية ٧٥
(٣) البربر في الأندلس ٨٤
ب - الأندلسيون: ٨٥
(١) مدلول اللفظ ٨٥
(٢) الجلاء ظاهرة القرن عندهم ٨٧
حـ - العرب ٩٣

(أ) الدور الحربي ٩٣
(ب) دور التوسع السلمي ٩٦
د - أهل الذمة ١٠٠
(١) المصطلحات ومدلولها ١٠٠
(٢) مناطقهم وانتشارهم ١٠٣
(٣) مهن أهل الذمة ١٠٨
(٤) محنتهم ١١١
هـ - العبيد ١١٥
(١) عناصرهم ١١٥
(أ) السبي المسلم ١١٦
(ب) السودان ١١٧
(جـ) الروم ١١٨
(٢) مهنهم ١١٩
(٣) وضعهم ١٢٠
و - الأغزاز ١٢٢
(١) مفهوم اللفظ ١٢٢
(٢) دخولهم المغرب ١٢٣

٤ ـ الفصل الثالث: الزراعة ١٢٧

أ - نظام الأراضي ١٢٩
(١) أراضي الدولة (الملكية العامة) ١٣٠
(٢) الإقطاع ١٤١
(٣) الملكية الخاصة ١٤٨
(٤) الأحباس (الأوقاف) ١٥٤
ب - سياسة الدولة الزراعية ١٥٧
(١) الأمن ١٥٧

(٢) الضرائب ١٦٢
(٣) الري ١٨٠
(٤) استصلاح الأراضي وزراعتها ١٨٣
(٥) مساعدة الزراع وقت الآفات ١٨٤
حـ - النظام الزراعي ١٨٥
(١) أوضاع الفلاحين ١٨٦
(٢) طريقة الزراعة ١٨٩
د - الحاصلات ومناطقها ١٩٢
هـ - الرعي والدواجن والصيد ١٩٧
(١) الرعي ١٩٨
(٢) تربية الدواجن ٢٠٢
(١) تربية النحل ٢٠٢
(٣) الصيد ٢٠٤

٥ ـ الفصل الرابع: الصناعة ٢٠٥

أ - نظرة المجتمع الى العمل ٢٠٧
ب - موقف دول القرن السادس من العمل ٢٠٩
حـ - أوضاع العمال: ٢١٣
(١) أرباب العمل ٢١٣
(٢) الصناع وخبراتهم ومستواهم المعيشي ٢١٥
د - الصناعات الزراعية وما يتصل بها ٢١٧
(١) النسيج ٢١٧
(٢) صناعة الورق والوراقة ٢٢٣
(٣) الصناعات الجلدية ٢٢٩
(٤) الصباغة ٢٣١
(٥) الصناعات الخشبية ٢٣٢

(٦) صناعة آلات الموسيقى ٢٣٥
(٧) المطاحن ٢٣٧
(٨) صناعة الزيوت والصابون ٢٣٨
(٩) صناعة السكر ٢٤٠
(١٠) صناعة الخمور ٢٤١
(١١) ماء الورد ٢٤٢
(١٢) صناعة الطبيخ ٢٤٣
(١٣) العقاقير والعطور ٢٤٣
هـ – المعادن والمواد غير المعدنية ٢٤٤
(١) طريقة الإستخراج ٢٤٤
(٢) مناطق المعادن والمواد غير المعدنية ٢٤٥
(٣) الصناعات المعدنية ٢٤٩
(٤) الصناعات الفخارية وما يقاربها ٢٥٣
(٥) الصناعات الزجاجية ٢٥٤
و – الهندسة المعمارية ٢٥٤

٦ ــ الفصل الخامس: التجارة ٢٦١

أ – موقف دول القرن السادس من التجارة ٢٦٣
(١) صنهاجة الشرق ٢٦٣
(٢) المرابطون ٢٦٥
(٣) الموحدون ٢٧٠
ب – العاملون في التجارة ٢٧٨
(١) أصناف التجار المغاربة ٢٧٨
(٢) الوسطاء ٢٨٣
(٣) العاملون في النقل ٢٨٥
(٤) التجار الأجانب (أي من غير المغاربة) ٢٨٧

جـ – الأسواق ٢٩٣
(١) أنواعها ٢٩٣
(٢) تنظيمها ٢٩٣
(٣) إدارتها ٢٩٤
(٤) طرق التعامل في التجارة الداخلية ٢٩٥
(٥) طرق التعامل في التجارة الخارجية ٣٠٢
د – الطرق التجارية ٣٠٥
(١) الطرق البرية ٣٠٦
(٢) الطرق النهرية ٣١٦
(٣) الطرق البحرية ٣١٧
هـ – الصادرات والواردات ٣٢٣
(١) إنتقال السلع بين بيئات المغرب في القرن السادس ٣٢٣
(٢) الصادرات ٣٢٦
(٣) الواردات ٣٢٧

٧ ــ خاتمة ٣٣٣

٨ ــ الملاحق ٣٥٣

أ – الملحق الأول: بعض أسر الفقهاء التي لها ذكر في إمتلاك أراض واسعة ٣٥٥
ب – الملحق الثاني: المشرفون الماليون ٢٥٧
جـ – الملحق الثالث: التقويم الزراعي ٣٦٢
د – الملحق الرابع: الحاصلات ومناطقها ٣٦٩
هـ – الملحق الخامس: متعلقات الزراعة الرعي والدواجن وغيرها ٣٩١
و – الملحق السادس: أسعار بعض السلع في القرن السادس .. ٤٠٢

٩ ـ ثبت المصادر والدراسات: ٤٠٥
I- المخطوطات ٤٠٥
II- المصادر المطبوعة ٤١٠
III- الدراسات العربية ٤٢٠
(أ) الكتب ٤٢٠
(ب) المقالات ٤٢٤
IV - الدراسات الأجنبية ٤٢٦
(أ) الكتب ٤٢٦
(ب) المقالات ٤٢٨

١٠ ـ بعض الرموز المستعملة في المصادر ٤٣٠

١١ ـ ثبت جداول الاحصاء
أ - هجرات القيروانيين الى البلاد الأندلسية والغربية ٧٤
ب - بيوتات فاس ٨١
جـ - هجرات الأندلس منذ سقوط طليطلة الى نهاية فترة الإنتقال من المرابطين الى الموحدين ٨٦
د - هجرات المغاربة الى المشرق ٩١
هـ - الوراقون ٢٢٥
و - النساخون ٢٢٦
ز - المكتبات الخاصة ٢٢٦

١٢ ـ ثبت الخرائط ....
أ - المغرب الإسلامي في القرن السادس/الثاني عشر وبيئاته الثلاث ٤٠
ب - خريطة المغرب الطبيعية ٥٠

جـ - الطرق التجارية قبل الغزو الهلالي وقيام دولة المرابطين ٣٠٧
د - الطرق التجارية في النصف الأول من القرن السادس ٣٠٩
هـ - الطرق التجارية في العصر الموحدي ٣١٠